الكاتبة الأكثر مبيعًا

تُرجمت رواياتها إلى أكثر من ٤٤ لغة

روث وير

خلف هذه الأبواب

رواية



#959 مكتبة

«روث وير هي أجاثا كريستي جيلنا»

- ديفيد بالداتشي

قالوا عن هذه الرواية

«ممتعة إلى درجة لا تقاوَم، وستبقي القراء يحاولون التخمين حتى الصفحة الأخيرة» - «بوكبيدج»

«مخيفة، وممتعة، ومن الصعب جدًّا أن تضعها جانبًا» - ج. ب. ديليني، الكاتب الأكثر مبيعًا على قائمة «النيويورك تايمز» عن «الفتاة السابقة»

«تشويق خالص، من أول صفحة مثيرة، حتى تَحوُّل الأحداث الأخير الصادم» - إرين كيلي، مؤلفة الكتاب الأكثر مبيعًا «قال/ قالت»

«كاتبة تشويق رائعة... تفجر وير مفاجأة في الصفحة قبل الأخيرة، فتغير جذريًّا تفسيرنا لكل ما جاء من قبل» - «واشنطن بوست»

«ملحمة صادمة من القتل والخداع» - «إنترتينمت ويكلي»

«ذكية وأنيقة» - «إن بي آر»

«عرض ممتع من المفاجآت المذهلة» - «لوس أنجلس رفيو أوف بوكس»

«ذكية ذكاءً شيطانيًّا، ملتوية، ومخيفة. «خلف هذه الأبواب» هي أفضل رواية لروث وير حتى الآن. أبقِ بطانية بالقرب منك في أثناء القراءة، لأنك سوف تصاب بالقشعريرة» - رايلي سيجر، الكاتب الأكثر مبيعًا على قائمة «النيويورك تايمز» عن «آخر مرة كذبت فيها»

«ممتع بدرجة لا تقاوَم» - مجلة «سي بي إس واتش»

«مرعبة» - «مينيابوليس ستار تريبيون»

«أيها القراء، سترغبون في النوم والأنوار مضاءة (مع إطفاء «أليكسا»)، بعد قراءة هذه الحكاية المخيفة لروث وير» ـ «بوكيش»

«كانت جميع كتب روث وير مخيفة وبالغة الغموض، أي بعبارة أخرى، رائعة! لكني أعتقد أن هذا ربما يكون أفضلها حتى الآن» ـ «جت ليتراري»

«رائع، كما هو متوقع. درس من خبيرة في التوتر» ـ سارة بينبورو، الكاتبة الأكثر مبيعًا على قائمة «النيويورك تايمز» عن «وراء عينيها»

«أعد بأنكم لن تتوقعوا أبدًا نهاية «خلف هذه الأبواب»» ـ «ليت هَب»

«سوف تبقيكم «خلف هذه الأبواب» على حافة مقاعدكم من فرط الإثارة» ـ «جراند آيلاند إندبندنت»

«روث وير خبيرة كتابة الروايات المرعبة التي لا يستطيع القراء الاكتفاء منها. بداية من «المرأة في المقصورة ١٠»، وحتى «لعبة الأكاذيب» وعدد كبير من الأعمال الناجحة الأخرى، هي تعرف ما يتطلبه تأليف كتاب آسر حقًا» ـ «شي ريدز»

«مرعبة حقًّا! تحسِّن وير من قدرتها على صياغة الأجواء والحفاظ على التوتر مع كل رواية جديدة» ـ «كيركوس رفيوز»

«تبرع وير في خلق جو من التوتر... لكن ما هو أكثر من ذلك، فإن وير تمهد الطريق بمهارة حتى النهاية المُرضية للرواية... التي تترك لدى القراء تساؤلًا أخيرًا ملحًّا، سيبقى معهم لفترة طويلة بعد أن يقلبوا الصفحة الأخيرة» ـ «بابليشرز ويكلي»

«مهارة من الدرجة الأولى في خلق التوتر والحفاظ عليه، حتى الصفحة الأخيرة» ـ «كولومبوس ديسباتش»

«ملتوٍ ومثير للدهشة، ومسلٍّ بقدر ما هو مفجع. «خلف هذه الأبواب» كتاب لن ترغب في أن تضعه جانبًا» ـ «بوكريبورتر دوت كوم»

«رواية إثارة نفسية آسرة» ـ «بوك رايوت»

«ممتعة بدرجة لا تقاوَم» ـ «إير ميل»

«حققت وير نجاحًا ساحقًا آخر. سيبقى معجبوها، أو أي شخص له ذائقة تستمتع بما هو مثير للقلق، ساهرين حتى وقت متأخر لالتهام هذا الكتاب» ـ «لايبرري جورنال»، مراجعة مميزة

«كثير من المتعة» ـ «كريستيان ساينس مونيتور»

«وير في أفضل حالاتها المخيفة» ـ «نيوزويك»

«أحد أفضل كتب العام» ـ «ريدرز دايجست»

«يجعل التشويق ترك هذا الكتاب مستحيلًا. أراهن أن أي قارئ لن يتمكن من تخمين النهاية التي تنكشف في الصفحات الأخيرة... ألفت وير كتابًا من ذلك النوع الذي سوف يقدره هواة الروايات النفسية وروايات الغموض والتشويق» ـ «ميزوريان»

«التجسيد الفعلي لعبارة «لا يمكن وضعه جانبًا»» ـ «ريفاينري ٢٩»

«ممتعة إلى درجة لا تقاوَم منذ البداية... «خلف هذه الأبواب» ممتلئة بالمفاجآت الحبكة وبالاكتشافات المذهلة» ـ «بوك باب»



روث وير

خلف هذه الأبواب

رواية

ترجمتها عن الإنجليزية

إيناس التركي



الكرمة



facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٢

العنوان الأصلي: The Turn of the Key

First published as The Turn of the Key in English by Harvill Secker, an imprint of Vintage.

Vintage is part of the Penguin Random House group of companies.

وير، روث.

خلف هذه الأبواب: رواية / روث وير؛ ترجمتها من الإنجليزية إيناس التركي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٢.

٤٢٤ ص؛ ٢٢ سم.

تدمك: 9789776743793

١- القصص الإنجليزية.

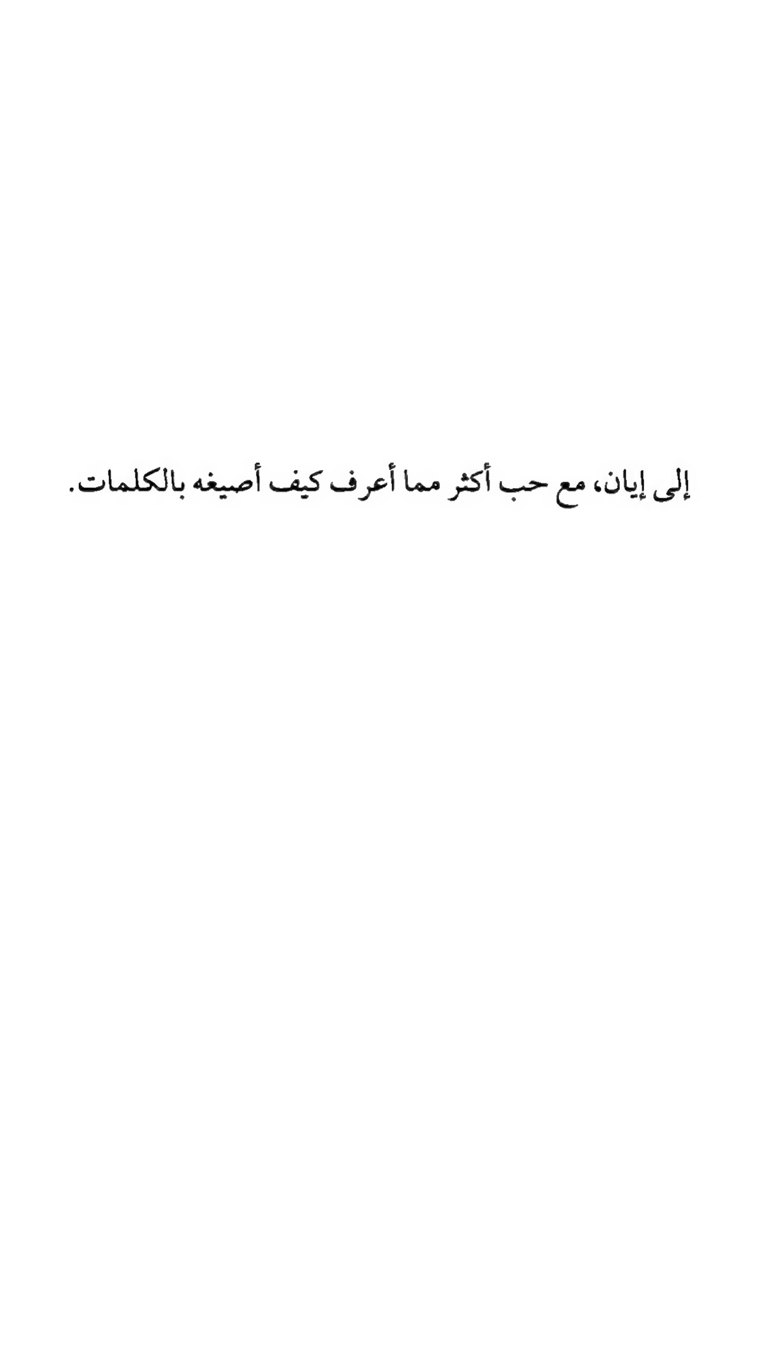
أ- التركي، إيناس (مترجمة).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٨٢٨٦ / ٢٠٢١

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد



إلى إيان، مع حب أكثر مما أعرف كيف أصيغه بالكلمات.

٣ سبتمبر ٢٠١٧

عزيزي السيد ريكسام،

أعلم أنك لا تعرفني. لكن أرجوك، أرجوك، أرجوك، عليك أن تساعدني

٣ سبتمبر ٢٠١٧
سجن «تشارنورث»

عزيزي السيد ريكسام،

أنت لا تعرفني، لكن ربما تكون شاهدت تغطية قضيتي في الصحف. سبب كتابتي لك هو أن أطلب منك رجاء

٤ سبتمبر ٢٠١٧
سجن «تشارنورث»

عزيزي السيد ريكسام،

أتمنى أن تكون هذه هي الطريقة الصحيحة لمخاطبتك. لم أكتب لمحامي دفاع من قبل.

أول شيء يجب أن أقوله هو أنني أعلم أن هذا أمر غير تقليدي. أعرف أنه كان من الواجب التواصل عن طريق محامي الإجراءات الخاص بي. لكنه

٥ سبتمبر ٢٠١٧

عزيزي السيد ريكسام،

هل أنت أب؟ عم؟ لو كنت كذلك، دعني أناشد

عزيزي السيد ريكسام،

أرجوك، ساعدني. أنا لم أقتل أحدًا.

٧ سبتمبر ٢٠١٧
سجن «تشارنورث»

عزيزي السيد ريكسام،

لا يمكنك أن تتصور عدد المرات التي بدأت فيها كتابة هذه الرسالة، ثم مزقت ما نتج من فوضى. لكنني أدركت أنه لا توجد وصفة سحرية هنا. لا توجد طريقة يمكنني أن **أجعلك** تستمع من خلالها إلى قضيتي. لذا عليَّ بذل قصارى جهدي لتوضيح الأمور. مهما استغرق ذلك من الوقت، ومهما أفسدتُ هذا الأمر، فسأستمر ببساطة، وأقول الحقيقة.

اسمي... وهنا أتوقف، راغبة في تمزيق الصفحة مرة أخرى.

لأنني إذا أخبرتك باسمي، فستعرف لماذا أكتب لك. انتشرت قضيتي في جميع الصحف، واسمي في كل عنوان رئيسي، ووجهي المعذب يطل من كل صفحة من الصفحات الأولى، وكل مقال يُلمح بكوني مذنبة بطريقة تكاد تشارف ازدراء المحكمة. لديَّ شعور مروع بأنك قد تعتبرني قضية خاسرة، وتلقي برسالتي بعيدًا، إذا أخبرتك باسمي. لن ألومك كُلِّيَّةً، لكن أرجوك، قبل أن تفعل ذلك، اسمعني حتى النهاية.

أنا امرأة شابة، في السابعة والعشرين من العمر. وكما رأيت من عنوان

المرسِل أعلاه، فأنا حاليًا في سجن «تشارنورث» الاسكتلندي للنساء. لم أتلقَّ رسالة قَطُّ من أي شخص في السجن، لذا لا أعرف كيف تبدو الرسائل عند عبورها من الباب، لكنني أتصور أن ظروف معيشتي الحالية كانت شديدة الجلاء، قبل حتى أن تفتح الظرف.

ما لا تعرفه على الأرجح، هو أنني في الحبس الاحتياطي.

وما لا يسعك أن تعرفه، هو أنني بريئة.

أعرف، أعرف. جميعهم يقولون ذلك. فكل شخص التقيته هنا بريء، تبعًا لروايتهم، على أي حال. لكن في حالتي، هذه حقيقة.

ربما تكون قد خمنت الآتي بعد ذلك. أنا أكتب لك لأطلب منك تمثيلي بوصفك محامي الدفاع الخاص بي في محاكمتي.

أدرك أن هذا أمر غير تقليدي؛ وأنه ليس الأسلوب المفترض أن يتصل من خلاله المتهم بمحامي الدفاع. (أطلقت عليك بالخطأ لقب محامٍ مرافع في مسودة سابقة لهذه الرسالة. لا أعرف شيئًا عن القانون، وأعرف ما هو أقل حتى عن النظام الاسكتلندي. التقطت كل ما أعرفه من النساء اللاتي أنا في السجن معهن، بما في ذلك اسمك).

لديَّ بالفعل محامي إجراءات، السيد جيتس، وحسب ما فهمت، فهو الشخص المختص بتعيين محامي دفاع للمحاكمة الفعلية. لكنه هو أيضًا الشخص الذي تسبب في وجودي هنا في المقام الأول. لم أختَره، الشرطة اختارته لي عندما بدأت أشعر بالخوف، وأدركت أخيرًا أن عليَّ إطباق فمي ورفض الإجابة عن الأسئلة حتى يعثروا لي على محامٍ.

ظننت أنه سيوضح كل الأمور، ويساعدني على الدفاع عن قضيتي. لكن عند وصوله... لا أعرف، لا يمكنني تفسير الأمر. لقد زاد كل شيء سوءًا. لم يدَعني أتكلم. قاطع كل ما حاولت قوله بـ: «موكلتي ليس لديها أي تعليق في هذا الوقت». مما جعلني أبدو حقًّا مذنبة بدرجة أكبر بكثير. أشعر أنني لو تمكنت فقط من الإيضاح بشكل صحيح، لم تكن الأمور لتصل إلى هذا

الحد قَطُّ. لكن بطريقة ما، ظلت الحقائق تُحرَّف في فمي، وجعلتِ الشرطة كل شيء يبدو شديد السوء، وشديد الإدانة.

ليس الأمر بالتحديد أن السيد جيتس لم يسمع تبريري لما حدث. فقد سمعه بالطبع... لكن بطريقة ما... يا إلهي، من الصعب جدًّا شرح الأمر كتابة. لقد جلس وتحدث إليَّ، لكنه لا ينصت. أو لو كان يفعل، فهو لا يصدقني. في كل مرة أحاول إخباره بما حدث، بدءًا من البداية، يقاطعني بهذه الأسئلة التي تربكني، وتتعقد حكايتي، وأريد الصراخ في وجهه أن يخرس فقط.

ويظل يحادثني عما قلته في المحضر بتلك الليلة الأولى الفظيعة في مركز الشرطة عندما استجوبوني مرارًا، وقلت... يا إلهي، لا أعرف ما الذي قلته. أنا آسفة، فأنا أبكي الآن. أنا آسفة... أنا آسفة جدًّا للبقع على الورقة. آمل أن تستطيع قراءة كتابتي وسط اللطخات.

ما قلته، ما قلته حينها، لا يمكن التراجع عنه. أعرف ذلك. لديهم كل هذا مسجل على شريط. وهو سيئ... سيئ حقًّا. لكنه صدر بشكل خاطئ. أشعر أنه لو سنحت لي الفرصة فقط لتوصيل قضيتي إلى شخص سيستمع حقًّا... هل تفهم ما أقوله؟

يا إلهي، ربما لا تفعل. فأنت لم تختبر هذا الموقف قَطُّ على أي حال. لم يسبق أن جلست إلى مكتب وأنت تشعر بالإرهاق البالغ لدرجة أنك تريد الارتماء، وخائف بشدة إلى حد أنك ترغب في التقيؤ، والشرطة تلقي الأسئلة تلو الأسئلة، حتى لا تعود على دراية بما تقوله.

أعتقد أن هذه هي خلاصة الأمر في نهاية المطاف.

أنا المربية في قضية إلينكورت، يا سيد ريكسام.

وأنا لم أقتل تلك الطفلة.

شرعت في الكتابة إليك الليلة الماضية، يا سيد ريكسام، وعندما استيقظت هذا الصباح، ونظرت إلى الصفحات المغضنة المغطاة بخطي الرديء المتوسل، كان أول ما راودني هو تمزيقها والبدء من جديد، تمامًا كما فعلت عشرات المرات من قبل. كنت قد نويت أن أكون رصينة للغاية وهادئة جدًّا ورابطة الجأش... نويت أن أعرض كل شيء بوضوح شديد، وأن أجعلك ترى. وبدلًا من ذلك، انتهى بي الأمر بالبكاء فوق الصفحة في فوضى من الاتهامات المضادة.

لكن بعد ذلك، أعدت قراءة ما كتبته، وفكرت، لا. لا يمكنني البدء من جديد. عليَّ الاستمرار فحسب.

كنت أقول لنفسي طوال هذا الوقت إنه لو سمح لي أحدهم فقط بتصفية ذهني وتبرير ما حدث بوضوح، من دون مقاطعة، فربما تنجلي كل هذه الفوضى المريعة.

وهأنذا. هذه فرصتي، أليس كذلك؟

يمكنهم احتجازك لمدة مائة وأربعين يومًا في اسكتلندا، قبل المحاكمة. مع أنه توجد امرأة هنا ظلت تنتظر لما يقارب عشرة شهور. عشرة شهور! هل تعرف كم يبلغ طوال هذه المدة، يا سيد ريكسام؟ ربما تعتقد أنك تعلم، لكن دعني أخبرك. في حالتها فإن هذه مائتان وسبعة وتسعون يومًا. لقد فاتها عيد الكريسماس مع أطفالها. فاتتها كل أعياد ميلادهم. فاتها عيد الأم، وعيد الفصح، والأيام الأولى في المدرسة.

مائتان وسبعة وتسعون يومًا. ولا يزالون يؤجلون موعد محاكمتها.

يقول السيد جيتس إنه يعتقد أن قضيتي لن تستغرق كل هذا الوقت بسبب التغطية الإعلامية فقط، لكنني لا أفهم من أين تأتيه الثقة.

على أي حال، مائة يوم، مائة وأربعون يومًا، مائتان وسبعة وتسعون يومًا... هذا وقت وفير للكتابة، يا سيد ريكسام. وقت وفير للتفكير، والتذكر، ومحاولة معرفة ما حدث بالفعل. لأن هناك الكثير جدًّا مما لا أفهمه. لكنَّ هناك شيئًا واحدًا أعرفه. أنا لم أقتل تلك الفتاة الصغيرة. لم أفعل. مهما حاولت الشرطة لَوْي الحقائق والإيقاع بي، فلا يمكنها تغيير ذلك.

أنا لم أقتلها. مما يعني أن شخصًا آخر فعل ذلك. وهو طليق هناك بالخارج.

بينما أنا هنا، أتعفن.

سأنتهي الآن، لأنني أعرف أنه ليس بوسعي الإطالة كثيرًا في هذه الرسالة، أنت رجل مشغول، وستتوقف عن القراءة فحسب.

لكن أرجوك، عليك أن تصدقني. أنت الشخص الوحيد الذي بوسعه المساعدة.

من فضلك، تعالَ لزيارتي يا سيد ريكسام. دعني أشرح لك الوضع، وكيف تورطتُ في هذا الكابوس. لو أن هناك أي شخص يمكنه أن يجعل هيئة المحلفين تتفهم، فهو أنت.

لقد سجلتُ اسمك للحصول على تصريح زيارة، أو يمكنك الكتابة إليَّ هنا إذا كانت لديك أسئلة أخرى. فأنا لستُ ذاهبة إلى مكان آخر. ها!

آسفة، لم أقصد الإنهاء بمزحة. فالأمر ليس مضحكًا، أعرف ذلك. إذا تمت إدانتي، فسأواجه...

لكن كلا. لا يمكنني التفكير في ذلك. ليس الآن. لن أُدان. لن أُدان لأنني بريئة. عليَّ فقط أن أجعل الجميع يفهمون ذلك. بدءًا بك أنت.

أرجوك يا سيد ريكسام، من فضلك قل إنك ستقدم المساعدة. أرجوك،

اكتب ردًّا. لا أريد أن أكون مفرطة العواطف بهذا الشأن، لكنني أشعر أنك أمَلي الوحيد.

السيد جيتس لا يصدقني. أرى ذلك في عينيه.

لكن أعتقد أنك قد تفعل.

١٢ سبتمبر ٢٠١٧
سجن «تشارنورث»

عزيزي السيد ريكسام،

مضت ثلاثة أيام منذ كتبت إليك، ولن أكذب، لقد كنت أنتظر ردك وفي حلقي غصة. يأتي البريد كل يوم، وأشعر بنبضي يتسارع بنوع من الأمل المؤلم، ولقد خذلتني كل يوم (حتى الآن).

أنا آسفة. يبدو ذلك وكأنه ابتزاز عاطفي. لا أعنيه على هذا النحو. أنا أتفهم. أنت رجل مشغول، ولم تمضِ سوى ثلاثة أيام منذ أرسلت رسالتي، لكن... أعتقد أنني تمنيت نوعًا ما أنه لو لم تفلح التغطية الإعلامية المحيطة بالقضية في شيء آخر، فستكون قد منحتني نوعًا من الشهرة المشينة، جعلتك تلتقط رسالتي من بين كل الرسائل الأخرى التي من المفترض أنك تتلقاها من العملاء، والذين قد يصيرون عملاء، والمختلين.

ألا تريد أن تعرف ما حدث، يا سيد ريكسام؟ كنت سأرغب أنا في ذلك لو كنت مكانك.

على أي حال، لقد مرت ثلاثة أيام الآن (هل ذكرت ذلك بالفعل؟) و... حسنًا، لقد بدأ القلق يساورني. لا يوجد الكثير مما يمكن فعله هنا،

وهناك متسع من الوقت للتفكير والقلق، والبدء في تضخيم الكوارث داخل عقلك.

لقد قضيت الأيام والليالي الماضية وأنا أفعل ذلك. أشعر بالقلق من ألا تكون وصلت إليك الرسالة. أشعر بالقلق من ألا تكون إدارة السجن قد أرسلتها (هل يمكنهم فعل ذلك من دون إخباري؟ حقيقة، لا أدري). أشعر بالقلق من ألا أكون قد أوضحت الأمر بشكل صحيح.

هذه النقطة الأخيرة هي التي أبقتني عاجزة عن النوم. لأنه لو كان هذا هو السبب، فإذن هو خطئي.

كنت أحاول أن أجعلها مختصرة وسريعة. لكنني أفكر الآن أنه ما كان يجب أن أتوقف بهذه السرعة. كان عليَّ إضافة مزيد من الحقائق، وأن أحاول أن أوضح لك لمَ أنا بريئة. لأنه لا يمكنك الأخذ بكلامي فقط، أتفهَّم ذلك.

عندما أتيت هنا، كانت النساء الأخريات... بوسعي أن أكون صادقة معك، يا سيد ريكسام... شعرت وكأنهن من فصيلة أخرى. ليس الأمر أنني أعتقد أنني أفضل منهن. لكنهن جميعًا بَدون... بَدون جميعًا وكأنهن ينتمين إلى هنا. حتى الخائفات، واللاتي يؤذين أنفسهن، واللاتي يصرخن ويخبطن رؤوسهن بجدران زنازينهن ويبكين ليلًا، وحتى الفتيات اللاتي تخرَّجن للتو في المدرسة. جميعهن بَدون... لا أدري. بَدون وكأنهن ينتمين إلى هنا، بوجوههن الشاحبة الهزيلة، وشعرهن الملموم إلى الوراء، ووشومهن غير الواضحة. بَدون... حسنًا، بَدون مذنبات.

لكنني كنت مختلفة.

بداية، أنا إنجليزية، وهذا لم يساعد بالطبع. لم أتمكن من فهمهن عندما غضبن، وشرعن في الصراخ والتصرف على نحو عدواني. لم تكن لديَّ أي فكرة عن معنى نصف مفردات اللغة العامية. وكان انتمائي إلى الطبقة الوسطى واضحًا، بطريقة لا يمكنني تحديدها، لكن كان الأمر وكأن ذلك مكتوب على جبيني بالنسبة إلى النساء الأخريات.

لكن الشيء الرئيسي هو أنني لم أدخل السجن قَطُّ. بل أعتقد أنني حتى لم أقابل شخصًا دخله قَطُّ، قبل أن آتي إلى هنا. كانت هناك شفرات سرية لا أستطيع حلها، وتيارات لا توجد لديَّ وسيلة للإبحار عبرها. لم أفهم ما يحدث عندما كانت امرأة تمرر شيئًا ما لأخرى في الممر، وفجأة يأتي الحراس مندفعين وهم يصيحون. لم أتوقع المعارك القادمة، ولم أعرف مَن توقفتْ عن تناول دوائها، أو من يزول عنها أثر الانتشاء من المخدرات وقد تبادر بالهجوم. لم أعرف من يجب تجنبهن، أو من يعانين المتلازمة السابقة للحيض على الدوام. لم أعرف ماذا أرتدي أو ماذا أفعل، أو ما يمكن أن يجعلك تتعرض للبصق، أو لتلقِّي اللكمات من باقي النزيلات، أو ما يمكن أن يتسبب في استفزاز الحراس لمعاقبتك بقسوة.

كانت طريقة حديثي مختلفة. كان شكلي مختلفًا. شعرت أنني مختلفة.

ثم دخلت الحمام ذات يوم، ولمحت امرأة تسير قادمة نحوي من الركن البعيد. كان شعرها مشدودًا للخلف مثل كل الأخريات، وكانت عيناها مثل رقاقات من الجرانيت، وكان وجهها جامدًا وقاسيًا وشاحبًا. كان أول ما طرأ لي هو: يا إلهي، إنها تبدو غاضبة، تُرى ما سبب حبسها؟

كان ثاني ما طرأ لي هو: ربما كان من الأفضل أن أستخدم الحمام الآخر.

وعندها أدركت الأمر.

كانت مرآة على الجدار البعيد. تلك المرأة كانت أنا!

كان ينبغي أن تكون صدمة، عند إدراك أنني لست مختلفة على الإطلاق، بل مجرد امرأة أخرى ابتلعها هذا النظام الذي بلا روح. لكن ذلك ساعدني بطريقة غريبة.

ما زلت لا أنتمي إلى هذا المكان بشكل تام. ما زلت الفتاة الإنجليزية، وكلهن يعرفن سبب حبسي. في السجن، لا يحبون الناس الذين يؤذون الأطفال، أنت تعرف هذا على الأرجح. أخبرتهن أن ما أنا متهمة به غير صحيح بالطبع. لكنهن ينظرن إليَّ، وأعرف ما يفكرن فيه: «الجميع يقولون ذلك».

وأنا أعلم... أعلم أن هذا ما ستفكر فيه أنت أيضًا. هذا ما أردتُ قوله. سأتفهم إذا كنت متشككًا. فأنا لم أتمكن من إقناع الشرطة على أي حال. أنا هنا. من دون كفالة. لا بد أنني مذنبة.

لكن هذا ليس صحيحًا.

لديَّ مائة وأربعون يومًا لإقناعك. كل ما عليَّ فعله هو أن أقول الحقيقة، أليس كذلك؟ عليَّ فقط أن أبدأ من البداية، وأن أشرح كل شيء بوضوح وهدوء، حتى أصل إلى النهاية.

وكانت البداية هي الإعلان.

مطلوب: أسرة كبيرة تبحث عن مربية مقيمة ذات خبرة.

عنا نحن: نحن أسرة منشغلة، لدينا أربعة أطفال، نعيش في منزل جميل (لكن بعيد!) في منطقة مرتفعات اسكتلندا. يتشارك الأم والأب في إدارة شركة الهندسة المعمارية المملوكة للأسرة.

عنك أنتِ: نحن نبحث عن مربية خبيرة، تألف العمل مع الأطفال من جميع الأعمار، منذ الطفولة حتى المراهقة. يجب أن تكوني عملية، وهادئة، ولا مانع لديك من رعاية الأطفال بمفردك. من الضروري تقديم مراجع وظيفية ممتازة، وصحيفة حالة جنائية، وشهادة إسعافات أولية، ورخصة قيادة من دون مخالفات.

عن الوظيفة: الأم والأب يعملان من المنزل بشكل أساسي، وخلال هذه الفترات ستكون لديك وظيفة بسيطة من الساعة الثامنة حتى الخامسة، مع مجالسة الأطفال ليلة واحدة أسبوعيًّا، وإجازة في عطلات نهاية الأسبوع. نحاول بقدر الإمكان تنظيم جدولنا، بحيث يكون أحد الوالدين موجودًا على الدوام. لكنْ هناك أوقات قد يضطر كلانا إلى التغيب فيها، (في بعض الأحيان القليلة لمدة قد تصل إلى أسبوعين)، وعندما يحدث هذا، ستكونين أنت بمنزلة ولي الأمر.

في المقابل، يمكننا تقديم راتب إجمالي تنافسي للغاية، يبلغ خمسة وخمسين

ألف جنيه إسترليني في العام (الإجمالي، بما في ذلك المكافأة)، مع إمكانية استخدام السيارة، وعطلة لثمانية أسابيع في السنة.

تُقدَّم الطلبات إلى ساندرا وبيل إلينكورت، منزل «هيذربراي»، كارن بريدج.

أكاد أتذكره كلمة بكلمة. المضحك هو أنني لم أكن حتى أبحث عن وظيفة عندما ظهر لي في نتائج بحث جوجل. كنت أبحث عن... حسنًا، لا يهم حقًّا ما كنت أبحث عنه. لكنه شيء مختلف تمامًا. ثم ظهر الإعلان هناك، مثل هدية أُلقيت في يدي بشكل غير متوقع على الإطلاق، لدرجة أنه كاد يفوتني.

قرأته مرة بعناية، ثم مرة أخرى، ودقات قلبي تتسارع في المرة الثانية، لأنه كان مثالياً. كاد يكون مثاليًّا بصورة زائدة على الحد.

عندما قرأته للمرة الثالثة، خشيت النظر إلى آخر موعد لتقديم الطلبات، وأنا مقتنعة أنه سيكون قد فاتني.

لكنه كان في ذلك المساء.

كان الأمر لا يُصدَّق. ليس الراتب وحسب، مع أن الرب وحده يعلم أنه كان مبلغًا مذهلًا جدًّا. وليست الوظيفة وحسب، بل الحظ المتعلق بالأمر. الصفقة برمتها، وقد سقطتْ في حجري ببساطة، عندما كنت في وضع مثالي للتقديم.

كما ترى، كانت رفيقتي في السكن غائبة، مسافرة. كنا قد التقينا في حضانة «ليتل نيبرز» في بيكهام، ونحن نعمل جنبًا إلى جنب في غرفة الرضع، نضحك على مديرتنا البشعة، وأولياء الأمور المتغطرسين الذين يصعب إرضاؤهم، بحفاضاتهم القماشية اللعينة، وأغراضهم المصنوعة في المنزل...

آسفة. ما كان يجب عليَّ إطلاق السباب. لقد شطبتها، لكن من المحتمل

أنك قد ترى الكلمة عبر الورقة، ويعلم الرب وحده، قد يكون لديك أطفال. حتى إنك ربما تلبسهم حفاضات «المؤخرات الصغيرة المترفة»، أو أيًّا ما كانت العلامة التجارية الرائجة ساعتها.

وأنا أتفهم ذلك بالفعل. إنهم أطفالك. لا توجد مشقة أكبر من أن نتجشمها من أجلهم. أتفهَّم هذا. كل ما في الأمر هو أنه عندما تكون أنت المسؤول عن تخزين حصيلة يوم بأكمله من قطع القماش الغارقة بالبول والملطخة بالبراز، وإعادتها إلى ولي الأمر في وقت التسليم، وعيناك دامعتان من أثر الأمونيا... ليس الأمر بالتحديد هو أنني أمانع، أتعلم؟ هذا جزء من الوظيفة. أنا أفهم ذلك. لكننا جميعًا لنا الحق في الشكوى، أليس كذلك؟ جميعنا بحاجة إلى التنفيس، وإلا سننفجر من الإحباط.

آسفة. أنا أستطرد في الحديث. ربما كان هذا هو السبب الذي يدفع السيد جيتس إلى محاولة إخراسي على الدوام. لأنني أحفر لنفسي حفرة بكلماتي، وبدلًا من معرفة متى عليَّ التوقف، أواصل الحفر. ربما كنت تستنتج الوقائع الآن. لا يبدو أنها تحب الأطفال كثيرًا. تعترف صراحة بإحباطها من ذلك الدور. ماذا سيحدث عند حبسها مع أربعة أطفال، في غياب بالغين يمكنها «التنفيس» معهم؟

هذا بالضبط هو ما فعلته الشرطة. كل تلك التعليقات الصغيرة الصادرة بإهمال، وكل تلك الحقائق غير المهذبة. تمكنتُ من رؤية الانتصار على وجوههم كلما ألقيتُ بواحدة منها، وشاهدتهم يلتقطونها كفتات الخبز، ويضيفونها إلى ثقل الحجج ضدي.

لكن هذا هو الأمر، يا سيد ريكسام. يمكنني أن أغزل لك شبكة من الترهات عن كوني شخصًا مثاليًّا، وحنونًا، وقديسًا. لكنها لن تزيد على كونها مجرد ترهات. وأنا لست هنا لأخدعك. أريدك أن تصدق ذلك، أريده أكثر من أي شيء في العالم.

أنا أخبرك الحقيقة. الحقيقة العارية القبيحة. وهي كل ذلك. إنها عارية

وكريهة، وأنا لا أتظاهر أنني تصرفت كملاك. لكنني لم أقتل أحدًا. اللعنة، أنا لم أفعل ذلك.

أنا آسفة. لم أتعمد السباب ثانية.

يا إلهي، أنا أفسد هذا الأمر بشدة. يجب أن أبقي ذهني صافيًا، وأرتب كل هذا في عقلي. الأمر كما يقول السيد جيتس، عليَّ الالتزام بالحقائق.

حسنًا، إذن. حقيقة. الإعلان. الإعلان حقيقة، أليس كذلك؟

الإعلان... براتبه المذهل، والباهر، والرائع.

كان ينبغي أن تكون تلك هي أول إشارة تحذيرية بالنسبة إليَّ، كما تعلم. الراتب. لأنه كان سخيًّا بإفراط. أعني أنه كان سيُعَد سخيًّا، حتى بالنسبة إلى لندن، حتى إلى مربية غير مقيمة. لكن بالنسبة إلى مربية في منزل شخص ما، مع توفير إقامة مجانية، وجميع الفواتير مدفوعة، حتى السيارة، كان الأمر لا يُصدَّق.

في الواقع كان لا يُصدَّق، لدرجة أنني تساءلت نوعًا ما عما إذا كان هناك خطأ مطبعي، أو شيء لم يصرحوا به. ربما يكون هناك طفل له احتياجات سلوكية خاصة؟ لكن ألم يكن من المفترض أن يذكروا ذلك في الإعلان؟

ربما كنت سأتوقف قبل ستة أشهر، وأتجهم بعض الشيء، ثم أرفض من دون التفكير في الأمر كثيرًا. لكنني لم أكن لأطالع تلك الصفحة على الإنترنت في الأساس منذ ستة أشهر. كانت لديَّ قبل ستة أشهر رفيقة سكن، ووظيفة أحببتها، بل واحتمال للترقية. كنت في وضع جيد للغاية قبل ستة أشهر. لكن الآن... حسنًا، صارت الأمور مختلفة بعض الشيء الآن.

كانت صديقتي، الفتاة التي ذكرتها في «ليتل نيبرز»، قد رحلت للسفر منذ شهرين. لم يبدُ الأمر وكأنه نهاية العالم بالنسبة إليَّ عندما أخبرتني. حتى أكون صادقة، كنت أجدها مزعجة بعض الشيء، بسبب عادتها

تحميل غسالة الأطباق من دون تشغيلها قَطُّ، واستماعها إلى أغاني ديسكو البوب الأوروبي التي لا تنتهي، والتي تصفر عبر جدار غرفتي عندما أحاول الخلود إلى النوم. أعني، كنت أعرف أنني سأفتقدها، لكنني لم أدرك لأي مدى.

كانت قد تركت أغراضها في غرفتها، واتفقنا أنها ستدفع نصف قيمة الإيجار، وسأبقي الغرفة شاغرة من أجلها. بدا وكأنه حل وسط جيد، حيث كانت لديَّ سلسلة من رفاق السكن البشعين قبل أن نعثر على بعضنا. ولم أكن متحمسة للعودة إلى النشر على فيسبوك المحلي، ومحاولة التخلص من غريبي الأطوار من خلال التواصل بالرسائل النصية والبريد الإلكتروني. وأحسست نوعًا ما بأنها مرساة، مثل ضمانة بأنها ستعود.

لكن بعد أن زال أثر أول دفقة من الحرية، وتلاشت إلى حد ما طرافة الانفراد بالمكان كله وحدي، ومشاهدة أي ما أرغبه على التلفزيون المشترك في غرفة المعيشة، وجدت أنني أصبحت وحيدة. اشتقت إلى الطريقة التي كانت تقول بها: «هل حان وقت النبيذ، يا عزيزتي؟»، عند عودتنا معًا من العمل. افتقدت الشكوى إليها من فال، مالكة «ليتل نيبرز»، وتبادل الحكايات عن أسوأ أولياء الأمور. عندما تقدمت بطلب للحصول على ترقية، ولم أنَلها، ذهبتُ إلى الحانة وحدي لأغرق أحزاني، وانتهى بي الأمر وأنا أشفق على ذاتي، وأفكر كم كان سيختلف الوضع لو كانت لا تزال هنا. كنا سنضحك على الأمر معًا، وكانت ستشير إلى فال بأصابعها إشارة قبيحة خلف ظهرها في العمل، وتطلق ضحكتها الفظة العالية وحينها تستدير فال وتكاد تمسك بها متلبسة بالفعل.

أنا لا أجيد الفشل يا سيد ريكسام، هذا هو كل ما في الأمر. الامتحانات، والمواعدة، والوظائف، أي نوع من الاختبارات في الواقع. دومًا ما تدفعني غريزتي إلى خفض سقف طموحاتي، وإلى أن أوفر على نفسي الشعور ببعض

الألم. أو في حالة المواعدة، ألا أحاول على الإطلاق، بدلًا من المجازفة بالتعرض للرفض. هذا هو سبب عدم ذهابي إلى الجامعة في نهاية المطاف. كانت لديَّ الدرجات، لكنني لم أستطع تحمل فكرة الرفض، وفكرة أن يقرأوا طلبي بضحكة ازدراء. «من تظن نفسها؟».

من الأفضل الحصول على درجات مثالية في اختبار سهل، بدلًا من الرسوب في اختبار صعب. كان هذا هو شعاري. لطالما عرفت ذلك عن نفسي. لكن ما لم أعرفه حتى رحلت رفيقتي في السكن، هو أنني أيضًا لا أجيد البقاء بمفردي. وأعتقد أن ذلك، أكثر من أي شيء آخر، هو ما دفعني للخروج من منطقة راحتي، وجعلني أتصفح ذلك الإعلان وأحبس أنفاسي، وأتخيل ما يوجد على الطرف المقابل منه.

أضفت الشرطة الكثير من الأهمية على الراتب عندما استجوبوني لأول مرة. لكن الحقيقة هي أن المال لم يكن سبب تقدمي للوظيفة. ولم يكن في الواقع حتى متعلقًا بشريكتي في السكن، مع أنني لا أستطيع أن أنكر أنها لو لم تكن قد رحلت، لما حدث أي شيء من هذا. كلا، السبب الحقيقي... حسنًا، ربما تعرف ماذا كان السبب الحقيقي. فقد انتشر في جميع الصحف على أي حال.

اتصلت بـ«ليتل نيبرز» لأبلغهم بمرضي، وقضيت اليوم بأكمله وأنا أعمل على سيرتي الذاتية، وأجمع كل ما كنت أعرف أنني سأحتاج إليه لإقناع آل إلينكورت أنني الشخص الذي يبحثون عنه. صحيفة الحالة الجنائية، موجودة. شهادة إسعافات أولية، موجودة. مراجع وظيفية لا تشوبها شائبة، كلها موجودة.

كانت المشكلة الوحيدة هي رخصة القيادة. لكنني نحيت الموضوع جانبًا في الوقت الراهن. يمكنني تخطي هذه العقبة في وقتها، إذا وصلت إلى ذلك الحد. في الوقت الحالي، لم أكن أفكر فيما هو أبعد من المقابلة.

أضفت ملحوظة إلى خطاب التقديم، أطلب فيها من آل إلينكورت عدم الاتصال بـ«ليتل نيبرز» كمرجع وظيفي. أخبرتهم أنني لا أريد أن يعرف أصحاب عملي الحالي أنني أبحث عن وظيفة أخرى، وكان هذا صحيحًا. ثم أرسلت البريد الإلكتروني إلى العنوان المذكور، وحبست أنفاسي وانتظرت.

لقد منحت نفسي أفضل فرصة ممكنة لمقابلتهم وجهًا لوجه. لم يكن لديَّ شيء آخر يمكنني فعله حينها.

كانت الأيام القليلة التالية شاقة، يا سيد ريكسام. ليست شاقة مثل الوقت الذي قضيته هنا، لكن شاقة بما فيه الكفاية. لأنني، يا إلهي، أردت تلك المقابلة بشدة كبيرة. بدأت أدرك للتو فقط إلى أي درجة. مع كل يوم يمر، كانت آمالي تتضاءل أكثر قليلًا، واضطررت إلى مقاومة الرغبة في الاتصال بهم ثانية، والتوسل طالبة إجابة. الشيء الوحيد الذي منعني هو معرفتي بأن الظهور بمظهر يائس إلى هذا الحد لن يدعم موقفي بالقطع، إذا كانوا لا يزالون يتخذون القرار.

لكنه وصل بعد ستة أيام، مُصدرًا رنينًا في صندوق البريد الإلكتروني الوارد الخاص بي.

إلى: supernanny1990@ymail.com

من: sandra.elincourt@elincourtandelincourt.com

الموضوع: وظيفة مربية

إلينكورت. كان اللقب وحده كافيًا لجعل معدتي تتمخض كما تفعل الغسالة بالملابس. كانت أصابعي ترتعش بدرجة تكاد تعوقني عن فتح الرسالة، وقلبي يدق في حلقي. بالتأكيد، بالتأكيد لا يتصلون عادة بمن لم ينجحوا من المتقدمين. بالقطع لا بد أن رسالة بريد إلكتروني تعني...؟

نقرت.

مرحبًا، روان!

شكرًا جزيلًا على تقدمكِ للوظيفة، ونعتذر عن التأخر إلى هذا الحد في الرد عليك. عليَّ الاعتراف أننا فوجئنا بعض الشيء من كمٍّ الطلبات. كانت سيرتك الذاتية مثيرة للإعجاب للغاية، ونود دعوتك إلى إجراء مقابلة. إن منزلنا بعيد إلى حد ما، لذا يسعدنا دفع أجرة القطار لك، وبوسعنا تقديم غرفة لك في منزلنا للمبيت، حيث لن يمكنك إتمام الرحلة من وإلى لندن في يوم واحد.

مع ذلك، هناك شيء واحد عليَّ إخبارك به مقدمًا، في حال ما إذا أثر ذلك في حماسك للوظيفة.

منذ أن اشترينا «هيذربراي»، صرنا على دراية بشتى الخرافات المحيطة بتاريخ المنزل. إنه مبنى قديم. ولم يحظَ بأكثر من القدر المعتاد من الوفيات والمآسي في الماضي، لكن لسبب ما نتج عن هذا بعض الحكايات المحلية عن الأشباح التي تسكن المكان... إلخ. وللأسف، فقد أزعجت هذه الحقيقة بعض مربياتنا مؤخرًا، لدرجة أن أربعًا منهن قدمن استقالتهن خلال الأربعة عشر شهرًا الماضية.

كما يمكنك أن تتخيلي، كان ذلك مخلًّا بالنظام للغاية بالنسبة إلى الأطفال، ناهيك عن كونه محرجًا للغاية لي ولزوجي من الناحية المهنية.

لهذا السبب، أردنا أن نكون صادقين تمامًا بشأن معضلتنا، ونحن نعرض راتبًا سخيًّا على أمل أن نجذب شخصًا يمكنه حقًّا الالتزام بالبقاء مع أسرتنا على المدى الطويل، لسنة على الأقل.

إذا أحسستِ أن هذا لا ينطبق عليك، أو إذا ساورك القلق من الأساس بخصوص تاريخ المنزل، أرجو إخبارنا بذلك الآن، حيث إننا حريصون جدًّا على الحد من أي اضطرابات أخرى بالنسبة إلى الأطفال. مع الأخذ بهذا في الاعتبار، سيتألف الأجر من راتب أساسي مدفوع شهريًّا، ثم مكافأة سخية في نهاية العام، في الذكرى السنوية لاستلام الوظيفة.

إذا كنت لا تزالين حريصة على حضور المقابلة، أرجو إبلاغي بإمكانية الحضور الأسبوع المقبل.

مع أطيب التمنيات، وأتطلع إلى لقائك.

ساندرا إلينكورت

أغلقت البريد الإلكتروني، وجلست للحظة، وأنا أحدق فقط إلى الشاشة. ثم نهضت صارخة في صمت، ووجهت اللكمات إلى الهواء ابتهاجًا.

لقد فعلتها. لقد فعلتها.

كان يجب أن أعرف أن الأمر أروع من أن يكون حقيقيًّا.



لقد فعلتها يا سيد ريكسام. لقد تجاوزت العقبة الأولى. لكنها لم تكن بالفعل سوى أول عقبة. كان عليَّ بعد ذلك اجتياز المقابلة، ومن دون هفوة.

بعد مرور أسبوع تقريبًا على استلامي لرسالة البريد الإلكتروني المُرسَلة من ساندرا إلينكورت، كنت على متن قطار متجه إلى اسكتلندا، وأحاول بقدر استطاعتي لعب دور رِوان، المربية المثالية. مشطت شعري المشعث عادة حتى صار يلمع، وتم ترويضه على شكل ذيل حصان مهندم وأنيق. كانت أظافري مصقولة، ومكياجي ملائمًا وغير صارخ. ارتديتُ أفضل زي لديَّ يعطي انطباعًا بأنني «ودودة لكن مسؤولة، وممتعة لكن أعمل بجد، ومحترفة لكن لست متغطرسة بدرجة تمنعني من أن أجثو على ركبتيَّ لتنظيف القيء»، تنورة أنيقة من قماش التويد، وقميصًا ضيقًا من القطن الأبيض، فوقه سترة من الكشمير. لم يكن يشبه تمامًا زي المربيات من خريجات «نورلاند»، إلا أنه كان بالتأكيد متأثرًا بذلك الاتجاه.

كانت معدتي تتقلص بفعل القلق. لم أفعل أي شيء مثل هذا من قبل. لا أعني العمل مربيةً، بالتأكيد. لقد فعلت ذلك لعشر سنوات تقريبًا، رغم أن معظمها كانت في دور الحضانة، عوضًا عن المنازل الخاصة.

لكن... هذا! أن أضع نفسي على المحك. أن أجازف بالتعرض للرفض هكذا.

كنت أرغب في هذا بشدة بالغة. بشدة كبيرة، لدرجة أنني كدت أشعر بالخوف مما سأجده.

تأخر القطار، مما زاد من انزعاجي كثيرًا، حيث استغرق ما يقرب من

ست ساعات للوصول إلى إدنبرة، بدلًا من الأربع ساعات ونصف المذكورة في الجدول الزمني. وعندما ترجلت من القطار في ويفرلي وأنا أثني ساقيَّ المتصلبتين، وجدتُ الساعة قد تعدت الخامسة، وفاتني القطار الذي سأكمل به رحلتي بأكثر من ساعة. لحسن الحظ كان هناك قطار آخر سيصل، وبينما أنا أنتظر، أرسلتُ رسالة نصية إلى السيدة إلينكورت لأعتذر بشدة، وأنبهها إلى أنني سأتأخر في الوصول إلى كارن بريدج.

أخيرًا، وصل القطار. كان أصغر كثيرًا من القطار الكبير الذي يعمل خارج المدن، وأقدم أيضًا. استقررت في مقعد بجوار النافذة، وبينما القطار يتجه شمالًا، شاهدت الريف وهو يتغير من خضرة الحقول المتماوجة إلى درجات الأزرق الدخاني والأرجواني للمستنقعات المُغطاة بالدخن، والجبال ترتفع خلفها، أكثر قتامة وبرودة مع كل محطة مررنا بها. كانت فائقة الجمال لدرجة أنستني ضيقي لكوني متأخرة. بطريقة ما، وضع مشهد التلال الضخمة وهي ترتفع حولنا بعناد كل شيء آخر في نصابه. أحسستُ بكتلة الخوف الصلبة المستقرة في أحشائي وهي تبدأ تلين. وشرع شيء في داخلي... لا أعرف، يا سيد ريكسام. كان الأمر وكأنني بدأت أشعر بالأمل. بدأت آمل أن هذا ربما يكون حقيقيًّا بالفعل.

راودني شعور مشوه نوعًا ما، وكأنني عائدة إلى المنزل. مررنا بمحطات لها أسماء نصف مألوفة، بيرث، وبيتلوكري، وآفيمور، والسماء تزيد قتامة طوال الوقت. أخيرًا، سمعت: «كارن بريدج، المحطة التالية كارن بريدج»، وتوقف القطار في محطة صغيرة مصممة على الطراز الفيكتوري، وترجلت. وقفت على رصيف المحطة، وأعصابي متوترة، أتساءل عما يجب أن أفعله.

كانت رسالة البريد الإلكتروني للسيدة إلينكورت قد ذكرت:

سيقابلكِ أحدهم.

ما الذي يعنيه ذلك؟ سيارة أجرة؟ شخصًا ما يحمل لافتة عليها اسمي؟

تبعتُ مجموعة المسافرين الصغيرة إلى المخرج، ووقفت بارتباك، بينما تفرق الركاب الآخرون إلى السيارات والأصدقاء والأقارب المنتظرين.

كانت حقيبتي ثقيلة، فوضعتها بجوار قدمي، وأنا أنظر يمنة ويسرة عبر رصيف المحطة المظلم. أخذت الظلال تتطاول في المساء، وبدأ التفاؤل العابر الذي أحسست به في القطار يزول. ماذا لو لم تتلقَّ السيدة إلينكورت رسالتي النصية؟ فهي لم تَرُد. ربما أتت سيارة أجرة محجوزة مسبقًا ورحلت منذ ساعات، واعتُبِرتُ كأنني لم أحضر.

فجأة عاد الشعور بالقلق، وبشدة.

كان الوقت في أوائل شهر يونيو، لكننا كنا في أقصى الشمال، وكان الهواء في المساء باردًا على نحو مفاجئ بعد دفء الصيف الضبابي في لندن. وجدت أنني كنت أرتجف وأنا أشد معطفي حولي، وريح باردة تهب هابطة من التلال. صار رصيف المحطة خاليًا، وكنت بمفردي تمامًا.

شعرت برغبة قوية في تدخين سيجارة، لكنني كنت أعرف من خلال الخبرة أن الحضور لمقابلة بينما رائحة السجائر الكريهة تفوح من المرء، ليست بداية رائعة. بدلًا من ذلك، نظرتُ إلى هاتفي. كان القطار قد وصل في موعده تمامًا، على الأقل في الوقت المعدل الذي ذكرته للسيدة إلينكورت في رسالتي النصية. سأنتظر خمس دقائق، ثم أتصل بها.

انقضت خمس دقائق، لكنني قلت لنفسي إنني سأنتظر لخمس دقائق أخرى فقط. لم أرغب في أن أبدأ بداية سيئة، وألح عليهم لو كانوا عالقين في المرور.

مرت خمس دقائق أخرى، وكنت أدفع يدي في حقيبتي بحثًا عن النسخة المطبوعة من رسالة السيدة إلينكورت الإلكترونية، عندما شاهدت رجلًا يسير عبر رصيف المحطة ويداه في جيبه.

للحظة، بدا أن شيئًا ما يتلعثم في صدري، لكنه اقترب بعدها رافعًا نظره، والتقت عيناه عينَي، وأدركت أنه لا يمكن أن يكون هو. كان أصغر كثيرًا. ربما كان في الثلاثين، أو خمسة وثلاثين على الأكثر. كان أيضًا ـ حتى في توتري لم أستطع إلا أن ألحظ ذلك ـ شديد الوسامة، على نحو غير مهندم وغير حليق، له شعر داكن متشابك، وقامة طويلة ونحيفة.

كان يرتدي بدلة الورشة، وعندما اقترب مني، أخرج يديه من جيبيه، ورأيت أنهما متسختان بشيء ما، الطين، أو زيت المحركات، على الرغم مما بدا وكأنه حاول تنظيفهما. ظننت للحظة أنه ربما يكون موظفًا بالسكة الحديد، لكنه تحدث عندما وصل إلى جواري.

ـ روان كين؟

أومأت.

ـ أنا جاك جرانت.

ابتسم ابتسامة عريضة، والتفتْ زاويتا فمه إلى الأعلى بشكل جذاب وكأنه يتذوق نكتة لا يفهمها سوى قلة من الناس. كانت لكنته اسكتلندية، لكنها أكثر نعومة وتميزًا من لكنة الفتاة الآتية من جلاسجو التي كنت قد عملت معها بعد المدرسة. نطق لقبه بإيقاع مسجوعٍ يتوافق مع كلمة «آنت» التي تعني «نملة» بالإنجليزية، وليس مع كلمة «آنط» الأطول تعني «عمة»، والأطول لفظًا عندما تُنطق باللكنة البريطانية.

ـ أنا أعمل في منزل «هيذربراي». طلبت مني ساندرا أن أجلبكِ. آسف لأنني تأخرت.

قلت بخجل فجأة، من دون سبب يمكنني تحديده:

ـ مرحبًا.

سعلت، محاولة التفكير في شيء لأقوله.

ـ إممم، لا بأس. لا مشكلة.

نظر بأسف إلى الأسفل، نحو يديه.

ـ أنا في هذه الحالة لذلك السبب. لم تخبرني أنكِ ستحتاجين إلى من يُقلُّك بالسيارة سوى من نصف ساعة مضت. كنت في منتصف العمل على إصلاح جزازة العشب، لكن انتابني القلق من أن يفوتني قطارك، لذا انطلقت فحسب، بالقاذورات وكل شيء. هل يمكنني حمل حقيبتك؟

التقطت حقيبتي.

ـ لا بأس، حقًّا. إنها ليست ثقيلة. شكرًا لقدومك.

هز كتفيه.

ـ لا داعي لشكري، هذا عملي.

ـ هل تعمل عند آل إلينكورت؟

ـ عند بيل وساندرا، أجل. أنا... حسنًا، لا أعرف تحديدًا ماذا سيكون المسمى الوظيفي لي. أعتقد أن بيل سجلني في كشف رواتب شركته سائقًا، لكن أعتقد أن «عامل يؤدي مختلف الأعمال المنزلية» تصف الأمر بشكل أفضل. أنا أؤدي أعمال البستنة، وإصلاح السيارات، وقيادتها من كارن بريدج وإليها. هل ستكونين المربية؟

قلت بتوتر:

ـ ليس بعد.

لكنه وجه لي ابتسامة جانبية عريضة، وابتسمت رغمًا عني. كان هناك شيء مُعدٍ في تعبيره.

ـ أعني، هذه هي الوظيفة التي أسعى خلفها، أجل. هل كانت لديهما عديد من المقابلات الأخرى؟

ـ اثنان أو ثلاث. أنتِ أفضل حالًا من الأولى. لم تكن تتحدث الإنجليزية بدرجة كبيرة. لا أعرف بمن استعانت لكتابة طلبها. لكن تبعًا لما قالته ساندرا، لم تكن هي.

ـ أوه.

جعلتني كلماته أشعر بتحسن، بطريقة ما. كنت أتخيل موكبًا من أشباه ماري بوبينز، بزيٍّ مُنشًى، وكفاءة شديدة. وقفت باستقامة أكثر، وأنا أفرد التجاعيد من تنورتي المصنوعة من قماش التويد.

ـ هذا جيد. أعني، ليس جيدًا لها، على ما أعتقد. بل جيد لي.

كنا خارج المحطة حينها، نسير عبر موقف السيارات الصغير شبه الخالي، باتجاه سيارة سوداء طويلة على الجانب المقابل من الطريق. نقر

جاك شيئًا معلقًا بسلسلة في جيبه، فاشتعلت الأنوار وانفتحت الأبواب، مرتفعة إلى الأعلى كجناحَي خفاش، مما جعل فكي يسقط بشكل لاإرادي. فكرت في الفولفو الرمادية الباهتة التي يمتلكها زوج أمي، مصدر فخره وسعادته، وأطلقت ضحكة قصيرة. ابتسم جاك ابتسامة عريضة مرة أخرى.

ـ إنها لافتة للأنظار بعض الشيء، أليس كذلك؟ إنها «تيسلا». تعمل بالكهرباء. لا أدري ما إذا كانت هي السيارة التي سأختارها، لكن بيل... حسنًا، سترين. إنه مهتم بالتكنولوجيا.

ـ هل هو كذلك حقًّا؟

كانت الكلمات بلا معنى كجواب، لكن بطريقة ما... مجرد معرفة هذا الشيء البسيط كان مثيرًا للاهتمام، تواصلًا مع هذا الرجل المجهول.

وقف جاك للخلف، بينما أنا أضع حقيبتي في مؤخرة السيارة.

سألني:

ـ هل ترغبين في الركوب في المقعد الخلفي أم الأمامي؟

شعرت بوجهي يصطبغ بالحمرة.

ـ أوه، الأمامي من فضلك!

كانت فكرة الجلوس بشكل ملكي في الخلف ومعاملته كسائق، كافية لجعلي أشعر بالحرج.

كل ما قاله هو:

ـ المناظر أفضل، على أي حال.

لكنه نقر شيئًا ما جعل البابين الشبيهين بجناحَي الخفاش في مؤخرة السيارة ينغلقان، ثم فُتح باب الراكب الأمامي.

ـ تفضلي أولًا، يا روان.

لم أتحرك للحظة، وكدت أنسى مع من كان يتحدث. ثم جفلت، وتمالكت نفسي وصعدت إلى السيارة.

كنتُ أعرف على مستوى ما، على ما أظن، أن آل إلينكورت أثرياء. أعني، كان لديهم سائق يؤدي أيضًا مختلف الأعمال المنزلية، وكانوا يعرضون خمسة وخمسين ألفًا مقابل وظيفة المربية، لذا لا بد أن يكون لديهم فائض من المال. لكنني لم أدرك مدى ثرائهم، حتى وصلنا إلى منزل «هيذربراي».

منحتني تلك المعرفة شعورًا غريبًا.

أردت أن أقول لجاك عندما توقفنا عند البوابة الحديدية العالية التي فُتحت للداخل ببطء، مستشعرة بوضوح جهاز إرسال من نوع ما في السيارة: «أنا لا أهتم بالمال». لكن ذلك لم يكن صحيحًا تمامًا.

وجدت نفسي أتساءل: كم يجني بيل وساندرا من المال؟

كانت «التيسلا» صامتة بشكل مخيف، بينما نحن نسير عبر الطريق الطويل الملتوي. كان صوت الحصى تحت العجلات أعلى كثيرًا من المحرك الكهربائي الصامت.

غمغمت تحت أنفاسي، بينما نحن ندور حول منعطف آخر، ولم يظهر المنزل أمام العيان بعد:

ـ يا إلهي!

أرسل جاك نحوي نظرة جانبية.

ـ مكان ضخم، أليس كذلك؟

ـ بعض الشيء.

لا بد أن الأرض أرخص هنا منها في الجنوب بالطبع، لكن لا يمكن أن تكون رخيصة إلى هذا الحد. ارتججنا عابرين جسرًا فوق مجرى مائي سريع الجريان، ومياهه داكنة بفعل الخث، ثم تحركنا بالسيارة خلال مجموعة من أشجار الصنوبر. ظننت أنني شاهدت وميضًا لشيء قرمزي خلال الأشجار، والتفت كي أنظر، لكن الظلام أخذ يحل، ولم أكن متأكدة تمامًا ما إذا كنت قد تخيلت الحركة.

أخيرًا، خرجنا من غطاء الأشجار إلى أرض مقطوعة الأشجار، ورأيت منزل «هيذربراي» لأول مرة.

كنت أتوقع شيئًا مبهرجًا. قصرًا كبيرًا ربما، أو مزرعة مترامية مبنية بالحطب. لكن لم يكن هذا هو ما استقبلني على الإطلاق. كان المنزل القائم أمامي سكنًا بسيطًا على الطراز الفيكتوري، له أربعة أضلاع مثل رسمة طفل لمنزل، بباب أسود لامع في المنتصف، ونوافذ على كلا الجانبين. لم يكن كبيرًا، لكنه مبنى متين من قوالب الجرانيت، وتتسلق أحد جوانبه كرمة خضراء من فرجينيا الزاحفة. لم أتمكن من تحديد السبب تمامًا، إلا أنه كان ينضح بالدفء والفخامة والراحة.

حل الغسق، وعندما أطفأ جاك محرك «التيسلا» وكذلك مصابيحها الأمامية، صار مصدر الإضاءة الوحيد في كل مكان هو النجوم، والمصابيح من داخل المنزل نفسه، وهي تلتمع بالخارج عبر الحصى. بدا كشيء من أحد الرسوم العاطفية، تلك الصور اللامعة الغارقة في الحنين على وجه الأحاجي المصورة المقطعة التي كانت جدتي تحبها.

أحجار رمادية ناعمة، مغطاة بالطحالب سفعها الطقس، ومصابيح ذهبية تلتمع عبر زجاج النوافذ النظيف المتماوج، ووردات ضخمة تناثرت بَتلاتها في الغسق، كاد يكون مثاليًا بدرجة زائدة على الحد، مثاليًا بشكل لا يطاق، على نحو غريب.

عندما ترجلت من السيارة، واستقر حولي هواء المساء البارد، برائحة

الصنوبر، وحاد وصافٍ كالمياه المعدنية، أحسست فجأة أنني مغمورة بالحنين إلى هذه الحياة وكل ما تمثله. التناقض مع نشأتي أنا، في منزل والديَّ الذي له طابع الخمسينيات، والمُؤلَّف من طابق واحد، في الضواحي البائسة بمنازلها الشبيهة بالصناديق، حيث كانت كل غرفة عدا غرفتي مرتبة تمامًا، لكنها جميعها تفتقر تمامًا إلى أي طابع مميز أو راحة، كان ذلك التناقض أكثر مرارة من أن يُحتمل. تقدمت إلى ملاذ الشرفة المُغطاة، وكان ذلك حتى أتخلص من الفكرة، أكثر من كونه بسبب استعدادي للقاء ساندرا.

بدا على الفور أن هناك شيئًا غير مألوف. لكن ماذا كان؟ كان الباب أمامي تقليديًّا بما فيه الكفاية، ألواح خشبية مطلية باللون الأسود الغني اللامع، لكن بدا وكأن هناك شيئًا خاطئًا أو مفقودًا. استغرق مني الأمر ثانية كي ألحظ ماهيته. لم يكن هناك ثقب للمفتاح.

كان إدراكي هذا مقلقًا بطريقة ما. تفصيلة صغيرة للغاية، لكن من دونها ظللت أتساءل: هل كان الباب مزيفًا؟ هل عليَّ الذهاب إلى الجانب الآخر من المنزل؟

كما لم تكن هناك مطرقة للباب أيضًا، ونظرت فوق كتفي، طالبة الإرشاد من جاك فيما يتعلق بكيفية الإعلان عن قدومي. إلا أنه كان لا يزال داخل السيارة، يتفحص شيئًا ما على الشاشة الكبيرة المضاءة التي تعمل باللمس، والتي كانت تعمل كلوحة للتحكم في السيارة.

استدرت للخلف ومددت يدي، وأنا مستعدة لنقر الخشب بمفاصل أصابعي. لكن بينما أنا أفعل ذلك، لفت انتباهي شيء ما مُثبَّت في الجدار على يسار الباب. ظهرت من العدم أيقونة شبحية مضيئة على هيئة جرس، تلتمع مما بدا وكأنه حجر صلب. ورأيت أن ما ظننته ببساطة جزءًا من الجدار كان في الواقع لوحة مُبيَّتة بذكاء. ذهبت لأضغط عليها، لكن لا بد أنها كانت حساسة للحركة، حيث إنني لم أمسها حتى عندما صدر رنين من داخل المنزل.

رمشت، وأنا أفكر فجأة في تعليق جاك في السيارة. «بيل... حسنًا، سترين. إنه مهتم بالتكنولوجيا». هل كان هذا ما يقصده؟

ـ روان! مرحبًا!

بدا الصوت الأنثوي وكأنه يأتي من العدم، وجفلت باحثة حولي عن كاميرا، أو ميكروفون، أو شبكة أتحدث عبرها. لم يكن هناك شيء. أو لم يكن هناك شيء بوسعي رؤيته.

قلت، وأنا أتحدث في الهواء بشكل عام، شاعرة أنني حمقاء تمامًا:

ـ إمممم... نـ... نعم. مرحبًا. هل... ساندرا هي من تتحدث؟

ـ أجل! أنا فقط أبدل ملابسي. سأكون بالأسفل خلال عشر ثوانٍ. آسفة لإبقائكِ واقفة في الجوار.

لم تكن هناك أي «تكتكة» تخبرني أن هناك سماعة قد وُضعت، أو أي مؤشر آخر على انتهاء المحادثة. لكن اللوحة تلاشت عائدة إلى الفراغ، ووقفت منتظرة، شاعرة على نحو غريب أنني مراقَبة ومتجاهَلة في الوقت نفسه.

أخيرًا، بعد ما بدا وكأنه وقت طويل، لكن ربما كان أقل من ثلاثين ثانية، علا ضجيج نباح مفاجئ، وفُتح الباب الأمامي. اندفع كلبان من كلاب اللابرادور السوداء، تبعتهما امرأة نحيفة شقراء كالعسل، ربما في الأربعين، تضحك وتتلقف طوقيهما بلا جدوى، بينما هما يركضان في حلقات حولها، نابحين بمرح.

ـ هيرو! كلود! عودا إلى هنا!

لكنَّ الكلبين لم يعيراها أي انتباه، وقفزا نحوي بينما أنا آخذ خطوتين للوراء. دفع أحدهما أنفه في منفرجي بشدة مؤلمة، ووجدت نفسي أضحك بعصبية، محاولة دفع أنفه بعيدًا، وأفكر في زوج الجوارب الوحيد الاحتياطي في حقيبتي، وأجز على أسناني، في حال ما إذا كان الكلب قد مزق ذلك الذي أرتديه. قفز نحوي مرة أخرى وسعلت، شاعرة بحكة تبدأ في مؤخرة جمجمتي. اللعنة. هل جلبت جهاز الاستنشاق الخاص بي؟

قالت المرأة مرة ثانية:

ـ هيرو! توقفي يا هيرو.

خرجتْ من مأوى الشرفة تجاهي، مادة يدها.

ـ لا بد أنك روان. اهدئي يا هيرو، حقًّا!

تمكنتْ من شبك المقود الذي تمسك به بطوق الكلب، وسحبته إلى جانبها ثانية.

ـ آسفة، آسفة. إنها اجتماعية للغاية. هل لديك مانع من الكلاب؟

قلت:

ـ لا، على الإطلاق.

على الرغم من أن ذلك كان صحيحًا بصورة جزئية فقط. لم أكن أمانع الكلاب بالتحديد، إلا أنها كانت تتسبب في إثارة نوبة الربو لديَّ، إن لم أتناول مضادات الحساسية. بالإضافة إلى ذلك، سواء في وجود الربو أو غيابه، لم أرغب في وجود أنوفها محشورة بين ساقيَّ في موقف مهني. شعرتُ بضيق في صدري، مع أنه لا يمكن أن يظهر هنا سوى أعراض نفسجسدية.

قلت بكل الحماس الذي تمكنت من استجماعه، وأنا أربت على رأسه:

ـ فتى طيب.

ـ فتاة طيبة، في الواقع. هيرو كلبة. كلود هو الذكر. إنهما أخ وأخت.

عدلت قائلة بفتور:

ـ فتاة طيبة.

لعقت هيرو يدي بحماسة، وكبتُّ رغبتي في مسح كفي في تنورتي. سمعت بابًا يُصفَق ورائي، تلاه صوت قدمَي جاك مُحدِثتين جلبة فوق الحصى، وشعرت ببعض الارتياح وأنا أشاهد الكلبين يُحولان انتباههما إليه، نابحين بسعادة، بينما هو يجلب حقيبتي من مؤخرة السيارة.

قال، وهو يضعها إلى جواري:

ـ ها هي حقيبتك، يا روان. سررت للقائك.

ثم التفتَ إلى السيدة إلينكورت.

ـ سأعود لإصلاح جزازة العشب، لو كان ذلك ممكنًا يا ساندرا. إلا إذا كنتِ بحاجة إلى أي شيء آخر؟

قالت السيدة إلينكورت بشرود:

ـ ماذا؟

ثم أومأتْ.

ـ أوه، جزازة العشب. أجل، أنجز ذلك، من فضلك. هل يمكنك جعلها تعمل ثانية؟

ـ آمل هذا. إذا لم أستطع، فسأتصل بأليكي براون في الصباح.

قالت ساندرا:

ـ شكرًا، يا جاك.

وهزت رأسها، بينما هو يسير مبتعدًا حول جانب المبنى، وخياله طويل ذو أكتاف مربعة مقابل سماء المساء.

ـ بصراحة، ذلك الرجل ثروة حقيقية. لا أعرف ما الذي سنفعله من دونه. مثَّل هو وجين سندًا حقيقيًّا. وهذا هو ما يجعل أمر المربية برمته غير قابل للتفسير.

أمر المربية برمته. ها هي إذن. أول إشارة إلى الحقيقة الغريبة التي ظلت تجول بخاطري طوال الطريق إلى هنا: قد ترك أربعُ نساء هذه الوظيفة بالفعل.

في فورة البهجة الأولى، لم أقلق كثيرًا في الواقع بخصوص ذلك الجزء من رسالة ساندرا. لم يبدُ مهمًّا للغاية في سياق الحصول على مقابلة. لكن عندما أعدت قراءة رسائل البريد الإلكتروني وتعليمات السفر في الطريق إلى كارن بريدج، تعثرت به مرة أخرى، وبرز التعليق هذه المرة، بغرابته وعبثيته الغامضة. قضيت بعض الوقت وأنا أفكر فيه خلال الساعات الطويلة المملة

في القطار، مقلبة كلماتها في ذهني، مشتتة بين الرغبة في الضحك، وشيء آخر أكثر حيرة وعدم ارتياح.

لم أكن أؤمن بالخوارق. يجب أن أقول ذلك مقدمًا، يا سيد ريكسام. لذا لم تكن أساطير المنزل تزعجني على الإطلاق. في الواقع، بدت الفكرة برمتها، أن المربيات والخدم يهربون بسبب الأحداث الغامضة المخيفة، سخيفة بدرجة كبيرة، وكادت تشارف شيئًا من العصر الفيكتوري.

لكن الحقيقة هي أن هناك أربع نساء قد تركن العمل لدى آل إلينكورت خلال العام الماضي. من المحتمل تمامًا أن تتمتع بسوء الحظ الكافي لتعيين موظفة واحدة متوترة وتؤمن بالخرافات. لكن الحصول على أربع على التوالي بدا... أقل احتمالًا.

مما كان يعني أن هناك احتمالًا كبيرًا بوجود شيء آخر يدور، ومرت كل أنواع الاحتمالات في ذهني خلال الرحلة الطويلة إلى اسكتلندا. توقعت إلى حد ما أن أجد «هيذربراي» منزلًا خربًا تصفر به تيارات الهواء، أو أن السيدة إلينكورت ربة عمل صعبة المراس للغاية. لم يبدُ أن هذا هو الحال، حتى الآن، على الأقل. لكنني كنت أتحفظ في إصدار الحكم.



على عكس المفترض، صار الكلبان داخل «هيذربراي» أكثر صخبًا وحماسة لوجود غريب في المنزل. وأخيرًا، توقفت السيدة إلينكورت عن محاولة السيطرة عليهما، وسحبتهما من طوقيهما إلى غرفة في الخلف كي تسكتهما.

عندما اختفت، أخرجت جهاز الاستنشاق من جيبي بسرعة، واختلست نفَسًا، ثم انتظرتها بالداخل، تمامًا عند الباب الأمامي، أستشعر جو المنزل يهدأ من حولي.

لم يكن منزلًا كبيرًا، لكن مجرد بيت عائلي. ولم تكن المفروشات باذخة، بل فقط مريحة بدرجة لا تُصدَّق، وجيدة الصنع. لكن كان هناك شعور بـ... الثروة. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني وصف الأمر بها. بدءًا من الدرابزين الخشبي المصقول، والسجادة ذات لون الخث الداكن، التي دارت مع السلالم الطويلة الأنيقة، إلى الكرسي الوثير ذي اللون المخملي البرونزي، المحشور أسفل السلالم، وحتى السجادة الفارسية البالية المفروشة على البلاط الحجري المتآكل في الردهة. وبدءًا من الدقات البطيئة الواثقة لساعة جميلة ذات صندوق طويل تقف بجوار النافذة المرتفعة، وحتى طبقة القِدم الداكنة على منضدة الطعام بجوار الحائط، تواطأ كل شيء ليشكل إحساسًا بالفخامة، يكاد يكون غامرًا. لم يكن الأمر على وجه التحديد هو أن المكان كان مرتبًا ـ كانت هناك أكوام من الصحف المبعثرة عند الأريكة، وحذاء واقٍ من المطر لواحدة من الأطفال متروك بجوار الباب الأمامي ـ لكن لم يكن هناك شيء واحد

يبدو خاطئًا. كانت وسائد الأريكة منتفخة بالريش، ولم تكن هناك أكوام من شعر الكلاب في أركان الغرفة، أو آثار موحلة على السلالم.

حتى الرائحة كانت ملائمة، بلا أثر لكلاب مبللة أو طهي بائت. مجرد ورنيش شمع النحل، ودخان الخشب، ولمسة بسيطة من بتلات الورد المجففة.

كان... كان مثاليًا، يا سيد ريكسام. كان المنزل الذي سأشيده لنفسي، إذا توفر لديَّ المال والذوق والوقت لخلق شيء دافئ ومرحب بعمق وبلا حدود لهذه الدرجة.

كنت أفكر في كل هذا فحسب، عندما سمعت بابًا يُغلَق، ورأيت ساندرا عائدة من الجانب البعيد بالردهة وهي تهز شعرها الكثيف، عسلي اللون، بعيدًا عن وجهها وتبتسم.

ـ يا إلهي، آسفة. إنهما لا يريان الكثير من الغرباء، لذا فهما يتحمسان جدًّا لظهور وجوه جديدة. أؤكد لكِ بشدة أنهما ليسا هكذا على الدوام. دعينا نبدأ ثانية. مرحبًا يا روان، أنا ساندرا.

مدت يدها للمرة الثانية، نحيلة وقوية وذات سمرة، وتزينها ثلاثة أو أربعة خواتم تبدو باهظة الثمن. صافحتها، وشعرت بأصابعها تقبض على أصابعي بقوة غير عادية، وبادلتها الابتسام.

ـ حسنًا إذن، لا بد أنك جائعة ومنهكة للغاية بعد هذه الرحلة الطويلة. أتيتِ من لندن، أليس كذلك؟

أومأتُ.

ـ دعيني أرشدك إلى غرفتك، وبعد أن تبدلي ملابسك وترتاحي، انزلي وسنتناول شيئًا. لا أصدق أن الوقت تأخر إلى هذا الحد. لقد تعدت التاسعة بالفعل. هل كانت رحلتك فظيعة؟

قلت:

ـ كلا، ليست فظيعة. لكن بطيئة فقط. كان هناك عطل من نوع

ما عند يورك، لذا فاتني قطاري. آسفة حقًّا، أنا عادة دقيقة للغاية في مواعيدي.

على الأقل كان ذلك صحيحًا. أيًّا كانت عيوبي ونقاط ضعفي الأخرى، فأنا نادرًا ما أتأخر.

- وصلت إليَّ رسالتك النصية. آسفة جدًّا لأنني لم أرد. لم أرَها في البداية. كنت منشغلة للغاية خلال وقت الحمام للأطفال عندما وصلتْ، وتمكنت فحسب من أن أخرج مسرعة، وأخبر جاك أن يجلبك. آمل ألا تكوني قد انتظرتِ طويلًا في المحطة.

لم يكن سؤالًا بالتحديد، أكثر منه تعليقًا. لكنني أجبت على أي حال.

- ليس لفترة زائدة على الحد. هل الأطفال في الفراش، إذن؟

- الثلاث الصغيرات، أجل. مادي في الثامنة، وإيلي في الخامسة، والرضيعة بيترا تبلغ من العمر ثمانية عشر شهرًا فقط. لذا فهنَّ جميعًا في الفراش.

سألت، وأنا أفكر في الوميض الأحمر الذي شاهدته بين الأشجار في الطريق إلى هنا:

- والطفل الرابع؟ ذكرتِ في الإعلان أن لديك أربعة؟

- ريانون في الرابعة عشرة، وتتصرف كأنها في الرابعة والعشرين. إنها في مدرسة داخلية. ليس ذلك خيارنا في الواقع، فأنا أفضل وجودها في المنزل، لكن لا توجد مدرسة ثانوية قريبة بما فيه الكفاية. أقرب مدرسة نهارية تقع على بعد أكثر من ساعة بالسيارة، وسيكون ذلك أكثر كثيرًا مما يمكن تحمله كل يوم. لذا فهي تقيم بالقرب من إنفرنيس، وتعود إلى المنزل في معظم عطلات نهاية الأسبوع. قلبي يتحطم بعض الشيء عندما تذهب كل مرة، لكن يبدو أنها تستمتع بالأمر.

فكرت: إذا كنتِ تريدينها في المنزل بشدة هكذا، فلمَ لا تنتقلين إلى سكن آخر؟

سألت:

ـ ألن أقابلها إذن؟

هزت ساندرا رأسها.

ـ نعم، للأسف. لكن لأكون صادقة، ستقضين معظم وقتك مع الصغار. على أي حال، هذا يعني أنه بوسعنا تبادل محادثة لطيفة الآن، ويمكنك التعرف على الأطفال غدًا. أوه، وأخشى أن زوجي بيل لن يكون هنا هو الآخر.

ـ أوه؟

كانت مفاجأة، بل حتى صدمة. لن أقابله، إذن. كنت واثقة للغاية من أن المرء سيرغب في مقابلة الشخص الذي يفكر في تعيينه لرعاية أطفاله... لكنني حاولت إبقاء وجهي محايدًا، من دون إصدار أحكام.

ـ أوه، هذا مؤسف.

ـ أجل، إنه مسافر، من أجل العمل. عليَّ القول إنه كان صراعًا مروعًا، مع رحيل عديد من المربيات هذا العام. الأطفال مزعزعون للغاية بشكل مفهوم، وقد تأثر العمل حقًا. كلانا مهندس معماري في شركة يديرها رجلان. حسنًا، رجل وامرأة!

ابتسمتِ ابتسامة سريعة، مظهرة أسنانًا مثالية متساوية ناصعة البياض.

ـ لا يوجد سوانا، أنا وهو. وهذا يعني أنه في فترات الانشغال بالعمل عندما يكون لدينا أكثر من مشروع نعمل عليه، يمكن أن نستنفد جهدنا على نحو رهيب. نحاول ترتيب الأمر بحيث يكون أحدنا موجودًا على الدوام، لكن مع رحيل كاتيا، مربيتنا الأخيرة، أصبح الوضع فوضويًّا فحسب. اضطررت إلى تولي زمام الأمور هنا، ويحاول بيل إبقاء العمل متماسكًا. أحتاج إلى أن أكون صادقة تمامًا، وأقول إن أيًّا من كان الذي سيفوز بالوظيفة لن يحظى بفترة تمهيدية سلسة للغاية. في العادة أحاول العمل من المنزل خلال الشهر الأول أو نحو ذلك،

للتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام، إلا أن هذا لن يكون ممكنًا حسب هذه المرة. لا يستطيع بيل أن يكون في مكانين في الوقت نفسه، ولدينا مشاريع بحاجة ماسة إلى وجودي هناك وفي موقع التنفيذ. نحن بحاجة إلى شخص ذي خبرة كبيرة، لن ينزعج من أن نتركه بمفرده مع الأطفال منذ وقت مبكر، ويجب أن يكون قادرًا على البدء في العمل في أسرع وقت ممكن.

نظرتْ إليَّ بقلق بعض الشيء، وقد تغضن ما بين حاجبيها المرسومين بحدة.

ـ هل تعتقدين أن هذا الوصف ينطبق عليك؟

ابتلعتُ ريقي. حان الوقت للتخلص من شكوكي، وتقمص دور روان، المربية المثالية.

قلت، وأنا أكاد أقنع نفسي بالثقة التي في صوتي:

ـ بالتأكيد. أعني، لقد رأيتِ سيرتي الذاتية...

قالت ساندرا:

ـ لقد أعجبتنا للغاية سيرتك الذاتية.

وأومأت أنا إيماءة عرفان بسيطة خجولًا.

ـ بصراحة تامة، هي واحدة من أكثر السِّير التي تلقيناها إثارة للإعجاب. أنت مطابقة لجميع الشروط التي نحتاج إليها من ناحية الخبرة مع الفئات العمرية المختلفة. لكن ما فترة إشعارك؟ أعني، من الواضح أن...

كانت تتحدث بسرعة حينها، وكأنها تشعر بعدم الراحة بعض الشيء.

ـ من الواضح أن الحصول على المربية الملائمة هو أهم شيء، هذا غني عن القول. لكننا في الواقع بحاجة إلى شخص يستطيع البدء... حسنًا، الآن، إذا كنت سأصير صادقة تمامًا. لذا سيكون خداعًا مني أن أتظاهر أن ذلك ليس عاملًا مهمًّا.

ـ فترة إشعاري هي أربعة أسابيع.

رأيت فم ساندرا يلتوي متجهمًا بقلق بعض الشيء، وأضفت على عجل:

- لكن أعتقد أنه ربما يمكنني التفاوض على نهاية مبكرة لذلك. لديَّ بعض أيام الإجازة السنوية الباقية، وسأحتاج إلى أن أنظر في التقويم لإجراء الحسابات، لكن أعتقد أن هناك فرصة جيدة لأن أتمكن من تخفيضها لأسبوعين. ربما أقل.

هذا في حال كانت «ليتل نيبرز» على استعداد لإبداء المرونة. يعلم الرب أنهم لم يمنحوني كثيرًا من الأسباب لأدين لهم بالولاء.

لم يفتني وميض الأمل والارتياح الذي ظهر على وجه ساندرا. لكن بدا حينها أنها أدركت أين كنا.

- انظري، هأنا أبقيك للحديث في الردهة. ليس عدلًا مني أن أجري معك مقابلة من قبل حتى أن تخلعي معطفك! دعيني أرشدك إلى غرفتك، بعدها يمكننا أن نختلي في المطبخ، ونتبادل الحديث كما يجب بينما تتناولين الطعام.

استدارت، وبدأت تشق طريقها صاعدة السلم الطويل المنحني، وقدماها لا تصدران صوتًا على السجادة المخملية السميكة الناعمة. توقفتْ عند بسطة السلم، ووضعتْ إصبعها على شفتيها. وقفتُ لأستوعب تلك المساحة الواسعة، والطاولة الصغيرة وعليها مزهرية بها زهور فاوانيا وردية، بدأت للتو تسقط بتلاتها. اختفى رواق وسط شبه عتمة، مضاء فقط بمصباح ليلي وردي اللون، موصول بمقبس بالحائط. كان الرواق يؤدي إلى نصف دستة من الأبواب. التصقت أحرف خشبية غير منتظمة على الباب الذي في الطرف البعيد، وعندما اعتادت عيناي الإضاءة الخافتة، ميزتُ الكلمات. الأميرة إيلي، والملكة مادي. كان الباب الأقرب إلى بيت الدرج مفتوحًا بعض الشيء، وهناك مصباح ليلي يسطع بشكل خافت في أركان الغرفة. تمكنت من سماع الأنفاس الهادئة لشخير رضيع آتية من الداخل.

همست ساندرا:

ـ الأطفال نائمون. على الأقل آمل ذلك. لقد سمعت بعض الأصوات في وقت سابق، لكن كل شيء يبدو هادئًا الآن! مادي على وجه الخصوص نومها خفيف للغاية، لذا أضطر إلى السير على أطراف أصابعي بعض الشيء وأنا بالجوار. أنا وبيل ننام في هذا الطابق، لكن ري تنام في الطابق العلوي. من هنا.

عند قمة الدرج بالطابق الثاني، كانت هناك بسطة أصغر قليلًا تؤدي إلى ثلاثة أبواب أخرى. كان أوسطها مفتوحًا، ورأيت بالداخل خزانة صغيرة بها فوضى من المماسح والمكانس، ومكنسة كهربائية من دون سلك تُشحن على الجدار. أغلقت ساندرا الباب على عجل.

كان الباب الذي على يساره مغلقًا، وكُتبت على ألواحه الخشبية بما بدا وكأنه أحمر شفاه مُلطخ:

اغرب من هنا! ممنوع الدخول، وإلا ستلقى حتفك!

قالت ساندرا رافعة حاجبيها بدرجة طفيفة، قد تشير إلى أي شيء بدءًا من الشعور بالتسلية وحتى الاستسلام:

ـ تلك حجرة ريانون.

وضعت يدها على مقبض الباب الواقع أقصى يمين الدرج.

ـ هذه لك. حسنًا، أعني...

توقفتْ، وهي تبدو مرتبكة بعض الشيء.

ـ أعني، أنه المكان الذي نخصصه دومًا للمربية. وهو المكان الذي ستنامين فيه الليلة. آسفة، لا أريد أن أكون متجرئة بدرجة زائدة على الحد.

حاولتُ الضحك بعدم ارتياح بعض الشيء، بينما هي تفتح الباب. كان المكان مظلمًا بالداخل، لكن بدلًا من أن تتحسس باحثة عن مفتاح كهربائي، أخرجت ساندرا هاتفها. توقعت أن تشغل مصباح الهاتف، لكن بدلًا من ذلك نقرت على شيء ما، فنبضت أضواء الغرفة بالحياة.

لم يكن مجرد الضوء العلوي الرئيسي، في الواقع كان ذلك مضاء بدرجة خافتة للغاية، ولا يصدر عنه شيء سوى نوع من الوهج الذهبي الباهت، لكن ضوء القراءة المجاور للفراش اشتعل هو الآخر، بالإضافة إلى مصباح قائم عند النافذة، بجوار منضدة صغيرة، وبعض أضواء الزينة الصغيرة الملتفة حول مسند الرأس.

لا بد أن دهشتي ظهرت على وجهي، لأن ساندرا ضحكت بسعادة.

ـ رائع حقًّا، أليس كذلك؟ لدينا مفاتيح كهرباء بالطبع، حسنًا، لوحات كهربائية، لكن هذا منزل ذكي. يمكن التحكم في كل التدفئة والأضواء وما إلى ذلك عبر هواتفنا. مسحتْ شيئًا ما، فسطع الضوء الرئيسي بشدة فجأة، ثم خفت ثانية، واشتعل ضوء عبر الغرفة في الحمام المُلحق بها، ثم انطفأ مرة أخرى.

قالت ساندرا:

ـ إنها ليست الإضاءة وحسب...

ثم سحبتْ شاشة أخرى، ونقرت أيقونة، وبدأت موسيقى تعزف بهدوء عبر مكبر صوت غير مرئي. اعتقدت أنه مايلز ديفيس، مع أنني لم أكن خبيرة بالجاز إلى حد كبير.

ـ هناك أيضًا خيار صوتي، لكنني أجده مخيفًا بعض الشيء، لذلك لا أستخدمه كثيرًا. مع ذلك، يمكنني أن أريك إياه.

سعلتْ، ثم قالت بنبرة مرتفعة مصطنعة بعض الشيء:

ـ أطفئ الموسيقى!

حدث انقطاع، ثم توقف مايلز ديفيس فجأة.

ـ بالطبع يمكنك أيضًا التحكم في الإعدادات من اللوحة.

ضغطتْ شيئًا على الحائط للتوضيح، فأضيئت لوحة بيضاء لفترة وجيزة، بينما انغلقت الستائر على النافذة المقابلة، ثم انفتحت مرة أخرى.

قلت:

ـ رائع.

حقًّا لم أكن أدري ما أقول. من جهة، كان مثيرًا للإعجاب. ومن جهة أخرى، وجدت نفسي أعود إلى كلمة ساندرا. مخيف.

قالت ساندرا بضحكة صغيرة:

ـ أعرف. إنه سخيف بعض الشيء، أدرك هذا. لكن نظرًا إلى كوننا مهندسين معماريين، فمن واجبنا المهني تجربة كل الأجهزة الرائعة. على أي حال...

نظرتْ إلى هاتفها مرة أخرى، لتقرأ الساعة هذه المرة.

ـ عليَّ أن أتوقف عن الحديث، وأخرج العشاء من الفرن. وعليك خلع معطفك وإفراغ حقيبتك. هل أراكِ بالطابق السفلي خلال... خمس عشرة دقيقة؟

قلت بصوت خافت، نوعًا ما:

ـ يبدو ذلك جيدًا.

وجهت لي ابتسامة واسعة، واختفت مغلقة الباب خلفها.

بعد رحيلها، وضعت حقيبتي على الأرض، وعبرت الغرفة نحو النافذة. كان المكان مظلمًا تمامًا بالخارج، لكن عندما ألصقت وجهي بالزجاج وأحطت صدغي بكفي، تمكنت بالكاد من تمييز سماء تناثرت فيها النجوم وأشكال الجبال المظلمة عند الأفق. لم تكن هناك أي أنوار تقريبًا.

جعلني إدراك مدى عزلة هذا المكان بالفعل أرتجف، للحظة فقط، ثم أدرت ظهري للنافذة، وشرعت أتفقد الغرفة.

ما أدهشني على الفور هو أنه كان مزيجًا غريبًا من التقليدي والحديث. كانت النافذة على الطراز الفيكتوري الخالص، وصولًا إلى المزلاج النحاسي والألواح الزجاجية المموجة قليلًا. لكن الأضواء كانت تنتمي إلى القرن

الحادي والعشرين... لا يوجد مصباح رتيب في منتصف السقف. بدلًا من ذلك، كان هناك عدد كبير من الأضواء الكاشفة والمصابيح، والأضواء العلوية، كل منها مركز على جزء مختلف من الغرفة، ومضبوط على درجة مختلفة من الدفء والسطوع. كما لم تكن هناك دفايات أيضًا. في الواقع، لم أستطع رؤية المكان الذي أتت منه الحرارة، لكن من المؤكد أنه يجب أن يكون هناك مصدر ما. كانت الليلة باردة بما يكفي لأن تُخلف أنفاسي ضبابًا أبيض على زجاج النافذة. تدفئة تحت الأرض؟ فتحات مخفية من نوع ما؟

كان الأثاث تقليديًّا بدرجة أكبر، ويغلب عليه إلى حد كبير طابع فندق ريفي باهظ. في الجهة المقابلة لي، بمواجهة النافذة، كان هناك فراش عريض مغطى بمجموعة كبيرة من الوسائد المزركشة. وأسفل النافذة أريكة صغيرة مكتنزة بالحشو، وبجوارها منضدة صغيرة؛ المكان المثالي لاستضافة صديق، أو تناول شراب. كانت هناك خزائن لها أدراج، ومكتب، وكرسيان قائمان، وصندوق مُنجد عند طرف الفراش، كان يمكن استخدامه إما للتخزين، وإما كمقعد إضافي. كانت هناك أبواب على كلا الجانبين. فتحت أحدها عشوائيًّا، ووجدت غرفة ملابس ممتلئة بالحمالات والأرفف الفارغة، واشتعلت الأضواء الكاشفة فوق الأرفف الخالية أوتوماتيكيًّا عندما فتحت الباب. جربت الثاني، إلا أنه بدا مغلقًا.

كان الثالث مواربًا، وتذكرتُ أنه هو الذي أنارته ساندرا لتُظهر الحمام بالداخل. دخلت ورأيت لوحة على الجدار، مثل تلك التي ضغطتها ساندرا بجوار باب الغرفة الرئيسي. لمستها من دون أن أتوقع تمامًا أن تعمل، لكنها توهجت مظهرة تشكيلًا مربكًا من الأيقونات والمربعات. ضغطت واحدًا بشكل عشوائي، وأنا غير متأكدة تمامًا مما سيحدث، وصارت الأضواء أكثر سطوعًا ببطء، مظهرة حمامًا عصريًّا به دش ضخم، ووحدة حوض غسيل خرسانية بحجم طاولة مطبخي. لم يكن أي شيء يحاكي الطراز الفيكتوري في هذه الغرفة على الإطلاق. كانت تنتمي إلى عصر الفضاء في تعقيدها،

وأنيقة وعصرية في تصميمها، وتملك في بلاطة واحدة من بلاطاتها سحرًا أكثر مما تملكه حمامات أخرى بأكملها.

فكرت في حمامي في المنزل... شعر في البالوعة الصدئة، ومناشف متسخة مكومة في الركن، وبقع مكياج على المرآة.

يا إلهي، لكَم أرغب في هذا.

من قبل... لا أدري ما الذي كنت أريده من قبل. لم أركز على شيء سوى الوصول إلى هنا، ومقابلة آل إلينكورت، ومعرفة ما ينتهي إليه هذا الإعلان. كان هذا هو كل ما في الأمر. بصراحة، لم أفكر حتى في الحصول على الوظيفة بالفعل.

الآن... الآن صرت أرغب فيها. ليس السبب فقط هو مبلغ الخمسة والخمسين ألفًا في السنة، بل كل شيء. أردت هذا المنزل الجميل، وهذه الغرفة الرائعة، وصولًا إلى الحمام الفخم المبلط بالرخام، بزجاجه اللامع الخالي من الترسبات الكلسية، والتركيبات المصنوعة من الكروم اللامع.

بالإضافة إلى ذلك، أردت أن أكون جزءًا من هذه العائلة.

إذا كانت لي أي شكوك بخصوص ما أفعله هنا، فقد سحقتها هذه الغرفة.

وقفت فقط، للحظة طويلة للغاية، عند وحدة الحوض، ويدي مفرودة على الطاولة، محدقة إلى نفسي في المرآة. كان الوجه الذي بادلني التحديق مقلقًا إلى حد ما. ليس التعبير المرتسم عليه تحديدًا، لكنْ شيء ما في عيني. كان هناك شيء ما، نوع من الجوع. يجب ألا أبدو يائسة بدرجة مفرطة أمام ساندرا. متحمسة، أجل، لكن اليأس، ذلك النوع من اليأس الجائع الذي رأيته يبادلني التحديق الآن، لم يكن يتسبب في شيء سوى النفور.

رتبت شعري ببطء، ولعقت إصبعًا ورطبت حاجبًا مشعثًا كي أعيده إلى مكانه. ثم امتدت يدي نحو قلادتي.

كنت أرتديها كل يوم، وقد فعلت ذلك منذ أن غادرت المدرسة، ولم يعُد ارتداء الحلي محظورًا بسبب قوانين الزي الرسمي. حتى كطفلة، كنت أرتديها

في عطلات نهاية الأسبوع، وفي أي وقت كنت أستطيع خلاله الإفلات بالأمر، متجاهلة تنهدات والدتي وتعليقاتها بخصوص الحلي الرخيصة الرديئة التي تجعل بشرتك تتحول إلى اللون الأخضر. كانت هدية في عيد ميلادي الأول، والآن بعد أكثر من عقدين، شعرت وكأنها جزء مني، شيء ألحظه بالكاد حتى عندما أمد يدي لأعبث بها في لحظات التوتر أو الملل.

لاحظتها الآن.

حرف «ر» فضي مزخرف، في طرف سلسلة متدلية. أو بالأحرى، كما كانت والدتي تُذكرني كثيرًا، ليس فضيًّا، بل مطلي بالفضة. وقد صار ذلك جليًّا أكثر فأكثر، إذ التَمع المعدن النحاسي بالأسفل حيث كنت أفرك القلادة بأصابعي بذهن شارد.

لم يكن هناك داعٍ لخلعها. لم تكن غير لائقة. كان احتمال أن يلحظها أي شخص ضئيلًا للغاية. ومع ذلك...

مددت يدي ببطء لمؤخرة عنقي، وفتحت القفل.

ثم وضعت بعض ملمع الشفاه، وعدلت تنورتي، وشددت ذيل حصاني، واستعددت للعودة إلى ساندرا إلينكورت في الطابق السفلي، وإجراء أهم مقابلة في حياتي.

عندما نزلت إلى الطابق السفلي، لم أرَ ساندرا في أي مكان، لكنني شممت رائحة شهية طيبة آتية من الجانب البعيد للردهة. تذكرت أن هذا هو المكان الذي قادت ساندرا الكلبين إليه، فتقدمت بحذر. لكن عندما دفعت الباب لأفتحه، وجدت أنني دخلت عالمًا آخر.

بدا الأمر وكأن مؤخرة المنزل اقتُطعت بوحشية، وأُلصقت بصندوق حداثي مذهل، ويكاد يغلب عليه بقوة طابع القرن الحادي والعشرين. ارتفعت أعمدة معدنية فارعة إلى سقف زجاجي، وأسفل قدمي انقطعت فجأة بلاطات الردهة المزخرفة ذات الطابع الفيكتوري، وحلت محلها أرض خرسانية مصبوبة ومصقولة بلمعان باهت. بدا كأنه دمج بين كاتدرائية مبنية على الطراز الوحشي، ومطبخ على الطراز الصناعي. في المنتصف طاولة إفطار معدنية لامعة، محاطة بكراسي بلا ظهر من الكروم، وقُسمت الغرفة إلى منطقة المطبخ المضيئة، وخلفها مساحة خافتة الإضاءة لتناول الطعام، حيث امتدت بطول الغرفة مائدة طويلة لها سطح خرساني.

في المنتصف، ساندرا واقفة أمام موقد ضخم قائم بذاته، أكبر موقد رأيته على الإطلاق، تسكب طاجنًا من نوع ما في صحنين. نظرتْ إلى الأعلى عندما دخلتُ.

ـ روان! اسمعي، أنا آسفة جدًّا، لكنني نسيت أن أسأل، أنتِ لست نباتية، أليس كذلك؟

قلت:

ـ نعم، أنا آكل أي شيء تقريبًا.

ـ أوه، حسنًا، هذا يبعث على الارتياح، لأن لدينا طاجن لحم البقر، ولا يوجد الكثير بخلاف هذا! كنت أتساءل للتو بشكل محموم عما إذا كان لديَّ وقت لصنع البطاطا المشوية في الفرن. وهذا يذكرني...

سارت إلى الثلاجة الفولاذية الضخمة، ونقرت على زر غير مرئي على باب الثلاجة بمفصل إحدى أصابعها، وقالت، وهي تنطق كلماتها بوضوح:

ـ هابي، اطلب بطاطا من فضلك.

أجاب صوت آلي:

ـ أُضيفت البطاطا إلى قائمة التسوق الخاصة بك.

وأضاءت شاشة تعرض قائمة مكتوبة بمواد البقالة.

ـ فلتأكلي بسعادة، يا ساندرا!

جعلتني الصدمة أرغب في الضحك، لكنني قاومت الرغبة، وبدلًا من ذلك راقبت ساندرا وهي تضع كلا الصحنين على المائدة الطويلة، مع لوح عليه رغيف خبز مقرمش، وطبق صغير به شيء مثل القشدة الرائبة. كانت الصحون مصنوعة من الخزف العظمي، وبدت وكأنها على الأرجح من العصر الفيكتوري، ومرسومة يدويًّا بزهور صغيرة رقيقة، ومزينة بتفاصيل من ورق الذهب. بطريقة ما، كان التناقض بين الصرامة الحسابية للخطوط الحداثية بالغرفة الزجاجية والصحون العتيقة الهشة، يكاد يشارف حد الغرابة، وأحسست بانعدام التوازن إلى حد ما. كان يشبه بقية المنزل بصورة معكوسة... طراز فيكتوري متحفظ تناثرت به لمحات من حداثة عصر الفضاء. سادت الحداثة هنا، لكن الصحون ودوامات الزهور الكثيفة لأدوات المائدة الفضية كانت بمثابة تذكير بما يكمن خلف الباب المغلق.

قالت ساندرا بلا داعٍ وهي تجلس، وتشير إليَّ كي أجلس في المقعد المقابل لها:

ـ ها نحن ذا. يخنة لحم البقر. تناولي الخبز حتى يتشرب السوائل. وهذه قشدة طازجة بالفجل، وهي لذيذة جدًّا عند تقليبها مع اليخنة.

قلت بصدق:

ـ رائحتها رائعة.

وهزت ساندرا شعرها للوراء، وابتسمتِ ابتسامة صغيرة، حاولتْ أن تبدو متواضعة، إلا أنها في الواقع كانت تقول: أعرف ذلك.

ـ حسنًا، إنه الموقد كما تعلمين. ماركة «لا كورنو». يكاد يكون من المستحيل إفساد الأمر، كل ما عليك هو إدخال المكونات، ونسيان أمرها! أفتقد موقد الغاز في بعض الأحيان، لكننا لا نتبع الشبكة الرئيسية هنا، لذا فكل شيء يعمل بالكهرباء. يعمل سطح الموقد عن طريق الحث.

قلت، وأنا أنظر إليه بشك نوعًا ما:

ـ لم أستخدم موقد حث من قبل.

كان ضخمًا كالوحش، ست أقدام من الأبواب المعدنية والأزرار والأدراج والمقابض، ومن الأعلى سطح طهي أملس، بدا مقسمًا بطرق لا يمكنني حتى البدء في تخمينها.

قالت ساندرا:

ـ يستغرق الأمر بعض الوقت لاعتيادها. لكن أؤكد لك أن استخدامها أمر بديهي للغاية. اللوحة المسطحة في الوسط مخصصة لل«تيبانياكي».

كنت متشككة إلى حد ما بخصوص التكلفة، لكن بيل كان مصرًّا، وعليَّ الاعتراف بأن الأمر يستحق كل بنس وأكثر.

قلت:

ـ أوه، أتفهَّم ذلك.

مع أنني لم أكن أفهم في الحقيقة. ما «التيبانياكي» بحق السماء؟ تناولت ملء فمي من اليخنة، التي كانت سميكة وغنية ولذيذة، ذلك النوع من

الوجبات التي لم أحظَ قَطُّ بالوقت ولا التنظيم الكافي لطهيها لنفسي في المنزل. وتركتُ ساندرا تضع كمية من القشدة الطازجة على السطح، وتمدني بقطعة مقرمشة من الخبز. كانت زجاجة من النبيذ الأحمر مفتوحة بالفعل على المائدة، وصبتْ لنا في كأسين من الزجاج المحفور بشكل جميل على الطراز الفيكتوري، ودفعتْ إحداهما تجاهي.

ـ الآن، هل تفضلين تناول الطعام أولًا ثم الحديث، أم نبدأ؟

نظرت إلى طبقي، ثم نفضت الأمر عن ذهني. لا جدوى من تأجيله. شددت تنورتي للأسفل، وجلست باستقامة أكثر بعض الشيء على المقعد المعدني.

ـ نبدأ، على ما أعتقد. ما الذي تودين معرفته؟

ـ حسنًا، كانت سيرتك الذاتية شاملة للغاية، ومثيرة جدًّا للإعجاب. اتصلت بالفعل بربة عملك السابقة، ماذا كان اسمها؟ جريس ديفونشير؟

قلت:

ـ إممم... أجل، هذا صحيح.

ـ وقالت عنك كثيرًا من الأشياء الطيبة. أرجو ألا تمانعي كوني استعنت بالمراجع الوظيفية قبل المقابلة، لكنني لُدغتُ بضع مرات من مرشحات غير ملائمات وأعتقد أنه لا فائدة من تضييع وقت الجميع وجلبكِ إلى هنا، حتى نلقى الفشل فقط عند الحاجز الأخير. لكن جريس كانت متحمسة لك بشدة. بدا أن آل هاركورت قد غيروا سكنهم، لكنني تحدثتُ أيضًا مع السيدة جرينجر، وبالغتْ هي الأخرى في الثناء عليك.

قلت بقلق بعض الشيء:

ـ أنت لم تتصلي بـ«ليتل نيبرز»، أليس كذلك؟

لكنها هزت رأسها:

ـ نعم، أنا أتفهم تمامًا، ليس من السهل دائمًا البحث عن وظيفة في أثناء

العمل في مكان ما بالفعل. لكن ربما يمكنك أن تخبريني عن عملك هناك؟

ـ حسنًا، في الواقع إنه يشبه إلى حد كبير ما شرحته في السيرة الذاتية، لقد أمضيت هناك عامين، وأنا مسؤولة عن غرفة الرضع. أردت التغيير من العمل مربيةً لأطفال أسرة واحدة، وبدت الحضانة خيارًا جيدًا. كان الحصول على مزيد من المسؤوليات الإدارية، والاضطرار إلى تنظيم جدول تناوُب الموظفين تجربة ممتازة، لكن بصراحة تامة، وجدت أنني أفتقد الشعور الأسري للعمل مربية. أحب الأطفال، لكن لا يتسنى لك قضاء وقت فردي معهم القدر نفسه كما تفعلين في وظيفة خاصة. ما كان يحول بيني وبين التغيير هو فكرة التراجع خطوة إلى الوراء من حيث الأجر والمسؤولية، لكن وظيفتك تبدو وكأنها قد تكون التحدي الذي أبحث عنه.

كنت قد تدربت على الخطاب في ذهني وأنا أستقل القطار في طريقي إلى هنا، وتدفقت الكلمات الآن بمصداقية خبيرة. كنت قد ذهبت لما يكفي من المقابلات حتى أعرف أن هذا هو المفتاح، أن تشرح سبب رغبتك في ترك وظيفتك الحالية، من دون انتقاد رب عملك الحالي حتى لا تبدو موظفًا غير مخلص. لكن يبدو أن روايتي للأحداث، التي عدلتها بعض الشيء، قد نجحت في تحقيق الهدف، حيث كانت السيدة إلينكورت تومئ بتعاطف.

ـ يمكنني أن أتخيل ذلك تمامًا.

أضفت بدافع وحي اللحظة، حيث لم أكن قد فكرت في هذه العبارة بالتحديد:

ـ إلى جانب هذا بالطبع، فأنا متحمسة للخروج من لندن. إنها مزدحمة للغاية وملوثة، وأعتقد أنني أتطلع إلى تغيير المناظر فحسب.

قالت السيدة إلينكورت بابتسامة:

ـ يمكنني تفهُّم ذلك تمامًا. عانيت أنا وبيل ظلمةَ الروح الممتدة نفسها

قبل بضع سنوات. كانت ريانون في قرابة الثامنة أو التاسعة، وكنا قد بدأنا التفكير في المدارس الثانوية. كانت مادي طفلة صغيرة، وقد سئمتُ للغاية من اصطحابها إلى الحدائق القذرة، واضطراري إلى البحث عن الإبر في حفرة الرمل قبل أن أدعها تلعب. بدت هذه كفرصة مثالية للانفصال تمامًا، وبدء حياة جديدة، والعثور على مدرسة خاصة رائعة حقًّا من أجل ري.

ـ هل أنت سعيدة لتغييرك محل سكنك؟

ـ أوه، تمامًا. كان الأمر شاقًّا بالنسبة إلى الأطفال حينها بالطبع، لكن من المؤكد أنه كان الخيار الصحيح. نحن نعشق اسكتلندا، ولم نرغب قَطُّ أن نكون من ذلك النوع من الأُسر التي تشتري منزلًا آخر، ثم تعرضه للإيجار على موقع «إير بي إن بي» لمدة تسعة أشهر من العام. أردنا العيش هنا حقًّا، لنصير جزءًا من المجتمع، أتفهمين؟

أومأتُ، وكأن المعضلات المتعلقة بالمنزل الثاني كانت جزءًا من حياتي اليومية.

واصلت ساندرا:

ـ كان منزل «هيذربراي» مشروعًا حقيقيًّا. تعرض للإهمال تمامًا طوال عقود، وقد عاش فيه رجل عجوز غريب الأطوار للغاية، ذهب إلى دار رعاية، ثم تركه يتدهور إلى حالة سيئة حتى وفاته. خشب متعفن في كل مكان، ومواسير منفجرة، وتوصيلات كهربائية رديئة. تطلب الوضع كشفه تمامًا حتى الأساسات، وتجديده بالكامل. سنتان من العمل الشاق المطلق، وإعادة تشكيل الغرف، وإنجاز كل شيء، بدءًا من إعادة التوصيلات الكهربائية وصولًا إلى تركيب بيارة صرف جديدة. إلا أنه كان يستحق، وبالطبع شكَّل ذلك دراسة حالة رائعة للعمل. لدينا ملف كامل للحالة قبل التجديد وبعده، وهو يُظهر حقًّا أن الهندسة المعمارية الجيدة يمكنها أن تختص بإبراز روح منزل قائم بالفعل، بقدر

اختصاصها بإنشاء منزل من الصفر. مع أننا نؤدي ذلك أيضًا بالطبع. تخصصنا هو العمارة العامية.

أومأتُ، كما لو كانت لديَّ فكرة عما يعنيه هذا، ورشفتُ جرعة من النبيذ.

قالت ساندرا بأسلوب يوحي بالشروع في العمل:

ـ لكن هذا يكفي عني وعن المنزل. ماذا عنك أنت؟ أخبريني قليلًا عما جذبك إلى العمل مربية للأطفال؟

يا إلهي. كان ذلك سؤالًا كبيرًا. أومضت في عقلي نحو دستة من الصور، كلها في الوقت ذاته. والداي وهما يصيحان في وجهي لأني لوثت سجاد المطبخ بالصلصال وأنا في سن السادسة. أمي تهز رأسها فوق تقرير درجاتي المدرسية وأنا في سن التاسعة، غير آبهة بمحاولة إخفاء خيبة أملها. مسرحية المدرسة التي لم يهتم أحد بحضورها، وأنا في الثانية عشرة. «يا له من أمر مؤسف أنكِ لم تراجعي أكثر مادة التاريخ»، بدلًا من تهنئتي على التقديرات الممتازة التي حصلت عليها في الرياضيات واللغة الإنجليزية والعلوم، في سن السادسة عشرة. ثمانية عشر عامًا من كوني لست جيدة بما فيه الكفاية، ولست الابنة التي كان من المفترض أن أكونها. ثمانية عشر عامًا من كوني لا أرقى للمستوى المطلوب.

شعرت بنفسي أتخبط.

ـ حسنًا...

لم يكن هذا جزءًا من القصة التي تدربت عليها، ولعنت نفسي على ذلك الآن. كان سؤالًا بديهيًّا، سؤالًا كان يجب عليَّ الإعداد له.

ـ حسنًا، أعتقد... أعني... أنا أحب الأطفال فحسب.

كان جوابًا ضعيفًا. ضعيفًا للغاية. وغير صادق تمامًا، أيضًا. لكن عندما خرجت الكلمات من فمي، أدركت شيئًا آخر. كانت ساندرا لا تزال تبتسم، لكن صار هناك نوع من الحياد في تعبيرها لم يكن موجودًا من قبل، وفجأة

فهمتُ لماذا. امرأة على أعتاب الثلاثينيات من عمرها، تتحدث عن مدى حبها للأطفال...

سارعت لإصلاح خطئي.

ـ لكن يجب أن أقول إنني أشعر بالإعجاب الشديد حيال أي شخص يريد أن يكون والدًا أو والدة. فأنا قطعًا لست مستعدة لذلك بعد!

أصبت الهدف. لم يفُتني وميض الارتياح الذي مر على وجه ساندرا، مع أنها كتمته بسرعة.

قلت، وأنا أشعر بثقة كافية لقليل من المزاح:

ـ لكن هذا ليس خيارًا متاحًا الآن على أي حال، حيث إنني عزباء تمامًا.

ـ بالتالي... لا توجد أي روابط في لندن إذن؟

ـ ليس في الواقع. لديَّ أصدقاء بالطبع، لكنْ والداي تقاعدا في الخارج منذ بضع سنوات. في الحقيقة، بمجرد أن أرتب الأمور مع «ليتل نيبرز»، فلا يوجد شيء بالفعل يبقيني في لندن. بوسعي تولي وظيفة جديدة على الفور تقريبًا.

تجنبتُ بعناية قول وظيفتك، كي لا أبدو وكأنني أفترض أنني سأحصل على الوظيفة، لكن ساندرا كانت تبتسم وتومئ بحماسة.

ـ نعم، كما يمكنك الاستنتاج على الأرجح من حديثنا سابقًا، سأكون كاذبة إذا قلت إن ذلك ليس عاملًا مهمًّا. نحن نقترب من العطلة الصيفية، ويجب علينا بالتأكيد تعيين شخص ما في الوظيفة قبل انتهاء العام الدراسي، وإلا سأغرق. بالإضافة إلى ذلك، هناك معرض تجاري مهم جدًّا جدًّا في غضون أسابيع قليلة، ويحتاج كلانا حقًّا، أنا وبيل، إلى أن نكون هناك.

ـ ما الموعد النهائي بالنسبة إليك؟

ـ تحصل ري على العطلة الدراسية عند نهاية يونيو، وهذا يشكل... نحو ثلاثة أو أربعة أسابيع؟ لكن المعرض التجاري يبدأ في نهاية الأسبوع

السابق لحصولها على العطلة. في الحقيقة، كلما كان الوقت مبكرًا، كان ذلك أفضل. أسبوعان مدة مناسبة. ثلاثة أسابيع... حسنًا، لا بأس، بالكاد. أربعة أسابيع، وسنشرع في دخول منطقة كوارث. قلتِ إن فترة الإشعار الخاصة بك أربعة أسابيع؟

أومأت.

- أجل، لكنني كنت أفكر في ذلك في أثناء إفراغ حقيبتي، ولديَّ رصيد إجازات يبلغ ثمانية أيام على الأقل، لذا يمكنني بالتأكيد تخفيضها لما يزيد قليلًا على أسبوعين، إذا أخذت إجازاتي في الاعتبار، بل وربما أقل. أعتقد أنهم سيكونون على استعداد للتفاوض.

في الواقع، لم تكن لديَّ فكرة عن مدى استعدادهم للتعاون، وكان لديَّ شك أنه ليس بدرجة كبيرة. لم تكن جانين، مديرتي والرئيسة الحالية لغرفة الرضع، من أكبر المعجبين بي. لم أكن أعتقد أنها ستشعر بالأسف على نحو خاص لرحيلي، إلا أنني أظن أنها لم تكن لتفعل المستحيل لمعاونتي. مع ذلك، كانت هناك دومًا طرق ووسائل. لم يكن مسموح للعاملين في الحضانة بالحضور إلى العمل لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة بعد الإصابة بفيروس يتسبب في القيء. كنت على استعداد للإصابة بكثير من الفيروسات المسببة للتقيؤ بحلول منتصف يوليو. لكن على الرغم من هذا، مرة أخرى، لم أقل ذلك لساندرا. لسبب ما، لا أحد يريد مربية لديها قانون أخلاقي مرن، حتى عندما تستغل تلك المرونة لتقدم لهم العون.

بينما نحن نتناول الطعام، ألقت ساندرا بعض الأسئلة التقليدية الأخرى للمقابلات من النوع الذي صرت أتوقعه: حددي نقاط القوة والضعف لديك، أعطيني مثالًا على موقف صعب وكيف تعاملت معه... كل الأسئلة المتوقعة المعتادة. أجبت هذه من قبل في عشرات المقابلات الأخرى، لذا كنت قد تمرنت على ردودي، وعدلتها قليلًا فقط لتلائم ما اعتقدتُ أن ساندرا على وجه الخصوص تريد سماعه. كان جوابي التقليدي بخصوص

السؤال المتعلق بموقف صعب يدور حول صبي صغير أتى في يوم تعرُّفه على الحضانة في «ليتل نيبرز» وجسده مغطى بالكدمات، والطريقة التي تعاملتُ بها مع الوالدين بخصوص المخاوف المتعلقة بحمايته لاحقًا. كان ذلك يلقى قبولًا حسنًا لدى جميع الحضانات، لكنني لم أعتقد أن ساندرا تريد أن تسمع عن إبلاغي السلطات بشأن الوالدين. بدلًا من ذلك، قدمت لها حكاية مختلفة، بخصوص متنمرة صغيرة في الرابعة من العمر، في وظيفة سابقة، وكيف تمكنت من إرجاع الأمر لمخاوفها الخاصة من الالتحاق بمدرسة ابتدائية.

في أثناء حديثي، كانت تتفحص الأوراق التي جلبتها معي: صحيفة الحالة الجنائية، وشهادات الإسعافات الأولية. كانت كلها سليمة بالطبع، وكنت أعرف هذا، لكن مع ذلك شعرت بقلبي يخفق توترًا بين ضلوعي وهي تراجعها. أحسست بضيق في الصدر، مع أنني لم أستطع القول تمامًا ما إذا كان ذلك بسبب التوتر أم الكلاب. وقاومت الرغبة في إخراج جهاز الاستنشاق الخاص بي وسحب نفَس منه.

سألتْ عندما انتهيت من حكايتي عن الطفلة البالغة من العمر أربع سنوات:

ـ ورخصة القيادة؟

وضعتُ شوكة طعامي على سطح الطاولة الخرساني الأملس اللامع، وأخذتُ نفَسًا عميقًا.

ـ آه، صحيح، نعم. أخشى أن تكون هذه مشكلة. لديَّ بالفعل رخصة قيادة بريطانية كاملة، وهي خالية من المخالفات، لكن البطاقة نفسها سُرقت الشهر الماضي عندما فقدت حقيبتي. لقد طلبت واحدة جديدة لكنهم أرادوا الحصول على صورة حديثة، والأمر يستغرق وقتًا طويلًا للانتهاء منه. لكن أؤكد لك أنني أستطيع القيادة.

كان ذلك الجزء الأخير صحيحًا على أي حال. عقدت أصابعي، وارتحت عندما أومأتْ، وانتقلتْ إلى شيء ما بخصوص طموحاتي المهنية. هل كنت

أرغب في الحصول على أي مؤهلات إضافية؟ وأين كنت أرى نفسي في غضون عام؟ كان السؤال الثاني هو المهم حقًّا، وكان بوسعي معرفة ذلك من الطريقة التي وضعتْ بها ساندرا كأس النبيذ الخاصة بها، ونظرتْ إليَّ بالفعل وأنا أجيب.

قلت ببطء، وأنا أحاول بشكل محموم أن أعرف ما الذي تريد سماعه مني:

ـ في غضون عام؟

هل كانت تريد الطموح؟ الالتزام؟ تطوير الذات؟ كان من الغريب اختيار فترة زمنية تبلغ عامًا واحدًا، حيث كان معظم من يُجرون المقابلات يقولون خمس سنوات، وقد أربكني السؤال. ما الذي كانت تختبره؟

أخيرًا، حسمت رأيي.

ـ حسنًا... أنت تعرفين أنني أريد هذه الوظيفة يا ساندرا. ولكي أكون صادقة، آمل أن أكون هنا في غضون عام. إذا كنت ستعرضين عليَّ هذه الوظيفة، فلن أرغب في اقتلاع نفسي من لندن ومن كل أصدقائي من أجل وظيفة على المدى القصير فقط. عندما أعمل لدى عائلة، أود التفكير في الأمر بوصفه علاقة طويلة الأمد، بالنسبة إليَّ وإلى الأطفال. أريد أن أتعرف عليهم حقًّا، وأراهم يكبرون قليلًا. لو كنت قد سألتِني أين أرى نفسي في غضون خمس سنوات... حسنًا، هذا سؤال مختلف. وعلى الأرجح كنت سأعطيك جوابًا مختلفًا. أنا طموح، أريد الحصول على ماجستير في رعاية الأطفال، أو علم نفس الطفل في مرحلة ما. لكن عام... أي وظيفة أقبلها الآن، سأود بكل تأكيد أن أفكر في أنها ستستمر لفترة أطول من عام، من أجل مصلحتنا جميعًا.

ارتسمت على وجه ساندرا ابتسامة عريضة، وعرفتُ... عرفتُ فحسب أنني أعطيت الجواب الصحيح، ذلك الذي كانت تأمل فيه. لكن هل كان ذلك كافيًا لأفوز بالوظيفة؟ بكل صدق، لم أكن أعرف.

تبادلنا الحديث لساعة أخرى أو نحو ذلك، وأعادت ساندرا ملء كأسي إلى جانب كأسها، إلا أنني في وقت ما بعد ثاني أو ثالث مرة أعادت فيها ملء الكأس، كان لديَّ ما يكفي من التفكير السليم حتى أضع يدي فوق الكأس، وأهز رأسي.

ـ من الأفضل ألا أفعل. في الواقع أنا لا أتناول الشراب كثيرًا. يجعلني النبيذ أثمل سريعًا.

لم يكن ذلك صحيحًا تمامًا. كان بوسعي تحمل شرب النبيذ إلى حد كبير مثل معظم أصدقائي، لكنني كنت أعرف أن كأسًا أخرى ستجعلني أتخلى عن حذري في الغالب، وسيصبح من الأصعب حينها إبقاء إجاباتي دبلوماسية ومتوافقة. ستتشابك الحكايات، وسأخلط الأسماء والتواريخ، وسأستيقظ غدًا ورأسي بين كفي، وأنا أتساءل عن الحقائق التي أفلتت مني، وعن أي من الزلات الرهيبة اقترفتها.

ما حدث هو أن ساندرا نظرت إلى الساعة وهي تعيد ملء كأسها، وأطلقت شهقة صغيرة بفعل الصدمة.

ـ يا إلهي، الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق! لم تكن لديَّ أدنى فكرة أن الوقت تأخر إلى هذا الحد. لا بد أنك منهكة تمامًا يا روان.

قلت بصدق:

ـ أنا منهكة بعض الشيء بالفعل.

قضيتُ اليوم بأكمله مسافرة، وبدأ أثر ذلك يظهر عليَّ.

ـ حسنًا، انظري، أعتقد أننا تناولنا كل ما أردتُ السؤال عنه. لكنني كنت آمل أن تتمكني من مقابلة الصغار غدًا، لنرى ما إذا كنتم ستنسجمون معًا، ثم سيُقلُّك جاك إلى كارن بريدج مرة ثانية كي تستقلي قطارك، إن كان ذلك يلائمك. متى يغادر؟

ـ في الحادية عشرة والنصف إلا خمس دقائق، لذا فإن هذا ملائم جدًّا بالنسبة إليَّ.

وقفتْ، وجمعتْ كل آنية الطعام في كومة، ووضعتها بجوار الحوض.

ـ عظيم. لنترك هذا لجين، ويكفي هذا اليوم.

أومأتُ متسائلة مرة أخرى عمن تكون جين الغامضة هذه، لكنني لم أرغب بالفعل في السؤال.

ـ سأذهب فقط لأطلق سراح الكلبين. تصبحين على خير يا روان.

بادلتها الرد:

ـ تصبحين على خير. شكرًا جزيلًا لك على العشاء الشهي يا ساندرا.

ـ هذا من دواعي سروري. فلتنامي جيدًا. عادة ما يستيقظ الأطفال في السادسة، لكن لا داعي لأن تستيقظي أنتِ في وقت مبكر إلى هذا الحد، إلا إذا كنت تريدين ذلك!

أطلقتْ ضحكة رنانة صغيرة، وذكَّرتُ نفسي بأن أضبط المنبه الخاص بي على الساعة السادسة، حتى وعيناي يغشاهما النعاس بسبب التفكير في الأمر.

بينما هشت ساندرا الكلبين إلى الحديقة، عدت في طريقي إلى الجزء القديم من المنزل، مع الشعور الغريب نفسه بالاضطراب المزعج الذي أحسست به من قبل وأنا ذاهبة في الاتجاه الآخر. انخفض السقف الزجاجي المرتفع فجأة، وصار غير أملس على غرار كريمة كعكة الزفاف. تحول صدى كعب حذائي على الأرض الخرسانية إلى نقرات خافتة على الأرض الخشبية، ثم ساد السكون على السجادة عندما شرعت أشق طريقي صاعدة الدرج. توقفتُ عند البسطة الأولى. كان الباب الأقرب إليَّ، باب غرفة الرضيعة،

لا يزال مواربًا. لم أستطع المقاومة، دفعته ودلفتُ إلى الداخل، وشممتُ الروائح الطيبة الدافئة لرضيعة نظيفة وراضية.

كانت بيترا مستلقية على ظهرها، وذراعاها وساقاها ممدودة كالضفدع. كانت قد ركلتْ بطانيتها، فسحبتُها فوقها مرة أخرى برفق شديد، وشعرتُ بأنفاسها الخافتة تحرك الشعرات الدقيقة على ظهر كفي.

بينما كنت أشدها حولها، جفلتْ رافعة إحدى ذراعَيها، وتجمدتُ للحظة، معتقدة أنها على وشك الاستيقاظ والبكاء. لكنها تنهدتْ فقط، واستقرتْ ثانية، وخرجتُ أنا من الغرفة بهدوء، وصعدتُ إلى غرفة نومي الفاخرة التي كانت بانتظاري.

سرت بحذر على أطراف أصابعي بينما كنت أنظف أسناني، مصيخة السمع لألواح الأرضية تحت قدمي وهي تصدر صريرًا خافتًا، وأنا لا أريد إزعاج ساندرا في الأسفل. لكن أخيرًا صرت جاهزة للنوم، وقد ضبطت المنبه الخاص بي، وملابسي للغد مرتبة بعناية على الأريكة الصغيرة الممتلئة.

ثم أدركت أنني لم أغلق الستائر.

لففت نفسي بالروب، ومشيت عبر الغرفة وسحبت القماش برفق. لم تتحرك الستائر.

حاولت بشدة أكبر وأنا أشعر بالحيرة، ثم توقفت وأنا أحدق خلفها في حال كانت زائفة بطريقة ما، ستائر للزينة، وكان من المفترض في الواقع أن أستخدم ستارة تعتيم. لكن كلا، كانت ستائر حقيقية، لها مجرى فعلي. ثم تذكرت، ضغطت ساندرا شيئًا على الجدار، وانغلقت الستائر ثم انفتحت ثانية. كانت أوتوماتيكية.

اللعنة. سرت إلى اللوحة الموجودة بجوار الباب، ولوحت بيدي أمامها. أضاءت على الفور بذلك التكوين المربك من المربعات والأيقونات. لم يكن أي منها يشبه الستائر. كانت هناك واحدة تبدو وكأنها قد تكون نافذة،

لكن عندما ضغطتها بحذر، انفجر صوت نفير جاز ممزقًا الصمت، فطعنتها بإصبعي على عجل.

حمدًا للرب أنه انقطع على الفور. ووقفت هناك للحظة أنتظر، على استعداد لعويل من بيترا، أو لأن تأتي ساندرا راكضة على السلم وهي تطالب بمعرفة سبب إيقاظي للأطفال. لكن لم يحدث شيء.

عدت إلى دراسة اللوحة، لكنني لم أضغط شيئًا هذه المرة. حاولت أن أتذكر ما فعلته ساندرا في وقت سابق. كان المربع الكبير في المنتصف هو الضوء الرئيسي، كنت متأكدة من ذلك تمامًا. ومن المفترض أن مزيج المربعات الواقع إلى اليمين يتحكم في الأضواء الأخرى بالغرفة. لكنْ ما ذلك الشيء الحلزوني، وشريط التمرير إلى اليسار؟ مستوى صوت الموسيقى؟ الحرارة؟

ثم تذكرت تعليق ساندرا بخصوص الإعدادات الصوتية.

قلت بصوت منخفض:

ـ أَغلِق الستائر.

وصُدمت نوعًا ما عندما تحركت الستائر بخفة، بصوت لا يكاد يكون مسموعًا.

عظيم. حسنًا، لم يتبقَّ سوى اكتشاف الأضواء.

كان هناك مفتاح للمصباح المجاور للفراش، لذا عرفت أنني سأستطيع التعامل معه، وتمكنت من اكتشاف المصابيح الباقية من خلال التجربة والخطأ، لكن كان هناك مصباح واحد بجوار الكرسي ذي الذراعين لم أتمكن من إطفائه.

حاولت قائلة:

ـ أَطفئ الأنوار.

لكن لم يحدث شيء.

ـ أَطفئ المصباح.

انطفأ المصباح المجاور للفراش.

ـ أَطفئ مصباح الكرسي ذي الذراعين.

لم يحدث شيء. اللعنة.

في النهاية، تتبعت السلك إلى مقبس توصيل غريب الشكل على الجدار، لا يشبه مقبس الأجهزة العادية، وسحبته للخارج. غرقتِ الغرفة على الفور في ظلام كثيف، وبالكاد استطعت استشعار ما بها.

تحسست طريقي عائدة عبر الغرفة ببطء حتى طرف الفراش، وانسللت فيه. كنت بالكاد أستقر، عندما تذكرت بتنهيدة أنني لم أوصل هاتفي حتى يشحن. اللعنة.

لم أستطع مواجهة التعامل مع الأضواء مرة أخرى، لذا بدلًا من ذلك أشعلت مصباح هاتفي، ونهضت من الفراش، وشرعت أفتش في حقيبتي.

لم يكن الشاحن هناك. هل أخرجته بالفعل؟ كنت على ثقة من أنني حزمته في الحقيبة.

قلبت الحقيبة رأسًا على عقب، وتركت مقتنياتي تسقط على السجادة السميكة. لكن لم يتلوَّ أي سلك كهربائي خارجًا مع باقي المتعلقات. اللعنة. اللعنة. إذا لم أتمكن من شحن هاتفي، فسأحظى غدًا بأكثر رحلة مملة في العالم. لم أجلب كتابًا حتى. كل ما لديَّ للقراءة كان على تطبيق كيندل. هل نسيته؟ تركته في القطار؟ على أي حال، بدا من الواضح أنه لم يكن في حقيبتي. وقفت هناك للحظة وأنا أعض شفتي، ثم فتحت أحد أدراج طاولة الفراش الجانبية، آملة على عكس التوقعات أن يكون أحد الضيوف السابقين قد خلف وراءه شاحنًا.

و... وجدته! لم يكن شاحنًا، بل وصلة شحن. كان هذا هو كل ما أحتاج إليه، حيث كان هناك منفذ «يو إس بي» مدمج في المقبس.

بتنهيدة ارتياح، ففككت السلك من المنشورات والأوراق الموجودة في الدرج، ووصلته بالكهرباء، ووصلت هاتفي. أضاءت أيقونة الشحن الصغيرة، وعدت إلى الفراش مرة أخرى وأنا ممتنة. كنت على وشك إطفاء

المصباح والاستلقاء ثانية، عندما لاحظت أن شيئًا ما مما كان في الدرج صار على وسادتي. كانت قطعة من الورق، وكنت على وشك أن أغضنها وألقيها أرضًا، لكن قبل أن أفعل ذلك، ألقيت عليها نظرة سريعة كي أتحقق فقط من أنها ليست شيئًا ذا أهمية.

لم تكن كذلك. مجرد رسم طفل. على الأقل...

التقطت هاتفي ثانية، ووجهت المصباح إلى الصفحة، وتمعنت في الصورة من كثب أكثر.

لم يكن عملًا فنيًّا، بل مجرد شخصيات بسيطة، وخطوط سميكة بألوان الشمع. كان بها منزل له أربع نوافذ وباب أمامي أسود لامع، لا يختلف عن «هيذربراي». كانت النوافذ كلها ملونة بالأسود، فيما عدا واحدة، ظهر منها وجه صغير شاحب يختلس النظر عبر الظلام.

كان الرسم مثيرًا للقلق على نحو غريب، لكنه لم يكن مُوقَّعًا بأي اسم، ولا توجد طريقة لمعرفة سبب وجوده في الدرج المجاور للفراش. قلبتها بحثًا عن أدلة. كانت هناك كتابة على الجهة الأخرى. لم يكن خط طفل، بل خط شخص بالغ، منحدر ومتعرج، ويبدو كأن من كتبه ليس إنجليزيًّا على نحو لم أتمكن تحديده تمامًا.

كُتب بخط مائل منتظم:

> إلى المربية الجديدة، اسمي كاتيا. أكتب لكِ هذه الرسالة لأنني أردت أن أقول لك من فضلكِ كوني...

ثم انقطعت الرسالة.

قطبت جبيني. من كانت كاتيا؟ بدا الاسم مألوفًا، ثم تذكرت صوت ساندرا خلال العشاء، وهي تقول: «لكن مع رحيل كاتيا، كانت مربيتنا الأخيرة...».

إذن فقد عاشت كاتيا هنا. بل ونامت هنا. لكن ما الذي أرادت أن تقوله لخليفتها؟ وهل نفد منها الوقت، أم أعادت التفكير فيما كانت على وشك أن تقوله؟

من فضلك كوني... لطيفة مع الأطفال؟ من فضلك كوني... سعيدة هنا؟ من فضلك... لا تنسي إخبار ساندرا أنك تحبين الكلاب؟

كان من الممكن أن تكون تكملة العبارة أي شيء. فلمَ إذن كانت التكملة التي ظلت عالقة على طرف لساني هي: من فضلكِ كوني حذرة؟

منحني الاثنان معًا، تلك الرسمة الصغيرة المخيفة، والرسالة غير المكتملة، شعورًا غريبًا، لم أتمكن من تحديده. شيء يشبه عدم الارتياح، مع أنني لم أستطع تحديد السبب.

حسنًا، أيًا كان الذي أرادت قوله، فقد فات الأوان الآن.

طويت الرسم، وأعدته إلى الدرج. ثم أغلقت هاتفي، وسحبت الغطاء حتى ذقني، وحاولت نسيان كل ما هو على المحك، والخلود إلى النوم.

عندما استيقظت، كان ذلك بسبب إلحاح الرنين الحاد للمنبه، وللحظة لم أستطع التفكير في مكان وجودي، ولا السبب في شعوري بالتعب إلى هذا الحد. ثم تذكرت. كنت في اسكتلندا. وكانت الساعة السادسة صباحًا، ساعة ونصف كاملة قبل الموعد الذي اعتدت الاستيقاظ فيه.

جلست وأنا أسوي شعري المشعث، وأفرك النوم من عيني. كان بوسعي سماع ارتطام، وأصوات إثارة حادة بالطابق السفلي. بدا وكأن الأطفال استيقظوا.

كانت الستائر ستائر تعتيم، لكن أشعة الشمس كانت تتدفق بالفعل من الفجوات حول الحواف. أجبرت ساقي على النزول من الفراش، وسرت نحوها وحاولت شدها كي أفتحها، قبل أن أتذكر الليلة الماضية.

قلت بصوت مرتفع، وأنا أشعر بالحماقة بعض الشيء:

ـ افتح الستائر.

فابتعدتا عن بعضهما، وكأنها خدعة سحرية. لا أدري ما الذي كنت أتوقعه، لكن أيًا ما كان، لم أكن مستعدة للواقع.

جمال المشهد أمامي خطف أنفاسي.

اختار مهندس فيكتوري ما توفي منذ زمن طويل موقعًا مثاليًّا للمنزل، ليطل على مشهد من التلال الزرقاء المتواصلة، والوديان الخضراء، وغابات الصنوبر الوارفة العميقة. امتدت بلا انقطاع، والتلال السفحية المتماوجة تتخللها مجارٍ مائية صغيرة داكنة تجري هنا وهناك، والأسقف المموجة

للمزارع الصغيرة البعيدة، وعلى بعد بضعة أميال بحيرة تعكس شمس الصباح بسطوع بالغ، حتى بدت وكأنها بقعة من الثلج. واحتلت «الكيرنجورمز» مكان الصدارة فوق كل ذلك، واسمها يعني الجبال الزرقاء باللغة الغالية الأيرلندية، تبعًا لجوجل.

عندما بحثت عن أصل اسمها، بدت الترجمة سخيفة إلى حد ما. أظهرت الصور على الإنترنت كل الألوان التي قد تتوقعها... عشبًا أخضر، وسرخسًا بنيًّا، وتربة تميل إلى الأحمر مع بقع متفرقة من الخلنج الأرجواني، وفي الشتاء غطاء أبيض هش. بدت فكرة كونها زرقاء خيالية إلى أبعد الحدود.

لكن هنا، والضباب يتصاعد من سفوحها في شمس الصباح، والفجر الوردي لا يزال يصبغ السماء خلفها، بدت زرقاء بالفعل. ليست التلال السفحية المغطاة بالسرخس، بل المنحدرات الجرانيتية القاسية ذاتها، وكلها صخور وقمم متعرجة، بمسافة تعلو كثيرًا فوق خط الأشجار. بدت أعلى قمة وكأنها مكسوة بالثلوج، حتى في يونيو.

شعرت بمعنوياتي ترتفع، ثم سمعت ضجيجًا في الحديقة، ونظرت إلى الأسفل.

كان جاك جرانت، يسير قادمًا من مجموعة من المباني الملحقة، والكائنة عند ركن المنزل تمامًا. كان شعره مبتلًّا، كما لو أنه استحم للتو، ويمسك بحقيبة معدات في يده. راقبته لمدة دقيقة، وأنا أحدق إلى قمة رأسه ذات الشعر الداكن، قبل أن أبدأ في الشعور بأنني متلصصة إلى حد ما، وابتعدت عن النافذة كي أتوجه إلى الحمام حتى أستحم أنا الأخرى.

كان المكان مظلمًا في الداخل، وتحسست تلقائيًّا باحثة عن مفتاح الكهرباء، قبل أن أتذكر اللوحة اللعينة. أضاءت عندما لمستها، وعرضت لي مرة أخرى ذلك الفسيفساء المُربك المؤلف من مربعات وأشرطة منزلقة ونقاط. ضغطت إحداها بشكل عشوائي، آملة ألا أحصل على المزيد من مايلز ديفيس. أردت التصويب على الموضع نفسه الذي ضغطته بالأمس،

لكن من الواضح أنني أخطأت التصويب، حيث أضيئت وزرة الجدار فجأة بأنوار زرقاء خافتة. هل كانت نوعًا من الإعدادات الليلية، في حال ما إذا رغبتَ في الذهاب إلى الحمام وشريككَ نائم؟ لم يكن ساطعًا بما يكفي للاستحمام على أي حال.

الزر التالي الذي جربته جعل الأضواء الزرقاء تختفي، واشتعل مصباحان ذهبيان منخفضان فوق حوض الاستحمام، وغمرا بشرتي بوهج دافئ وجذاب. كان هذا هو ما سأرغب فيه تحديدًا إن أردت الغطس لفترة طويلة في حمام فقاقيع، لكن مكان الاستحمام كان لا يزال مظلمًا، وكنت بحاجة إلى شيء أكثر إشراقًا وأكثر... حسنًا، ملائم للصباح بدرجة أكبر.

عثرت عليه بعد المحاولة الرابعة أو الخامسة، درجة إضاءة مشرقة، لكن ليس بصورة حادة، مع إطار مضيء حول المرآة، مثالي لعمل مكياجي. أسقطت روبي على الأرض مع تنهيدة ارتياح، ودخلت إلى الدش، لأواجه تحديًا مختلفًا. كانت هناك مجموعة لامعة من الفوهات والصنابير ورؤوس الدش المختلفة. كان السؤال هو كيف تشغلها؟ بدا أن الجواب هو لوحة أخرى، لوحة مقاومة للماء هذه المرة، مثبتة بين بلاطات الدش. عندما لمستها، ظهرت الأحرف:

صباح الخير، يا كاتيا.

أصابني الاسم ببعض الضيق الغريب، وتذكرت مرة أخرى تلك الرسالة غير المكتملة على رسم الطفل من الليلة السابقة. كان هناك وجه مبتسم، وزر صغير يشير إلى الأسفل. حسنًا، لم أكن كاتيا. ضغطت الزر الذي يشير إلى الأسفل، فتغيرت الحروف:

صباح الخير، يا جو.

ضغطتُ ثانية.

صباح الخير، يا لورين. صباح الخير، يا هولي. صباح الخير، أيها الضيف.

لم يكن هناك مزيد من الخيارات. ضيف، إذن. ضغطت الوجه المبتسم.

لم يحدث شيء. بدلًا من ذلك، تغيرت الشاشة إلى تلك النقاط والمربعات والأشرطة المنزلقة المبهمة. ضغطت إحداها بشكل عشوائي، وصرخت عندما انفجر نحو عشرين تيارًا من المياه الباردة كالثلج في بطني وفخذي. ضغطت مفتاح الإيقاف على يسار اللوحة بقوة، فانطفأت المياه، وخلفتني ألهث وأرتجف، ومنزعجة بدرجة كبيرة.

حسنًا، إذن. ربما عليَّ أن أجرب خيارًا محددًا مسبقًا، حتى أعرف كيف أُشغل هذا الشيء. لمست الشاشة، فأومضت مرة أخرى:

صباح الخير، يا كاتيا.

ضغطت الوجه المبتسم هذه المرة، مع شعور طفيف بالقلق، وظهرت على الشاشة رسالة:

نُعد حمامك المفضل. اغتسلي بسعادة!

لدهشتي، مع تلاشي الرسالة، انزلق أحد رؤوس الدش للأعلى بسلاسة، إلى ارتفاع مبرمج مسبقًا، مائلًا بزاوية، وبدأ تيار من الماء الدافئ يندفع خارجًا. وقفت للحظة فاغرة فمي، ثم اختبرت الماء بيد واحدة. أيًّا من كانت كاتيا، فقد كانت طويلة للغاية، وكانت تحب الاستحمام بماء أكثر سخونة بعض الشيء مما أحب أنا. كان بوسعي تحمل الحرارة، لكن لسوء الحظ فقد كانت طويلة للغاية لدرجة أن تيار الماء كان بعيدًا تمامًا عن قمة رأسي، وارتد من على اللوح الزجاجي المقابل، مما كان سيجعل غسل شعري صعبًا للغاية.

ضغطت زر الإيقاف، وحاولت مرة أخرى. اخترت هذه المرة:

صباح الخير، يا هولي.

بشكل عشوائي، وانتظرت النتيجة، وأنا أصر على أسناني.

أصبت الهدف. اتضح أن إعدادات هولي تم ضبطها على نوع من المطر الغزير الساخن من الشبكة العلوية التي كانت... حسنًا، كانت رائعة. لم تكن هناك كلمة أخرى تعبر عنها. تدفق الماء بوفرة تشارف حد اللامعقول، وغمرني بالدفء. شعرت بالماء الساخن يدق أعلى رأسي، طاردًا آخر بقايا

نعاسي والنبيذ الأحمر من الليلة الماضية. من الواضح أن أيًّا من كانت هولي، فقد كانت امرأة تشاركني الذوق نفسه. غسلت شعري بالشامبو ووضعت البلسم ثم شطفته، ووقفت وعيناي مغمضتان، مستمتعة ببساطة بإحساس الماء على بشرتي العارية.

كان إغراء البقاء والاستمتاع بالرفاهية قويًّا للغاية، لكن الأمر استغرق مني قرب عشر دقائق كي أدرك فحسب كيف يعمل الحمام. لو أهدرت مزيدًا من الوقت، فلن يكون هناك طائل من ضبطي لجرس المنبه في ساعة مبكرة. فلا جدوى من إجبار نفسي على القيام من الفراش عند بزوغ الفجر، ما لم أظهر وأغمر ساندرا بحماسي الفائق.

ضغطت زر الإيقاف على اللوحة مع إحساس بالاستسلام، ومددت يدي لأتناول المنشفة البيضاء ذات الزَّغَب التي كانت دافئة فوق القضيب الساخن. وذكَّرت نفسي أنني إذا نجحت في هذا الأمر، فلن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي أستمتع فيها بهذا الدش. بل بالعكس تمامًا.

عندما نزلت إلى الطابق السفلي، كان أول ما استقبلني هو رائحة الخبز المحمص، وصوت ضحك الأطفال. عندما درت حول ركن السلم بالأسفل، التقيت رداء نوم صغيرًا للغاية من قماش الترتان ملقى على درجة السلم السفلية، ونعلًا وحيدة في منتصف الردهة. التقطت كليهما، وتوجهت إلى المطبخ حيث كانت ساندرا تقف أمام محمصة خبز ضخمة من الكروم اللامع، ممسكة بقطعة من الخبز البني، وتلوح بها نحو الفتاتين الصغيرتين الجالستين إلى مائدة الإفطار المعدنية، اللتين ترتديان منامتين حمراوين زاهيتين. كان شعرهما المجعد مشعثًا من أثر النوم، إحداهما ذات شعر داكن، والأخرى لها شعر أشقر، يشارف حد البياض، وكلتاهما قد غلبهما الضحك.

ـ لا تشجعيها! ستفعل ذلك مرة أخرى وحسب.

قلت:

ـ تفعل ماذا مرة أخرى؟
والتفتت ساندرا.
ـ أوه، روان! يا إلهي، لقد استيقظت مبكرًا. أتمنى ألا تكون الفتاتان هما السبب في إيقاظكِ. ما زلنا نحاول تدريب بعض أفراد الأسرة على البقاء في الفراش بعد الساعة السادسة صباحًا.
أومأتْ بوضوح نحو أصغر الفتاتين، ذات الشعر الأشقر المائل إلى البياض.
قلت بصدق:
ـ لا بأس.
وأضفت بدقة أقل بعض الشيء:
ـ أنا أستيقظ مبكرًا في العادة.
قالت ساندرا، وهي تتنهد:
ـ حسنًا، من المؤكد أن هذه موهبة جيدة ليتمتع بها المرء في هذا المنزل.
كانت ترتدي روبًا، وتبدو منهكة بدرجة كبيرة.
قالت الفتاة، وهي تقرقر بالضحك، مشيرة إلى الرضيعة ذات الخدود الوردية الجالسة على كرسي مرتفع في الزاوية:
ـ ألقت بيترا عصيدتها.
ورأيت أنها كانت على حق. كانت كتلة من العصيدة بحجم البيضة تنزلق أسفل مقدمة الموقد حتى تسقط على الأرض الخرسانية، وكانت بيترا تصيح بسعادة، وتغترف ملعقة أخرى، وتستعد لرميها مرة ثانية.
قالت وهي تصوب:
ـ بيتا ترمي.
قلت بابتسامة، وأنا أمد يدي لأتناول الملعقة:
ـ آه، آه، بيترا، أعطيني إياها، من فضلك!
نظرت الطفلة إليَّ بِحيرة للحظة، وهي تُقيِّمني، وقد قطبت حاجبيها

الشقراوين الخفيفين في عبوس فاتن، ثم شقت وجهها السمين ابتسامة عريضة، وكررتْ قائلة:

ـ بيتا ترمي!

وأطلقتِ العصيدة تجاهي.

تفاديتها، لكن ليس بالسرعة الكافية، فأصابتني في صدري تمامًا.

للحظة، شهقتُ فقط، ثم تعالت بداخلي موجة غضب عارم عندما أدركت ما فعلتْه. كانت حماقة مني ألا أجلب زيًّا احتياطيًّا، وكان قميص الأمس مجعدًا وبأعلاه بقعة من النبيذ الأحمر لم أتذكر أنني أحدثتها، لكن لا بد أنني فعلت.

لم تعُد لديَّ حرفيًّا أي ملابس نظيفة. سأظل مغطاة بالعصيدة لباقي اليوم. اللعينة الصغيرة.

كانت أصغر الفتاتين هي من أنقذتني. انفجرتْ مقهقهة، ثم غطت فمها بكفيها، كما لو أنها قد ذعرت.

تذكرتُ من أكون، وأين أنا، وسبب وجودي هنا.

أجبرت نفسي على الابتسام.

قلت للفتاة الصغيرة:

ـ لا بأس. إيلي، أليس كذلك؟ يمكنكِ أن تضحكي. الأمر مضحك للغاية.

أبعدتْ يديها، وابتسمتِ ابتسامة حذرة.

قالت ساندرا، بنوع من الاستسلام المشوب بالإرهاق:

ـ يا إلهي، روان، أنا آسفة جدًّا! يتحدثون عن فظاعة سن الثانية، لكن أقسم أن بيترا كانت تجرب الأداء لها طوال ستة أشهر. هل قميصك على ما يرام؟

قلت:

ـ لا تشغلي بالك، يا ساندرا.

لن يكون القميص على ما يرام، على الأقل حتى أتمكن من غسله، وربما

حتى لن يكون على ما يرام ساعتها. كان قميصًا من الحرير، يُنظَّف تنظيفًا جافًا فقط، وهو خيار غبي لإجراء مقابلة من أجل وظيفة مربية، لكنني لم أفكر في أنني سأتعامل مع الأطفال. ربما يمكنني الحصول على بعض التفوق المعنوي البسيط من الموقف.

ـ بصراحة، فإن مثل هذه الأشياء تحدث عندما يكون لديك أطفال، أليس كذلك؟ إنها مجرد عصيدة! لكن...

انحنيت وأخذت وعاء العصيدة من بيترا قبل أن تدرك ما يحدث، ووضعته بعيدًا عن متناولها.

ـ أعتقد أنك تناولت ما فيه الكفاية، أيتها الآنسة الصغيرة بيترا. لذا ربما أتولى أنا مسؤولية هذا، بينما أنظف. أين ممسحتك يا ساندرا، وسأنظف تلك البقعة على الأرض قبل أن تنزلق فوقها إحدى الفتيات؟

قالت ساندرا بابتسامة ممتنة:

ـ إنها في غرفة التخزين، ذلك الباب هناك. شكرًا جزيلًا، يا روان. بصراحة لم أكن أتوقع منك المشاركة في العمل من دون أجر. هذا أكثر مما يتطلب الواجب.

قلت بحزم:

ـ يسعدني تقديم العون.

داعبت شعر بيترا في أثناء مروري، بعاطفة لم أستشعرها تمامًا، وغمزت غمزة صغيرة لإيلي. لم تكن مادي تنظر نحوي، بل حدقتْ إلى الأسفل في طبقها، وكأن الأمر برمته قد فاتها. ربما كانت تشعر بالخجل من دورها السابق، وهي تحرض بيترا.

اتضح أن غرفة التخزين موجودة في الجزء القديم من المنزل، ربما كانت حجرة غسيل الأطباق الأصلية، بحسب حوض الغسيل الفيكتوري والأرض المغطاة بالبلاط الحجري، لكنني لم أكن في حالة مزاجية تسمح بتقدير التفاصيل المعمارية. بدلًا من ذلك، أغلقت الباب خلفي، وأخذت

بضعة أنفاس عميقة في محاولة للتخلص مما تبقَّى من شعوري بالانزعاج. ثم شرعت في العمل على محاولة إنقاذ قميصي. نزل القدر الأكبر من العصيدة داخل الحوض، لكن كنت سأضطر إلى غسل الباقي. بعد عدة محاولات لم تفلح سوى في إصابة تنورتي بالماء الملوث بالعصيدة، دفعت الممسحة على مقبض باب المطبخ، وخلعت قميصي.

كنت أقف هناك مرتدية حمالة صدري وتنورتي، أدلك البقعة الملوثة بالعصيدة برفق أسفل الصنبور، وأحاول ألا أصيب باقي القميص بالبلل بقدر أكبر مما يجب، عندما سمعت صوتًا من الجانب الآخر لغرفة التخزين، واستدرت لأرى الباب المؤدي إلى الفناء ينفتح وجاك جرانت يدخل، ويمسح يديه على سروال عمله.

نادى قائلًا:

ـ جزازة العشب تعمل، يا سانـ...

ثم قطع حديثه، وقد اتسعت عيناه بفعل الصدمة. تضرجت وجنتاه العريضتان بلون أحمر زاهٍ. أطلقت صرخة بفعل المفاجأة، وتشبثت بالقميص المبلل إلى ثديي، باذلة قصارى جهدي للحفاظ على حشمتي.

قال جاك:

ـ يا إلهي، أنا آسف جدًّا.

كان يغطي عينيه، ناظرًا إلى السقف، والأرض، وأي مكان سوى نحوي أنا. اشتعلت وجنتاه حمرة.

ـ سأكون... سأكون... آسف جدًّا.

ثم استدار هاربًا، وصفَق باب الفناء خلفه، وتركني وأنا ألهث، ولست متأكدة مما إذا كان عليَّ أن أضحك أم أبكي.

لم تكن هناك جدوى تُذكر في أي منهما، لذا جففت قميصي المبتل على عجالة بمنشفة معلقة فوق الدفاية، وملأت دلو الممسحة، ثم عدت إلى المطبخ، ووجنتاي متوردتان مثل وجنتَي جاك تقريبًا.

قالت ساندرا من دون أن تستدير لي عندما دخلت:

ـ هل نظفتِ القميص؟ دعيني أجلب لك القهوة.

ـ أجل.

لم أكن متأكدة إذا كان عليَّ إخبارها بما حدث للتو. هل سمعت صيحة دهشتي؟ هل سيقول جاك شيئًا ما؟

ـ ساندرا، أنا...

لكن شجاعتي خانتني بعد ذلك. لم أتمكن من التفكير في طريقة أقول بها: ساندرا، لقد أظهرت ثدييَّ سريعًا للتو للعامل الذي يعمل لديك، من دون أن أبدو وكأنني أفتقد المهنية بشكل ميؤوس منه. شعرت بحمرة وجهي تزيد عمقًا بفعل الخجل من مجرد التفكير في الأمر. لا يمكنني إثارة الموضوع. سأضطر إلى أن آمل فقط أن يكون جاك رجلًا نبيلًا بما فيه الكفاية حتى لا يشير إلى ذلك بنفسه.

قالت ساندرا بشرود من دون أن تستدير لي:

ـ حليبًا وسكرًا؟

ونحيتُ المحادثة جانبًا.

قلت:

ـ حليبًا، شكرًا.

ووضعتُ دلو الممسحة أرضًا، وشرعتُ أنظف قذائف بيترا من على الموقد والأرض، شاعرة بوجنتيَّ تبردان بينما أعمل.

أخيرًا، عندما وصلت القهوة، وكنت جالسة إلى المائدة أتناول قطعة من الخبز المحمص الممتاز والمربى، كنت قادرة تقريبًا على التظاهر بأن ذلك لم يحدث قَطُّ.

قالت ساندرا، وهي تمسح يديها بقطعة من القماش:

ـ حسنًا يا فتيات، لم تسنح لي الفرصة كي أقدم لكنَّ روان. جاءت كي تلقي نظرة على منزلنا، ولتقابلكن. قلن مرحبًا.

غمغمت مادي:

ـ مرحبًا.

مع أنها وجهت ذلك الترحيب لطبقها أكثر مما وجهته لي. كانت تبدو أصغر من سنوات عمرها الثماني، بشعر داكن ووجه صغير شاحب. كان بوسعي أن أرى تحت سطح الطاولة، ركبتين نحيفتين تغطيهما قشور الجروح الجافة.

قلت بابتسامة، أمَّلتُ أن تكون فاتنة:

ـ مرحبًا، يا مادي.

لكنها أبقت نظرتها موجهة للأسفل بحزم. كانت إيلي أسهل، حيث كانت تتأملني بفضول صريح من أسفل غرتها الشقراء المائلة إلى البياض.

ـ مرحبًا يا إيلي، كم عمرك؟

قالت إيلي، وعيناها الزرقاوان مستديرتان كعينَي الدمى:

ـ هل ستكونين مربيتنا الجديدة؟

ـ أنا...

توقفتُ عن الحديث، وأنا لستُ متأكدة مما سأقوله. هل ستبدو عبارة آمل ذلك وكأنها توسل صريح بدرجة زائدة؟

قاطعتْ ساندرا بحزم:

ـ ربما. لم تقرر روان بعدُ ما إذا كانت ترغب في العمل هنا، لذا علينا أن نلتزم للغاية بحسن السلوك كي نثير إعجابها!

وجهت لي غمزة جانبية صغيرة.

ـ ما رأيكما لو صعدتما إلى الأعلى وبدلتما ملابسكما، وبعد ذلك يمكننا أن نُري روان المكان؟

سألتْ إيلي:

ـ ماذا عن بيترا؟

ـ سأتولى أمرها. هيا اذهبا، بسرعة.

أطاعتها الفتاتان، ونزلتا من على المقعدين المرتفعين، وطقطقت خطواتهما عبر الردهة وعلى السلالم. راقبتهما ساندرا بحنان وهما تذهبان.

قلت بإعجاب حقيقي:

ـ يا إلهي، إنهما مهذبتان للغاية!

كنت قد عملت مربية لما يكفي من الأطفال، لمعرفة أن التزام الأطفال الذين هم في الخامسة من العمر بطاعة الأوامر وتبديل ملابسهم لم يكن بالقطع أمرًا مُسلَّمًا به. حتى الذين في الثامنة كانوا يحتاجون إلى الإشراف.

أدارت ساندرا عينيها في محجريهما.

ـ إنهما تعرفان أنه لا يجب التمادي أمام الغرباء. لكن لنرى ما إذا كانتا تفعلان ما قيل لهما بالفعل...

ضغطتْ زرًّا على جهاز آيباد ملقى على الطاولة، وأومضت صورة أمام العيان. كانت غرفة نوم الأطفال، ومن الواضح أن الكاميرا وُضعت بالأعلى بالقرب من السقف، وهي موجهة للأسفل تجاه الفِراشين الصغيرين. لم يكن هناك صوت، لكن ضجيج الباب وهو يُصفَق كان كافيًا حتى يصل إلى الأسفل عبر الدرج، واهتزت دمية على شكل دب فوق رف الموقد، وسقطت. بينما نحن نشاهد، خطت مادي أمامنا بغضب أسفل الشاشة، وجلست بحنق على الفراش الأيسر، وذراعاها معقودتان. ضغطت ساندرا شيئًا آخر، واقتربت الكاميرا من وجه مادي، أو بالأحرى من أعلى رأسها، حيث كانت تنظر إلى الأسفل نحو حِجرها. كانت هناك طقطقة خافتة صادرة من الآيباد الآن، كما لو أن ميكروفونًا تم تشغيله.

قالت ساندرا:

ـ مادي، ما الذي قلته لكِ بشأن صفق الأبواب؟

أتى الصوت صغيرًا وحادًّا من مكبر صوت الآيباد:

ـ لم أفعل.

ـ بل فعلتِ، ورأيتك. كان يمكنك أن تؤذي إيلي. والآن بدلي ملابسك،

ويمكنك مشاهدة التلفزيون لبعض الوقت. كلها مرتبة على كرسيك، حيث وضعتها هذا الصباح.

لم تقل مادي شيئًا، لكنها نهضت وخلعت قميص منامتها، وأغلقت ساندرا الشاشة.

قلت، وقد فوجئت بعض الشيء:

ـ يا إلهي، هذا مثير للإعجاب!

لم تكن تلك هي الكلمة التي أفكر فيها. كانت كلمة الترصد هي الأدق تعبيرًا، مع أنني لم أكن متأكدة من السبب. كثير من الأماكن التي عملت بها كان فيها كاميرات لمراقبة المربيات، أو أجهزة لمراقبة الأطفال مزودة بمكبرات صوت وكاميرات مدمجة. ربما كان السبب هو أنني لم أعرف بأمرها سوى الآن. لم ألحظ أي كاميرات في الليلة السابقة، لذا لا بد أنها مخفية جيدًا، أينما كانت. هل راقبتني ساندرا وأنا أصعد متوجهة إلى الفراش في الليلة الماضية؟ هل رأتني وأنا أنظر في غرفة نوم بيترا؟ جعلت الفكرة وجنتيَّ تشتعلان بالحمرة.

قالت ساندرا بشكل عرضي، وهي تلقي بالآيباد على الطاولة:

ـ المنزل بأكمله متصل بالكاميرات. هذا مفيد للغاية. خاصة في مكان متعدد الطوابق. فهذا يعني أنني لست مضطرة إلى أن أركض على الدوام صعودًا وهبوطًا كي أتفقد الفتيات.

كررتُ بصوت خافت، وأنا أكتم شعوري بالقلق:

ـ مفيد للغاية.

المنزل بأكمله؟ ما الذي يعنيه ذلك؟ من الواضح أنه يشمل غرف الأطفال. لكن غرف الاستقبال؟ وغرف النوم؟ والحمامات؟ لكن لا، لم يكن هذا من المحتمل. وهو غير قانوني، بالتأكيد. أعدت قطعة الخبز المحمص المتبقية إلى طبقي، وقد زالت شهيتي فجأة.

قالت ساندرا ببهجة:

ـ هل انتهيت؟

وعندما أومأتُ، ألقتْ بقطعة الخبز المحمص في وحدة للتخلص من النفايات، ووضعتِ الصحن مع أطباق عصيدة الفتيات بجوار الحوض. لاحظتُ أن أطباق الليلة الماضية قد اختفت. هل جاءت جين الغامضة وانصرفتْ بالفعل؟

ـ حسنًا، لو كنت قد تناولت ما فيه الكفاية، دعيني أقودك في الجولة الكبرى، بينما تبدل الفتاتان ملابسهما.

أخرجتْ بيترا من كرسيها المرتفع، وفركتْ وجهها بقطعة قماش قطني رطبة، وحملت بيترا على خصرها، ودخلنا معًا مرة أخرى الجزء القديم من المنزل وعبرنا الردهة المبلطة بالأحجار إلى البابين المحيطين بجانبَي الباب الأمامي.

ـ حسنًا، كي أعطيك فكرة عن التصميم فحسب، الردهة هي مركز المنزل، والمطبخ في الخلف، وهو يؤدي إلى غرفة التخزين، التي رأيتِها بالفعل بالطبع. كان ذلك جزءًا من سكن الخدم القديم، الجزء الوحيد الذي تبقَّى في الواقع. اضطررنا إلى هدم الباقي. في مقدمة المنزل لدينا الغرف الكبرى، هذه غرفة الطعام القديمة.

لوحتْ ساندرا بيدها نحو فتحة إلى يمين الباب الأمامي.

ـ لكننا وجدنا أننا نأكل في المطبخ على الدوام، لذا حولناها إلى مكتب ومكتبة. فلتلقي نظرة.

أدخلتُ رأسي من الباب، ورأيت غرفة صغيرة إلى حد ما، ذات جدران مغطاة بألواح خشبية، مطلية بلون غني وجميل، أخضر مائل إلى الزرقة. تراصت في أحد أطرافها أرفف الكتب من الأرض حتى السقف، وقد غطاها مزيج من الروايات الخيالية ذات الأغلفة الورقية، ومجلدات الهندسة المعمارية. كان من الممكن أن تكون مكتبة صغيرة لكن مكتملة التكوين في أحد العقارات التاريخية التابعة لمؤسسة التراث القومي، لولا أنه كان

هناك في منتصف الغرفة مكتب زجاجي ضخم، امتد فوقه جهاز «آي ماك» كبير بشاشة مزدوجة، ونوع من الكراسي الشبيهة بكراسي الطائرات مصممة بشكل مريح، يواجه الشاشات.

رمشتُ. كان هناك شيء مربك في الطريقة التي اجتمع بها القديم والحديث في هذا المنزل. لم يكن مثل معظم المنازل، حيث توجد الإضافات الحديثة جنبًا إلى جنب مع ملامح المكان الأصلية، فتندمج بطريقة ما لتشكل بناء كليًّا انتقائيًّا حميمًا. كان يوجد هنا انطباع غريب يشبه وجود الماء والزيت معًا، حيث كان كل شيء إما أصليًّا بطريقة واعية، وإما حديثًا بشكل صارخ، من دون محاولة لدمج الاثنين.

أخيرًا قلت، حيث بدت ساندرا وكأنها تنتظر ردًّا من نوع ما:

ـ يا لها من غرفة جميلة. الألوان... رائعة للغاية.

ابتسمت ساندرا بنوع من السرور، وهي تهزهز بيترا على خصرها.

ـ شكرًا لك! يتولى بيل جميع الأشياء المتعلقة بالتخطيط الفني، لكن أنا من يتولى معظم التصميم الداخلي. أنا حقًّا أحب هذه الدرجة من الأخضر المائل إلى الزرقة. هذه الغرفة بالتحديد ملك لبيل في الواقع، لذا كبحت نفسي، لكن سترين أنني أطلقت العنان لحماسي بعض الشيء في غرفة المعيشة. فكرت أنه منزلي، وليس عليَّ إرضاء أي شخص آخر! ادخلي وألقي نظرة.

كانت الغرفة التي قادتني إليها بعد ذلك هي غرفة المعيشة التي ذكرتها، مجموعة من الأرائك العميقة ذات المسند الخلفي المزين بأزرار، مُرتبة في شكل مربع حول مدفأة جميلة من القرميد. كان السقف والمشغولات الخشبية بدرجة الأخضر المائل إلى الزرقة نفسه مثل ألواح الجدار الخشبية في غرفة المكتب، لكن الجدران نفسها كانت مذهلة، مغطاة بورق حائط غني ومعقد، له تصميم ملتف بدرجة يكاد يصعب معها تمييزه، بدرجات الأزرق الداكنة، والزمردي، والزبرجدي. عندما نظرت من كثب، رأيت أنه مزيج من

نبات العليق والطواويس، مرسومين بأسلوب غير واقعي ومتشابكين بدرجة يصعب معها فعليًّا التعرف عليهما. كان العليق أخضر داكنًا وأسود نيليًّا، والطواويس أزرق وأرجوانيًّا متلألئين، وذيولها تلتف وتنتشر وتتشابك مع العليق في نوع من المتاهات المرعبة، نصفها قفص طيور، والنصف الآخر أَجَمة من الورد البري.

كان التصميم يحاكي البلاطات المحيطة بالمدفأة، حيث كان هناك طاووسان يقفان بشموخ على كل جانب من جانبَي الحاجز الحديدي، جسداهما على البلاط السفلي، وذيلاهما ينتشران إلى الأعلى. كانت النار نفسها خامدة، لكن الغرفة لم تكن باردة، بل بالعكس تمامًا. منحتها الدفايات المصنوعة من الحديد المشغول ذات الطراز الفيكتوري دفئًا مريحًا، ومالت أشعة الشمس عبر سجادة أخرى من السجاد الفارسي الباهت بشكل بديع. تناثر مزيد من الكتب على طاولة قهوة نحاسية، إلى جانب مزهرية أخرى من الفاوانيا، وكانت هذه تتدلى من المزهرية التي خلت من المياه، لكن ساندرا تجاهلتها، وقادت الطريق إلى باب على يسار المدفأة، يؤدي إلى اتجاه المطبخ مرة أخرى.

كانت توجد خلفه غرفة أصغر كثيرًا، جدرانها مغطاة بألواح من خشب البلوط، وبها أريكة جلدية بالية وجهاز تلفزيون على الحائط البعيد. كان من السهل رؤية ما تُستخدم هذه الغرفة من أجله. كانت الأرض مغطاة بالألعاب المهملة، ومكعبات الأطفال المبعثرة، ودمى باربي مقطوعة الرأس، وخيمة للعب منهارة جزئيًّا، ومكومة في أحد الأركان. زُينت الجدران المكسوة بألواح خشبية داكنة إلى حد ما بالملصقات ورسوم الأطفال، وحتى بعض الخربشات بألوان الشمع على الألواح الخشبية نفسها.

قالت ساندرا:

ـ كانت هذه غرفة الإفطار القديمة. وكانت مظلمة نوعًا ما، حيث تواجه الشمال، وتحجب شجرةُ الصنوبر تلك الكثير من الضوء، لذا حولناها

إلى غرفة للتلفزيون، لكن من الواضح أن الأمر انتهى بالأطفال وقد استولوا عليها تمامًا!

أطلقتْ ضحكة، والتقطتْ دمية على هيئة موزة صفراء، وناولتها لبيترا.

ـ والآن، لنكمل الجولة...

قادت الطريق نحو باب ثانٍ مخفي وسط ألواح الجدار الخشبية، ومرة أخرى راودني شعور بأنني تعثرت، ووجدت نفسي في منزل مختلف تمامًا. عدنا إلى القبة الزجاجية في مؤخرة المنزل، لكننا دخلنا إليها من الجانب المقابل. من دون الموقد الكبير والخزانات والأجهزة الكهربائية التي تحجب المشهد، لم يكن هناك شيء أمامنا حرفيًّا سوى الزجاج، وفيما وراءه الطبيعة وهي تمتد بعيدًا، تتخللها الغابات والبحيرات والمجاري المائية التي تلتمع بعيدًا. بدا الأمر كما لو أنه لا يوجد شيء بيننا وبين البرِّية على الجانب الآخر. شعرت أنه من الممكن أن ينقض عُقاب بيننا في أي لحظة.

كان في أحد الأركان قفص لعب للأطفال، مفروش بسجاد مطاطي على شكل أحجية صور مقطعة، وراقبت بينما ساندرا تُسقط بيترا بالداخل مع موزتها، وتلوح بيديها حول الجدران.

ـ كان هذا الجانب قاعة الخدم القديمة في الماضي، لكنها كانت ممتلئة بالخشب المتعفن، وكان المشهد أكثر جمالًا من أن يبقى محصورًا في نوافذ ضيقة صغيرة، لذا اتخذنا قرارًا فقط بأن...

قامت بحركة وكأنها تشق حلقها، ثم ضحكتْ.

ـ أعتقد أن بعض الناس يشعرون بالصدمة بعض الشيء، لكن صدقيني، لو كنت قد رأيتِه من قبل، فستتفهمين الأمر.

فكرتُ في شقتي الصغيرة في لندن، وكيف كان من الممكن أن تحتويها هذه الغرفة وحدها.

بدا أن شيئًا ما بداخلي التوى وانكسر إلى حد ما، وفجأة لم أعُد متأكدة

في النهاية ما إذا كان عليَّ المجيء إلى هنا. لكنني كنتُ أعرف شيئًا واحدًا. لم يكن بوسعي العودة. ليس الآن.

ربما تتساءل لمَ أخبرك بكل هذا، يا سيد ريكسام. لأنني أعلم أنك مشغول، وأعرف أنه يبدو ظاهريًّا على الأقل كما لو أن هذا لا علاقة له بقضيتي. ومع ذلك... له علاقة بكل شيء. أحتاج منك أن ترى منزل «هيذربراي»، وأن تشعر بحرارة التدفئة المنبعثة من خلال الأرض، والشمس على وجهك. أحتاج أن تكون قادرًا على مد يدك وتمسيد الأرائك المخملية ذات النعومة الخشنة كلِسان القط، والنعومة الحريرية للأسطح الخرسانية المصقولة.

أحتاج إليك أن تفهم لمَ فعلت ما فعلته.

بدا وكأن باقي الصباح مر سريعًا. قضيت الوقت وأنا أحضر الصلصال المصنوع منزليًّا مع الأطفال، ثم ساعدتهم على تشكيله في مجموعة متنوعة من الهيئات المتكتلة غير المتوازنة، وقد سحقتْ بيترا معظمها لتصير بلا شكل مرة أخرى وهي تتصايح بالضحك، وإيلي تصرخ غيظًا. كانت مادي أكثر مَن أثار حيرتي. كانت صلبة وعنيدة، وكأنها مصممة على ألا تبتسم لي. لكنني ثابرتُ، ووجدت طرقًا بسيطة لامتداحها، وأخيرًا، رغم أنفها، بدا وكأنها ارتخت قليلًا، حتى إنها ضحكتْ على مضض بعض الشيء، عندما دفعت بيترا حفنة من العجينة الوردية بحماقة داخل فمها ثم بصقتها وهي تحاول التقيؤ بسبب الطعم المالح، وعلى وجهها الصغير المستدير تعبير كوميدي من الاشمئزاز.

أخيرًا، ربتت ساندرا على كتفي، وأخبرتني أن جاك ينتظر حتى يأخذني إلى المحطة، إذا كنت مستعدة، فوقفت وغسلت يدي، وداعبتُ بيترا أسفل ذقنها.

كانت حقيبتي بجوار الباب. كنت قد حزمت أمتعتي قبل نزولي إلى الطابق السفلي لتناول الإفطار، مدركة أنه ربما لا يتسنى لي كثير من الوقت

لاحقًا، لكن لم تكن لديَّ أدنى فكرة عمن أنزلها من الغرفة الإضافية. أمَّلت بشدة ألا تكون جين غير المرئية، مع أنني لم أعرف لمَ جعلتني تلك الفكرة أشعر بعدم الارتياح.

كان جاك ينتظر في الخارج مع السيارة المتوقفة في صمت، ويداه في جيبيه، وأشعة الشمس تُظهر بقعًا من الكستنائي والأحمر القاتمين في شعره الداكن.

قالت ساندرا، وهناك دفء حقيقي في عينيها، وهي تمد يدها:

ـ حسنًا، كان من دواعي سروري التام أن ألتقيكِ. سأحتاج إلى مناقشة الأمور مع بيل، لكن أعتقد أنه بوسعي القول... حسنًا، دعينا نقول فحسب إنك ستسمعين منا قريبًا جدًّا بشأن القرار النهائي. قريبًا للغاية. شكرًا يا روان، كنتِ رائعة.

قلت:

ـ كان من الرائع مقابلتك أنت أيضًا، يا ساندرا. بناتك رائعات.

أوه، توقفي عن قول كلمة رائع.

ـ أتمنى أن تسنح لي الفرصة للقاء ريانون في وقت ما.

كان ذلك يعني بلغة الشفرة: أتمنى أن أحصل على الوظيفة.

ـ وداعًا، يا إيلي.

مددت يدي، وصافحتها بجدية، مثل سيدة أعمال في الخامسة من عمرها.

ـ الوداع، يا مادي.

لكن ما أثار دهشتي هو أن مادي لم تأخذ يدي. بدلًا من ذلك، استدارتْ ودفنتْ رأسها في بطن أمها، رافضة أن تلتقي نظرتي. كانت لفتة طفولية غريبة، جعلتها تبدو أصغر كثيرًا من سنها. من فوق رأسها، هزتْ ساندرا كتفيها بعض الشيء، وكأنها تقول: ما الذي يسعنا أن نفعله؟

هززت كتفي أنا الأخرى، وداعبت مؤخرة شعر مادي، واستدرت نحو السيارة.

وضعت أمتعتي في المقعد الخلفي، وكنت على وشك السير إلى الجهة المقابلة من السيارة لأصعد إلى مقعد الراكب الأمامي، عندما اصطدم بي شيء مثل إعصار صغير مظلم. التفت ذراعان حول خصري، وحفر رأس صغير صلب في ضلوعي السفلية.

بينما هي تتلوى في ذلك العناق العنيف، دُهشت لرؤية أنها كانت مادي. ربما نجحتُ في اكتساب ودها على الرغم من كل شيء؟

قلت:

ـ مادي!

لكنها لم تُجِب. لم أكن متأكدة مما عليَّ فعله، لكن في النهاية انحنيت كي أبادلها العناق قليلًا.

ـ شكرًا لأنكِ أريتِني منزلك الجميل. وداعًا.

كنت آمل أن الكلمة الأخيرة ربما تجعلها تطلق سراحي، لكنها شددت قبضتها فقط، وضغطت عليَّ بقوة بدرجة غير مريحة، مما كتم أنفاسي.

ـ لا...

سمعتها تنشج في قميصي الذي كان لا يزال رطبًا، مع أنني لم أستطع تمييز الكلمة الثانية:

ـ لا تذهبي.

همستُ لها:

ـ يجب أن أفعل ذلك. لكن آمل أن أتمكن من العودة قريبًا جدًّا.

كانت هذه هي الحقيقة بالفعل. يا إلهي، لكَم تمنيت ذلك.

لكن مادي كانت تهز رأسها، وشعرها الداكن يصدر حفيفًا في مواجهة عمودها الفقري البارز. شعرتُ بحرارة أنفاسها خلال قميصي. كان هناك شيء حميمي على نحو غريب وغير مريح في الأمر برمته، شيء لم أتمكن من تحديده، وفجأة أردت بشدة أن تطلق سراحي، لكن مراعاة لوجود ساندرا، لم أرفع أصابع مادي بعيدًا. عوضًا عن ذلك، ابتسمتُ وشددت

ذراعي حولها للحظة، وأنا أبادلها العناق. بينما أنا أفعل ذلك، ندَّ عنها صوت صغير، وكأنه نشيج.

ـ مادي؟ هل هناك خطب ما؟

همستْ قائلة، وهي لا تزال ترفض النظر إليَّ:

ـ لا تأتي إلى هنا. إنه ليس آمنًا.

أطلقتُ ضحكة صغيرة.

ـ إنه ليس آمنًا؟ ما الذي تعنينه، يا مادي؟

كررتْ قائلة بشهقة صغيرة غاضبة، وهي تهز رأسها بشدة أكبر، حتى كادت كلماتها تضيع:

ـ إنه ليس آمنًا. لن يعجبهم ذلك.

ـ من الذين لن يعجبهم ذلك؟

لكن عندها، انتزعت نفسها بعيدًا، ثم ركضت عبر العشب حافية القدمين، وهي تصيح بشيء ما فوق كتفها.

ناديت خلفها:

ـ مادي! مادي، انتظري!

قالت ساندرا ضاحكة:

ـ لا تقلقي.

جاءتْ إلى جانبي من السيارة. كان من الواضح أنها لم ترَ شيئًا سوى عناق مادي المفاجئ، وهروبها اللاحق.

ـ أخشى أن هذه هي مادي. دعيها تذهب فحسب. ستعود لتناول الغداء. لكن لا بد أنها أُعجبت بك، لست متأكدة ما إذا كانت قد عانقت غريبًا طواعية من قبل!

قلت، وأنا مضطربة نوعًا ما:

ـ شكرًا.

وتركتُ ساندرا توصلني إلى السيارة وتغلق الباب.

لم أجد نفسي أعيد تعليق مادي الأخير، وأتساءل ما إذا كانت حقًّا قالت ما ظننت أنني سمعته، حتى بدأنا نتحرك ببطء عبر الطريق، باحثين عن طفلة هاربة بين الأشجار.

حيث بدا الشيء الذي صاحت به من فوق كتفها منافيًا للعقل، بدرجة لا يمكن معها أن يكون صحيحًا. ومع ذلك كلما أطلت التفكير فيه، صرت متأكدة أكثر مما سمعته.

كانت قد قالت، وهي تنشج:

ـ الأشباح. لن يعجب ذلك الأشباح.

قال جاك:

ـ حسنًا، يبدو أنني سأودعكِ الآن.

وقف عند حاجز المحطة ممسكًا بحقيبتي في يد، ويده الأخرى ممدودة. تناولتها وصافحته. كان هناك شحم غائر حول أظافره منذ الأمس، لكن جلده كان نظيفًا ودافئًا، وأصابتني الحميمية الغريبة لذلك الاتصال برعشة صغيرة لم أتمكن من تفسيرها.

قلت بارتباك بعض الشيء:

ـ سررت بلقائك.

ثم أضفت بتهور بعض الشيء، وأنا أشعر أنه ربما كان من الأفضل أن أضيف ذلك لأنني سأندم لو لم أفعل:

ـ أشعر بالأسف أنني لم أتمكن من لقاء بيل. أو... أو جين.

قال جاك، وهو يبدو حائرًا إلى حد ما:

ـ جين؟ إنها غير موجودة كثيرًا خلال اليوم. فهي تذهب إلى المنزل لوالدها.

ـ هل هي... هل هي شابة إذن؟

ـ كلا!

ابتسم تلك الابتسامة الواسعة مرة أخرى، وجانبا فمه ينحنيان في تعبير فاتن من التفكه، لدرجة أنني شعرت بفمي أنا ينحني متجاوبًا معه رغمًا عني، مع أنني لم أكن حقًّا أفهم المزحة.

ـ إنها في الخمسين على الأقل، وربما أكثر، مع أنني لن أجرؤ أبدًا على سؤالها عن عمرها. إنها... ما الكلمة؟ مقدم رعاية. يعيش والدها في القرية، وهو مصاب بمرض ألزهايمر على ما أعتقد. لا يمكن تركه بمفرده لأكثر من ساعة أو ساعتين. إنها تأتي في الصباح قبل أن يستيقظ، ثم تأتي مرة أخرى على الفور في فترة ما بعد الظهيرة. تغسل الأطباق وما إلى ذلك.

شعرت بوجهي يتضرج حمرة، وابتسمت بحماقة، وأطلقت ضحكة صغيرة.

ـ أوه، فهمت. اعتقدت... لا تشغل بالك. الأمر لا يهم.

لم يكن لديَّ وقت لتحليل شعور الراحة الذي انتابني، لكنه منحني إحساسًا غريبًا بعدم التوازن، وقد صدمني شيء لم أتوقع أن ألقاه.

ـ حسنًا، سررتُ بلقائك، يا روان.

ـ سعدت بلقائك أنت أيضًا، يا جاك.

انزلق الاسم من على لساني بارتباك بعض الشيء، وتضرج وجهي بالحمرة مرة ثانية. سمعت صوت القطار يقترب من أعلى الوادي.

ـ وداعًا.

ـ وداعًا.

مد يده بالحقيبة، وتناولتها، وأنا لا أزال أحاكي ابتسامته المنحنية الفاتنة، وشرعت في السير نحو رصيف المحطة، معطية نفسي أمرًا صارمًا ألا ألتفت إلى الوراء. عندما وصل القطار أخيرًا، وصعدت على متنه واستقررت في عربة، جازفت بنظرة أخيرة من النافذة، إلى حيث كان يقف. لكنه رحل. وهكذا، بينما كان القطار يخرج من المحطة، كان آخر ما لمحته من كارن بريدج رصيف محطة خاليًا، نظيفًا تمامًا وغارقًا في الشمس في انتظار عودتي.

بعد أن عدت إلى لندن، أعددت نفسي لفترة انتظار مؤلمة. قالت ساندرا: قريبًا للغاية. لكن ما الذي يعنيه ذلك؟ بدا من الواضح أنها أُعجبت بي، ما لم أكن

أضلل نفسي. لكنني مررت بما يكفي من المقابلات لأتمكن من تحديد الشعور السائد في الجو عند رحيلي. في الأشهر الأخيرة، اختبرت كلًّا من الشعور بالانتصار لكوني أنصفت نفسي، وخيبة الأمل الغاضبة لكوني خذلت نفسي. شعرت أنني أقرب كثيرًا لأولهما وأنا في القطار عائدة إلى لندن.

هل كان لديهم أشخاص آخرون سيُجرون مقابلات معهم؟ كانت قد بدت في غاية اليأس حتى تجد شخصًا يبدأ العمل سريعًا، ولا بد أنها تعرف أن كل يوم يمر من دون أن أقدم لهم إخطارًا في العمل هو يوم لا يمكنني أن أعمل لديها فيه. لكن ماذا لو كان أحد المرشحين الآخرين يستطيع البدء على الفور؟

نظرًا إلى تركيز ساندرا على «قريبًا للغاية»، فقد جرؤتُ على الشعور بالأمل لأن يصل إليَّ شيء ما على هاتفي عند وصولي إلى المنزل، لكن لم يكن هناك شيء في ذلك المساء، ولا في اليوم التالي عندما غادرتُ متوجهة إلى العمل. كان يجب علينا ترك هواتفنا مغلقة في خزائننا في «ليتل نيبرز»، لذا أذعنتُ لصباح طويل وأنا أستمع إلى جانين وهي تثرثر عن صديقها الممل، وتصدر الأوامر لي ولهيلي، بينما كان عقلي طوال الوقت في مكان آخر.

لم يكن موعد فترة راحتي للغداء حتى الواحدة ظهرًا، لكن عندما دقت الساعة، أنهيت على عجالة أمر الحفاضة التي كنت أغيرها، ووقفت وناولت الرضيع إلى هيلي.

ـ معذرة يا هيلز، هل يمكنك أن تأخذيه؟ فلديَّ أمر طارئ عليَّ الاعتناء به.

نزعت المئزر البلاستيكي المخصص للاستعمال مرة واحدة، وكدت أركض إلى غرفة الموظفين. هناك، انتزعت حقيبتي من خزانتي، وهربت من المدخل الخلفي إلى الساحة الخرسانية الصغيرة، بعيدًا عن أنظار الأطفال والأهالي، والتي كنا نستغلها للتدخين والمكالمات الهاتفية، وغيرها من الأنشطة التي لم يكن من المسموح ممارستها خلال ساعات العمل. بدا

وكأن الأمر استغرق دهرًا حتى يشتغل الهاتف وينتقل من شاشة بدء التشغيل التي استمرت إلى ما لا نهاية. لكن أخيرًا، ظهرت شاشة القفل، وأدخلت رمز المرور الخاص بي بأصابع مرتجفة، وضغطت لتحديث رسائل بريدي الإلكتروني. وبينما أفعل ذلك، مددتُ يدي إلى قلادتي، وتتبعت أصابعي حلقاتها وحوافها في أثناء تنزيل الرسائل.

واحدة... اثنتان... وصلت ثلاث... كانت كلها إما بريدًا عشوائيًّا، وإما غير مهمة على الإطلاق، وشعرت بخيبة أمل، حتى لاحظت الأيقونة الصغيرة في زاوية الشاشة. كانت لديَّ رسالة صوتية مسجلة.

كانت معدتي تنقبض وتتقلص، وشعرت بنوع من الغثيان الناتج عن الارتعاد، بينما أنا أتصل بالبريد الصوتي، وأنتظر بفراغ صبر خلال الرسائل الآلية المسجلة. إذا لم ينجح هذا الأمر... إذا لم ينجح هذا الأمر...

الحقيقة هي أنني لم أكن أعرف ما الذي سأفعله إذا لم ينجح هذا الأمر. وقبل أن أنتهي من التفكير، علا صوت صفير، وسمعت لهجة ساندرا الأرستقراطية الواضحة، والتي بدت ذات نبرة عالية من خلال مكبر الصوت الصغير.

> أوه، مرحبًا، روان. معذرة لعدم التحدث معكِ شخصيًّا، أعتقد أنك في العمل. حسنًا، يسعدني القول إنني ناقشت الأمر مع بيل، ويسعدنا أن نعرض عليك الوظيفة إذا كان بوسعك البدء في ١٧ يونيو على أبعد تقدير، وقبل ذلك إذا استطعتِ. أدرك أننا لم نناقش الشروط المحددة والمكافأة التي ذكرتها في الرسالة. ستكون الخطة هي أن نقدم لك بدلًا شهريًّا مقداره ألف جنيه إسترليني، وباقي الراتب في نهاية العام على صورة مكافأة إنجاز. أرجو أن يكون هذا مقبولًا، أدرك أنه غير تقليدي بعض الشيء، لكن نظرًا إلى أنك ستعيشين معنا فلن تكون لديك الكثير من النفقات اليومية. من فضلك أخبريني في أقرب وقت ممكن ما إذا كنت ترغبين في القبول، وأوه، نعم، كان جميلًا لقاؤك في ذلك اليوم. أُعجبت للغاية بمدى السرعة التي تقبَّلك بها الأطفال، ولا سيما

مادي. فهي ليست دومًا أسهل الأطفال تعاملًا و... حسنًا، أنا أستطرد في الحديث، لذا من الأفضل أن أنهي هذا باختصار. لكن سيسعدنا انضمامك إلينا. أتطلع إلى سماع رد منك.

كانت هناك تكة، ثم انتهت الرسالة.

لم أتمكن من الحركة لمدة دقيقة. وقفت فحسب والهاتف في يدي، محدقة إلى الشاشة. ثم اندفعت بداخلي فورة هائلة من النشوة، ووجدت نفسي أرقص، وأقفز في دوائر، وأسدد اللكمات للهواء، وأبتسم ابتسامة عريضة كالمجنونة.

قال من فوق كتفي صوت خشن من أثر الدخان:

ـ اللعنة، ماذا دهاك؟

واستدرت وأنا ما زلت مبتسمة، لأرى جانين مستندة إلى الباب، وفي إحدى يديها سيجارة وفي الأخرى قداحة.

قلت وأنا أعانق نفسي، بينما تملأني بهجة لم أستطع حتى أن أحاول كتمها:

ـ ماذا دهاني؟ سأخبركِ ما الذي دهاني، يا جانين. لقد حصلت على وظيفة جديدة.

ارتسم على ملامح جانين وهي تشعل القداحة تعبير لاذع بعض الشيء.

ـ حسنًا، لا داعي لأن تظهري بهجتك بالنصر لذلك الأمر إلى هذه الدرجة.

ـ أوه، بربك، لقد سئمتِ من فال مثلي تمامًا. إنها تخدعنا جميعًا، وأنت تعرفين ذلك. لقد رفعَتِ الرسوم بنسبة عشرة في المائة بالعام الماضي، ونحصل نحن المساعدين بالكاد على الحد الأدنى للأجور. لا يمكنها الاستمرار إلى الأبد في إلقاء اللوم على الركود الاقتصادي.

قالت جانين:

ـ أنت غاضبة فحسب لأنني عُينت رئيسةً لغرفة الرضع.

سحبت نفَسًا من سيجارتها، ثم عرضت عليَّ العلبة. كنت أحاول الإقلاع

لتخفيف حالة الربو لديَّ (حسنًا، كنت قد أقلعت رسميًّا بالفعل)، لكن كلماتها أصابت الهدف، لذا أخذت واحدة وأشعلتها ببطء، كوسيلة لمنح نفسي الوقت للسيطرة على ملامحي أكثر منه بسبب كوني أرغب في التدخين بالفعل. غضبتُ بالفعل من حصولها على الترقية، بينما كنت أعتقد بصراحة أن لديَّ فرصة أفضل. كنت قد تقدمت بالطلب وأنا أظن أن نجاحي مضمون. وكانت الصدمة عندما ذهبت الوظيفة إلى جانين مثل لكمة في البطن. لكن كما قالت فال ساعتها، كانت هناك مرشحتان ووظيفة واحدة فقط. لم يكن هناك شيء يمكنها فعله حيال ذلك. مع ذلك فقد ظل الأمر يزعجني، خاصة عندما أخذت جانين تستخدم سلطتها، وتصدر الأوامر بتلك اللكنة المزعجة وهي تمد الكلام.

قلت وأنا أنفث الدخان، وأعيد إليها القداحة بابتسامة عذبة:

ـ حسنًا، لم يعُد ذلك يهم الآن. نحو الأمام، وإلى الأعلى، أليس كذلك؟

جعلتني الابتسامة المتعالية نوعًا ما التي منحتني إياها أضيف بخبث بعض الشيء:

ـ في الواقع، إلى الأعلى كثيرًا.

قالت جانين:

ـ ما الذي تعنينه؟

ضيقت عينيها.

ـ هل نتحدث عن أكثر من ثلاثين ألفًا؟

قمت بحركة تصاعدية بيدي، واتسعت عيناها.

ـ أربعين؟ خمسين ألفًا؟

قلت باعتداد، وأنا أشاهد فكها يسقط:

ـ وتتطلب الإقامة.

هزت رأسها.

ـ أنت تمزحين معي.

ـ أنا لا أفعل ذلك.

فجأة، لم أعُد بحاجة إلى السيجارة. سحبت نفَسًا أخيرًا، ثم ألقيتها لتنضم إلى أعقاب السجائر المسحوقة في الفناء، وهرستها تحت كعبي.

ـ شكرًا على السيجارة. والآن إذا سمحتِ لي، فأنا بحاجة إلى إجراء اتصال هاتفي، وقبول وظيفة.

اتصلت برقم ساندرا، واستمعت إليه وهو يرن ثم يحولني إلى جهاز الرد الآلي. شعرت بالارتياح بطريقة ما، فلم أرغب في الخضوع للاستجواب أمام جانين بخصوص تاريخ بدئي للعمل. إذا عرفتْ أنه شرط بوسعه إنجاح الأمر أو إفساده، فقد تخبر فال التي يمكنها أن تتعمد تصعيب الأمور بالنسبة إليَّ.

قلت عند صدور صوت الصفارة:

ـ أوه، مرحبًا، ساندرا. شكرًا جزيلًا على رسالتك. أنا مسرورة، ويسعدني القبول. أحتاج إلى ترتيب بعض الأمور في هذا الجانب، لكنني سأرسل إليك رسالة بريد إلكتروني بخصوص تاريخ البدء. أنا متأكدة من أنه لن يمثل مشكلة. و... حسنًا، شكرًا، على ما أعتقد! سأكون على اتصال. أخبريني إذا كان هناك أي شيء تحتاجين إليه مني كي نبدأ الإجراءات.

ثم أقفلت الخط.

سلمت إخطاري لفال في اليوم نفسه. حاولت أن تتصرف وكأنها سعيدة من أجلي، لكن في الحقيقة بدت غاضبة في الغالب، خاصة عندما أخبرتها أن رصيدي المتراكم من الإجازات يعني أنني سأنتهي من العمل في ١٦ يونيو، بدلًا من ١ يوليو كما افترضتُ. حاولت أن تخبرني أنه يجب عليَّ العمل في أيام الإخطار، وأن أتلقى راتبًا مقابل أيام الإجازات. لكن عندما دعوتها إلى لقائي في المحكمة، لا أكثر ولا أقل، رضخت للأمر.

مرت الأيام القليلة التالية في دوامة من الأنشطة والأمور العملية. كانت ساندرا تتولى أمر كل كشوف رواتبها عن بعد من خلال شركة في مانشستر، وأرادت مني الاتصال بهم مباشرةً لإعطائهم تفاصيل الدفع والهوية الشخصية، بدلًا من إرسال جميع الأوراق إلى اسكتلندا. توقعتُ أن تكون العملية بمثابة حجر عثرة كبير، بل ربما يتطلب مني السفر إلى مانشستر من أجل مقابلة شخصية. لكن في النهاية كان الأمر بسيطًا على نحو مفاجئ، ويكاد يكون مربكًا. حولتُ إليهم رسالة ساندرا الإلكترونية مع رقم مرجعي، ثم عندما ردوا، أرسلت إليهم مسحًا ضوئيًا لجواز السفر، وفواتير الخدمات، والتفاصيل البنكية التي طلبوها. أُنجزَ الأمر من دون عوائق. وكأنما كان مُقدَّرًا له أن يحدث.

لن يعجب ذلك الأشباح.

لاحت العبارة في عقلي، بصوت مادي الصغير الحاد المرتفع، وارتجافته الطفولية تضفي على الكلمات رهبة كنت سأتجاهلها عادة.

لكن ذلك كان هراء. هراء تامًّا. لم أرَ أي لمحة للشيء الخارق للطبيعة طوال فترة وجودي في كارن بريدج. كانت في الأغلب مجرد حكاية خيالية استغلتها المربيات الأجنبيات اللاتي شعرن بالحنين إلى أوطانهن، فتيات تخطين بالكاد سن المراهقة، ولغتهن الإنجليزية ضعيفة، وغير قادرات على التعامل مع العزلة والموقع البعيد. رأيت ما يكفي منهن يعملن في أماكن في لندن كي أعرف النظام. حتى إنني توليت بعض الأعمال الطارئة بعد أن هربن في الليل بنصف تذكرة سفرهن الخاص بالعودة، تاركات الأهالي ليلملموا شتات الأمور. لم يكن شيئًا غير مألوف.

كنت أكبر سنًّا وأكثر حكمة من ذلك بكثير، وكانت لديَّ أسباب وجيهة للغاية للرغبة في إنجاح هذا الأمر. لا يوجد أي قدر من «الأشباح» المزعومين سيجعلني أتخلى عن هذه الفرصة.

أنظر إلى الوراء، وأريد أن أهز تلك الشابة المتعجرفة الجالسة في شقتها في لندن، معتقدة أنها تعرف كل شيء، ورأت كل شيء.

أريد أن أصفع وجهها، وأخبرها أنها لا تعرف ما تتحدث عنه.

لأنني كنت مخطئة، يا سيد ريكسام. كنت مخطئة جدًّا جدًّا.

بعد أقل من ثلاثة أسابيع، كنت أقف على رصيف محطة قطار كارن بريدج، محاطة بحقائب وصناديق تبدو أكثر مما يمكن لشخص واحد أن يحمله.

عندما أتى جاك بخطوات واسعة عبر رصيف المحطة، ومفاتيح السيارة تصلصل في يده، انفجر في الضحك فعليًّا.

ـ يا إلهي، كيف عبرتِ لندن بكل ذلك؟

قلت بصدق:

ـ ببطء. وعلى نحو مؤلم. استقللت سيارة أجرة، لكن الأمر كان بمثابة كابوس لعين.

قال:

ـ نعم، حسنًا، أنت هنا الآن.

وتناول أكبر حقيبتين من حقائبي، ودفعني بطريقة ودية عندما حاولت أن أستعيد منه أصغرهما.

ـ لا، لا، خذي أنت تلك الأُخر.

قلت بقلق:

ـ أرجوك، كن حذرًا. إنها ثقيلة حقًّا. لا أريدك أن تؤذي ظهرك.

ابتسم، كما لو أن ذلك الاحتمال ضئيل جدًّا، لدرجة أنه مثير للضحك.

ـ تعالَي، السيارة في هذا الاتجاه.

كان يومًا رائعًا آخر، حارًّا ومشمسًا، ومع أن الشمس بدأت تغيب في الأفق، وأخذت الظلال تتطاول، إلا أن بذور نبات الجولق كانت لا تزال

تنفجر بصوت مسموع، بينما نقود بصمت عبر الممرات المشجرة وطرق المستنقعات نحو «هيذربراي». بدا المنزل ونحن نقود عبر الممر أجمل حتى مما كنت أتذكر، وهو ينعم بشمس المساء، والأبواب مفتوحة، والكلبان يركضان في كل مكان وينبحان بشدة. خطر لي فجأة، مع شيء من الصدمة، أنه من المفترض أن أكون مسؤولة عن الكلبين، إلى جانب الأطفال، في غياب ساندرا وبيل. أو ربما كانت هذه مهمة جاك أيضًا؟ لا بد لي من معرفة ذلك. طفلتان ورضيعة هن في نطاق منطقة الراحة بالنسبة إليَّ. ويمكنني بالكاد تدبر أمر مراهِقة علاوة على هذا. على الأقل، تمنيت أن أتمكن من ذلك. لكن أضف إلى ذلك كلبين صاخبين، وسأبدأ في الشعور بالارتباك.

ـ روان!

خرجت ساندرا تركض من الباب الأمامي، وذراعاها ممدودتان، وقبل أن أخرج تمامًا من السيارة، كانت قد أحاطتني بحضن أمومي. ثم تراجعت للخلف، ولوحت بيدها نحو شخص يقف في ظلال الشرفة، رجل طويل أصلع بعض الشيء، له شعر قصير داكن.

ـ روان، هذا زوجي، بيل. بيل، تعرَّف إلى روان كين.

إذن هذا هو، هذا هو بيل إلينكورت. للحظة، لم أستطع التفكير فيما أقوله، ووقفت هناك فقط، مستشعرة بحرج من ذراع ساندرا التي تحيط بي، وأنا غير متأكدة ما إذا كان عليَّ التحرر من قبضتها والذهاب لتحيته أم...

كنت لا أزال مترددة بلا حراك، عندما حل هو المشكلة بأن تقدم نحوي مادًّا يده، ووجه لي ابتسامة سريعة عملية.

ـ روان، سررت للقائك أخيرًا. أخبرتني ساندرا كل شيء عنك. لديك سيرة ذاتية مثيرة للإعجاب للغاية.

فكرت: «ليست لديك أدنى فكرة، يا بيل»، بينما هو يتناول إحدى الحقائب من مؤخرة السيارة، ويشق طريقه عائدًا إلى المنزل. أخذت نفَسًا عميقًا،

واستعددت لأن أتبعه، وبينما أنا أفعل ذلك، امتدت يدي بتوتر إلى قلادتي. لكن هذه المرة، بدلًا من تتبع أخاديدها المألوفة، أخفيت القلادة داخل عنق قميصي وأسرعت خلفهما.

تناولنا القهوة في المطبخ، وجلست بتوتر على حافة أحد مقاعد الإفطار المعدنية، في حين استجوبني بيل بخصوص مؤهلاتي، وأنا أشعر بالتوتر بطريقة لم تنتَبني قَطُّ عندما أجرت ساندرا معي المقابلة. أردت... لا أدري. كنت أرغب في إثارة إعجابه، على ما أعتقد. لكن في الوقت نفسه، بينما هو يواصل الحديث برتابة عن جدول عمله الصارم، وصعوبات تعيين الموظفين في مرتفعات اسكتلندا، وأوجُه القصور لدى المربيات السابقات لديه، شعرت برغبة متزايدة في الهروب منه.

لا أعرف ما الذي تخيلته. شخصًا ناجحًا، على ما أظن. كنت أعرف ذلك من الإعلان، ومن المنزل. شخصًا محظوظًا، بأطفاله الجملاء، وزوجته البارعة، وعمله المثير للاهتمام. أخذت كل ذلك كأمر مُسلَّم به. لكنه كان... كان مرتاحًا للغاية. كان ممتلئًا، كل شبر منه. لا أعني أنه كان بدينًا، بل كان محشوًّا جسديًّا، وعاطفيًّا، وماليًّا، على نحو لم يبدُ أنه يفهمه، وكان جهله بتلك الحقيقة هو ما جعل الأمر أكثر إثارة للغضب.

أردت أن أصرخ فيه: «هل لديك فكرة عن طبيعة الأمور؟»، بينما هو يتذمر من البستاني الخاص بهم الذي رحل للعمل في وظيفة بدوام كامل مدرسًا في إدنبرة، ومساعِدة المنزل التي أفسدت وحدة التخلص من النفايات في الحوض البالغ ثمنها ثمانمائة جنيه إسترليني، ثم هربت لأنها لم تتمكن من مواجهة إخبارهما بما فعلته. هل تفهم كيف هو الحال بالنسبة إلى الأشخاص الذين لا يمتلكون أموالك، وحمايتك وامتيازاتك؟

بينما هو جالس هناك، يتحدث بإسهاب، وكأنه لا يوجد في العالم شيء بأهمية مشكلاته التافهة، وساندرا تتأمل وجهه بإعجاب، كما لو أنها سعيدة بالاستماع إليه وهو يتحدث برتابة إلى الأبد، أدركتُ الأمر بشكل مؤلم.

كان أنانياً. رجلًا أنانيًا، يهتم بذاته فقط، ولم يوجه إليَّ بالكاد سؤالًا شخصيًّا واحدًا، ولا حتى كيف كانت رحلتي. إنه لم يكن يهتم ببساطة.

لا أدري ما الذي كنت أتوقع أن أشعر به عندما ألتقيه، هذا الرجل الذي لم يكلف نفسه عناء مقابلة امرأة كان يخطط لترك أطفاله معها لأسابيع في كل مرة، لكنني لم أتوقع الشعور بهذا القدر من العداء. كنت أعرف أنني يجب أن أتمالك نفسي، وإلا سينعكس ذلك على ملامحي.

ربما رأت ساندرا شيئًا من عدم ارتياحي، حيث أطلقتْ ضحكة صغيرة، وقاطعته:

- عزيزي، لا ترغب روان في سماع مشكلاتنا المنزلية. فقط، تأكدي من عدم وضع أدوات المائدة في وحدة التخلص من النفايات، يا روان! على أي حال، بكل جدية، كل التعليمات هنا.

ربتتْ على ملف أحمر منتفخ عند مرفقها.

- إنها نسخة ورقية من المستند الذي أرسلته إليكِ بالبريد الإلكتروني الأسبوع الماضي. ولو لم تسنح لك الفرصة للجلوس وقراءته بعد، فهو يحتوي على كل شيء، بدءًا من طريقة تشغيل الغسالة، ووصولًا إلى أوقات نوم الأطفال، وما الذي يحبون تناوله من طعام، وما لا يحبونه. إذا كانت لديك أي مخاوف على الإطلاق، ستجدين الإجابات هنا. مع ذلك، يمكنك الاتصال بي في أي وقت بالطبع. هل نزلتِ هابي؟

- معذرة؟

- هابي، تطبيق إدارة المنزل. لقد أرسلت إليك شفرة الإذن عبر البريد الإلكتروني؟

- أوه، أنا آسفة، التطبيق، أجل، نزلته.

بدا عليها الارتياح.

- حسنًا، هذا هو أهم شيء. لقد أعددت ملف التعريف الخاص بكِ

لهابي، مع كل الأذونات التي ستحتاجين إليها، وهو يعمل كجهاز مراقبة للأطفال بالطبع، مع أننا جلبنا جهازًا عاديًّا أيضًا لغرفة بيترا. زيادة في الأمان، كما تعرفين، لكن التطبيق جيد للغاية. ماذا أيضًا...؟ أوه، الطعام! لقد وضعت لك خطة لقائمة الطعام هنا.

سحبتْ ورقة منفصلة من حافظة بلاستيكية في الصفحة الأولى من الملف.

ـ وهي ممتلئة بالأشياء التي ستتناولونها بشكل مضمون إلى حد ما، واشتريت جميع المكونات، بحيث تكونين جاهزة تمامًا خلال الأسبوع الأول. بالإضافة إلى ذلك، فإن كل كلمات المرور للموقع الإلكتروني لسوبر ماركت «ويتروز» وما إلى ذلك موجودة هنا. وهاكِ بطاقة ائتمانية لأي مصروفات منزلية. كشف الحساب يصل إليَّ مباشرة أنا وبيل، لكن بالتأكيد عليك الاحتفاظ بالإيصالات. لا بأس من التقاط صورة سريعة على هاتفك، لا حاجة لأن تحتفظي بالورقة الفعلية. إممم... ماذا أيضًا؟ أتوقع أن لديك كثيرًا من الأسئلة؟

قالت عبارتها الأخيرة تلك بنبرة أمل بسيطة، مع أنني لم أكن متأكدة تمامًا ما إذا كانت تأمل أن أحثها، أم تأمل أن أقول لا.

قلت:

ـ قرأت رسالة البريد الإلكتروني بالفعل.

لكن في الحقيقة، لأن المستند بلغ نحو خمسين صفحة ممتلئة بالكتابة، فقد اكتفيت بتصفحه فقط.

ـ لكن سيكون من المفيد جدًّا بالطبع الحصول على نسخة مطبوعة. من الأسهل للغاية دومًا تصفح نسخة ورقية. كانت شاملة على نحو مثير للإعجاب. أعتقد أنني فهمت كل شيء ويمكنني التعامل معه، نظام بيترا، وحساسية إيلي، ومادي، إممم...

توقفتُ، وأنا غير متأكدة من كيفية إعادة صياغة ما أطلقتْ ساندرا على

ابنتها بأنها شخصية متفجرة. بدا الأمر وكأن مادي يصعب التعامل معها، أو أنه يمكنها أن تكون كذلك.

انتبهتْ ساندرا إليَّ، وشعرت بمعضلتي، وابتسمت ابتسامة صغيرة حزينة تعني «نعم».

ـ حسنًا، أجل، مادي، حقًّا! ستبقى ريانون في المدرسة في عطلة نهاية هذا الأسبوع لاحتفالات نهاية الفصل الدراسي. ستعود إلى المنزل في الأسبوع المقبل، وقد رتبت أمر توصيلها وكل شيء، لذا لا يوجد لديك ما تقلقين بشأنه بخصوص هذا الأمر. ماذا أيضًا... ماذا أيضًا...؟

قلت بتردد:

ـ لا أعتقد أننا رتبنا تمامًا موعد رحيلكما. أعرف أنكِ ذكرت في رسالة البريد الإلكتروني أن لديكما معرضًا تجاريًّا في الأسبوع المقبل، متى يبدأ تحديدًا؟ هل هو السبت المقبل؟

بدت ساندرا مندهشة.

ـ أوه! ألم أذكر ذلك؟ يا إلهي، كان ذلك سهوًا بعض الشيء. هذه هي... إممم... هذه هي المشكلة الوحيدة في الواقع. إنه يوم السبت، لكن ليس السبت المقبل، بل هذا السبت. سنرحل غدًا.

ـ ماذا؟

تخيلتُ للحظة أنني لم أسمع بشكل صحيح.

ـ هل قلتِ إنكما سترحلان غدًا؟

قالت ساندرا، وقد ارتسم الشك على وجهها فجأة:

ـ نعم... سنستقل قطار الثانية عشرة والنصف، لذا سنغادر قبل الغداء مباشرة. أنا... هل هذه مشكلة؟ إذا لم تكوني واثقة من قدرتك على التعامل بعد وصولك للتو، يمكنني أن أحاول إعادة جدولة مواعيدي المبكرة...

انخفض صوتها حتى صمتتْ تمامًا، وابتلعتُ أنا ريقي.

قلتُ بثقة لم أكن أستشعرها تمامًا:
ـ لا بأس. أعني، سأضطر إلى الاستغراق في العمل في وقت ما، ولا أعتقد حقًا أنه سيشكل فارقًا كبيرًا سواء كان ذلك في عطلة نهاية هذا الأسبوع، أو الأسبوع المقبل.

كان هناك صوت يصرخ في داخل رأسي. هل أنتِ مجنونة؟ أنت بالكاد تعرفين هؤلاء الأطفال.

لكنَّ جزءًا آخر مني كان يهمس بشيء مختلف تمامًا: هذا جيد. لأنه بطريقة ما، كان هذا يجعل الأمور أسهل كثيرًا.

كانت ساندرا تقول:
ـ يمكننا أن نتصرف على حسب الموقف. سأبقى على تواصل عبر الهاتف، وفي حال ما إذا كان الأطفال مضطربين للغاية، فبوسعي العودة ربما في منتصف الأسبوع؟ سيكون معك الصغار فقط في الأيام القليلة الأولى، لذا نأمل أن يجعل هذا الفترة الانتقالية أسهل بعض الشيء...

توقفتْ مرة أخرى، ببعض الحرج في هذه المرة، لكنني كنت أومئ برأسي. كنت أومئ في الواقع وملامحي جامدة من أثر الجهد الذي بذلته في محاولة كتم مشاعري الحقيقية.

قالت ساندرا أخيرًا:
ـ حسنًا.

وضعتْ فنجان قهوتها.
ـ بيترا في الفراش بالفعل. لكنَّ الفتاتين في غرفة التلفزيون تشاهدان «الخنزيرة بيبا». لا أريد أن أفوض إليك تمامًا آخر موعد لنومهما أقضيه معهما، لكن هلا فعلنا ذلك معًا، حتى يمكنك اعتياد نظامهما؟

أومأت برأسي، وتبعتها وهي تقود الطريق عبر السقف الزجاجي المظلم الشبيه بسقف الكاتدرائية، نحو الباب المخفي لغرفة التلفزيون.

كانت الستائر مغلقة في الداخل، والأرض لا تزال مغطاة بالمكعبات

المتناثرة والدمى المهترئة، وكانت هناك فتاتان صغيرتان مستكينتين معًا على الأريكة، مرتديتين منامتين من قماش الفلانيل، وممسكتين بدمى على شكل دببة ناعمة بالية. كانت مادي تمص إبهامها، مع أنها أخرجته من فمها سريعًا ما إن دخلت والدتها، وجفلتْ قليلًا لشعورها بالذنب. عزمتُ على البحث عن هذا الأمر في الملف.

جلسنا على ذراعَي الأريكة، وساندرا تداعب بأصابعها شعر إيلي المجعد الناعم بحنان، في حين أوشكتِ الحلقة على الانتهاء. ثم التقطت جهاز التحكم عن بعد، وأطفأت الشاشة.

تعالت الجوقة على الفور، مع أن ذلك كان بفتور بعض الشيء، وكأنهما لم تتوقعا في الحقيقة أن توافق ساندرا.

ـ أوه، يا أمي! حلقة واحدة أخرى فقط!

قالت ساندرا:

ـ لا، يا عزيزتاي.

حملتْ إيلي، التي لفت ساقيها حول وسطها، ودفنتْ وجهها في كتف والدتها.

ـ لقد تأخر الوقت للغاية. هيا بنا، لنصعد إلى الأعلى. إذا كنتما محظوظتين جدًّا، ستقرأ لكما روان قصة الليلة!

همستْ إيلي في منحنى عنق والدتها:

ـ لا أريد روان. أريدك أنت.

قالت ساندرا:

ـ حسنًا... سنرى عندما نصعد إلى هناك.

حملتْ إيلي في وضع مريح أكثر، ومدتْ يدها إلى مادي.

ـ تعالَي يا حلوتي. لنذهب إلى الأعلى.

قالت إيلي بإصرار، عندما شرعتْ ساندرا تصعد السلم، وأنا خلفها:

ـ أريدك أنت.

أدارتْ ساندرا عينيها في محجريهما بعض الشيء، ومنحتني ابتسامة من فوق كتفها.

همستْ لإيلي مع أن صوتها كان مرتفعًا بما فيه الكفاية، وقد تعمدتْ أن أسمعه:

ـ أتعلمين، ربما تحصلين على قصة مني، بالإضافة إلى قصة من روان. كيف يبدو هذا؟

لم تُحِر إيلي جوابًا، بل دفنت وجهها بدرجة أعمق في كتف ساندرا.

في الطابق العلوي، كانت الستائر على بسطة السلم مغلقة، وكان بوسعي رؤية الضوء الوردي الشاحب لمصباح بيترا الليلي وهو يتدفق عبر السجادة. أشرفت ساندرا على تنظيف الأسنان والذهاب إلى دورة المياه، بينما شققت أنا طريقي عبر الردهة المفروشة بالسجاد الناعم إلى مدخل غرفة مادي وإيلي.

كان هناك فراشان صغيران، وكل منهما غارق في وهج ناعم لمصباح بجواره، أحدهما وردي، والآخر بدرجة تشبه الخوخ الداكن. فوق كل واحد منهما كانت هناك مجموعة من المطبوعات داخل إطارات، بصمة قدم طفل، وخربشة يمكن التعرف عليها بالكاد بوصفها قطة، وفراشة مؤلفة من بصمة كفين صغيرتين ممتلئتين، وتشابكت حول الإطارات خيوط من أضواء الزينة، تصدر إنارتها الخافتة.

كانت مثالية تمامًا، مثل صورة من إحدى المجلات المصورة لغرف الأطفال.

جلستُ بحذر عند قدمِ أحد الفراشين الصغيرين، وأخيرًا سمعت وقع أقدام وأصواتًا متذمرة، أسكتتها ساندرا على عجل.

ـ ششش، مادي، ستوقظين بيترا. هيا الآن، اخلعا الروبين، وإلى الفراش.

قفزت إيلي إلى فراشها، لكن مادي وقفت متصلبة للحظة وهي تتأملني، وأدركتُ أن الفراش الذي أجلس عليه لا بد أن يكون فراشها.

سألتُها:

ـ هل تريدينني أن أتحرك؟

لكنها لم تقل شيئًا، بل عقدت ذراعيها بتمرد، ودخلت الفراش، وأدارت وجهها تجاه الحائط، وكأنها تتظاهر بأنني لست موجودة.

سألتُ ساندرا:

ـ هل أجلس على مقعد «البين باج»؟

فضحكتْ، وهزتْ رأسها.

ـ لا بأس. ابقي هناك. تحتاج مادي إلى بعض الوقت كي تألف الناس أحيانًا، أليس كذلك يا حلوتي؟

لم تقل مادي شيئًا، ولم أكن متأكدة ما إذا كان بوسعي لومها. لا بد أنه من غير المريح أن تسمع أمرها وهو يُناقَش مع شخص غريب بهذا الشكل.

بدأت ساندرا تقرأ حكاية من حكايات الدب ويني، وصوتها منخفض ويبعث على النعاس، وعندما انتهتْ أخيرًا من آخر جملة، انحنت لتتفقد وجه إيلي. كانت عيناها مغلقتين، وكانت تشخر برقة شديدة. قبّلت ساندرا وجنتها، وأطفأت النور، ثم وقفت وأتت تجاهي.

قالت بهدوء بالغ:

ـ مادي. مادي، هل تريدين حكاية من روان؟

لم تقل مادي شيئًا، وانحنت ساندرا ملقية نظرة على وجهها، الذي كان لا يزال مواجهًا للحائط. كانت عيناها مغلقتين تمامًا.

همستْ ساندرا وفي صوتها نبرة انتصار:

ـ نامت على الفور! أوه، حسنًا، ستضطر حكايتك إلى الانتظار حتى الغد. آسفة أنه لم يسنح لي سماعها.

قبّلتْ وجنة مادي أيضًا، وسحبت غطاءها للأعلى قليلًا، ودسّت لعبة طرية من نوع ما أسفل ذقنها، لم أتبين ماهيتها تحديدًا، ثم أطفأت ضوءها أيضًا، تاركة فقط وهج المصباح الليلي. ثم ألقت نظرة أخيرة على ابنتيها النائمتين، وشقت طريقها نحو الباب، وأنا أتبعها.

قالت:

ـ هل يمكنك إغلاق الباب خلفك؟

واستدرتُ وأنا أستعد لفعل ذلك، وألقيتُ نظرة ورائي على الفراشين الأبيضين الصغيرين، وشاغلتَي الفراشين اللتين كانت الظلال تغمرهما حينها.

كان المصباح الليلي خافتًا للغاية، وقريبًا جدًّا من الأرض بحيث لا يُظهر الكثير سوى الظلال حول سريرَي الفتاتين، لكن للحظة، في عمق الظلام، ظننت أنني رأيت بريق عينين صغيرتين تحدقان إليَّ.

ثم أغمضتا، وسحبتُ الباب خلفي.

لم أتمكن من النوم تلك الليلة. لم يكن السبب هو الفراش، الذي كان لا يزال مريحًا على نحو مترف كما كان من قبل. ولم تكن الحرارة هي السبب. كانت الغرفة دافئة بشكل خانق في البداية عندما دخلتُ، لكنني تمكنت من إقناع النظام بالانتقال إلى نظام التبريد، وبات الهواء معتدلًا بشكل لطيف ذلك الوقت. لم يكن السبب حتى هو قلقي من الوجود بمفردي مع الأطفال في اليوم التالي. بل بالعكس، فقد كنت أشعر بالارتياح لفكرة التخلص من بيل وساندرا. حسنًا... ليست ساندرا... في الغالب بيل بصراحة...

أومضتْ نهاية الأمسية غير المريحة في عقلي مرة أخرى. كنا جالسين في المطبخ، نتحدث وندردش، ثم تمطت ساندرا أخيرًا وتثاءبت، وأعلنت نيتها الذهاب إلى الفراش مبكرًا. قبَّلت بيل وتوجهت إلى السلم، وما إن شرعتُ أفكر في أن أتبعها حتى أعاد بيل ملء كأسينا من دون أن يسألني.

قلتُ بفتور:

ـ أوه، لقد كنت... أعني أنه لا ينبغي لي أن...

دفع الكأس تجاهي.

ـ هيا. واحدة أخرى فقط. على كل حال، هذه هي فرصتي الوحيدة للتعرف إليك، قبل أن أعهد إليك برعاية أطفالي! فأنا لا أعرف عنك أكثر مما أعرفه عن أي غريب.

وجه لي ابتسامة عريضة، فتجعدت وجنتاه المسمرتان، وتساءلت عن عمره. بدا وكأنه يمكن أن يتراوح ما بين الأربعين حتى الستين، كان من

الصعب معرفة ذلك. كان يرتدي نظارات من دون إطار، ولديه وجه من تلك الوجوه المسمرة التي يظهر عليها أثر الطقس بعض الشيء، وأضفى عليه شعره القصير نوعًا من الشباب الدائم تقريبًا، مثل بروس ويليس إلى حد ما.

كنت متعبة للغاية، وشعرتُ أخيرًا بأثر الرحلة الطويلة وإجهاد حزم الأمتعة يداهمني مثل طن من الحجارة. لكن كان هناك ما يكفي من الصدق في ملاحظته حتى أتنهد بداخلي، وأسحب الكأس تجاهي. كان محقًا على أي حال. كانت هذه هي فرصتنا الوحيدة ليتعرف بعضنا إلى بعض قبل رحيله. سيبدو الأمر غريبًا ومراوغًا لو رفضت تلبية طلبه هذا.

أراح ذقنه على يده، وراقبني بينما ألتقط الكأس وأقربها من شفتي، وقد مال رأسه وعيناه تتابعان حركة النبيذ إلى شفتي، وبقيتا معلقتين هناك.

سأل:

ـ من أنتِ، إذن، يا روان كين؟

كان صوته يعوزه الوضوح بعض الشيء، وتساءلت عن مقدار ما تناوله من الشراب.

شيء ما، شيء في نبرة صوته، وفي صراحة السؤال، وفي الحميمية الشديدة غير المريحة لنظرته، جعل معدتي تنقبض باضطراب.

قلت محاولة تصنُّع المرح:

ـ ما الذي تريد معرفته؟

ـ أنت تذكرينني بشخص ما... لكنني لا أعرف من. نجمة سينمائية، ربما. ليس لديك أي أقارب مشهورين، أليس كذلك؟ شقيقة في هوليوود؟

ابتسمت لهذه العبارة المبتذلة إلى حد ما.

ـ كلا، بالتأكيد لا. أنا طفلة وحيدة على أي حال، وأسرتي عادية جدًّا لأقصى درجة ممكنة.

ـ ربما هو العمل... هل يعمل أي شخص في الأسرة في مجال الهندسة المعمارية؟

فكرت في عمل زوج والدتي في مبيعات التأمينات الخاصة، ومنعت نفسي بالكاد من أن أدير عينيَّ في محجريهما. بدلًا من ذلك، هززت رأسي بحزم، ونظر إليَّ عابسًا من فوق كأس نبيذه، حتى ظهر أخدود عميق عند جسر أنفه.

ـ ربما تلك... ما اسمها، تلك المرأة في فيلم «الشيطان يرتدي «برادا»»؟

قلت، وقد غلبت المفاجأة شعوري بالتوتر، بما يكفي كي أطلق ضحكة قصيرة:

ـ ماذا، ميريل ستريب؟

هز رأسه بنفاد صبر.

ـ كلا، الأخرى. الشابة. آن هاثاواي، هذا اسمها. لديكِ بعض الشبه بها.

ـ آن هاثاواي؟

حاولت ألا أبدو متشككة كما شعرت. ربما أشبه آن هاثاواي إذا زاد وزنها عشرين أو خمسة وعشرين كيلوجرامًا، وكان لديها ندبات من حَب الشباب، وقص شعرها أحد المتدربين في صالون التجميل.

ـ يجب أن أقول يا بيل، إن هذا لطف بالغ منك. لكن هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها تلك المقارنة.

ـ لكن ليس ذلك هو الأمر.

نهض، ودار حول طاولة الإفطار، وأتى إلى جانبي منها، وجلس على المقعد الكروم اللامع المقابل لي، وساقاه متباعدتان بحيث لا أستطيع التحرك بسهولة من دون أن أحتك بفخذه.

ـ كلا، ليس الأمر كذلك. أشعر أننا تقابلنا بالتأكيد. لدى من ذكرت أنك عملتِ قبل هذا؟

تلوتُ القائمة مرة أخرى، وهز رأسه وهو غير راضٍ.

ـ لا أعرف أيًّا منهم. ربما كنت أتخيل ذلك. أشعر أنني سأتذكر وجهًا... حسنًا، وجهًا مثل وجهك.

اللعنة. تقلص شيء ما في أعماق معدتي. مررت بهذا الموقف مرات كثيرة، بما يكفي لئلا أجهل المنحى الذي يسير إليه. أول وظيفة لي بعد تخرجي في المدرسة، نادلة شابة مع مدير يغريني بزيادة في الراتب، ويثني على حمالة صدري ذات اللون الفوشيا الوردي. عدد لا يُحصى من الأوغاد في عدد لا يُحصى من السهرات، يضعون أنفسهم حائلًا بيني وبين الباب. آباء شهوانيون في الحضانة، يسعون إلى التعاطف بخصوص زوجاتهم اللاتي لا يفهمنَهم بعد الولادة...

كان بيل واحدًا منهم.

كان رب عملي. كان زوج ربة عملي. وما هو أسوأ من كل ذلك، فقد كان...

يا إلهي. لا أستطيع أن أحمل نفسي على قول ذلك.

بدأت يدي ترتعش، وأحكمت أصابعي بقوة أكثر حول عنق كأس نبيذي محاولة إخفاء الأمر.

تنحنحت، وحاولت أن أدفع مقعدي إلى الخلف، لكنه كان محشورًا في حافة طاولة الإفطار. سدت فخذا بيل السمينتان المكسوتان بقماش الدنيم طريقي، مما منعني بشكل فعال من النزول عن الكرسي.

قلت، وقد احتدت نبرة صوتي بعض الشيء بسبب التوتر:

ـ حسنًا، من الأفضل أن أتوجه إلى الأعلى. أمامنا بداية مبكرة يوم غدٍ، أليس كذلك؟

قال:

ـ لا داعي للعجلة.

ومد يده متناولًا كأس النبيذ من بين أصابعي، وملأها، ثم مد يده تجاه وجهي.

ـ أنت فقط... لديك القليل من...

مسد إبهامه الناعم المتعرق قليلًا زاوية شفتي السفلى، وشعرت بإحدى ركبتيه توكزني برفق بالغ بين ركبتيَّ.

تجمدت لثانية، وتصاعد بداخلي غثيان مذعور مرتعد، يخنقني. ثم بدا وكأن شيئًا ما بداخلي انكسر، وانزلقت من على الكرسي فجأة، متجاوزة إياه بسرعة كبيرة، حتى إن النبيذ انزلق، وانسكب على الخرسانة.

تلعثمت:

ـ معذرة. آسفة جدًّا، دعني... سأجلب فوطة...

قال:

ـ لا بأس.

لم يبدُ منزعجًا ولو بمقدار ذرة، بل فقط مستمتع برد فعلي. بقي في مكانه، نصف جالس، ونصف متكئ بشكل مريح على مقعد الطاولة، بينما جلبت أنا فوطة، ومسحت الأرض بين ساقيه.

رفعت نظري إليه لثانية، ونظر هو إلى الأسفل، وجالت في خاطري السخرية التي سمعتها ألف مرة، مصحوبة دومًا بضحكات فاحشة. بينما أنت هناك بالأسفل، يا عزيزتي...

وقفتُ ووجهي مشتعل بالحمرة، وألقيت بالخرقة المبقعة بالنبيذ داخل الحوض.

قلت فجأة:

ـ ليلة سعيدة، يا بيل.

ودرت على عقبي.

ـ ليلة سعيدة، يا روان.

وصعدت طابقَي السلم حتى الفراش، من دون أن أنظر إلى الوراء.

عندما أغلقت خلفي باب غرفتي الجديدة، شعرت بإحساس غامر من الراحة. كنت قد أفرغت حقائبي في وقت سابق، ومع أنني لم أشعر

وأنا في الغرفة وكأنني في سكني بعد، إلا أنها منحتني شعورًا بكونها ركنًا صغيرًا في المنزل بمثابة منطقتي الخاصة، مكانًا بوسعي التمدد فيه والتوقف عن لعب الدور، التوقف عن كوني روان المربية المثالية، وأن أكون فحسب... أنا.

سحبت الشريط المطاطي من ذيل حصاني المشدود الأنيق، وأحسست بشعري الكثيف الخشن ينطلق مُشكِّلًا إكليلًا حول رأسي، وتحولت الابتسامة المهذبة التي تسعى لإرضاء الآخرين التي ألصقتها على وجهي منذ وصولي إلى حيادية مرهقة. بينما أخلع سترة الصوف المحبوك ذات الأزرار المغلقة، والقميص والتنورة المصنوعة من قماش التويد، شعرت وكأنني أتخلص من طبقات من التظاهر، وأعود إلى الفتاة التي كنتها وراء ذلك المظهر، تلك التي ترتدي المنامة حتى موعد النوم في عطلات نهاية الأسبوع، والتي تتمدد على الأريكة، لا وهي تقرأ كتابًا مفيدًا، بل تسرف في مشاهدة حلقات برنامج «القاضية جودي». تلك التي كانت ستدعو بيل خنزيرًا لعينًا، بدلًا من الوقوف هناك وقد شلها التهذيب، قبل أن تعرض مسح ما سكبته.

كانت تعقيدات لوحات التحكم مصدر إلهاء مُرحَّبًا به، بدلًا من الاضطرار إلى التفكير في هذا الجانب من الأمور. وحينما نجحت في التحكم في درجة الحرارة وتخفيضها إلى حد منطقي بدرجة أكبر، وتذكرت كيفية تشغيل الدش، كانت دقات قلبي قد هدأت، وكنت أحدث نفسي لقبول الموقف.

حسنًا، كان بيل وغدًا إذن. لم يكن أول وغد ألتقيه. لمَ شعرت بخيبة أمل إلى هذا الحد لعثوري عليه هنا؟

كنت أعرف الجواب، بالطبع. لكن لم يكن الأمر فقط من هو، بل كان كل شيء يمثله، كل العمل الشاق والتخطيط بحرص الذي أوصلني إلى هنا، وكل الآمال والأحلام المرتبطة بقراري للتقديم. ذلك الشعور بأنه، لمرة واحدة في حياتي، كان هناك شيء يسير على نحو صحيح، وكما ينبغي. بدا

الموقف بأكمله مثاليًّا، ربما مثاليًّا بدرجة زائدة على الحد. لا بد أن يكون هناك شيء يعكر الصفو، وربما كان بيل هو ذلك الشيء.

فجأة لم تعُد القوى الخارقة للطبيعة تبدو غامضة إلى هذا الحد في نهاية المطاف. لم تكن هناك روح شريرة. بل رجل عادي في الخمسينيات لا يستطيع إبقاء عضوه في سرواله. الحكاية القديمة المملة نفسها المثيرة للاكتئاب.

مع ذلك، شعرت وكأنها ركلة وُجهت إلى أحشائي.

لم أنظر إلى الأعلى نحو السقف، إلا بعد أن انتهيت من الاستحمام، ونظفت أسناني، واستلقيت على الفراش. تأملت تركيبات الإضاءة الغائرة، وجهاز إنذار الدخان الصغير الذي يومض بجوار الباب، و... شيئًا آخر في الزاوية هناك. ماذا كان ذلك؟ جهاز استشعار إنذار ضد السرقة؟ كاشف دخان ثانٍ؟

أم هل كان...

فكرت في تعليق ساندرا خلال مقابلتي... المنزل بأكمله موصل بالكاميرات...

لا يمكن أن تكون كاميرا... أيمكن ذلك؟

لكن كلا. سيكون ذلك أكثر من مخيف. سيكون ذلك مراقبة غير قانونية. كنت موظفة، وكانت لديَّ توقعات منطقية فيما يتعلق بالخصوصية، أو أيًّا ما كان المصطلح القانوني.

مع ذلك، نهضت ولففت نفسي بروبي، وسحبت كرسيًّا نحو السجادة أسفل الشيء البيضاوي في الزاوية. كان أحد جواربي ملقى على الأرض حيث خلعته قبل دخولي إلى الحمام، فالتقطته وصعدت فوق الكرسي، ووقفت على أطراف أصابعي كي أضعه فوق جهاز الاستشعار. تمكنت من الوصول إليه بصعوبة. كان حجمه ملائمًا تمامًا، وتدلت إصبع الجورب الفارغة هناك، مترهلة وبائسة بعض الشيء.

حينها فقط، شعرت بالراحة، مع أنني أحسست بالسخافة إلى حد ما، فعدت إلى الفراش، وأخيرًا خلدت إلى النوم.

استيقظتُ في الليل وقد جفلت، ولديَّ شعور غامض بأن هناك شيئًا ما على غير ما يرام، من دون أن أتمكن من تحديده. رقدت هناك ودقات قلبي تتسارع، متسائلة عما أيقظني. لم أتذكر أنني كنت أحلم، بل مجرد هزة مفاجئة أعادتني إلى الوعي.

استغرق دقيقة، ثم عاد ثانية، صوت ما. وقع أقدام. صرير... صرير... صرير... بطيء ومدروس، وكأن أحدهم يذرع جيئة وذهابًا عبر أرض خشبية، مما لم يكن منطقيًا على الإطلاق، حيث كانت كل الأرضيات بالأعلى هنا مغطاة بسجاد كثيف.

صرير... صرير... صرييير... كان الصوت أجوف وثقيلًا ورنانًا... خطوات بطيئة كخطوات رجل، وليس ركض طفل. بدا وكأنه قادم من الأعلى، وكان ذلك سخيفًا لأنني كنت في الطابق العلوي.

جلست ببطء، وتحسست بيدي بحثًا عن الضوء، لكن عندما أدرت المفتاح الكهربائي لم يحدث شيء. حركته ثانية، ثم أدركت وأنا أطلق السباب أنه لا بد وأنني تجاوزت المصباح عند لوحة التحكم الرئيسية. لم أستطع مواجهة مصارعة لوحة التحكم في منتصف الليل، والمخاطرة بتشغيل نظام الصوت أو شيء ما، لذا التقطت هاتفي حيث كان موضوعًا ليتم شحنه، وأشعلت المصباح.

شعرت بضيق في صدري، وبينما أنا أسحب نفَسًا من جهاز الاستنشاق خاصتي، أدركت فجأة أن الغرفة صارت شديدة البرودة. لا شك أنني بالغت في الأمر عندما غيرت إعدادات الحرارة. كانت البرودة غير مريحة الآن، خارج شرنقة أغطية الفراش الدافئة. لكن روبي كان عند قدم الفراش، لذا ارتديته ووقفت هناك محاولة أن أمنع أسناني من الاصطكاك، وشعاع

المصباح الرفيع يضيء شريطًا ضيقًا من السجاد بلون القمح، ولا شيء أكثر من ذلك.

كانت الخطوات قد توقفت، وترددتُ للحظة، حابسة أنفاسي وأنا أستمع وأتساءل ما إذا كانت ستبدأ ثانية. لا شيء. سحبت نفَسًا آخر من جهاز الاستنشاق، وأنا أنتظر وأفكر. لم يزَل الهدوء سائدًا.

كان الفراش دافئًا، وكان من المغري الزحف تحت اللحاف مرة أخرى، والتظاهر بأنني لم أسمع شيئًا، لكنني كنت أعلم أنني لن أنام جيدًا إلا إذا حاولت على الأقل التحقق من المصدر. جذبت حزام روبي بشدة أكبر، وفتحت باب غرفتي بمقدار شق.

لم يكن أحد بالخارج، لكن مع ذلك ألقيت نظرة داخل خزانة المكنسة. كانت خالية بالطبع، باستثناء الفُرش ووميض ضوء شاحن المكنسة الكهربائية. لا توجد إمكانية لأن يختبئ هنا شيء أكبر من فأر.

أغلقت الخزانة، ثم شعرت أنني متطفلة بعض الشيء، وجربت باب ريانون، متجاهلة المكتوب عليه بحزم:

ممنوع الدخول، وإلا ستلقى حتفك!

ظننت أنه قد يكون مغلقًا، لكن المقبض دار من دون مقاومة، وتأرجح الباب الثقيل منفتحًا، مُصدرًا وشيشًا عبر السجادة السميكة.

كان الظلام حالكًا بالداخل، وستائر التعتيم مغلقة بإحكام، لكنَّ هناك شعورًا غامضًا بكون الغرفة خالية. مع ذلك، رفعت هاتفي ودرت بشعاع المصباح الضيق من جدار لآخر. لم يكن هناك أحد.

لم يكن هناك شيء آخر. لم تكن هناك غرف أخرى في هذا الطابق. وكان السقف بالأعلى مستويًا، ولا يوجد به حتى فتحة لحجرة علية. فعلى الرغم من أن الأصوات أخذت تتلاشى من ذاكرتي بسرعة، إلا أن انطباعي كان أن الأصوات آتية من الأعلى. ربما شيء ما على السطح؟ طائر؟ لم يكن شخصًا يتجول على أي حال، بدا ذلك واضحًا.

ارتجفت مرة أخرى، وعدت إلى غرفتي، حيث وقفت للحظة مترددة في منتصف السجادة، وأنا أنصت وأنتظر أن يعود الصوت ثانية، لكنه لم يفعل. أطفأت المصباح، وصعدت إلى الفراش وسحبت الغطاء. لكن مر وقت طويل قبل أن أنام.

ـ أمي!

شقت «التيسلا» طريقها عبر ممر السيارات، باتجاه الطريق الرئيسي، بينما إيلي تركض في أعقابها، والدموع تنهمر على وجهها، حيث تجاوزت سرعة قيادة جاك للسيارة ساقيها القصيرتين.

ـ عودي، يا أمي!

ـ وداعًا، يا عزيزتي!

مال رأس ساندرا خارج النافذة الخلفية، وشعرها عسلي اللون يتطاير في الريح مع زيادة سرعة السيارة. كانت هناك ابتسامة مرحة على وجهها، لكنني تمكنت من رؤية الحزن في عينيها، وعرفت أنها تحافظ على مظهر سعيد من أجل الأطفال. لم يستدِر بيل إلى الوراء. كان منحنيًا على هاتفه في المقعد الخلفي بجوارها.

صاحت إيلي وصوتها مشوب باليأس:

ـ أمي! أمي، أرجوك لا تذهبي!

ـ وداعًا، يا حبيباتي! ستقضين وقتًا رائعًا مع روان، وسأعود قريبًا جدًّا. إلى اللقاء! أحبكن جميعًا!

ودارت السيارة عند منعطف الممر، وغابت عن الأنظار بين الأشجار.

تباطأت ساقا إيلي، وتوقفت متعثرة، مطلقة صيحة حزن، قبل أن ترمي نفسها أرضًا بشكل درامي.

ـ أوه، يا إيلي!

حملت بيترا على ارتفاع أكبر فوق خصري، وركضت عبر الممر حيث ترقد إيلي، ووجهها أرضًا بين الحصى.

ـ يا عزيزتي إيلي، هيا لنذهب ونتناول بعض الآيس كريم.

كنت أعرف من تعليمات ساندرا أن هذه مكافأة كبيرة، وشيء غير مسموح به كل يوم، لأنه يصيب كلتا الفتاتين بنشاط مفرط نوعًا ما، لكن إيلي هزت رأسها فقط، وصرخت بصوت أعلى.

ـ هيا، يا حبيبتي.

انحنيتُ ببعض الصعوبة، حيث كنت أحمل بيترا، وأمسكتُ بمعصمها محاولة جذبها للأعلى، لكنها أطلقت صرخة فحسب، وانتزعت ذراعها من يدي، وارتطمت قبضتها الصغيرة بالحصى.

صرختْ وضاعفت بكاءها، ونظرت إليَّ بعينين حمراوين غاضبتين مليئتين بالدموع.

ـ آه! لقد آلمتني!

ـ كنت أحاول فقط...

ـ ابتعدي، لقد آلمتني، سوف أخبر أمي!

وقفت للحظة مترددة فوق جسدها المنبطح في غضب، غير واثقة مما يجب عليَّ فعله.

صرختْ مرة أخرى:

ـ ابتعدي!

تنهدتُ أخيرًا، وشرعت أسير عائدة عبر الممر نحو المنزل. شعرت أنه من الخطأ أن أتركها هناك، في منتصف ما كان يُعَد طريقًا بالأساس، لكن البوابة عند سفح الممر كانت مغلقة، وسيستغرق الأمر نصف ساعة على الأقل قبل عودة جاك. أمَّلتُ أن تكون قد هدأتْ قبل ذلك بفترة طويلة، وأن أتمكن من إقناعها بالعودة إلى المنزل.

بدأت بيترا تتذمر على خصري، وكتمتُ تنهيدة. أرجو ألا تنهار هي

الأخرى. وأين كانت مادي، بحق الجحيم؟ كانت قد اختفت قبل رحيل والديها، هاربة إلى الغابات الواقعة شرق المنزل، رافضة توديعهما.

قال بيل، بينما كانت ساندرا تتخبط محاولة العثور عليها لتقبلها قبلة الوداع:

ـ أوه، دعيها تذهب. أنتِ تعرفين طبعها، فهي تفضل التعافي من يأسها على انفراد.

لعق جروحها. مجرد تعبير مبتذل سخيف، أليس كذلك؟ لم أمعن التركيز في الأمر ساعتها، لكنني تساءلت الآن: هل كانت مادي جريحة؟ ولو كانت كذلك بالفعل، كيف إذن؟

في المنزل، وضعتُ بيترا في كرسيها المرتفع وربطتها إليه، وتفقدت الملف الأحمر في حال كانت به تعليمات بخصوص ما يجب فعله إن اختفى الأطفال من على وجه البسيطة. لا بد أن سُمك الملف بأكمله كان يبلغ ثلاث بوصات على الأقل، وعرفت عندما تصفحته سريعًا بعد الإفطار أنه يحتوي على معلومات عن كل شيء، بدءًا من مقدار جرعة «كالبول» ومتى يتعين عليَّ إعطاؤها، وحتى نظام ما قبل النوم، والكتب المفضلة، ونظام التعامل مع طفح الحفاض، وجداول الواجبات المنزلية، ونوع كبسولات الغسيل التي يجب استخدامها لزي الباليه الخاص بالفتيات. كانت كل لحظة خلال اليوم تقريبًا مأخوذة في الحسبان، مع ملاحظات تتراوح ما بين نوع الوجبات الخفيفة التي يتعين تقديمها، حتى برامج التلفزيون التي يجب اختيارها، والقدر المسموح لهن بمشاهدته.

الشيء الوحيد الذي لم يشمله هو الاختفاء التام، أو على الأقل إذا شمله، فأنا لم أتمكن من العثور على الصفحة المذكور فيها ذلك. لكن بينما أنا ألقي نظرة سريعة عبر الصفحة الخاصة بيوم «عطلة نهاية الأسبوع التقليدي»، والمذيلة بعناية بهوامش توضيحية، لاحظت أن موعد غداء بيترا تأخر، مما

قد يفسر حدة مزاجها. لم أرغب حقًّا في البدء في تحضير الطعام قبل أن أتعقب مادي وإيلي، لكن يمكنني على الأقل إعطاء بيترا وجبة خفيفة حتى تصبر وتتوقف عن التذمر.

بدأت الصفحة:

> السادسة صباحًا. كل الصغار (لكن إيلي بشكل خاص) يَمِلن إلى الاستيقاظ مبكرًا. لهذا السبب، نزَّلنا تطبيق التدريب على النوم، «ساعة الأرنب السعيد»، في غرفة الفتيات. إنها ساعة رقمية مع شاشة عليها صورة أرنب نائم، تتغير من دون صوت لتصبح صورة «أرنب سعيد» مستيقظ تمامًا في السادسة صباحًا. إذا استيقظت إيلي قبل ذلك، يُرجى تشجيعها بلطف (!) على تفقد الساعة، والعودة إلى الفراش إذا كان الأرنب لا يزال نائمًا. وبالتأكيد الجئي إلى حكمك الخاص على الأمور فيما يتعلق بالكوابيس، وحوادث المرحاض.

يا إلهي. ألا يوجد شيء في هذا المنزل لا يتحكم فيه ذلك التطبيق اللعين؟ مررت بعيني عبر الصفحة، وتخطيت الجزء الخاص بالأزياء المقترحة، وملابس الطقس الممطر، وقوائم وجبات الإفطار المقبولة، حتى منتصف الصباح.

> ١٠-١٥ , ١١ , ٣٠. وجبة خفيفة. مثل بعض الفاكهة (الموز، التوت البري، العنب **مُقطَّع لأرباع** من أجل بيترا، رجاءً)، والزبيب (بكميات قليلة فقط... الأسنان!)، وأعواد الخبز الجاف، وكعك الأرز، أو الخيار المُقطَّع على شكل أصابع. الفراولة ممنوعة (إيلي مصابة بالحساسية). والمكسرات الكاملة ممنوعة (لا بأس بزبدة المكسرات، لكننا نشتري فقط الأنواع الخالية من الملح/ السكر). وأخيرًا، ليس مسموحًا لبيترا بتناول الوجبات الخفيفة التي تحتوي على السكر المكرر أو الملح الزائد (مسموح للفتيات الأكبر منها بتناول السكر باعتدال). قد يكون من الصعب التحكم في ذلك إذا كنتن بالخارج، لذا أقترح في هذه الحالة اصطحاب صندوق للوجبات الخفيفة.

حسنًا، على الأقل لم يكن التطبيق يُعد الوجبات الخفيفة. مع ذلك، لم أواجه

أي شيء مثل هذا من قبل، مثل هذا المستوى من التفاصيل، في أي وظيفة أخرى كمربية للأطفال. في «ليتل نيبرز» كان كتيب تعليمات العاملين عبارة عن كراسة ضئيلة تركز في الأساس على كيفية الإبلاغ عن مرض الموظفين. القواعد، أجل. الوقت المخصص للشاشة، والعقوبات، والخطوط الحمراء، والحساسية، كان كل ذلك طبيعيًّا. لكن هذا، هل كانت تعتقد أنني قضيت قرابة عشرة أعوام في رعاية الأطفال من دون أن أعرف أنه يجب تقطيع العنب؟

تساءلت عندما أغلقت الملف القرمزي، ودفعته بعيدًا عني عبر الطاولة. هل كان تغير العاملين المسبب للاضطراب هو ما جعل ساندرا مسيطرة إلى هذا الحد؟ أم هل كانت مجرد امرأة تحاول بشدة أن تكون موجودة من أجل أسرتها، حتى عندما لا تتمكن من الوجود جسديًّا؟ بدا من الواضح أن بيل لا يشعر بأي ندم لترك أطفاله بمفردهم مع شخص غريب نسبيًّا، حتى لو كان مؤهلًا جيدًا. لكن ملف ساندرا كان يدل على نوع مختلف تمامًا من الأهل، نوعٍ يشعر بالتضارب الشديد حيال الموقف الذي وجدت نفسها فيه. مما كان يثير السؤال، لمَ كانت في هذه الحالة عازمة إلى هذا الحد على أن تكون مع بيل، بدلًا من وجودها في المنزل؟ هل كان الأمر حقًّا مجرد اعتزاز مهني؟ أم هل كان هناك شيء آخر يدور؟

كان هناك وعاء فاكهة رخامي كبير في منتصف الطاولة الخرسانية، مملوء حديثًا بالبرتقال والتفاح واليوسفي والموز. تنهدت ونزعت موزة من المجموعة، وقشرتها ووضعت بضع قطع على صينية بيترا. ثم ذهبت إلى غرفة اللعب لأرى ما إذا كانت مادي قد عادت. لم تكن هناك، كما لم تكن في غرفة المعيشة، ولا في أي مكان آخر في المنزل على حد علمي. توجهت أخيرًا إلى باب غرفة المرافق، ذلك الذي غادرتْ منه، وصحتُ منادية وسط الغابات.

ـ مادي، إيلي، أنا وبيترا نتناول الأيس كريم.

توقفتُ، مصيخة السمع لصوت ركض أقدام صغيرة، وتحطم الأغصان. لم يصدر أي صوت.

ـ مع رشات السكر الملون.

لم تكن لديَّ أدنى فكرة بالفعل عما إذا كانت توجد رشات سكر ملون، لكن لم يهمني حينها خداعهما بدعاية زائفة، بل كنت أريد معرفة مكانهما فقط.

مزيد من الصمت. لا شيء سوى صوت الطيور. كانت الشمس قد حُجبت، مخلفة الجو باردًا بدرجة مثيرة للدهشة. ارتجفت، وشعرت باقشعرار جلد ذراعيَّ العاريتين. فجأة، بدا الكاكاو الساخن ملائمًا أكثر من الأيس كريم، مع أننا كنا في شهر يونيو. ناديت قائلة بصوت أعلى هذه المرة:

ـ حسنًا، مزيد من رشات السكر الملون لي!

وسرت عائدة إلى المنزل، تاركة الباب مفتوحًا بمقدار شق.

في المطبخ، حدقت مرة ثانية للتأكد مما رأيته.

كانت بيترا واقفة في مقعدها المرتفع، على الجانب البعيد من طاولة الإفطار، ملوحة نحوي بانتصار بقطعة من الموز.

ـ اللعنة!

استُنزفت جميع مشاعري تمامًا للحظة، ووقفتُ متجمدة في مكاني، أنظر إلى وقفتها الخطيرة، والخرسانة القاسية تحتها، وقدميها الصغيرتين المتهاديتين على الخشب الزلق.

ثم استعدت حواسي وركضتُ، وتعثرتُ في دمية ملقاة على شكل دب، وترنحت حول زاوية طاولة الإفطار كي أختطفها وأحملها، وقلبي ينبض في حلقي.

ـ يا إلهي، بيترا، أنت فتاة سيئة حقًّا. يجب ألا تفعلي ذلك. رباه. أوه، يا إلهي.

كان من الممكن أن تموت، هذه هي خلاصة الأمر. لو كانت قد سقطت

واصطدم رأسها بالأرض الخرسانية، كانت ستصاب بارتجاج في المخ قبل أن أتمكن من الوصول إليها.

كيف استطعت أن أكون بكل هذا الغباء؟

لقد أشرفت على الأطفال الصغار مليون مرة من قبل، وفعلت كل الأشياء الصحيحة، سحبت كرسيها بعيدًا عن الطاولة حتى لا تتمكن من دفع نفسها للخلف بقدميها، وكنت متأكدة، بل واثقة في الواقع، أنني ثبتُّ تلك المشابك. كانت بالغة الصلابة بالنسبة إلى أصابعها الصغيرة.

كيف تحررت منها إذن؟

هل تملصت خارجة؟

تفحصتُ المشابك. كان أحد الجانبين لا يزال مثبتًا، والآخر مفتوحًا. اللعنة. لا بد وأنني لم أدفع أحدهما مكانه بقوة كافية، وحلّته بيترا، ثم تمكنتْ من التملص من الجانب الآخر من الحزام.

كان خطئي إذن، في نهاية المطاف. جعلت الفكرة يديَّ تبردان بفعل الخوف، ووجنتيَّ تتحرقان من الخزي. حمدًا للرب أن الأمر لم يحدث عند وجود ساندرا هنا. ذلك النوع من الحماية من أساسيات عمل مربية الأطفال. كان سيصير من حقها طردي من الوظيفة على الفور.

لكن بالطبع... ما زال بمقدورها ذلك، إذا كانت تراقب عبر الكاميرات. رغم أنفي، رفعت عيني إلى السقف، وكما توقعت، كانت هناك واحدة من تلك الكرات البيضاوية البيضاء الصغيرة في الزاوية البعيدة من الغرفة. شعرت بوجهي يتخضب بالحمرة، وأبعدت نظري على عجل، متخيلة ساندرا وهي تشاهد رد فعلي المذنب.

اللعنة. اللعنة.

حسنًا، لم يكن هناك ما بوسعي أن أفعله، سوى أن آمل أن ساندرا وبيل كان لديهما أشياء أفضل يفعلانها عوضًا عن الاستغراق في تأمل أشرطة كاميراتهما الأمنية في كل ساعة من ساعات الليل والنهار. كنت واثقة تمامًا

أن بيل لم يلقِ ولو نظرة سريعة على التطبيق منذ رحيله، لكن ساندرا... بطريقة ما كان ذلك الملف يدل على مستوى من الشدة لم أتوقعه تمامًا من سلوكها المريح المبهج خلال المقابلة.

لكن لو كنت أتمتع بأي قدر من الحظ، فسيكونان في مكان لا تصل إليه خدمة شبكة الهاتف المحمول، أو ربما يكونان في الجو الآن. هل كانت الكاميرات تُسجل؟ وما طول مدة تخزينها؟ لم أكن أعلم، وبطريقة ما، كنت أشك أن تلك المعلومات موجودة في الملف.

كان إدراكي لذلك الأمر مقلقًا. يمكن أن أكون مراقَبة الآن.

ضممت بيترا إلى صدري بشعور تمثيلي غريب، وطبعت قبلة مرتجفة أعلى رأسها. شعرت تحت شفتي بالانحناء الخفيف ليافوخها، بهشاشة جمجمة رضيع رقيقة، كادت تلتحم بالكامل، لكنها لم تفعل بعد.

قلت لها بحزم، وأنا ما زلت أشعر بالأدرينالين يتدفق في جسدي:

ـ لا تفعلي ذلك مرة أخرى.

ثم بذلت جهدًا لأعيد الأمور إلى طبيعتها، فرفعتها وأخذتها إلى الحوض، حيث مسحت وجهها. ثم نظرت إلى ساعتي، وأنا أحاول التنفس ببطء وبشكل طبيعي، وأن أتذكر ما كنت أفعله قبل أن تتسبب بيترا في إثارة خوفي حد الموت.

كانت الساعة قد تعدت الواحدة. ذكر الملف أن بيترا تتناول الغداء ما بين الثانية عشرة والنصف إلى الواحدة، ثم تنام لفترة القيلولة عند الثانية بعد الظهر. لكن مع ذلك كانت تتذمر وتفرك عينيها وهي متكدرة. وجدت نفسي أحسب الوقت في ذهني، وأحاول التفكير في كيفية التعامل مع الأمر. في الحضانة، كانوا ينامون للقيلولة بعد الغداء مباشرة، تقريبًا في الساعة الواحدة.

لم أرغب في العبث بنظامها في مثل هذا الوقت المبكر من النهار، لكن من ناحية أخرى، فإن إطالة فترة يقظة طفل متعب متعكر المزاج حتى الوقت

المحدد لم تكن فكرة رائعة أيضًا، وربما سينتج عنها ليلة من النوم غير المنتظم، لو كانت من نوع الأطفال الذين يزيدون توترًا كلما زادوا إرهاقًا. حدقت إلى قمة رأسها بتردد، محاولة اتخاذ قرار. فجأة، بدتْ فكرة ساعة أو نحو ذلك من الهدوء، حتى أعثر على مادي وإيلي، جذابة للغاية. سيكون ذلك أسهل بكل تأكيد، من دون وجود طفلة صغيرة متعكرة المزاج أسحبها معي.

فركت بيترا عينيها بعصبية بقبضتيها المكورتين، وأطلقت تنهيدة متعبة، واتخذتُ قراري.

قلت بصوت مرتفع:

ـ هيا تعالَي.

وأخذتها إلى غرفتها بالطابق العلوي.

كانت ستائر التعتيم مغلقة بالداخل بالفعل، وشغلت الألعاب المضيئة المعلقة فوق الفراش حسب تعليمات الملف، ووضعت بيترا على ظهرها برفق. انقلبت على بطنها، وفركت وجهها في المرتبة، لكنني جلست بجانبها في هدوء، وإحدى يديَّ على ظهرها الذي أخذ يتلوى، بينما العرض الضوئي الخافت منعكس على السقف والجدران. كانت بيترا تتبرم بينها وبين نفسها، لكن صيحاتها أخذت تتباعد، وأدركت أنها على استعداد للخلود إلى النوم في أي لحظة.

أخيرًا، بدا أنها نامت تمامًا، ووقفت بحذر، ووضعت لعبتها التي على شكل أرنب برفق فوق يدها، حيث يمكنها العثور عليها إذا استيقظت. تحركتُ للحظة، وتجمدت أنا، لكنها شددتْ قبضة أصابعها فحسب على القماش، وأطلقت شخيرًا صغيرًا خافتًا. تنهدتُ بارتياح، والتقطت جهاز مراقبة الأطفال الذي كان مثبتًا على طرف الفراش، ودسسته في حزامي، وتسللت خارجة من الغرفة.

كان المنزل صامتًا تمامًا، بينما وقفت على بسطة السلم، مصيخة السمع لصوت ركض الأقدام أو الضحك الطفولي.

أين تكونان، بحق الجحيم؟

لم أكن قد دخلت غرفة بيل وساندرا، لكنني عرفت من تخطيط المنزل أن النافذة لا بد أن تكون مطلة على ممر السيارات. حبست أنفاسي بعض الشيء، وأدرت المقبض وفتحت الباب.

جعل المنظر أنفاسي تحتبس في حلقي للحظة. كانت الغرفة ضخمة. لا بد أنهما جمعا معًا غرفتَي نوم على الأقل لإنشائها، وربما حتى ثلاث. كان هناك فراش ضخم، مكدسًا عاليًا بالوسائد الممتلئة وأغطية السرير البيضاء. وفي مواجهته كانت هناك مدفأة حجرية ضخمة منحوتة. أطلت ثلاث نوافذ طويلة على واجهة المنزل. كانت إحداها مفتوحة بضع بوصات، ورفرفتِ الستائر القطنية الخفيفة قليلًا في النسيم.

كانت هناك أدراج تُركت مفتوحة بعض الشيء، وخزانة مواربة، وشعرت بفضول حاد يتجاذبني بينما أنا أعبر السجادة ذات اللون الرمادي المائل إلى الفضي، متوجهة نحو النافذة الوسطى، لكني كبتُّه بداخلي. فلم أكن أعلم، من الممكن أن ساندرا وبيل كانا يراقبانني في هذه اللحظة، وفي حين كانت لديَّ ذريعة لرغبتي في أن أطل من النافذة على الممر، فبالقطع لم يكن لديَّ أي عذر للتفتيش في خزائنهما.

عندما وصلتُ إلى النافذة، لم تكن إيلي في أي مكان ظاهر للعيان، وقد صار منعطف الممر الذي كانت ترقد فيه خاليًا. لم أكن متأكدة ما إذا كان ذلك شيئًا يبعث على الارتياح. على الأقل لن يدهسها جاك عندما يعيد «التيسلا». لكن أين ذهبتْ بحق السماء؟ بدت ساندرا تشعر براحة البال بشكل لافت للنظر بخصوص هروب الأطفال إلى الغابات، لكن كل عظمة في جسدي كانت تصرخ انزعاجًا من الموقف. في الحضانة، كان يتعين علينا تقييم مخاطر كل شيء، بدءًا من رحلة إلى الحديقة، وحتى اللعب الفوضوي بعصيدة الشوفان، وكان هناك مليار خطر ليست لديَّ أي وسيلة على الإطلاق لمعرفته. ماذا لو كانت هناك بِركة في الأراضي المحيطة؟ أو منحدر حاد؟

ماذا لو تسلقتا شجرة ولم تتمكنا من النزول؟ ماذا لو لم يكن السياج آمنًا، وخرجتا لتتجولا في الطريق؟ ماذا لو أن كلبًا...

قطعتُ سلسلة أفكاري عن أسوأ السيناريوهات المحتملة.

الكلبان. نسيت أن أسأل ساندرا عما إذا كنت مسؤولة عن نظامهما اليومي، لكن من المفترض أن الذهاب لتمشية إضافية لن يضر، وبالتأكيد سيتمكنان من العثور على الطفلتين. ولو لم يفلح ذلك في شيء آخر، فسيمنحني وجودهما عذرًا كي أذهب للبحث في الغابات، من دون أن أبدو للطفلتين وكأنهما تتفوقان عليَّ. كان عليَّ إثبات نفسي بوصفي شخصًا مسؤولًا بقوة منذ البداية، وإلا ستنهار سلطتي، ولن أتعافى أبدًا.

نحيت جانبًا الفكرة المقلقة عما سيحدث عند عودة ريانون، وإضافة مراهِقة إلى ذلك المزيج. أمَّلت أن تكون ساندرا قد عادت حينها لتساندني.

كان الكلبان مستلقيين في سلتيهما في المطبخ بالطابق السفلي. ومع ذلك، رفعا رأسيهما بأمل عندما دخلت بمقوديهما.

قلت ببهجة:

ـ لنذهب للتمشية!

وركضا نحوي.

قلتُ، وأنا أجاهد للعثور على الرباط المناسب في الطوق:

ـ فتاة طيبة... إممم... يا كلود.

مع أنني في الحقيقة لم أكن متأكدة ما إذا كانت معي الأنثى أم الذكر. ركض كلود حولي بحماسة، وأنا أتصارع مع هيرو، لكن أخيرًا صار كلاهما معي، وهما مربوطان بمقودين، وبحوزتي حفنة من بسكويت الكلاب في جيبي في حال حدوث أي مشكلات، وانطلقت خارجة من باب غرفة المرافق، عبر الساحة المفروشة بالحصى، متجاوزة مجموعة الإسطبلات، وإلى الغابات.

كان يومًا جميلًا، ومع قلقي المتزايد بشأن الأطفال، لم يسعني إلا أن

ألحظ ذلك، بينما كنت أسير في طريق متعرجٍ غير محدد بوضوح وسط الأشجار، والكلبان يشدان مقوديهما. تخللت الشمس قمم الأشجار بالأعلى، وأرسلت حركاتنا ذرات غبار ذهبية تدور وتتطاير من التربة الغنية أسفل أقدامنا، والشمس تلتمع على الجزيئات الدقيقة من حبوب اللقاح وبذور لحية الرجل العجوز الطافية في الهواء الساكن أسفل الأشجار.

بدا الكلبان وكأن لديهما فكرة محددة عن المكان الذي يتوجهان إليه، وتركتهما يقودان الطريق، مدركة لحقيقة كونهما يشعران بالحيرة غالبًا لإبقائهما مربوطين بمقودين في حديقتهما الخاصة. لكن عليهما تحمل الأمر على الرغم من ذلك. لم تكن لديَّ أدنى فكرة عما إذا كانا سيأتيان لو ناديتهما، ولم يكن بوسعي المخاطرة بفقدهما هما أيضًا.

كنا نتوجه أسفل التل، عند سفح الممر، مع أنني لم أتمكن من رؤيته من خلال الأشجار. سمعت غصنًا يتحطم خلفي، واستدرت بحدة، لكن لم يكن هناك أحد. لا بد أنه كان حيوانًا ما، ربما ثعلبًا.

خرجنا أخيرًا من تحت غطاء الأشجار إلى بقعة صغيرة مقطوعة الأشجار، وتقلصت معدتي بانزعاج، حيث كانت هناك ـ وهو ما كنت أخشاه منذ اختفاء الفتاتين ـ بركة. لم تكن بالغة العمق، لكن عميقة بما فيه الكفاية ليغرق بها طفل صغير. كان الماء آسنًا بلون الخث، وتطفو على سطحه قاذورات زيتية من إبر الصنوبر المتحللة. غرست بها عصا وأنا مترددة، فطفت إلى السطح بتكاسل فقاعات من الهواء الراكد. لكنني شعرت بالراحة لأن باقي البركة بدت وكأنها لم تُمَس، والماء صافٍ باستثناء دوامات الطين التي أثارتها عصاي. أو... لم تُمَس بالكاد. بينما أنا أسير إلى الجانب البعيد، رأيت آثار أحذية صغيرة على الشاطئ تنزلق، وكأن الفتاتين الصغيرتين كانتا تعبثان عند حافة المياه. لم تكن هناك طريقة لمعرفة متى تُركت هذه الآثار، لكنها بدت حديثة إلى حد ما. كانت الآثار تقود إلى الأسفل نحو الشاطئ، وتصير أعمق وأعمق كلما زاد الطين رخاوة،

ثم استدارت وعادت مرة أخرى إلى داخل الغابة. تتبعتها لبضعة أمتار، حتى صارت الأرض أكثر صلابة من أن تنطبع بها الآثار. لكن كانت هناك آثار زوجين من الأحذية، وعرفت الآن على الأقل أنهما ربما تكونان معًا، ومن المؤكد تقريبًا أنهما في أمان.

كان الكلبان يعويان ويشدان مقوديهما، وهما يتوقان للنزول إلى البركة الموحلة والخوض في الماء، لكن لم أكن لأسمح بذلك قَطُّ. فلن أحمم زوجًا من الكلاب القذرة في أول يوم لي، فوق كل شيء آخر.

لم يكن هناك طريق مؤدٍّ إلى الأعلى عبر الغابة في الاتجاه الذي كانت تقود إليه آثار الأقدام، لكنني تتبعتها بقدر الإمكان، قدر استطاعتي. عندها شقت الهواء فجأة صرخة مطقطقة. توقفتُ على الفور، وقلبي يدق في صدري باضطراب للمرة الثانية في ذلك اليوم، والكلبان ينبحان على نحو هستيري، ويتقافزان عند طرفَي مقوديهما.

لثانية، لم أعرف ماذا أفعل. وقفتُ أتلفتُ حولي بعنف. بدت الصرخة قريبة، لكنني لم أرَ أحدًا، ولم أسمع وقع أي خطى يعلو فوق ضجيج الكلبين. ثم جاءت مرة أخرى، طويلة وحادة بدرجة تكاد لا تطاق، وبإدراك مُقبِض للمعدة، فهمت الأمر.

أخرجت جهاز مراقبة الأطفال من جيبي، وشاهدت الأنوار وهي تشتعل وتخفت بالتزامن مع الصرخة الطويلة الجياشة من الرعب الخالص.

وقفت هناك للحظة وأنا مشلولة فحسب، ممسكة بالجهاز في يدي، ومقودا الكلبين ملفوفان حول معصمي. هل يجب أن أحاول الوصول إلى الكاميرات؟

أخرجت هاتفي بيد مرتعشة، وضغطت على أيقونة تطبيق إدارة المنزل.

قالت الشاشة ببطء مضنٍ: مرحبًا بك في هابي يا روان. المنزل السعيد هو حيث يوجد هابي !ثم انتابني اليأس عندما قالت: يتم تحديث صلاحيات المستخدم. يُرجى التحلي بالصبر. المنزل السعيد هو حيث يوجد هابي !

أطلقتُ سبابًا، وأعدت كلًّا من الهاتف وجهاز الاستقبال إلى جيبي، وشرعت أركض.

كنت بعيدة عن المنزل، أسفل منحدر، وتقطعت أنفاسي في حلقي عندما تركت غطاء الأشجار ورأيت المنزل أمامي. كان الكلبان قد هربا مني منذ فترة في الطريق، بعد أن جذبا مقوديهما من أصابعي التي أصابها الخدر، وكانا الآن يتقافزان ويتواثبان أمامي وخلفي، وينبحان بسعادة، ولديهما قناعة أن كل هذا لعبة من نوع ما.

عندما وصلت إلى الباب الأمامي، كان مواربًا مع أنني كنت أعرف أنه كان مغلقًا عندما رحلت. كنت قد استخدمت باب غرفة المرافق، تاركة إياه مفتوحًا من أجل مادي وإيلي في حال عودتهما، وظننت للحظة أنني قد أُصاب بالغثيان. ما الذي فعلته؟ ما الذي حدث لبيترا الصغيرة المسكينة؟

شعرت بالخوف بدرجة كادت تمنعني من صعود آخر درجات السلم المؤدي إلى غرفة بيترا، لكنني أجبرت نفسي، وتركت الكلبين في الردهة، وهما متشابكان في مقوديهما، حتى صرت أخيرًا خارج باب بيترا، يملأني الخوف مما كنت بصدد العثور عليه.

كان مغلقًا، كما تركته تمامًا، وكتمت شهقة في حلقي وأنا أدير المقبض، لكن ما وجدته هناك جعلني أتوقف عند العتبة، وأنا أرمش وأحاول تهدئة أنفاسي اللاهثة.

كانت بيترا نائمة في فراشها، وذراعاها ممدودتان على كلا جانبيها، ورموشها الداكنة ممتدة أعلى وجنتيها الورديتين. كانت تقبض على أرنبها بيدها اليسرى، وبدا من الواضح أنها لم تتحرك منذ أن وضعتها لتنام.

لم يكن الأمر مفهومًا.

تمتعت بما يكفي من ضبط النفس لأخرج من الغرفة، وأغلق الباب خلفي بهدوء، قبل أن أتهاوى على الأرض في الردهة بالخارج، وظهري مستند بقوة إلى الدرابزين المتعرج، ووجهي بين يدي وأنا أحاول ألا أبكي

من الصدمة والشعور بالراحة، شاعرة بأزيز في صدري بينما رئتاي تعملان بجد لاستيعاب ما يكفي من الأكسجين حتى يستقر نبضي المتسارع.

بيد مرتعشة، أخرجت جهاز استنشاقي من جيبي وأخذت نفَسًا، ثم حاولت فهم الأمر برمته. ما الذي حدث؟

ألم يصدر الصوت من جهاز مراقبة الأطفال؟ لكن هذا مستحيل، فقد كان مزودًا بأنوار تضيء لتُظهر متى يبكي الطفل، في حال كان الصوت منخفضًا لسبب ما. وقد رأيت الأضواء. وكان الصوت صادرًا عن مكبر الصوت، كنت واثقة من ذلك.

هل رأت بيترا كابوسًا وصرخت؟ لكن عندما أعدت التفكير، لم يبدُ ذلك منطقيًّا أيضًا. لم تكن صرخة طفل. كان ذلك جزءًا مما أخافني للغاية. لم يكن الصوت الذي سمعته هو البكاء العصبي الذي عرفته جيدًا من الحضانة، بل صرخة طويلة نابضة بالرعب، صادرة من طفل أكبر كثيرًا، أو حتى شخص بالغ.

ـ مرحبًا؟

جاء الصوت من الطابق السفلي، وجعلني أجفل ثانية، بصورة متشنجة هذه المرة، ووقفت ونبضي يتسارع وانحنيت فوق الدرابزين.

ـ مرحبًا؟ من أنت؟

لم يخرج صوتي صارمًا وواثقًا كما انتويت، بل مرتعشًا وحادًّا بفعل الخوف.

ـ من هناك؟

كان صوتًا بالغًا، لامرأة. وسمعت الآن وقع أقدام في الردهة، ورأيت وجهًا في الأسفل، يحدق إليَّ.

ـ أنتِ المربية الجديدة، على ما أعتقد؟

كانت امرأة، ربما في الخمسين أو الستين من العمر، وجهها أحمر اللون وظهَر جسدها قصيرًا من منظوري لها. بدت ممتلئة القوام وحنونًا، لكن كان

هناك شيء ما في صوتها وتعبيرها لم أستطع تحديده تمامًا. من المؤكد أنني لم أكن محل ترحيب. نوع من... الاستهجان المتوتر؟

كانت هناك أوراق شجر في شعري، وحين شرعت أهبط درجات السلم إلى الطابق الأرضي، رأيت أنني خلفتُ أثرًا من الطين المتناثر على السجادة السميكة خلال ركضي المتسرع إلى بيترا.

كان زران قد انفكا من قميصي، فثبتهما وسعلت، وأنا لا أزال أشعر بوجهي حارًّا من أثر المجهود والخوف.

ـ إمممم، مرحبًا. أجل. نعم، أنا روان. ولا بد أنك أنت...

ـ أنا جين. جين ماكنزي.

تأملتني من رأسي حتى قدمي، من دون أن تكلف نفسها عناء محاولة إخفاء استهجانها، ثم هزت رأسها.

ـ الأمرُ متروك لك يا آنسة، لكنني لا أتفق مع ترك الأطفال حبيسين بالخارج، ولا أعتقد أن السيدة إلينكورت سترضى عن ذلك هي الأخرى.

شعرت بالحيرة للحظة.

ـ «حبيسين بالخارج»؟ ما الذي تعنينه؟

ـ وجدتُ الطفلتين المسكينتين ترتعشان على الدرج بفستانيهما الصيفيين عندما أتيت للتنظيف.

ـ لكن انتظري...

مددت يدي.

ـ انتظري لحظة. لم أحبس أحدًا بالخارج. لقد هربتا مني. كنت في الخارج أبحث عنهما. تركت الباب الخلفي مفتوحًا من أجلهما.

قالت جين بجفاء:

ـ كان مغلقًا عندما وصلت.

هززت رأسي.

ـ لا بد أن الهواء أغلقه. لكنني لم أقفله. لم أكن لأفعل.
كان كل ما قالته، بلمسة من العناد هذه المرَّة:
ـ كان مقفلاً بالمفتاح عندما وصلت.
اشتعل الغضب بداخلي، وحل محل الخوف الذي شعرت به بخصوص بيترا. هل كانت تتهمني بالكذب؟ قلت أخيرًا:
ـ حسنًا... ربما أفلتَ من السقاطة أو شيء ما. هل الفتاتان بخير؟
ـ أجل، إنهما تتناولان الطعام معي في المطبخ.
ـ هل كنت...
توقفت وأنا أحاول التفكير في كيفية صياغة هذا من دون أن أقلل من تقديرها لي بدرجة أشد. بدا من الواضح أن هذه المرأة لا تحبني، أيًّا كان السبب، ويجب ألا أمنحها أي ذخيرة تستغلها ضدي، وتبلغ بها ساندرا.
ـ عدت لأنني سمعت صوتًا من بيترا على جهاز مراقبة الأطفال. هل سمعتِها؟
قالت جين بحزم:
ـ لم تصدر أي صوت. أبقيت عيني عليهن جميعًا.
كان معنى حديثها غير المنطوق هو: على خلافكِ أنت.
ـ وكنت سأسمعها إذا كانت تلقي التحية.
ـ تلقي التحية؟
قالت جين بنفاد صبر:
ـ تبكي.
ـ مادي إذن؟ أو إيلي؟ هل صعدت أي منهما إلى الطابق العلوي؟
قالت جين بنبرة غضب حقيقي في صوتها:
ـ كانتا في الأسفل معي في المطبخ، يا آنسة. والآن إذا سمحتِ لي، يجب أن أعود إليهما. فهما أصغر من أن تُتركا بمفردهما مع الموقد.
ـ بالطبع.

شعرت بوجنتيَّ تتضرجان بالحمرة بسبب النقد الضمني.

ـ لكن من فضلك، هذا هو عملي. سأقدم لهما الغداء.

ـ لقد قدمته لهما بالفعل. كانت المسكينتان الصغيرتان جائعتين للغاية، وبحاجة إلى تناول شيء ساخن.

شعرت بأعصابي المنهكة بالفعل بسبب توتر ذلك الصباح وهي تبدأ في الانهيار.

ـ انظري يا سيدة... (بحثت عن الاسم، ثم وجدته) ماكنزي، سبق وأن شرحت بالفعل، هربت مني الفتاتان، ولم أحبسهما بالخارج. ربما إذا شعرتا بالبرد والجوع بعض الشيء وهما تنتظران أن يسمح لهما شخص ما بالدخول، فسيجعلهما هذا تعيدان التفكير بشأن الهرب في المرة المقبلة. والآن إذا لم يكن لديكِ مانع، لديَّ عمل أنجزه.

تجاوزتها ودخلت المطبخ بغضب، شاعرة بنظرتها الثاقبة في ظهري.

في المطبخ كانت مادي وإيلي جالستين إلى طاولة الإفطار تأكلان البسكويت بالشوكولاتة، وتشربان العصير، مع ما بدا وكأنه بقايا بيتزا في طبق بجوار الحوض. شعرت بنفسي أجز على أسناني. كانت كل هذه الأطعمة محظورة على قائمة ساندرا الخاصة بـ«المكافآت المسموح بها من وقت لآخر». كنت أخطط لأن أُجلسهما لمشاهدة فيلم بعد الظهيرة، مع بعض البسكويت في غرفة التلفزيون. صار هذا خارج قائمة الطعام الآن، وفازت السيدة ماكنزي بحظوة لديهما، وسأصبح أنا المربية الشريرة التي حبستهما بالخارج، وستضطر إلى فرض عشاء صحي.

كبتُّ غضبي، وأجبرت نفسي على الابتسام بلطف.

ـ مرحبًا، يا فتيات. هل كنتما تلعبان لعبة الغميضة؟

قالت إيلي بضحكة:

ـ أجل.

ثم تذكرتْ جدالنا السابق وعبستْ.

ـ لقد آلمتِ معصمي.

مدَّته، وأزعجني وجود حلقة من الكدمات على الجلد الشاحب لمعصمها النحيل كالعصا.

شعرت بوجنتيَّ تتخضبان بالحمرة.

فكرتُ في الجدال معها، لكنني لم أرغب في إثارة الأمر أمام السيدة ماكنزي. وبالإضافة إلى ذلك، بدا أنني فعلت ما يكفي لإثارة عدائهما اليوم. من الأفضل أن أبتلع كبريائي.

ـ أنا آسفة جدًّا، يا إيلي.

انحنيت بجوارها على طاولة الإفطار حتى صار رأسانا على المستوى نفسه، وتحدثت بهدوء كي لا تسمع السيدة ماكنزي.

ـ لم أقصد ذلك حقًّا. كنت فقط قلقة من أن تؤذي نفسك على الممر. لكن أعتذر حقًّا إذا كنت قد أمسكت ذراعك بقوة زائدة. كان الأمر غير مقصود، صدقيني، وأشعر بالسوء حيال ذلك. هل يمكننا أن نكون صديقتين؟

ظننت أنني رأيت إيلي مترددة لثانية، ثم جفلتْ وأصدرتْ أنينًا خافتًا.

رأيت يد مادي أسفل طاولة الإفطار وهي تعود إلى حجرها.

قلت بهدوء:

ـ مادي، ماذا حدث للتو؟

قالت مادي بصوت غير مسموع تقريبًا، وهي توجه الحديث إلى طبقها أكثر مما توجهه إليَّ:

ـ لا شيء.

ـ إيلي؟

قالت إيلي:

ـ لـ... لا شيء.

إلا أنها كانت تفرك ذراعها، وكانت هناك دموع في عينيها الزرقاوين اللامعتين.

ـ لا أصدقك. دعيني أرى ذراعك.

قالت إيلي بعنف أشد:

ـ لا شيء!

جذبتْ سترتها الصوفية للأسفل، ووجهتْ نحوي نظرة خذلان غاضبة.

ـ قلتُ لا شيء. ابتعدي!

ـ حسنًا.

نهضتُ واقفة. أيًا كانت الفرصة التي سنحت لي هنا مع إيلي، فقد ضيعتُها في الوقت الراهن. أو بالأحرى ضيعتها مادي.

كانت السيدة ماكنزي تقف مستندة إلى الطاولة وذراعاها معقودتان، وهي تراقبنا. ثم طوت منشفة الأطباق وعلقتها على قضيب الموقد.

قالت:

ـ حسنًا، سأرحل الآن يا فتيات.

كان صوتها عندما تحدثتْ مع الأطفال أرق، وأكثر ودًّا بكثير من النبرة المقتضبة السريعة التي استخدمتها معي. انحنتْ وطبعتْ قبلة أعلى كل رأس، شعر إيلي الأشقر المجعد أولًا، ثم خصلات مادي الداكنة الناعمة.

ـ تذكرا الآن أن تمنحا شقيقتكما الصغيرة قبلة مني.

قالت إيلي بطاعة:

ـ أجل، يا سيدة م.

لم تقل مادي شيئًا، لكنها اعتصرتْ خصر السيدة ماكنزي بإحدى ذراعيها، وظننتُ أنني لمحت نظرة حزينة في عينيها وهي تتابع المرأة بنظرتها إلى الباب.

قالت السيدة ماكنزي:

ـ وداعًا الآن، يا فتيات.

ثم رحلتْ. سمعت سيارتها وهي تدور في الخارج، وترتج عبر الممر إلى الطريق.

شعرت فجأة بأنني استُنزفت تمامًا وأنا وحدي مع الفتاتين الصغيرتين في المطبخ، وتهاويت على المقعد ذي الذراعين في ركن الغرفة، وأنا لا أريد أكثر من أن أدفن وجهي بين كفَّيَّ وأجهش بالبكاء. ما الذي قبلت مواجهته مع هاتين المخلوقتين الصغيرتين العدائيتين؟ ومع ذلك، لم أتمكن من لومهما. بوسعي أن أتخيل فحسب رد فعلي لو تُركت لأسبوع مع شخص غريب تمامًا.

كان آخر شيء يمكنني مواجهته هو فقدان الأطفال في الأراضي المحيطة بالمنزل مرة أخرى. لذا بينما كانتا تنتهيان من تناول البسكويت، عبرت الردهة وتفحصت الجزء الداخلي من الباب الأمامي الكبير. لم يكن هناك مفتاح، ولا حتى ثقب مفتاح، كما لاحظت في المرة الأولى التي وصلت فيها. بدلًا من ذلك، كانت اللوحة البيضاء التي لاحظتها تحتوي على مستشعر للإبهام. كانت ساندرا قد برمجتْ بصمة إبهامي في تطبيق هاتفها في وقت سابق من صباح ذلك اليوم قبل رحيلها، وشرحتْ لي طريقة تشغيله.

كانت هناك لوحة مطابقة في الداخل، ولمستُها بحذر، وراقبتها بينما أنارتها سلسلة من الأيقونات المضيئة. كانت إحداها مفتاحًا كبيرًا، وتذكرت تعليمات ساندرا ونقرتها بحذر، وسمعت صرير تكة بينما الأقفال في الباب تنزلق إلى مكانها. كان هناك شيء يكاد يكون دراميًّا، بل وينذر بالسوء بشأن الصوت، وكأنه قفل زنزانة تقريبًا وهو يصدر صريرًا في أثناء غلقه. لكن على الأقل صار الباب آمنًا الآن. لم تكن هناك طريقة تستطيع من خلالها مادي أو إيلي الوصول إلى اللوحة من دون سلم، ناهيك عن تفعيل القفل، حيث كنت أشك بشدة أن ساندرا برمجتْ بصمتَي إبهاميهما في النظام.

ذهبتُ بعدها إلى غرفة المرافق. كان الباب فيها يعمل بقفل ومفتاح عاديين فقط، كما لو كانت ميزانية ساندرا وبيل قد نفدت، أو كأنهما لم يكونا مهتمين بمدخل الخدم. أو ربما كان هناك سبب عملي يحتاج معه إلى أن يعمل أحد الأبواب بشكل تقليدي. ربما شيء متعلق بانقطاع التيار الكهربائي أو قوانين

البناء. في كل الأحوال، كان من المريح مواجهة تكنولوجيا يستطيع الإنسان العادي اكتشافها، وأدرت المفتاح في القفل بقوة وأنا أشعر بالرضا، ثم وضعته بعيدًا على إطار الباب بالأعلى، تبعًا لتعليمات الملف. ذكرت الفقرة:

> نحتفظ بجميع مفاتيح الأبواب التي تعمل بأقفال تقليدية على إطار الباب فوق الباب المطابق للمفتاح، بحيث تكون في متناول اليد في وقت الطوارئ، لكن بعيدًا عن متناول الأطفال.

كان هناك شيء مُطَمئن بشأن رؤيته هناك، في مكان مرتفع، وبعيد عن متناول الأصابع الصغيرة.

أنجزت المهمة، وعدت إلى المطبخ وقد التصقت على وجهي أفضل ابتسامة لديَّ وأكثرها إشراقًا.

ـ حسنًا يا فتيات، ما رأيكما لو ذهبنا إلى غرفة التلفزيون لمشاهدة فيلم «فروزين»؟ «موانا»؟

قالت إيلي:

ـ مَرْحَى، «فروزين»!

لكن مادي تدخلت.

ـ نحن نكره «فروزين»!

ـ حقًّا؟

جعلتُ صوتي متشككًا.

ـ حقًّا؟ فهل تعرفين، أنا أحب «فروزين». في الواقع أنا أعرف نسخة من «فروزين» يمكن أن نغني بمصاحبتها، حيث تظهر الكلمات على الشاشة، وأنا بارعة جدًّا في المشاركة في كل الأغاني.

كان بوسعي رؤية إيلي خلف مادي واليأس يبدو عليها، لكنها كانت تشعر بالخوف بدرجة أكبر من أن تعارض شقيقتها.

كررت مادي بعناد:

ـ نحن نكره «فروزين». تعالَي يا إيلي، دعينا نذهب للعب في غرفتنا.

شاهدتها وهي تنزلق من على كرسيها وتسير عبر الردهة بخطوات ثقيلة، وعيون الكلبين تتبعها بحيرة في طريقها. توقفتْ عند المدخل وهزت رأسها نحو شقيقتها بشكل له مغزى. ارتجفت شفة إيلي السفلية.

قلت، وأنا أُبقي صوتي مرِحًا بقدر استطاعتي:

ـ ما زال بوسعنا مشاهدته إذا كنت تريدين، يا إيلي. يمكننا مشاهدته معًا، أنا وأنت فقط. يمكنني صنع الفشار؟

ظننت أنني رأيت إيلي تتردد لدقيقة. لكن بعدها بدا وكأن شيئًا في وجهها تصلب، وهزت رأسها وانزلقت من على مقعدها واستدارت لتتبع شقيقتها.

تنهدتُ بينما وقع أقدامهما يتلاشى على السلم، ثم استدرت لأضع الغلاية على الموقد لأصنع لنفسي إبريقًا من الشاي. على الأقل ستتاح لي نصف ساعة بمفردي كي أحاول فهم الوضع.

لكن قبل أن أنتهي حتى من ملء الغلاية، أصدر جهاز مراقبة الأطفال في جيبي خشخشة، ثم ندت عنه صرخة عصبية وسعال، مما أخبرني أن بيترا استيقظت، وأنني عدت إلى الخدمة.

لا راحة للأشرار، إذن.

ما الذي أخذته على عاتقي؟

أعرف أنني أستفيض في الحديث. وأعلم أنه لا بد أنك تتساءل متى بحق الجحيم سوف أصل إلى الهدف، سبب وجودي في هذه الزنزانة، والسبب الذي يجب من أجله ألا أكون هنا.

وأعدك أنه آتٍ. لكن لا يمكنني... لا أستطيع توضيح الموقف بسرعة على ما يبدو. كانت هذه هي المشكلة مع السيد جيتس. لم يسمح لي قَطُّ بشرح الأمر بشكل صحيح، لأوضح كيف تراكم كل شيء، كل الأشياء الصغيرة، كل ليالي الأرق والوحدة والعزلة، وجنون المنزل، والكاميرات، وكل شيء آخر. لكي أشرح بشكل صحيح، يجب أن أحكي كيف حدث ذلك. يومًا بعد يوم. ليلة بعد ليلة. جزءًا بعد جزء.

لكن ذلك يبدو وكأنني أبني شيئًا ما، ربما منزلًا، أو صورة في أحجية مقطعة. جزءًا بعد جزء. والحقيقة هي أن الأمر كان معكوسًا. كنت أنا أتمزق، جزءًا بعد جزء.

وكان الجزء الأول في تلك الليلة.

تلك الأمسية الأولى... حسنًا، لم تكن هي الأسوأ، لكنها لم تكن الأفضل أيضًا على الإطلاق.

استيقظت بيترا من غفوتها وهي نزقة وعصبية، ورفضت مادي وإيلي الخروج من غرفتهما طوال فترة ما بعد الظهيرة، حتى لتناول العشاء، مهما توسلت ومهما وجهت إليهما من إنذارات. لن تحصلا على حلوى البودينج

إلا إذا كنتما في الطابق السفلي عندما أعد من خمسة... أربعة... ثلاثة... لم يكن هناك وقع أقدام على السلم. اثنان... واحد ونصف...

عرفت أنني خسرت عندما قلت واحد ونصف.

لن تأتيا.

للحظة، فكرت في أن أسحبهما إلى الخارج. كانت إيلي صغيرة بما يكفي كي أقبض على خصرها وأحملها عنوة إلى الطابق السفلي، لكن تبقَّى لديَّ ما يكفي من العقل حتى أدرك أنني إذا بدأت الأمر على هذا المنوال، فلن أتمكن أبدًا من تخفيف حدة الوضع بعد ذلك. وبالإضافة إلى هذا، لم تكن إيلي هي المشكلة، بل مادي. وكانت في الثامنة من العمر وقوية البنية، ولم يكن هناك من سبيل حتى أحمل بمفردي طفلة تركل وتصرخ وتقاتل، وأنزل بها ذلك السلم الطويل المنحني، واحتمال أقل حتى لأن أنجح في إجبارها على الجلوس وتناول الطعام ما إن أُدخلها إلى المطبخ.

استسلمت في النهاية، وبعد أن تفقدت قائمة الطعام المقترحة من ساندرا في الملف، أخذت المعكرونة بصلصة البيستو إلى غرفة نومهما، مع أن ذكرى ذلك الرأسين الصغيرين الوديعين المحنيين فوق بسكويت رقائق الشوكولاتة لجين ماكنزي كانت مريرة في خاطري، بينما سمعت صوت مادي وهي تقول بعنف: «ارحلي بعيدًا!»، عندما طرقت الباب.

قلت بخنوع:

ـ هذا أنا. معي المعكرونة الخاصة بكما. سأتركها هنا خارج الباب. لكنني أنا وبيترا سنكون في الطابق السفلي نتناول الأيس كريم، إذا كنتما تريدان بعض حلوى البودينج.

ثم رحلت. كان ذلك كل ما يمكنني فعله.

في المطبخ في الطابق السفلي، حاولت منع بيترا من إلقاء معكرونتها على الأرض، وراقبت مادي وإيلي على جهاز الآيباد. منحني تسجيل الدخول

الشخصي الخاص بي الإذن بمشاهدة الكاميرات في غرف الأطفال، وغرفة اللعب، وفي المطبخ، وفي الخارج، والتحكم في الأنوار والموسيقى في بعض الغرف الأخرى. لكن كانت هناك قائمة كاملة من الإعدادات على اليسار باللون الرمادي، وغير متاحة. خمنت أنني سأحتاج إلى تسجيل دخول ساندرا للتحكم فيها.

مع أنني كنت لا أزال أجد الأمر مخيفًا بعض الشيء لكوني أستطيع التجسس على الأطفال عن بعد هكذا، لكنني بدأت أقدر مدى فائدة ذلك. كنت قادرة على المراقبة من مقعدي بجوار طاولة الإفطار، حين تقدمتْ مادي باتجاه باب غرفة النوم، ثم عادت أمام مجال رؤية الكاميرات وهي تسحب صينية الطعام عبر السجادة.

كانت هناك طاولة صغيرة في منتصف الغرفة، وشاهدتُ بينما هي توجه إيلي إلى أحد المقاعد، ووضعتْ أطباقهما وأدوات مائدتهما، ثم جلست في مواجهة شقيقتها. لم يكن الصوت مرتفعًا، لكن بدا من الواضح من أفعالها أنها كانت توجه إيلي وتأمرها بتناول الطعام. ربما كانت تجبرها على أن تجرب البازلاء التي مزجتها مع صلصة البيستو، تبعًا لحركات إيلي بينما هي تحتج. انقبض قلبي على نحو غريب، بأسف غاضب ممزوج بنوع من الحنان. أردت أن أقول: «أوه، يا مادي. ليس من الضروري أن يكون الأمر على هذا النحو. لسنا مضطرين لأن نكون أعداء».

لكن في الوقت الحالي على الأقل، بدا كما لو كنا كذلك.

حممت بيترا بعد العشاء، وأنا أستمع بنصف تركيز إلى صوت كتاب مسموع من نوع ما، آتٍ من غرفة مادي وإيلي، ثم وضعتها في الفراش، أو بالأحرى حاولتُ ذلك.

فعلتُ بالضبط كما قال الملف، متبعة التعليمات تمامًا مثلما فعلت عند وقت الغداء، لكنها لم تفلح هذه المرة. كانت بيترا تتذمر وتتلوى، ونزعتْ حفاضتها. ثم عندما ألبستها إياها مرة أخرى بحزم، وأغلقتُ منامتها من

الخلف بحيث لم تتمكن من خلعها، شرعتْ في العويل بإصرار بصوت مرتفع.

اتبعتُ تعليمات الملف لأكثر من ساعة، وجلست هناك ويدي فوق ظهرها بصبر، وأنا أستمع إلى النغمة المتكررة الهادئة للعبة المتحركة فوق فراشها، وأراقب دائرة الأنوار على السقف، لكن ذلك لم يُفِد. زادت بيترا انزعاجًا أكثر فأكثر، وأخذت صرخاتها تتصاعد قوة من الضيق إلى الغضب، ومنه كادت تشارف حد الهستيريا.

بينما جلستُ هناك أربت وأحاول ألا أدع التوتر الكائن في معصمي ويدي ينتقل إلى بيترا، نظرتُ إلى الأعلى بعصبية نحو الكاميرا في زاوية الغرفة. ربما كنت خاضعة للمراقبة الآن. بوسعي تخيل ساندرا في فعاليات إحدى الشركات، وهي تحتسي الشامبانيا بتوتر بينما تتابع تسجيل كاميرا غرفة الطفلة على هاتفها. هل كنت على وشك تلقي مكالمة لتسألني ما الذي أفعله بحق الجحيم؟

قال الملف إنه يجب تجنب إخراج بيترا من فراشها بعد إطفاء النور، لكن لم يبدُ أن البديل، مجرد تركها هناك، فعال هو الآخر. في النهاية حملتها ووضعتها على كتفي، وأنا أذرع الغرفة جيئة وذهابًا، لكنها صرخت بغضب بين ذراعيَّ وهي تقوس ظهرها، وكأنها تحاول أن تقلب نفسها لتخرج من قبضتي. لذا أعدتها إلى الفراش، فسحبت نفسها ناهضة على قدميها، ووقفت تبكي مهتاجة ووجهها الأحمر الصغير مضغوط إلى القضبان.

بدا أنه لا يوجد شيء يمكنني فعله، وكان وجودي يزيدها غضبًا فحسب.

في النهاية، بنظرة أخيرة مذنبة إلى الكاميرا، استسلمتُ.

قلتُ بصوت مرتفع:

ـ ليلة سعيدة يا بيترا.

ثم نهضتُ وغادرت الغرفة، مغلقة الباب خلفي بإحكام، واستمعت لصرخاتها وهي تخفت بينما أنا أسير عبر الرواق.

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة مساء، وشعرت بالتعب والإرهاق من جهد القتال مع الأطفال طوال المساء. فكرت في التوجه إلى الطابق السفلي مباشرة لتناول كأس من النبيذ، لكن في الواقع كان يجب أن أتفقد مادي وإيلي.

لم أسمع أي شيء من وراء باب غرفة نومهما، وعندما نظرت عبر ثقب المفتاح، بدا كل شيء في الداخل مظلمًا. هل أطفأتا الأنوار؟ فكرت في أن أطرق الباب، لكنني قررت ألا أفعل. إذا كانتا تخلدان إلى النوم، فغالبًا سيفسد صوت الطرقة كل ذلك.

بدلًا من ذلك، أدرت المقبض بهدوء شديد، ودفعت. انفتح الباب بمقدار شق، لكنه واجه مقاومة بعد ذلك.

انتابتني الحيرة، ودفعت بقوة أكبر، وعلا صوت انهيار مدوٍّ، بينما كومة من شيء ما ـ لم أكن متأكدة من ماهيته ـ مكدسة مقابل الباب من الداخل تسقط أرضًا مُصدرة جلبة. حبست أنفاسي، منتظرة صيحات وبكاء، لكن لم يصدر أي صوت. على ما يبدو استمر الأطفال في النوم خلال الضجيج.

انزلقت عبر الفجوة التي صنعتها بحذر شديد، وأشعلت مصباح هاتفي لتفقد الأضرار. لم أكن متأكدة ما إذا كان عليَّ الضحك أم البكاء. كانتا قد كدستا كل أثاثهما المتحرك تقريبًا ـ الوسائد والدمى والكتب والمقاعد، والطاولة الصغيرة من منتصف الغرفة ـ على هيئة حاجز خلف باب غرفة النوم. كان الأمر كوميديًّا، ومع ذلك مثيرًا للشفقة بدرجة كبيرة في الوقت نفسه. ما الذي كانتا تحاولان حماية أنفسهما منه؟ أنا؟

دورت المصباح في أرجاء الغرفة، ورأيت أحد المصابيح الكائنة بجوار الفراش، التي قامتا بفصلها وتكديسها أعلى كومة الأشياء. كان قد سقط على الأرض عندما أطحت بالكومة. كان غطاء المصباح مزعزعًا، لكن لحسن الحظ لم تنكسر اللمبة. عدلت الغطاء بحرص، ثم أعدت توصيله، ووضعته

على الطاولة الجانبية لفراش إيلي. عندما غمر الوهج الوردي الناعم الغرفة، رأيتهما مستكينتين معًا في فراش مادي، وهما تبدوان بالضبط كأنهما ملاكان صغيران. أحاطت ذراعا مادي بشقيقتها بقوة، بشكل خانق تقريبًا، وفكرت في محاولة تخفيف قبضتها، لكن بعد ذلك قررت ألا أفعل. تفاديت كارثة بالكاد تلك المرة مع ذلك الانهيار الضخم، فلا جدوى من المجازفة أكثر من ذلك.

في النهاية، حركت ما يكفي من الأشياء بعيدًا عن الباب بدرجة يصير معها من الممكن الدخول والخروج من دون التسبب في انهيار، ثم تركتهما وشغلت خاصية الاستماع في تطبيق هابي على هاتفي، حتى أستطيع سماعهما إذا استيقظتا.

كانت بيترا لا تزال تبكي عندما تسللت على أطراف أصابعي بهدوء أمام غرفتها، لكن صوتها انخفض، وقسَّيت قلبي ولم ألقِ نظرة بالداخل. قلت لنفسي إنها ستستقر أسرع إن تركتها. وبالإضافة إلى ذلك، لم أتناول أي طعام أو شراب منذ الظهيرة، حيث كنت مشغولة للغاية في محاولة إطعام الفتيات وتحميمهن، فلم أتمكن من إعداد العشاء لنفسي. شعرت فجأة بجوع بالغ، ودوار ورغبة شديدة في الطعام.

تقدمت من الثلاجة في المطبخ بالطابق السفلي. قال صوت آلي بينما أنا ألمس الباب:

- لديكم كمية قليلة من الحليب.

مما جعلني أجفل بتشنج.

- هل أضيفه إلى قائمة التسوق؟

تمكنت من الرد:

- آه... نعم.

هل كنت أفقد عقلي، وأنا أتحدث بصوت مرتفع إلى أحد الأجهزة المنزلية؟

قال الصوت بابتهاج:

ـ تمت إضافة الحليب إلى قائمة التسوق.

وأضاءت الشاشة على الباب مرة ثانية، مظهرة قائمة البقالة.

ـ فلتأكلي بسعادة، يا روان!

حاولت ألا أفكر في الطريقة التي عرف بها من يقف أمامه. خاصية تمييز الوجوه؟ وجود هاتفي في الجوار؟ أيًا كان، شعرت بالانزعاج بوضوح.

بدت محتويات الثلاجة لأول وهلة صحية بشكل مؤلم: درج ضخم ممتلئ بالخضراوات، وعلب المعكرونة الطازجة، وقدور متنوعة من أشياء مثل الكيمتشي والهريسة، وبرطمان كبير من شيء يشبه ماء البركة، لكنني ظننت أنه ربما يكون شاي الكمبوتشا. مع ذلك رأيتُ في الخلف، وراء بعض أنواع الزبادي الحيوي، صندوقًا من الورق المقوى به بيتزا، أخرجته ببعض الصعوبة وفتحته. كنت أُدخل صينية الخبز إلى الفرن، عندما علا طرق حاد من الجدار الزجاجي على الجانب المقابل لطاولة المطبخ.

جفلت واستدرت وأنا أمسح الغرفة بنظري. بدأ الظلام يحل، والمطر يتناثر على الزجاج، ومع أن جانب الغرفة البعيد كان معتمًا، فلم أرَ شيئًا بالخارج سوى القليل جدًا، باستثناء القطرات الشبيهة بالجواهر وهي تنهمر عبر اللوح الزجاجي الضخم. بدأت أعتقد أنني ربما تخيلت الأمر، أو ربما طار عصفور وارتطم بالزجاج، عندما تحرك شكل داكن في الغسق، أسود في مقابل الرمادي. كان هناك شيء ما، شخص ما، في الخارج.

ناديت بحدة أكثر قليلًا مما كنت أنتوي:

ـ من هناك؟

لم يكن هناك جواب. سرت أمام طاولة الإفطار، وحول منضدة المطبخ، نحو الجدار الزجاجي الذي يكتنفه الظلام.

لم تكن هناك لوحة، أو لا شيء بوسعي رؤيته، لكنني تذكرت حينها الأوامر الصوتية.

قلت بحدة:

ـ أَشعِل الأنوار.

ولدهشتي إلى حد ما، نجح الأمر. اشتعلت الثريا الوحشية الضخمة فوق رأسي فجأة بوهج اللمبات الموفرة للطاقة. جعلني انفجار الوهج أرمش في دهشة. لكن ما إن تأقلمت عيناي حتى أدركت خطئي. مع الأضواء المشتعلة، لم يعُد بوسعي رؤية أي شيء على الإطلاق في الخارج، سوى انعكاس صورتي على الزجاج. في حين أن أيًّا من كان الموجود بالخارج كان يستطيع رؤيتي بوضوح شديد.

قلت:

ـ أَطفِئ الأنوار.

انطفأ كل ضوء في الغرفة بأكملها على الفور، وغرق المطبخ في ظلام دامس.

قلت بهمس:

ـ اللعنة.

وبدأت أتحسس طريق عودتي عبر المطبخ نحو اللوحة بجوار الباب، لأحاول إعادة الإعدادات إلى شيء ما في المنتصف بين الوهج الحارق لشبكية العين والظلام التام. كانت عيناي ما زالتا مبهورتين وتتألمان من انفجار ضوء الثريا، لكن عندما أخذت أصابعي تبحث أخيرًا عن لوحة التحكم، ألقيت نظرة إلى الوراء نحو النافذة، وظننت، مع أنني لم أكن متأكدة، أنني شاهدت شيئًا ما يتحرك سريعًا حول جانب المنزل.

قضيت بقية الوقت بينما البيتزا تنضج، وأنا ألقي نظرات متوترة وراء كتفي نحو الظلال الداكنة في الجانب البعيد من الغرفة، وأقضم أظافري. كنت قد

أغلقتُ جهاز مراقبة الأطفال، لأسمع أي أصوات من الخارج بشكل أفضل، لكن بكاء بيترا كان يصل إلى الطابق السفلي على نحو ضعيف، مما زاد من مستوى التوتر لديَّ.

شعرت بميل إلى تشغيل بعض الموسيقى، لكن كان شيء ما مثيرًا للقلق بخصوص فكرة إغراق صوت دخيل محتمل. بطبيعة الحال، لم أكن قد رأيت أو سمعت شيئًا محددًا بما يكفي للاتصال بالشرطة. شكلًا في الظلام، وطرقة كان يمكن أن تكون أي شيء من جوزة بلوط حتى طائر... لم يكن بالتحديد يوم الجمعة الثالث عشر من الشهر.

ربما كان ذلك بعد عشر أو خمس عشرة دقيقة، مع أنني شعرت أنها فترة أكثر من ذلك بكثير، عندما سمعت صوتًا آخر، من جانب المنزل هذه المرة، وهي طرقة جعلت الكلبين ينبحان من سلتيهما في غرفة المرافق.

جعلني الصوت أجفل، على الرغم من وجود شيء مألوف وعادي بشأنه، أكثر من الطرق الأجوف السابق. وعندما ذهبت إلى غرفة المرافق، كان بوسعي رؤية قامة شخص داكنة مظللة خارج ألواح الباب الزجاجية التي تناثر عليها المطر. تحدث الشخص، وكاد هزيم المطر يغرق صوته.

ـ هذا أنا، جاك.

غمرني شعور بالارتياح.

ـ جاك!

سحبت الباب بقوة لأفتحه، وكان هناك واقفًا تحت العتبة مباشرة، محنيًا في معطف واقٍ من المطر، ويداه في جيبيه. كان الماء يتدفق من غرة شعره ويقطر من أنفه.

ـ جاك، هل كان ذلك أنت من قبل؟

بدت عليه الحيرة وهو يسأل:

ـ قبل متى؟

فتحت فمي كي أشرح الأمر، ثم عدلت عن ذلك.

ـ لا عليك، لا يهم. فيمَ يمكنني تقديم المساعدة؟

قال:

ـ لن أعطلك. أردت فقط الاطمئنان أنك بخير، حيث إنه يومك الأول وما إلى ذلك.

قلت بحرج، وأنا أفكر في الأمسية الشنيعة، وفي أن بيترا في الغالب لا تزال تبكي عبر جهاز مراقبة الأطفال:

ـ أشكرك.

ثم أضفت من دون تفكير مسبق:

ـ هل... أعني، أترغب في الدخول؟ الأطفال في الفراش. كنت أعدُّ للتو بعض العشاء لنفسي.

ـ هل أنت متأكدة؟

نظر إلى ساعته.

ـ الوقت متأخر جدًّا.

قلت:

ـ أنا متأكدة.

وتراجعت إلى الوراء لأسمح له بالدخول إلى غرفة المرافق. وقف يقطر على السجادة، ثم خلع حذاءه ذا الرقبة الطويلة بحذر شديد.

قال، بينما هو يتبعني إلى المطبخ:

ـ آسف لأن الوقت تأخر هكذا. كنت أنوي القدوم من قبل، لكن كان عليَّ أخذ جزازة العشب اللعينة تلك إلى إنفرنيس لصيانتها.

ـ ألم تتمكن من إصلاحها؟

ـ أوه، أجل، لقد جعلتها تعمل. لكنها تعطلت مرة أخرى بالأمس. أيًّا ما كانت المشكلة، فيبدو أنني لست قادرًا على الوصول إلى سببها. لكن دعكِ من ذلك. فلم أحضر كي أشكو إليك مشكلاتي. كيف كان الحال مع الأطفال؟

- لقد كان...

توقفت، وشعرت بالرعب عندما وجدت أن شفتي السفلى خانتني وأخذت ترتجف. أردت التظاهر بالشجاعة، فماذا لو كان يبلغ ساندرا وبيل الأخبار؟ لكنني لم أستطع ذلك فحسب. وبالإضافة إلى ذلك، سيعرفان الحقيقة قريبًا جدًّا إذا طالعا تسجيلات الكاميرات الأمنية. وكأنها تضفي اللمسة الختامية، أطلقت بيترا صرخة حزن طويلة جياشة من الطابق العلوي، كانت مرتفعة بدرجة جعلت جاك يدير رأسه نحو السلم.

قلت ببؤس:

- يا إلهي، من الذي أحاول خداعه. كان الأمر مروعًا. هربت مني الفتاتان بعد رحيل بيل وساندرا وذهبتُ للبحث عنهما في الغابة، ثم أتت تلك المرأة... ما اسمها؟ السيدة ماكينتي؟

قال جاك:

- جين ماكنزي.

خلع معطفه الواقي من المطر، وجلس إلى الطاولة الطويلة، ووجدتُ نفسي أغوص في مقعد مقابل. أردت أن أضع رأسي بين كفيَّ وأبكي، لكنني أجبرت نفسي على إطلاق ضحكة مرتعشة.

- حسنًا لقد أتت للتنظيف، ووجدَتِ الفتاتين جالستين على عتبة الباب وهما تدَّعيان أنني حبستهما بالخارج، وهو ما لم أفعله مطلقًا. تعمدتُ ترك الباب مفتوحًا لهما. إنهما تكرهانني، يا جاك. وظلت بيترا تصرخ لنحو ساعة و...

جاءت الصرخة مرة أخرى، وشعرت بارتفاع مستوى التوتر لديَّ بالتزامن مع علوها.

قال جاك بحزم، بينما أنا على وشك النهوض:

- اجلسي.

دفعني إلى مقعدي مرة أخرى.

ـ سأرى إذا كان بوسعي تهدئتها. ربما لم تألف وجهكِ فحسب. سيكون الوضع أفضل غدًا.

كان ذلك تحديًا لكل قواعد الحماية التي تعلمتها على الإطلاق، لكنني كنت متعبة ويائسة جدًا بدرجة أكبر من أن أهتم. وإلى جانب ذلك، قلت لنفسي إن ساندرا وبيل ما كانا ليبقيانه في المكان لو كانا يعتقدان أنه يشكل خطرًا على أطفالهما.

عندما انحسر صوت خطواته على السلم، شغلت جهاز مراقبة الأطفال، واستمعت إلى حفيف باب غرفة بيترا وهو ينفتح برفق، وصرخاتها المختنقة اللاهثة تهدأ عندما رُفع جسدها من الفراش.

ـ اهدئي يا حبيبتي الصغيرة.

سمعتُ دندنة حميمة منخفضة جعلت وجنتيَّ تتخضبان حمرة، كما لو كنت أتنصت، مع أن جاك كان يعرف بالتأكيد أن جهاز مراقبة الأطفال قيد التشغيل.

ـ اهدئي يا فتاتي الصغيرة المسكينة.

بدت لكنته أقوى إلى حد ما وهو بعيد عني في الطابق العلوي.

ـ صه... صه الآن، يا بيترا... اهدئي... يا لها من جلبة بلا داعٍ.

انخفضت صرخات بيترا الآن، وتحولت إلى فواق وتذمر أكثر منه ضيق حقيقي. وكان بوسعي سماع صرير الألواح الخشبية وجاك يذرع بهدوء جيئة وذهابًا حاملًا إياها، وهو يسكن ويهدئ الطفلة العصبية بلمسة خبيرة على نحو مثير للدهشة.

سكتت أخيرًا، وسمعت خطواته تتوقف، وصلصلة قضبان الفراش وهو ينحني مُنزلًا إياها برفق على المرتبة.

ساد صمت طويل، ثم حفيف الباب على السجادة، ووقع أقدام جاك على السلم مرة أخرى.

قلت وهو يدخل المطبخ، وأنا لا أكاد أجرؤ على تصديق الأمر:

ـ هل نجحتَ؟

أومأ، ومنحني ابتسامة صغيرة ساخرة.

ـ أجل. أعتقد أن الصغيرة المسكينة كانت مرهقة، وتبحث عن عذر فقط كي تريح رأسها. خلدت إلى النوم بمجرد أن حملتها تقريبًا.

ـ يا إلهي، جاك، لا بد أنك تعتقد تمامًا أنني...

توقفت، وأنا لست متأكدة مما يجب أن أقوله.

ـ أعني، أنا المربية. من المفترض أن أجيد هذه الأمور.

ـ لا تكوني سخيفة.

جلس إلى الطاولة مرة أخرى، أمامي.

ـ سيصبحن على ما يرام عندما يتعرفن عليك. أنت غريبة بالنسبة إليهن، هذا كل ما في الموضوع. وهن يختبرنكِ. كان لديهن عدد من المربيات خلال العام الماضي، يكفي لجعلهن مرتابات بعض الشيء من قدوم واحدة جديدة لتتولى الأمور. أنت تعرفين طبيعة الأطفال. ما إن يَرين أنك هنا لتبقَي، ولن تتخلي عنهن مرة أخرى، سيتحسن الوضع.

ـ جاك...

كان ذلك هو المدخل الذي كنت أنتظره، ومع ذلك بعد أن سنح لي لم أكن متأكدة من كيفية صياغة سؤالي.

ـ جاك، ما الذي حدث بالفعل مع أولئك المربيات الأخريات؟ قالت ساندرا إنهن رحلن لاعتقادهن بأن المنزل مسكون، لكن لا يمكنني تصديق... لا أدري، يبدو الأمر غير معقول فحسب. هل رأيت أي شيء من قبل؟

بينما أنا أقول ذلك، فكرت في الظل الذي رأيته في الخارج، وأبعدت الصورة عن ذهني. كان مجرد ثعلب في الغالب، أو شجرة تتحرك مع الريح.

قال جاك ببطء نوعًا ما:

ـ حسنًا...

مد إحدى يديه الكبيرتين الخشنتين من أثر العمل، وأظافره لا تزال رمادية بعض الشيء بفعل الشحم، مع أنه لا بد أن غسلهما مرارًا، والتقط جهاز مراقبة الأطفال الذي وضعته على الطاولة، وقلَبه متفكرًا.

ـ حسنًا، لن أقول...

لكن أيًا ما كان على وشك التفوه به، فقد قاطعه صوت عالٍ آمر إلى حد ما يقول:

ـ روان؟

قطع جاك حديثه، لكنني جفلت بعنف لدرجة أنني عضضت لساني، واستدرت باحثة بشدة عن مصدر الصوت. كان صوت أنثى بالغة، وليس واحدة من الأطفال. كما كان بشريًا للغاية، ومميزًا تمامًا عن الصوت الآلي لتطبيق هابي. هل كان هناك شخص ما في المنزل؟

كرر الصوت قائلًا:

ـ روان، هل أنت هناك؟

تمكنت من الرد:

ـ مـ... مرحبًا؟

ـ آه، أهلًا روان! أنا ساندرا.

غمرني شعور مختلط من الارتياح والغضب، وأدركت أن الصوت آتٍ من مكبرات الصوت. اتصلت ساندرا بطريقة ما بنظام المنزل، وكانت تستخدم التطبيق كي تتحدث إلينا. كان الشعور بالتطفل لا يوصف. لمَ بحق الجحيم لم تتصل هاتفيًا فحسب؟

ـ ساندرا.

أخفيت غضبي، محاوِلة استعادة نبرة الصوت المبهجة المتفائلة التي أتقنتها في المقابلة.

ـ مرحبًا. يا إلهي، كيف حالك؟

ـ بخير!

تردد صدى صوتها في أنحاء المطبخ، وقد ضخمه نظام الصوت المحيطي، وهو يرتد عن السقف الزجاجي المرتفع.

ـ متعبة! لكن الأهم هو كيف حالك أنت؟ كيف يسير كل شيء في الجبهة الداخلية؟

شعرتُ بعينيَّ تنتقلان نحو جاك الجالس إلى الطاولة، وأنا أفكر في كيف أنه هو من تكفل بمساعدة بيترا على الخلود إلى النوم. هل رأت ساندرا ذلك؟ هل يجب أن أقول شيئًا؟ أردته ألا يتدخل في الحديث، ولم يفعل.

قلت أخيرًا:

ـ حسنًا... الوضع هادئ الآن. جميعهن في الفراش، نائمات في أمان. مع أنني يجب أن أعترف أن بيترا مثلت لي صراعًا نوعًا ما. نامت بهدوء كالحمل وقت الغداء، لكن ربما تركتها تنام لفترة أطول من اللازم، لا أدري. كان من الصعب جدًّا جعلها تنام هذا المساء.

ـ لكنها نائمة الآن؟ عمل رائع.

ـ نعم، إنها نائمة الآن. كما خلدت الاثنتان الأخريان إلى النوم بهدوء كالفئران.

فئران خائفة ودفاعية وغاضبة، لكنهما التزمتا الهدوء على الأقل. وكانتا نائمتين.

ـ تركتهما تتناولان العشاء في غرفتهما، حيث بدا عليهما التعب حقًّا. آمل أن يكون ذلك أمرًا مقبولًا؟

قالت ساندرا، وكأنما تتخلص من السؤال:

ـ حسنًا، حسنًا. وهل كان سلوكهما على ما يرام لباقي اليوم؟

ـ إنهما...

زممت شفتي، وأنا أتساءل إلى أي حد عليَّ أن أكون صادقة.

ـ لقد انزعجتا بعض الشيء بعد رحيلكما، لأكون صادقة، خاصة إيلي.

لكنهما هدأتا في المساء. عرضت السماح لهما بمشاهدة «فروزين»، لكنهما لم ترغبا في ذلك. انتهى بهما الأمر باللعب في غرفتهما.

حسنًا، كان ذلك الجزء صادقًا بما فيه الكفاية. لكن المشكلة هي أنهما لم تخرجا من غرفتهما.

ـ اسمعي يا ساندرا، هل هناك قواعد خاصة فيما يتعلق بالأراضي المحيطة بالمنزل؟

ـ ما الذي تعنينه؟

ـ أقصد، هل مسموح لهما فعلًا بالتجول في المكان، أم هل يجب عليَّ إبقاؤهما بالداخل؟ أعرف أنك أنت وبيل تشعران بالراحة حيال الأمر، لكن هناك تلك البركة... أنا فقط... إنها تصيبني بالتوتر.

قالت ساندرا:

ـ أوه، هذا.

أطلقت ضحكة، وتردد الصوت في المكان بطريقة جعلتني أتمنى لو كنت أعرف كيفية التحكم في ارتفاع الصوت عبر المكبرات.

ـ عمقها بالكاد ست بوصات. بصراحة، هذا هو السبب الذي دفعني أنا وبيل لشراء مكان تحيطه أراضٍ شاسعة، حتى نمنح الأطفال بعض الحرية للانطلاق بجموح. لا حاجة لأن تحومي حولهما كل ثانية من الوقت. فهما تعرفان أنه من غير المسموح لهما ممارسة أي تصرفات حمقاء.

ـ أنا... أنا...

توقفتُ، وأنا أعاني حتى أتمكن من التعبير عن مخاوفي، من دون أن أبدو وكأنني أنتقد أسلوبها في التربية. كنت أعي بشكل فظيع وجود جاك جالسًا على الجانب المقابل لي من الطاولة، وقد أدار عينيه بتهذيب، محاولًا التظاهر بأنه لم يكن يستمع.

ـ حسنًا، أنت تعرفينهما أفضل مني بالطبع يا ساندرا، وإذا كنت مطمئنة

أنهما تتقبلان ذلك، فسأثق بكلامك بخصوص هذا الشأن. لكنني فقط... اعتدتُ مستوى أعلى من الإشراف، إذا كنت تدرين ما أعنيه. خاصة فيما يتعلق بالماء. أعرف أن الماء ليس عميقًا إلى هذا الحد، لكن الطين...

قالت ساندرا:

ـ حسنًا، انظري.

بدت دفاعية بعض الشيء الآن، ولعنتُ نفسي. لقد حاولتُ جاهدة إلى أقصى حد ألا أبدو انتقادية.

ـ انظري، يجب أن تستخدمي حكمك العقلاني على الأمور، بالطبع عليك فعل ذلك. إذا رأيتِهما تفعلان شيئًا غبيًّا، تدَخلي. غني عن القول إن وظيفتك هي الإشراف عليهما. لكنني لا أرى الحكمة من وجود الأطفال عالقين أمام التلفزيون طوال فترة ما بعد الظهيرة، بينما هناك حديقة كبيرة وجميلة ومشمسة بالخارج.

شعرتُ بالدهشة. هل كانت هذه ملاحظة ساخرة بخصوص كوني حاولت رشوتهما بمشاهدة فيلم؟

سادتْ فترة صمت طويلة وغير مريحة، بينما كنت أحاول التفكير فيما أقوله. أردت قول الحقيقة بنبرة لاذعة، إنه من المستحيل أن يشرف شخص واحد بدرجة ملائمة على طفلة في الخامسة، وطفلة في الثامنة، ورضيعة تستطيع المشي بالكاد، إذا كن متفرقات عبر عدة أفدنة من الأراضي المزروعة بالأشجار. لكن ساورني شعور بأن ذلك سيتسبب في طردي من العمل. بدا من الواضح أن ساندرا لا ترغب في مناقشة المخاطر التي ينطوي عليها السماح للفتيات بالتجوال.

قلت أخيرًا:

ـ حسنًا، أنا أتفهم هذه النقطة تمامًا يا ساندرا. ومن الواضح أنني حريصة جدًّا على الاستفادة من جمال الأراضي المحيطة أنا الأخرى. سوف...

توقفتُ عن الحديث، وأنا أتحسس ما أقوله.

ـ سوف ألجأ إلى حكمي العقلاني، كما اقترحت. على أي حال، استمتعنا بيوم جيد جدًّا، إذا أخذنا كل شيء في الاعتبار. ويبدو أن الفتيات... يبدو أنهن تأقلمن بشكل جيد. هل تريدينني أن أتصل بك غدًا؟

قالت ساندرا، وقد صار صوتها ألطف بعض الشيء الآن:

ـ سأكون في اجتماعات طوال اليوم، لكنني سأتصل قبل موعد النوم. آسفة لأنني لم أتمكن من الحديث مع الفتيات قبل النوم، لكننا كنا نتناول العشاء مع عميل. وعلى أي حال، كان ذلك سيزعجهن في الغالب. أجد أنه من الأفضل أن أكون بعيدة عن العين وبعيدة عن الذهن في البداية.

قلت:

ـ أجل، بالتأكيد. يمكنني تفهُّم ذلك.

ـ حسنًا، ليلة سعيدة يا روان. أتمنى لك نومًا هانئًا. أنا واثقة أنك ستفعلين، فسوف تستيقظين مبكرًا في الغد، على ما أخشى!

أطلقتْ ضحكة أخرى. أجبرتُ نفسي على محاكاتها، مع أن شعوري في الحقيقة كان أي شيء سوى التسلية. أصابتني فكرة الشروع في كل هذا مرة أخرى في السادسة صباحًا بنوع من الغثيان. كيف راودتني الفكرة على الإطلاق أن بمقدوري فعل هذا؟

فكرتُ بتصميم: «تذكري سبب وجودك هنا».

قلت، وأنا أحاول أن أضفي الابتسامة على صوتي:

ـ أجل، أنا واثقة أنني سأفعل. ليلة سعيدة، يا ساندرا.

انتظرتُ، لكن لم تصدر أي تكة أو إشارة تدل على أنها وضعت السماعة أو أغلقت التطبيق.

قلت بتردد:

ـ ســ... ساندرا؟

لكن بدا أنها اختفت. ارتميتُ في مقعدي مرة أخرى، ومسحت وجهي بيدي. شعرت بالإرهاق.

قال جاك بحرج، ومن الواضح أنه اعتبر لفتتي نوعًا من التلميح:

ـ يجب أن أذهب.

وقف، دافعًا مقعده إلى الخلف.

ـ لقد تأخر الوقت، ويجب أن تبدئي اليوم مبكرًا مع الفتيات غدًا، على ما أعتقد.

ـ لا، ابقَ.

رفعت نظري إليه وأنا أشعر برغبة قوية فجأة في ألا أُترك بمفردي في هذا المنزل، الذي له أعين وآذان خفية ومكبرات صوت. كانت رفقة شخص، شخص حقيقي من لحم ودم، وليس مجرد صوت بلا جسد، شيئًا لا يُقاوَم.

ـ أرجوك. أُفضل أن يكون لديَّ شخص أتناول الطعام برفقته.

فاحت رائحة شيء يحترق من الفرن، وتذكرت البيتزا فجأة.

ـ هل تناولتَ الطعام؟

ـ كلا، لكنني لن آخذ عشاءكِ.

ـ بالتأكيد ستفعل. وضعت بيتزا في الفرن قبل حضورك مباشرة. لقد احترقت الآن على الأرجح، لكنها كبيرة. لن أتمكن من تناولها كاملة بمفردي. أرجو أن تقدم لي يد العون. بكل صدق، أريدك أن تفعل.

ـ حسنًا...

نظر إلى باب غرفة المرافق، باتجاه المرآب، ونحو شقته الصغيرة بالأعلى حسبما افترضت، والتي كانت نوافذها مظلمة.

ـ حسنًا... إذا كنتِ مصممة على ذلك.

ـ أنا مصممة.

ارتديت قفازات الفرن وفتحت باب الفرن الساخن. كانت البيتزا قد

نضجت. بل نضجت بدرجة زائدة في الواقع، بحيث صار الجبن مقرمشًا، وتفحمت الحواف. لكنني كنت جائعة جدًّا، فلم أكترث.

ـ آسفة، لقد تفحمت بعض الشيء. نسيتها تمامًا. هل لديك مانع؟

ـ مطلقًا. أنا جائع بما يكفي حتى ألتهم حصانًا، ناهيكِ عن بيتزا محترقة قليلًا.

ابتسم ابتسامة عريضة، وتغضن جلد وجنتيه المسمرتين.

قلت:

ـ لا أدري ما رأيك، لكنني بحاجة إلى كأس من النبيذ.

ـ لن أمانع.

راقبني وأنا أقطع البيتزا إلى شرائح، ثم عثرت على كأسين في الخزانة.

سألته:

ـ هل تقبل تناول الطعام من على اللوح مباشرة؟

فمنحني واحدة أخرى من ابتساماته العريضة.

ـ الأمر أكثر من مقبول بالنسبة إليَّ. أنت التي تخاطرين بأن ألتهم عشاءك كله إذا لم يكن محاطًا بسياج آمن. لكن إذا كنت تقبلين ذلك، فهذه ليست مسؤوليتي.

قلت:

ـ الأمر أكثر من مقبول بالنسبة إليَّ أنا الأخرى.

وفجأة، وجدت نفسي أبادل ابتسامته العريضة بابتسامة خجول بعض الشيء من جانبي، لكنها حقيقية وليست مثل تلك المحاولة المتكلفة الهزيلة في وقت سابق الليلة.

ساد الصمت لبضع دقائق، بينما كل منا يتناول شريحة دهنية لذيذة، ثم شريحة أخرى. أخيرًا، تناول جاك شريحته الثالثة وتحدث وهو يوازنها على أطراف أصابعه، ويحرك الشريحة بحيث يقطر الدهن على اللوح مرة أخرى.

ـ إذن... بخصوص ما كنت تسألين عنه في وقت سابق.

ـ الـ... الشيء الخارق للطبيعة؟

ـ نعم. حسنًا، الحقيقة هي أنني لم أرَ شيئًا بنفسي. لكن جين، فهي... حسنًا، لا تؤمن بالخرافات تحديدًا، لكنها تحب الحكايات الشائقة. دومًا ما تملأ رؤوس الأطفال بالحكايات الشعبية، كما تعرفين، حكايات «السيلكي» و«الكيلبي» وما شابه ذلك. وهذا المنزل قديم للغاية، أو أجزاء منه على أي حال. ولقد وقع عدد غير عادي من حوادث الموت والعنف على ما أظن.

ـ إذن... هل تظن أن جين أخبرت الفتيات بأشياء، أعدن روايتها للمربيات؟

ـ ربما. من ناحيتي لن أجزم القول في كل الأحوال. لكن انظري، كانت هؤلاء المربيات الأخريات صغيرات في السن للغاية، أو معظمهن على الأقل. ليس الجميع على استعداد للعيش في مكان مثل هذا، على بعد أميال من بلدة أو بار أو حانة. لا ترغب المربيات الأجنبيات في الوجود هنا، بل يردن العيش في إدنبرة أو جلاسجو، حيث توجد النوادي الليلية، وأناس آخرون ممن يتحدثون لغتهن، هل تفهمين؟

ـ نعم.

نظرت من النافذة. كان الظلام أشد من أن يسمح برؤية شيء، لكنني رأيت الطريق في مخيلتي وهو يمتد بعيدًا في الظلام، وأميالًا وأميالًا من التلال المتماوجة، والجبال في الأفق. ساد الصمت، بخلاف صوت المطر. لم تكن هناك سيارة، ولا عابر سبيل، ولا أي شيء.

ـ أجل، يمكنني تفهُّم ذلك.

جلسنا في صمت للحظة. لا أدري فيمَ كان يفكر جاك، لكنني امتلأت بمزيج من المشاعر الغريبة: التوتر، والإجهاد، والخوف من التفكير في الأيام المقبلة أمامي، وشيء آخر، أكثر إثارة للقلق. كان شيئًا متعلقًا أكثر بجاك، وبوجوده، والنمش المتناثر عبر وجنتيه العريضتين، والطريقة التي تتحرك

بها عضلاته تحت جلد ساعده بينما يطوي شريحة البيتزا الأخيرة على شكل صرة منتظمة، وينهيها في قضمتين سريعتين.

ـ حسنًا، من الأفضل أن أتوجه إلى فراشي.

وقف يتمطى حتى سمعت طقطقة مفاصله.

ـ شكرًا على الوجبة. كان من اللطيف وجود شخص ما أشاركه الحديث.

ـ وأنا كذلك.

وقفت وأنا أشعر بالخجل فجأة، كما لو كان يقرأ أفكاري.

سألني:

ـ هل ستكونين بخير؟

أومأت.

ـ حسنًا، أنا فوق المرآب مباشرة، في مبنى الإسطبل القديم، إذا احتجتِ إلى أي شيء. إنه الباب الموجود على الجانب، والمطلي باللون الأخضر وعلى لوح الباب صورة طائر سنونو. إذا حدث أي شيء خلال الليل...

قاطعته بدهشة:

ـ ما الذي من الممكن أن يحدث؟

فأطلق ضحكة.

ـ عبرت عن الأمر بشكل خاطئ. كنت أعني فقط، إذا احتجتِني لأي شيء، فأنت تعرفين مكاني. هل أعطتك ساندرا رقم هاتفي المحمول؟

ـ كلا.

سحب منشورًا إعلانيًّا من على الثلاجة، وكتب رقمه على عجل في الهامش، ثم ناولني إياه.

ـ ها هو. تحسبًا فقط.

تحسبًا في حالة ماذا؟ أردت أن أكرر السؤال، لكنني كنت أعرف أنه سيكتفي بالمزاح بشأن الأمر.

كان من المقصود أن تكون إيماءته تلك مطمئنة، كنت على ثقة من هذا. لكن بطريقة ما، جعلتني أشعر بكل شيء سوى ذلك.

قلت، وأنا أشعر ببعض الحرج:

ـ حسنًا، شكرًا يا جاك.

ابتسم مرة أخرى، وهز كتفيه وهو يرتدي معطفه المبلل، ثم فتح باب غرفة المرافق وانحنى خارجًا وسط المطر.

بعد رحيله، دخلت إلى غرفة المرافق بنفسي كي أغلق الباب بالمفتاح. بدا المنزل ساكنًا للغاية وهادئًا بطريقة ما من دون وجوده، وتنهدت بينما أنا أمد يدي أعلى إطار الباب بحثًا عن المفتاح. لكنه لم يكن موجودًا.

ربتُّ بيدي بامتداد الإطار، وأنا أتحسس بأطراف أصابعي وسط الغبار والكتل الصغيرة المسحوقة من الحشرات النافقة، لكن لم يكن هناك شيء.

لم يكن على الأرض أيضًا.

هل يمكن أن تكون جين قد حركته؟ أو أسقطته وهي تزيل الغبار؟

لكنني كنت أتذكر بوضوح تمامًا، أنني وضعت المفتاح هناك بعد رحيل جين، كما أمرتْ ساندرا تمامًا، لأبقيه في متناول اليد في حالة الطوارئ، لكن بعيدًا عن متناول الأطفال. هل يمكن أن يكون قد سقط؟ لكن لو كان الأمر كذلك، فماذا حدث له؟ كان كبير الحجم ومصنوعًا من النحاس. أكبر من ألا يلحظه المرء على الأرض، أو من أن يدخل في ماسورة المكنسة. هل ركلته الأقدام أسفل شيء ما؟

نزلت على يدي وركبتي، وأضأت مصباح هاتفي أسفل الغسالة والمجفف، لكنني لم أرَ شيئًا تحت أي منهما، سوى مجرد بلاط أبيض مسطح وبعض كتل الغبار التي اهتزت عندما نفختها جانبًا. كما لم يكن وراء دلو الممسحة أيضًا. بعد ذلك، على الرغم من شكوكي، ذهبت إلى الخزانة حيث كانت مكنسة الطابق السفلي، لكن تجويف الغبار كان قد تم

إفراغه. لم يكن هناك شيء. كانت من النوع الذي ليس له كيس، بل أسطوانة بلاستيكية شفافة يمكنك رؤية الغبار وهو يدور داخلها. حتى بصرف النظر عما إذا كان من الممكن أن يدخل المفتاح بداخلها، فلم يكن من الممكن أن يُخرج أحدهم منها مفتاحًا نحاسيًّا كبيرًا من دون أن يلحظه.

بعدها بحثت في المطبخ، حتى إنني تفقدت صندوق القمامة، لكن لم يكن هناك شيء.

أخيرًا، فتحت باب غرفة المرافق، وحدقت إلى المطر تجاه مبنى الإسطبل، حيث أُنير ضوء في نافذة الطابق العلوي. هل يجب أن أتصل بجاك؟ هل سيكون لديه مفتاح احتياطي؟ لكن لو كان لديه بالفعل، فهل يمكنني حقًّا أن أتحمل أن يظن أنني غير منظمة وعاجزة لدرجة أنني انتظرت عشر دقائق فحسب قبل أن أقبل عرضه بتقديم العون؟

بينما كنت مترددة، انطفأ النور في نافذته، وأدركت أنه توجه إلى الفراش في الغالب.

فات الأوان. لم أكن سأخرجه بملابس النوم.

بعد نظرة أخيرة حول الفناء خارج الباب مباشرة، في حال كان المفتاح قد رُكل إلى الخارج بطريقة ما، أغلقت الباب.

سأسأل جاك في الصباح.

في هذه الأثناء، يا إلهي، ما الذي سأفعله؟ سوف... سوف أضطر إلى تحصين الباب بشيء ما. كان الأمر سخيفًا، كنا على بُعد أميال من أي مكان، خلف بوابات مغلقة. لكنني كنت أعرف أنني لن أتمكن من النوم جيدًا إذا شعرت أن المكان غير آمن.

كان مقبض الباب عبارة عن كرة، وليس من النوع الذي يمكن وضع كرسي تحته لمنعه من الدوران. كما لم يكن هناك مزلاج. لكن أخيرًا، بعد كثير من البحث، عثرت في الخزانة على حاجز باب على شكل إسفين. دفعته بقوة في الفجوة الموجودة أسفل الباب، ثم أدرت المقبض كي أختبره.

لدهشتي إلى حد ما، صمد. لن يمنع لصًّا يتمتع بالعزيمة، لكن لم يكن هناك سوى القليل مما يمكن أن يمنعه بالفعل. إذا كان أحدهم عازمًا حقًّا على اقتحام المكان، فيمكنه تحطيم نافذة فحسب. لكن على أقل تقدير، كان يعطي انطباعًا بأن الباب مغلق بالمفتاح، وعرفت أنني سأتمكن من النوم بشكل أفضل بسبب ذلك.

عندما عدت إلى المطبخ لأزيل صندوق البيتزا وأطباقنا، كانت الساعة فوق الموقد تشير إلى الحادية عشرة وست وثلاثين دقيقة، ولم أستطع منع نفسي من التأوه. سوف تستيقظ الفتيات في السادسة. كان يجب أن أكون في الفراش منذ ساعات مضت.

حسنًا، فات الأوان للتراجع عن ذلك. سأضطر إلى التخلي عن الاستحمام فحسب. والخلود إلى النوم في أسرع وقت ممكن. شعرت بإرهاق بالغ، وكنت واثقة جدًّا أن ذلك لن يمثل مشكلة على أي حال.

قلت بصوت مرتفع:

- أَطفِئ الأنوار.

خيم الظلام على الغرفة فورًا، ولا شيء سوى الوهج الخافت من الردهة يضيء الأرض الخرسانية. صعدت السلم متوجهة إلى الفراش وأنا أكتم تثاؤبي، وخلدت إلى النوم قبل أن أبدل ملابسي تقريبًا.

جفلت عندما استيقظت وسط الظلام الدامس، ولديَّ شعور بالارتباك التام. أين كنت؟ ما الذي أيقظني؟

استغرق الأمر دقيقة حتى أستعيد الذاكرة، منزل «هيذربراي». آل إلينكورت. الأطفال. جاك.

أظهر هاتفي على الطاولة الجانبية للفراش أن الساعة حينها الثالثة وست عشرة دقيقة صباحًا، فتأوهت وتركته يسقط على الخشب مرة أخرى، مُصدرًا صوت ارتطام. لا عجب أن الظلام كان لا يزال سائدًا، حيث كنا في منتصف الليل اللعين.

يا لعقلي الغبي!

لكن ما الذي أيقظني بحق الجحيم؟ هل كانت بيترا؟ هل صاحت إحدى الفتاتين خلال نومها؟

استلقيت للحظة وأنا أصيخ السمع. لم أتمكن من سماع شيء، لكنني كنت على مبعدة طابق منهن، وكان هناك بابان مغلقان بيني وبين الأطفال.

أخيرًا، كتمت تنهيدة ونهضت، ولففت نفسي بروبي، وخرجت إلى بسطة السلم.

كان المنزل هادئًا. لكنني شعرت بشيء... خاطئ، مع أنني لم أتمكن من تحديده. كان المطر قد توقف، ولم أستطع سماع أي شيء على الإطلاق، ولا حتى هدير سيارة بعيدة، أو همس الريح بين الأشجار.

عندما أتاني الإدراك، كان على هيئة شيئين. أولهما الخيال على الجدار أمامي، الذي ألقته زهور الفاوانيا الذابلة على الطاولة بالطابق السفلي.

أشعل أحدهم أضواء الردهة بالطابق السفلي. أضواء كنت على ثقة من أنني لم أتركها مشتعلة عندما أويت إلى الفراش.

جاء ثانيهما حين شرعت أتسلل على أطراف أصابعي إلى الطابق السفلي، وجعل قلبي يكاد يتوقف، ثم يبدأ في الدق بقوة كافية لجعله يقفز خارجًا من صدري.

كان وقع أقدام على أرض خشبية، بطيئًا ومتأنيًا، تمامًا مثل تلك الليلة السابقة.

صرير. صرير. صرير.

أحسست وكأن صدري مقيد بحزام حديدي. تجمدت وقد هبطت درجتين من السلم، ونظرت إلى الضوء على البسطة بالأسفل، ثم إلى الأعلى، حيث بدا أن الصوت صادر من هناك. يا إلهي. هل كان شخص ما في المنزل؟

كان بوسعي تفهُّم الضوء. ربما استيقظت مادي أو إيلي لاستخدام الحمام، وتركتْه مشتعلًا. كانت هناك مصابيح ليلية صغيرة خافتة موصولة بالجدار على مسافات متفرقة، لكن من المحتمل أنها كانت ستشعل نور الردهة الرئيسي على أي حال.

لكن وقع الأقدام...؟

فكرت في صوت ساندرا، آتيًا فجأة من دون تحذير عبر نظام الصوت في المطبخ. هل يمكن أن يكون هذا\هو الجواب؟ تطبيق هابي اللعين؟ لكن كيف؟ والأهم، لماذا؟ لم يكن للأمر معنى. الشخصان الوحيدان اللذان يمكنهما الدخول على التطبيق هما ساندرا وبيل. ولم يكن لديهما أي دافع محتمل لإخافتي هكذا. بل على العكس في الواقع. لقد تجشما للتو الكثير من المشقة والنفقات لتعييني.

إلى جانب ذلك، لم يبدُ الصوت فحسب وكأنه صادر من مكبرات الصوت. لم يكن هناك شعور بصوت متحرر بلا جسد، كما كان الحال

مع صوت ساندرا في المطبخ. لم يكن لديَّ أي انطباع بوجود شخص ما يقف خلفي ويتحدث إليَّ. بدا الأمر تمامًا كما هو في الواقع، وكأن صوت شخص ما يُبَث عبر مكبرات الصوت. لكن هذا كان مختلفًا. كان بوسعي سماع وقع الخطوات، تبدأ على أحد جانبي السقف، وتتحرك ببطء وصلابة إلى الجانب الآخر. ثم كانت تتوقف، وتعكس اتجاهها. بدا... حسنًا... كما لو كان شخص ما يذرع الغرفة جيئة وذهابًا فوق رأسي. لكن لم يكن لذلك معنى أيضًا. لأنه لم تكن هناك غرفة بالأعلى. لم يكن هناك حتى مدخل لغرفة علية.

أومضت صورة في عقلي فجأة، شيء لم أفكر فيه منذ يوم وصولي. الباب المغلق في غرفتي. إلى أين كان يؤدي؟ هل كانت هناك غرفة علية؟ بدا من غير المحتمل أن يكون أحدهم قد دخل من خلال غرفتي، لكن كان بوسعي سماع وقع الخطوات بالأعلى.

تسللت إلى غرفتي على أطراف أصابعي وأنا أرتجف، وحركت مفتاح الكهرباء على المصباح المجاور لفراشي. لم يشتعل.

أطلقت سبابًا، يا سيد ريكسام. لا أشعر بفخر بالغ لاعترافي هذا. أطلقت سبابًا لفترة طويلة وبصوت مرتفع. كنت قد أطفأت ذلك المصباح من مفتاح الكهرباء. لماذا إذن بحق الجحيم لم يشتعل مرة أخرى عن طريق مفتاح الكهرباء؟ ما معنى نظام الإضاءة الغبي هذا، على أي حال؟

من دون أن أهتم بشأن الموسيقى، أو نظام التدفئة، أو أي شيء آخر، ضغطت يدي بغضب شديد على اللوحة الخالية من الملامح على الحائط، وضربت بشكل عشوائي المربعات والمؤشرات وهي تضيء تحت كفي. أومضت الأضواء وانطفأت داخل الخزانات، واشتغلت مروحة الحمام، وامتلأ الجو بدفقة قصيرة من الموسيقى الكلاسيكية، ثم حل الصمت عندما طعنت اللوحة بإصبعي ثانية، وبدأ الهواء البارد يندفع فجأة من فتحة تهوية غير مرئية في السقف. لكن أخيرًا، اشتعل الضوء العلوي الرئيسي.

تركت يدي تسقط إلى جانبي، وأنا أتنفس بقوة، لكنني شعرت بالانتصار. ثم شرعت في محاولة فتح الباب المغلق.

جربت أولًا مفتاح غرفة نومي والذي كانت ساندرا قد أرتني إياه، موضوعًا في مكان بعيد أعلى إطار الباب مثل المفاتيح الأخرى. لكنه لم يكن مناسبًا.

بعدها، جربت مفتاح الخزانة الكائنة على الجانب الآخر. لم يكن مناسبًا أيضًا.

لم يكن هناك شيء فوق إطار الباب سوى بعض الغبار.

في النهاية لجأت إلى الركوع، والنظر عبر ثقب المفتاح، وقلبي مثل الطبلة في صدري، يدق بشدة لدرجة أني ظننت أنني قد أكون مريضة.

لم أستطع رؤية شيء على الإطلاق، مجرد سواد بلا نهاية. لكنني شعرت بشيء ما. نسيم بارد جعلني أرمش، وأتراجع عن ثقب المفتاح وعيني تدمع.

لم تكن مجرد خزانة داخل ذلك المكان. كان هناك شيء آخر. ربما غرفة علية. على أقل تقدير، مساحة كبيرة بما يكفي لأن يكون بها تيار ومصدر للهواء.

كان وقع الخطوات قد توقف، لكني كنت أعرف أنني لن أخلد إلى النوم مرة أخرى هذه الليلة. وأخيرًا لففت نفسي بلحافي وهاتفي بيدي، والضوء العلوي يتوهج فوقي، وأنا أراقب الباب المغلق.

لا أعرف ما الذي كنت أتوقعه. أن أرى المقبض يدور؟ أن يخرج شخص ما، أو شيء ما؟

مهما كان الأمر، فهو لم يحدث. جلست هناك فحسب، بينما أخذت السماء خارج نافذتي تصير أفتح، وتسلل شريط رفيع من الفجر باللون الأصفر الليموني عبر السجادة، ممتزجًا مع الضوء الصناعي بالأعلى.

شعرت بالغثيان مع مزيج من الخوف والتعب، والرهبة من اليوم المقبل. أخيرًا، عندما سمعت عويلًا خافتًا غاضبًا من الطابق السفلي، أرخيت

قبضتي عن هاتفي، وثنيت أصابعي المتيبسة، ورأيت أن الشاشة تُظهر الساعة الخامسة وسبعًا وخمسين دقيقة.

أشرق الصباح. كان الأطفال يستيقظون.

بينما أنا أزحف ناهضة من فراشي، ارتفعت يدي بشكل لاإرادي لتلمس قلادتي، لكن أصابعي لامست عظمة ترقوتي فقط. وتذكرت أنني خلعتها في تلك الليلة الأولى، ولففتها على طاولة الفراش الجانبية، تمامًا كما فعلت قبل المقابلة.

استدرت حينها لألتقطها، فلم تكن هناك. قطبت ونظرت بالأسفل خلف طاولة الفراش الجانبية الصغيرة. لا شيء. هل حركتها جين ماكنزي وهي تنظف؟

علا العويل من الطابق السفلي مرة أخرى، بصوت أعلى هذه المرة، فتنهدت وتخليت عن البحث. سأبحث عنها لاحقًا.

لكن كان عليَّ أولًا اجتياز يوم آخر.

> ماكينة صنع القهوة، معبأة مسبقًا بحبوب البن، ومتصلة بشبكة المياه. تعمل عن طريق التطبيق. اختاري «الأجهزة» من القائمة، ثم «صانع القهوة»، ثم انتقي من الخيارات المبرمجة مسبقًا، أو عدلي خيارًا خاصًّا بك. إذا ظهر رمز حبوب البن، يجب إعادة ملء الحاوية. إذا ظهرت علامة الخطأ «!» فهناك مشكلة إما في الإنترنت اللاسلكي، وإما مشكلة في ضغط الماء. يمكنك برمجتها على صب القهوة في وقت محدد كل يوم، وهو أمر رائع في الصباح، لكن بالطبع عليك ألا تنسَي وضع كوب تحتها في الليلة السابقة! الخيارات المبرمجة مسبقًا هي كالتالي...

يا إلهي. كنت قد اقتصرت على شرب الشاي في الغالب منذ وصولي هنا، في الأساس لأن ماكينة صنع القهوة كانت مخيفة للغاية، وحشًا من الكروم مغطى بالأزرار والمقابض والمؤشرات. أوضحت ساندرا عند وصولي أنها موصلة بالإنترنت اللاسلكي، وتعمل عن طريق التطبيق، لكن ثبت أن هابي هو أقل النظم التي قابلتها بداهة على الإطلاق. مع ذلك، بعد ليلتي التي قضيتها بلا نوم، قررت أن كوبًا من القهوة هو الشيء الوحيد الذي سيُشعرني أنني طبيعية إلى حد ما. وفي حين كانت بيترا تلتهم طبقًا من كعكات الأرز الصغيرة، عزمت على محاولة اكتشاف طريقة عملها.

لم أكن حتى قد شغلتها بعد، عندما قال صوت ورائي:

ـ دق، دق...

جفلت واستدرت للخلف، وأعصابي لا تزال مستثارة من آثار الخوف القديم في الليلة الماضية.

كان جاك، واقفًا في مدخل باب غرفة المرافق المفتوح، مرتديًا سترته، وممسكًا بمقودَي الكلبين في يده. لم أسمعه وهو يدخل، وكان من الواضح أن صدمتي وترددي قد ظهرا على وجهي.

ـ آسف، لم أتعمد أن أجعلكِ تجفلين. لقد طرقت، لكنك لم تسمعي، لذا دخلت بنفسي. لقد جئت كي آخذ الكلبين للتمشية.

قلت، بينما أستدير لآخذ كعك الأرز من بيترا:

ـ لا توجد مشكلة.

كانت قد توقفت عن أكلها، وأخذت تهرس واحدة منها داخل أذنها. على الأقل، أجاب وجود جاك غير المتوقع عن سؤالي بخصوص ما إذا كنت مسؤولة عن الكلبين أيضًا، وكان ذلك شيئًا يمكنني حذفه من قائمتي. كان كلود وهيرو يتواثبان، متحمسين للذهاب، وأسكتهما جاك بحدة. صمتا في الحال، أسرع بشكل ملحوظ مما أطاعا ساندرا، وأمسك بطوق أكبرهما، وشرع يثبت مقوده.

سأل بشكل عارض، بينما المقود ينزلق في مكانه:

ـ هل نمتِ جيدًا؟

استدرت وقد تجمدتْ يدي في أثناء مسح وجه بيترا. نمت جيدًا؟ ما الذي كان يقصده؟ هل كان... هل كان... يعرف؟

وقفت هناك فحسب لمدة دقيقة، محدقة إليه، بينما استغلت بيترا عدم انتباهي للحظة كي تنتزع كعكة أرز رطبة بدرجة زائدة وتهرسها في كمي.

عندئذ تمالكت نفسي. كان يسأل فحسب كما يفعل الناس، على سبيل التهذيب.

قلت بفظاظة نوعًا ما، وأنا أمسح كمي بفوطة، وآخذ كعكة الأرز من بيترا:

ـ في الواقع، ليس جيدًا على وجه الخصوص. لم أتمكن من العثور على مفتاح الباب الخلفي الليلة الماضية، لذا لم أستطع إغلاق الباب كما يجب. هل تعرف أين ذهب؟

ـ هذا الباب؟

أشار برأسه نحو باب غرفة المرافق، رافعًا أحد حاجبيه، وأومأت.

ـ لا يوجد عليه مزلاج أيضًا. في النهاية، حشرته بقطعة من الخشب.

لكنها لم تُفِد كثيرًا. كان جاك في الغالب قد أزاح الوتد جانبًا ببساطة من دون أن يلحظه حتى عندما فتح الباب.

ـ أعرف أننا في وسط مكان معزول، لكن ذلك لم يجعلها ليلة مريحة للغاية.

فكرت في ذلك وفي وقع الخطوات، لكنني لم أتمكن من استجماع شجاعتي تمامًا لأخبره بهذا. في ضوء النهار البارد، بدا الأمر ضربًا من الجنون، وكانت هناك كثير من التفسيرات البديلة. تمدُّد أنابيب التدفئة المركزية. انكماش الروافد بينما السقف يبرد من حرارة النهار. الحركة المعتادة للمنازل القديمة. كنت أعرف في أعماق قلبي أن أيًّا من هذه الأسباب لا يفسر بشكل كامل الأصوات التي سمعتها. لكنني لم أعرف كيف أقنع جاك بذلك. لكن المفتاح كان مختلفًا. كان شيئًا واضحًا... وملموسًا.

صار جاك عابسًا الآن.

ـ عادة ما تحتفظ ساندرا بالمفتاح أعلى إطار الباب. لا تحب إبقاءه في القفل في حال ما إذا عبث به الأطفال.

ـ أعرف هذا.

كانت هناك نبرة من نفاد الصبر في صوتي، حاولت إخمادها. لم يكن ذنب جاك أن هذا قد حدث.

ـ أعني، لقد أخبرتْني بذلك. إنه مذكور في الملف. ووضعتُه بالأعلى هناك بالأمس، لكنه ليس هناك الآن. هل تعتقد أن جين قد أخذته؟

ـ جين؟

بدا مندهشًا، ثم أطلق ضحكة قصيرة، وهز رأسه.

ـ كلا، لا أعتقد ذلك. أعني، لمَ ستفعل هذا؟ لديها مفاتيحها الخاصة.

ـ شخص آخر إذن؟

لكنه كان يهز رأسه.

ـ لا يصعد أحد هنا من دون أن أعلم بالأمر. بادئ ذي بدء، لن يمكنهم المرور عبر البوابة.

لم أذكِّره أن جين كانت قد وجدت الباب مغلقًا عندما عدتُ من البحث عن مادي وإيلي. لم أكن قد أغلقته. إذن من فعل؟

قال:

ـ ربما سقط في مكان ما.

وعاد إلى غرفة المرافق للبحث، والكلبان يتبعانه مثل ظلين وفيين، ويتشممان حوله، بينما هو يدفع مجفف الملابس جانبًا، ويطل تحت الغسالة.

قلت، وأنا أحاول إبعاد نبرة الحنق عن صوتي:

ـ لقد بحثت بالفعل.

بعد ذلك، عندما لم يفرد قامته أو يتخلى عن بحثه:

ـ جاك؟ هل سمعتني؟ لقد تفقدت كل مكان، حتى سلة المهملات.

لكنه كان يحرك الغسالة جانبًا، مُصدرًا شخيرًا بعض الشيء من أثر المجهود، وارتفع صرير العجلات على الأرض المكسوة بالبلاط.

ـ جاك؟ هل سمعتني؟ لقد قلت إنني بالفعل...

تجاهلني وهو منحنٍ فوق الطاولة، وذراعه الطويلة ممدودة خلف الوحدة.

ـ جاك...

أصبح هناك ضيق حقيقي في صوتي الآن، لكنه قاطعني.

ـ وجدته.

فرد قامته منتصرًا، وبين أصابعه مفتاح نحاسي مترب. أغلقت فمي.

لقد بحثت. لقد بحثتُ. تذكرت بوضوح أنني نظرت أسفل تلك الغسالة، ولم أرَ شيئًا سوى الغبار.

ـ لكن...

أتى نحوي، وأسقطه في كفي.

ـ لكن... لقد بحثتُ.

ـ كان مختفيًا خلف العجلة. أتوقع أنك لم ترَيْه. ربما سقط عندما انغلق الباب، وانزلق بالأسفل هناك. العبرة بخواتيم الأمور... أليس ذلك ما يقولونه؟

أغلقت يدي حول المفتاح، وشعرت بوخز الحواف النحاسية في كفي. لقد بحثت. لقد بحثت بعناية. سواء كانت هناك عجلة أم لا، كيف لم أرَ مفتاحًا نحاسيًّا طوله ثلاث بوصات، في حين كان هو ما أبحث عنه بالتحديد؟

من المستحيل أن تكون فاتتني رؤية ذلك المفتاح إذا كان هناك. مما كان يعني أنه ربما... لم يكن هناك. حتى أسقطه شخص ما هناك.

نظرت إلى الأعلى، والتقت عيناي عينَي جاك العسليتين البريئتين، وهو يبتسم لي. لكن لا يمكن أن يكون هو. لقد كان لطيفًا جدًّا.

ربما... لطيف بدرجة زائدة على الحد؟

أردت أن أقول: «لقد توجهتَ إلى الغسالة مباشرة. كيف عرفتَ؟».

لكنني لم أتمكن من التعبير عن شكوكي بصوت مرتفع.

كان ما قلته بالفعل هو:

ـ أشكرك.

لكن صوتي بدا خافتًا في أذني.

لم يرُد جاك. شرع ينفض الغبار عن يديه بالفعل ويستدير نحو الباب، والكلبان يدوران ويعويان حول قدميه.

قال:

ـ أراكِ بعد ساعة، أو نحو ذلك؟

لكن عندما ابتسم هذه المرة، لم يعُد ذلك يجعل قلبي يثب في صدري بعض الشيء. بدلًا من ذلك، لاحظت الأوتار في ظهر كفيه، والطريقة التي أبقى بها مقودَي الكلبين قصيرين للغاية، وقد أوقفهما إلى جوار كعبه، مسيطرًا عليهما.

قلت بهدوء:

ـ بالتأكيد.

ـ أوه، كدت أنسى. اليوم هو إجازة جين. لذا فهي لن تأتي، فلا جدوى من ترك الأطباق لها.

قلت:

ـ لا توجد مشكلة.

بينما هو يستدير ويشق طريقه عبر الساحة، والكلبان عند قدميه بحزم، راقبته وهو يرحل، مقلبة تسلسل الأحداث في عقلي، وأنا أحاول معرفة ما حدث.

مع أنني اقترحت على جاك اسم جين، إلا أنني بصراحة لم أكن أعتقد أنها مسؤولة عن الأمر. تذكرت أنني وضعت المفتاح أعلى إطار الباب بعد رحيلها. لذا، ما لم تكن قد عادت، ولم يكن هذا يبدو محتملًا، فلا يمكن إلقاء اللوم عليها.

ما الذي حدث بعد ذلك... تذكرت أن جاك دخل من ذلك الباب، لكن هل كنت قد فتحته بالمفتاح؟ لا... كنت متأكدة للغاية أنني فتحته فحسب. من المفترض أن جاك فتحه باستخدام مفاتيحه الخاصة. أم هل فتحته بالمفتاح ساعتها؟ كان من الصعب أن أتذكر.

في كلتا الحالتين، كان من الممكن من الناحية العملية أن يكون قد أخذ المفتاح في وقت ما خلال زيارته، وأسقطه هناك الآن فحسب. لكن لماذا؟ كي يخيفني؟ بدا ذلك غير مرجح. ما الذي يمكنه أن يستفيده من خلال التخطيط لرحيل مربية أخرى؟

كان بوسعي أن أصدق مسؤولية جين عن الأمر بسهولة أكبر. بدا من الواضح أنها لا تحبني. لكن حتى في هذه الحالة، مع استبعاد احتمال تسللها إلى المنزل بعد رحيلها، والذي كان يبدو غير معقول أكثر فأكثر كلما فكرتُ في الأمر، فقد بدا أنها تُكِن عاطفة حقيقية حيال الأطفال، ولم أصدق أنها ستتعمد ترك المنزل غير آمن، وعرضة للخطر في أثناء نومهم.

لأن هذا كان الاحتمال الأخير، والمثير للقلق. أن شخصًا ما أخذه لضمان الدخول إلى المنزل ليلًا. ليست جين أو جاك، اللذين كان لديهما مفاتيحهما الخاصة... بل شخص آخر.

لكن كلا، كان هذا ضربًا من الجنون، لقد بدأت أتسبب لنفسي في الإصابة بالهستيريا. ربما كان هناك بالفعل منذ البداية. قال جاك إنه كان مختفيًا خلف العجلة. هل كان من المحتمل أنني لم أبحث بما فيه الكفاية فحسب؟

كنت لا أزال أدور مع أفكاري، عندما صدر من المطبخ صوت نافد الصبر، واستدرت لأرى بيترا تركل كرسيها المرتفع بضيق. أسرعت عائدة إلى الغرفة، وحللت حزامها ووضعتها في قفص اللعب في ركن المطبخ. ثم شددت ذيل حصاني بشكل أكثر إحكامًا، وألصقت على وجهي أفضل ابتسامة لديَّ، وبدأت أبحث عن مادي وإيلي.

كانتا في غرفة اللعب، مجتمعتين في ركن تتهامسان حول شيء ما، لكن كِلا رأسيهما استدار عندما صفقت بيدي.

ـ حسنًا! هيا يا فتيات، سنذهب في نزهة. يمكننا تناول السندوتشات، ورقائق البطاطس، وكعك الأرز...

كنت أتوقع إلى حد ما أن ترفضا، لكن لدهشتي، نهضت مادي وهي تنفض الغبار عن سروالها الضيق.

ـ إلى أين نحن ذاهبات؟

ـ الأراضي المحيطة بالمنزل فحسب. هل ستُريانني المكان؟ سمعت من جاك أن لديكما وكرًا سريًّا.

كان ذلك غير صحيح تمامًا، فلم يقل أي شيء على الإطلاق. لكنني لم ألتقِ أي طفل لم يكن لديه ملجأ أو مخبأ من نوع ما.

قالت إيلي على الفور:

ـ لا يمكنكِ رؤية وكرنا. إنه سري. أعني...

توقفتْ بسبب نظرة غاضبة محتدة من مادي.

أضافت ببؤس:

ـ أعني، ليس لدينا واحد.

قلت بمرح:

ـ يا للأسف. حسنًا، لا تكترثا للأمر. أنا واثقة أن هناك كثيرًا من الأماكن المثيرة للاهتمام. ارتديا أحذيتكما المطاطية المضادة للمطر. سوف أضع بيترا في عربة الأطفال كي لا تتجول بعيدًا، ولننطلق بعد ذلك. يمكنكما أن تُرياني أفضل الأماكن للنزهة.

قالت مادي:

ـ حسنًا.

كان صوتها هادئًا ورصينًا، بل ومنتصرًا بعض الشيء، ووجدت نفسي أنظر إليها بارتياب.

حتى مع تعاون مادي، استغرق الأمر وقتًا طويلًا بدرجة مثيرة للدهشة لإعداد الطعام للنزهة وإخراج الجميع من المنزل. لكننا انتهينا أخيرًا، وانطلقنا حول المنزل من الخلف، عبر طريق وعر مفروش بالحصى يتوج تلًّا صغيرًا، ثم يؤدي إلى الأسفل من الجانب الآخر. كانت المناظر من هذا الجانب من الأراضي المحيطة بالمنزل مذهلة بالقدر نفسه، لكن ربما كانت أكثر كآبة. بدلًا من المزارع والقرى الصغيرة المتناثرة بيننا وبين الجبال البعيدة، لم يكن هنا شيء سوى الغابات المتماوجة. في الأفق البعيد، حلَّق نوع ما من الطيور الجارحة أعلى الأشجار بتكاسل، باحثًا عن فريسته.

شققنا طريقنا عبر حديقة مزروعة بخضراوات نَمَت بشكل مفرط إلى حد ما، حيث تعاونت مادي وأرتني أغصان التوت الأحمر، وأحواض الأعشاب، ومررنا بنافورة ممتلئة بزبد آسن بعض الشيء. لم تكن تعمل، كما كان التمثال الذي يعلوها مشققًا ورماديًّا بفعل الطحالب. طرأ لي ساعتها مدى التناقض الغريب الذي يشكله المنزل مع هذه الحديقة البرية المهملة نوعًا ما. كنت أتوقع أماكن جلوس خارجية، وتزيين، ومخططات زراعية

متقنة، وليس هذا الإهمال المتداعي المؤسف بعض الشيء. ربما لم تكن ساندرا شخصًا يستمتع بقضاء الوقت في الخارج؟ أو ربما قضيا وقتًا طويلًا جدًّا في العمل على المنزل، بحيث لم يتسنَّ لهما الوقت للاهتمام بالأراضي المحيطة بالمنزل بعد.

كانت هناك مجموعة من الأراجيح مختفية خلف صوبة مطبخ متهدمة، قفزت عليها إيلي ومادي وشرعتا تتنافسان للوصول إلى مسافة أعلى. للحظة، وقفت فحسب وأنا أراقبهما، ثم وثب شيء ما في جيبي مُصدرًا رنينًا واهتزازًا، وأدركت أن هاتفي كان يرن.

عندما أخرجته، اهتز قلبي اهتزازة صغيرة غريبة حين قرأتُ هوية المتصل. كان آخر شخص أتوقعه، واضطررت إلى أن آخذ نفَسًا عميقًا قبل أن أسحب الشاشة لقبول المكالمة.

ـ مرحبًا؟

صاحت وصوتها المألوف مرتفع جدًّا، لدرجة أنني اضطررت إلى أن أمسك بالسماعة بعيدًا عن أذني.

ـ أهلًا! هذا أنا، روان! كيف حالك؟ يا إلهي، لم نتحدث منذ وقت طويل!

ـ أنا بخير! أين أنتِ؟ لا بد أن هذه المكالمة تكلفك ثروة.

ـ إنها كذلك بالفعل. أنا في إحدى المجموعات التعاونية في الهند. المكان رائع هنا، يا صديقتي. ورخيص جدًّا! يجب حقًّا أن تستقيلي وتأتي وتنضمي إليَّ.

قلت بضحكة محرجة قليلًا:

ـ أنا... لقد استقلت بالفعل. ألم أخبرك؟

ـ ماذا؟

أمسكت السماعة بعيدًا عن أذني مرة أخرى. مضى وقت طويل للغاية منذ أن أجرينا محادثة هاتفية فعلية، وكنت قد نسيت كم يمكنها أن تكون صاخبة.

قلت، وأنا ما زلت أمسك الهاتف على بُعد عدة بوصات من أذني:

ـ نعم. سلمتهم إشعاري في «ليتل نيبرز». رحلت منذ بضعة أيام. كان التعبير المرتسم على وجه جانين، عندما أخبرتها أين يمكنها أن تضع وظيفتها الغبية، يكاد يستحق كل الساعات التي قضيتها هناك.

ـ أراهن على ذلك. يا إلهي، كم كانت مزعجة! ما زلت لا أصدق أن فال لم تمنحكِ تلك الوظيفة عندما رحلتُ.

ـ أنا أيضًا. اسمعي، كنت أنوي الاتصال بك. أردت أن أخبرك أنني انتقلت من الشقة.

ـ ماذا؟

كان الخط مشوشًا، وصدى صوتها يتردد عبر الأميال الطويلة من الهند.

ـ لم أسمعك. ظننت أنك قلت إنك غادرت الشقة.

ـ نعم. لقد فعلت. الوظيفة التي شغلتها تتطلب الإقامة. لكن اسمعي، لا تقلقي، ما زلت أدفع الإيجار، والأجر هنا جيد للغاية. لذا فإن أغراضك لا تزال هناك، وسيكون لديك مكان تعودين إليه عندما تنتهين من السفر.

ـ يمكنك تحمل تكلفة ذلك؟

بدا الإعجاب في صوتها الرقيق البعيد.

ـ رائع! لا بد أن هذه الوظيفة تدفع راتبًا جيدًا جدًّا. كيف نجحت في تدبير ذلك؟

تفاديت ذلك السؤال.

قلت:

ـ لقد كانوا بحاجة شديدة إلى شخص ما.

كانت هذه هي الحقيقة، على الأقل.

- لكن على أي حال، كيف حالك؟ هل لديك أي خطط للعودة؟

حاولت أن أُبقي صوتي عفويًّا، من دون إظهار مدى أهمية جوابها بالنسبة إليَّ.

ـ أجل، بالطبع.

تردد صدى ضحكتها.

ـ لكن ليس بعد. ما زالت لديَّ سبعة أشهر متبقية على تذكرتي. لكن أوه، يا صديقتي، من الجيد سماع صوتك. أنا أفتقدك!

ـ أنا أيضًا أفتقدك.

نزلت إيلي ومادي من على الأراجيح، وكانتا تسيران مبتعدتين عني الآن، عبر طريق متعرج مرصوف بالطوب وسط نباتات الخلنج المتضخمة. وضعت الهاتف تحت أذني، وشرعت أدفع عربة الأطفال عبر الأرض الوعرة وأنا أتبعهما.

ـ اسمعي، أنا أعمل الآن في الواقع، لذا... ربما يجب عليَّ أن...

ـ أجل، بالتأكيد. وعليَّ أن أذهب أنا الأخرى، قبل أن يتسبب هذا في إفلاسي. لكنكِ بخير، أليس كذلك؟

ـ بلى، أنا بخير.

ساد صمت محرج.

ـ حسنًا، وداعًا يا روان.

ـ الوداع، يا رايتش.

وبعد ذلك، أغلقت الخط.

قال صوت صغير عند مرفقي:

ـ من كان هذا؟

جفلت ونظرت إلى الأسفل، ورأيت مادي متجهمة في وجهي.

ـ أوه... مجرد صديقة كنت أعمل معها. كنا رفيقَتَي سكن في لندن، لكنها سافرت.

ـ هل كنت تحبينها؟

كان سؤالًا غريبًا، لدرجة أنني ضحكت.

ـ ماذا؟ نعم، نعم بالطبع أحببتها.

ـ بدوتِ وكأنك لا تريدين التحدث إليها.

- لا أعرف من أين جاءتك هذه الفكرة.

سرنا أبعد قليلًا، وارتطمت العربة بطوبة مخلخلة في الطريق، بينما أنا أفكر في تعليقها. هل كان فيه ذرة من الحقيقة؟ قلت أخيرًا:

- كانت تتصل من الخارج. هذا مكلف جدًّا. لم أرغب في أن أكلفها كثيرًا من المال فحسب.

نظرت إليَّ مادي للحظة، وانتابني شعور غريب بأن عينيها السوداوين تخترقان عيني، ثم استدارت واندفعت وراء إيلي صائحة:

- اتبعيني! اتبعيني!

كان الطريق يهبط مؤديًا إلى الأسفل، بعيدًا عن المنزل، ويزيد وُعورة مع كل ثانية تمر. كان مرصوفًا بالطوب في الماضي، على شكل زخرفي متعرج، لكن الطوب تشقق الآن بفعل الصقيع، وبات مخلخلًا، وقد فُقد بعضه تمامًا. كان بوسعي رؤية جدار من الطوب على مبعدة، ارتفاعه ست أقدام تقريبًا، وله بوابة من الحديد المشغول، وبدا أن الطفلتين تتجهان إلى هناك.

ناديت خلفهما:

- هل هذه هي حدود الأراضي المحيطة بالمنزل؟ انتظِرا، لا أريدكما أن تخرجا إلى المستنقعات.

توقفتا وانتظرتاني. وضعت إيلي يديها على وركيها، وكانت تلهث، ووجهها الصغير مخضب بالحمرة.

قالت:

- إنها حديقة. هناك سور يحيط بها، مثل غرفة، لكن بلا سقف.

قلت:

- يبدو هذا مثيرًا. مثل «الحديقة السرية». هل قرأتِها من قبل؟

قالت مادي بشكل استبدادي:

- بالطبع لم تفعل، فهي ليست كبيرة بما يكفي لقراءة كتب الأطفال. لكننا شاهدناها على التلفزيون.

كنا قد صرنا بحذاء الجدار الآن، وبات بوسعي رؤية ما تقصده إيلي. كان جدارًا متهدمًا من الطوب الأحمر، يزيد ارتفاعه قليلًا على طولي أنا، وبدا أنه يحيط أحد أركان الأرض، مُشكِّلًا قسمًا مستطيلًا منفصلًا تمامًا عن باقي الموقع. كان من نوع المنشآت الذي قد يحيط بحديقة مطبخ بلا شك، لحماية الأعشاب وأشجار الفاكهة الرقيقة من الصقيع، لكن الأشجار والنباتات المتسلقة التي رأيتها خارجة من أعلى الجدران المرتفعة لم تبدُ وكأنها صالحة للأكل على الإطلاق.

جربتُ مقبض البوابة.

ـ إنه مغلق.

من خلال المعدن المشغول المتشابك، تمكنت من رؤية كتلة برية متضخمة من الشجيرات والنباتات المتسلقة، وتمثال من نوع ما محجوب جزئيًّا بالنباتات الخضراء.

ـ يا له من أمر مؤسف. يبدو المكان مثيرًا للغاية بالداخل.

قالت إيلي بحماسة:

ـ إنه يبدو مغلقًا. لكنني أنا ومادي نعرف طريقًا سريًّا للدخول.

بدأت أقول:

ـ لست متأكدة...

لكن قبل أن أتمكن من الانتهاء، أدخلتْ يدها الصغيرة عبر الزخارف الشبكية المعدنية المعقدة، من مساحة ضيقة جدًّا بحيث لا تكفي حتى لإدخال يد نحيلة لشخص بالغ، وفعلتْ شيئًا لم أتمكن من رؤيته في الجانب الآخر من القفل. انفتحت البوابة.

قلت بإعجاب حقيقي:

ـ رائع! كيف فعلتِ ذلك؟

ـ لم يكن الأمر بالغ الصعوبة.

امتلأت إيلي فخرًا.

ـ هناك سقاطة في الداخل.

دفعتُ البوابة برفق لأفتحها، وأنا أنصت لصرير المفصلات، ودفعتُ بيترا للداخل، وأزحت جانبًا الأوراق المتهدلة لنبات متسلق كان متدليًا بالأعلى. لامست الأوراق وجهي، مدغدغة بشرتي بملمس يكاد يشبه نبات القراص. انحنت مادي داخلة ورائي، محاولة ألا تدع الأوراق تلامس وجهها، ودخلت إيلي أيضًا. كان هناك شيء خبيث في تعبير وجهها، وتساءلت عن السبب الذي دعا بيل وساندرا لإبقاء هذا المكان مغلقًا.

في الداخل، كانت الجدران تحمي النباتات من الموقع المكشوف لباقي الأراضي المحيطة بالمنزل، وكان التباين مدهشًا مع الخلنج والأشجار الكالحة بالخارج، وقسوة المستنقعات البعيدة. كانت هناك شجيرات غنَّاء دائمة الخضرة، مرصعة بجميع أنواع التوت، ونباتات متسلقة متضخمة، وبعض الزهور التي تكافح من أجل البقاء تحت ذلك الهجوم. تعرفتُ على بعض منها، الخربق وحب الثلج اللذين ظهرا من بين أوراق الغار الداكنة، وما ظننت أنه قد يكون شجرة قصاص أمامنا. عندما انعطفنا إلى أحد الأركان، مررنا أسفل شجرة طقسوس عتيقة المظهر، كانت قديمة جدًّا لدرجة أنها شكلت نفقًا فوق الممر، وثمار توتها الأنبوبية الغريبة تنسحق تحت الأقدام. كانت أوراقها قد جعلت الأرض سامة، ولم يكن هناك شيء ينمو أسفل المساحة التي تنتشر فيها فروعها. كان هناك مزيد من الصوبات، على الرغم من أنها كانت أصغر حجمًا، ولا تزال تحتوي على ما يكفي من الزجاج في هياكلها المحطمة لتكوين قدر هائل من التكثيف. كان الجزء الداخلي من الزجاج ملطخًا بكثافة بالطحالب الخضراء والعفن، لدرجة أنني تمكنت بصعوبة من رؤية بقايا النباتات بالداخل، مع أن بعضها شق طريقه عبر ألواح الزجاج المكسورة بالسقف.

أربعة ممرات من الطوب قسمت الحديقة، وتجتمع في دائرة صغيرة بالمنتصف، حيث ينتصب التمثال. كان مغطى جيدًا باللبلاب والنباتات

المتسلقة الأخرى، لدرجة أنه كان من الصعب تمييزه. لكن عندما اقتربت منه وأزحت بعض الأوراق جانبًا، رأيت أنها امرأة نحيلة وهزيلة ومحطمة، بملابس رثة، ووجهها يشبه الجمجمة، وعيناها الحجريتان الخاويتان تحدقان إلى عيني بنظرة اتهام. كانت وجنتاها محززتين بما يشبه الخدوش، وعندما نظرت عن قرب أكثر، رأيت أن أظافر يديها الشبيهة بالهيكل العظمي كانت طويلة ومدببة.

قلت، وقد أصابتني الصدمة:

- يا إلهي. يا له من تمثال شنيع. تحت أي ظرف من الظروف، من قد يصنع شيئًا كهذا؟

لكن لم يكن هناك جواب. كانت الفتاتان الصغيرتان قد اختفتا وسط الأَجَمة الخضراء، ولم أتمكن من رؤيتهما. عندما نظرت من كثب أكثر، رأيت أن هناك اسمًا على القاعدة التي تجثم فوقها. آكليس. هل كان نُصبًا تذكاريًا من نوع ما؟

فجأة، شعرت برغبة عنيفة في الخروج من بين هذه النباتات المتضخمة المتشابكة على نحو كابوسي، إلى الهواء الطلق في الجبال والأراضي المحيطة بالمنزل.

ناديتُ بحدة:

- مادي! إيلي، أين أنتما؟

لم يأتِني جواب، وكتمت شعورًا خاطفًا بالقلق.

- مادي! سنذهب لتناول الغداء الآن. لنذهب ونجد مكانًا.

انتظرتا لفترة كافية بالكاد حتى أبدأ في الإحساس بهلع حقيقي، بعدها انفجرتا في الضحك، وخرجت الطفلتان من مخبئهما، وركضتا على الممر أمامي نحو البوابة، والهواء البارد النقي في الخارج.

صاحت مادي من دون أن تلتفت:

- سنريكِ المجرى المائي.

مر باقي الصباح من دون حدث يذكر. تمتعنا بغداء هادئ، بل حتى لطيف، على شاطئ المجرى المائي الداكن كالخث الذي يقطع ركن الأراضي المحيطة بالمنزل. ثم بعد ذلك خلعت الفتاتان أحذيتهما وجواربهما، وخاضتا في المياه التي بلون الشاي، صارختين من البرودة، ورشتا قطرات باردة كالثلج علينا أنا وبيترا، مما جعلني أصرخ، وجعل بيترا تناغي بفرح وحماسة. عكر شيئان فقط الشعور العام بالرضا، أولهما سقوط حذاء إيلي في المجرى المائي. تمكنتُ من استعادته، لكنها كانت دامعة، وبكت عندما تعين علينا الرحيل، واضطرتْ إلى ارتداء الحذاء المبلل مرة أخرى.

كان الأمر الآخر هو الشعور بالوخز في جبهتي، حيث احتك بي النبات المتسلق. بعد الشعور الأولي بالوخز، صار الآن كالشعور بالحكة تمامًا، مثل لدغة نبات القراص، لكن أكثر إيلامًا. رششته بالماء البارد من المجرى المائي، لكن الحكة استمرت، وكان من الصعب تجاهلها. هل كان ذلك نوعًا من الحساسية؟ لم يسبق وأن عانيت الحساسية من النباتات من قبل، لكن ربما كان هذا شيئًا متوطنًا في اسكتلندا، لم أكن لأقابله في الجنوب. في كلتا الحالتين، لم تكن فكرة زيادة الحساسية سوءًا بينما أنا بمفردي مع الأطفال مطمئنة، ولا إدراكي أنني تركت جهاز الاستنشاق الخاص بي في المنزل.

بشكل عام، سُررتُ عندما غامت السماء، وتمكنت من اقتراح جمع أغراضنا والعودة إلى المنزل. نامت بيترا في طريق العودة إلى المنزل، وأوقفت عربتها في غرفة المرافق. لدهشتي، وافقت كل من مادي وإيلي على

اقتراحي بمشاهدة فيلم، وكنا جميعًا نجلس متقاربات في غرفة التلفزيون، ولديَّ شعور متزايد بالتفوق، عندما صدر وشيش، وعلا صوت ساندرا عبر مكبرات الصوت.

ـ روان؟ هل الوقت مناسب للدردشة الآن؟

ـ أوه، مرحبًا ساندرا.

كان الأمر أقل إثارة للأعصاب في المرة الثانية، لكنه ما زال مقلقًا. وجدت نفسي أنظر إلى الكاميرات، وأتساءل كيف عرفت أي غرفة كنتُ موجودة بها. كانت كلتا الفتاتين مستغرقة في الفيلم، ولم يبدُ أنهما لاحظتا صوت والدتهما القادم عبر مكبرات الصوت.

ـ انتظري، سأذهب إلى المطبخ حتى نتمكن من الدردشة من دون إزعاج الفتيات.

ـ يمكنكِ تحويل المكالمة إلى هاتفك، إذا كان ذلك أسهل.

تبعني صوت ساندرا الصادر من اللاشيء عندما قمت بحرص من تحت إيلي ومشيت إلى المطبخ.

ـ افتحي تطبيق هابي فحسب، وانقري على رمز الهاتف، ثم سهم التحويل.

فعلت كما قالت، متجاهلة العبارة اللعينة «المنزل السعيد هو حيث يوجد هابي!»، وضغطت الأيقونات التي أشارت إليها، ثم رفعت الهاتف إلى أذني. شعرت بالراحة عندما عاد صوتها مرة أخرى عبر مكبر صوت الهاتف هذه المرة.

ـ هل انتهيت؟

ـ نعم، أنا على الهاتف الآن. شكرًا لأنك أريتِني كيف أفعل ذلك.

لو أنها فقط ذكرت ذلك الليلة الماضية، بدلًا من إجراء تلك المحادثة المحرجة أمام جاك... لكن لا يهم. شعرت بالوخز من الحساسية في جبيني، وحاولت تجاهل الرغبة في حكها.

قالت ساندرا بخفة:

ـ لا توجد مشكلة. تطبيق هابي مذهل عندما تعتادينه، لكن لا بد لي من الاعتراف أن الأمر يستغرق بعض الوقت حتى تكتشفي كل تعقيداته! كيف تسير الأمور اليوم، على أي حال؟

ـ أوه، جيد حقًّا.

جلست على حافة مقعد وأنا أقاوم الرغبة في أن أرفع نظري إلى الكاميرا في الزاوية.

ـ الأمور تسير على نحو رائع، شكرًا. قضينا صباحًا جيدًا حقًّا ونحن نستكشف الأراضي المحيطة بالمنزل. بيترا نائمة. والفتاتان...

ترددتُ وأنا أفكر في ملاحظتها بالأمس، لكنني واصلت الحديث بعد ذلك. لا جدوى من التشكك في نفسي طوال الوقت، وإلى جانب ذلك، فمن المفترض أنها تعلم ما الذي تفعله الفتاتان، لو تفقدت الكاميرات قبل اتصالها.

ـ الفتاتان تشاهدان فيلمًا. ظننت أنك لن تمانعي، حيث إنهما كانتا في الخارج في الهواء الطلق هذا الصباح. أعتقد أنهما بحاجة إلى بعض الوقت للراحة.

ـ أمانع؟

أطلقت ساندرا ضحكة صغيرة.

ـ كلا، بحق السماء. أنا لست واحدة من أولئك الأهل الذين يحومون حول أطفالهم طوال الوقت.

ـ هل ترغبين في التحدث إليهما؟

ـ بالتأكيد، هذا هو سبب اتصالي في الواقع. حسنًا، وللتحقق من أنك قادرة على التعامل مع الأمور بالطبع. هل ترغبين في إعطاء الهاتف لإيلي أولًا؟

عدت إلى غرفة التلفزيون، وناولت الهاتف لإيلي.

ـ إنها والدتك.

بدا التردد على وجهها وهي تلتقط السماعة، لكنها ابتسمت عند سماع صوت والدتها، وعدت أنا إلى المطبخ حيث لم أرغب في أن أحوم حولهما بوضوح، لكنني استمعت من دون اهتمام لطرف إيلي من المحادثة. لا بد أن ساندرا طلبت الحديث مع مادي في وقت ما، حيث أصدرت إيلي شكوى قصيرة متذمرة، ثم سمعت بعدها صوت مادي، وسارت إيلي إليَّ بتعاسة.

ـ أنا أشتاق إلى أمي.

كانت شفتها السفلى ترتجف.

ـ بالطبع تشتاقين إليها.

جلستُ القرفصاء، وأنا لا أرغب في المجازفة بعناق قد يلاقي رفضًا، لكنني حاولت أن أجعل نفسي متاحة لها على مستواها نفسه في حال رغبت في المواساة.

ـ وهي تفتقدك أيضًا، لكن سيكون لدينا كثير من...

لكن مادي قطعت كلامي، عندما أتت والهاتف ممدود، وفي عينيها السوداوين تعبير غريب. لم أكن متأكدة من طبيعته، بدا وكأنه مزيج من الخوف والبهجة.

قالت:

ـ أمي ترغب في الحديث إليك.

تناولتُ الهاتف.

ـ روان.

كان صوت ساندرا سريعًا ومنزعجًا.

ـ ما هذا الذي سمعته بخصوص اصطحابك إياهن إلى الحديقة المغلقة؟

ـ أنا.. حسنًا...

فوجئت. ما هذا بحق الجحيم؟ لم تذكر ساندرا شيئًا عن كون الحديقة ممنوعة من الدخول.

ـ حسنًا، لقد فعلت، لكن...

ـ كيف تجرئين على الدخول عنوة إلى منطقة من الأراضي أبقيناها مغلقة بوضوح من أجل سلامة الأطفال؟ لا أصدق قدر انعدام المسؤولية...

ـ انتظري دقيقة، أنا آسفة جدًّا لو كنت قد ارتكبت خطأ يا ساندرا، لكن لم تكن لديَّ أدنى فكرة أنه ممنوع دخول الحديقة المسوَّرة. ولم أدخل عنوة إلى أي مكان. إيلي ومادي...

كنت سأقول إنه يبدو أن إيلي ومادي تعرفان كيفية فتح البوابة، لكن ساندرا لم تدعني أكمل. بدلًا من ذلك، قاطعتني بتنهيدة سخط غاضبة، وسكتُّ، غير راغبة في الاستمرار في الحديث وهي تتحدث حتى لا تزيد انزعاجًا.

ـ طلبت منك اللجوء إلى حكمك العقلاني على الأمور، يا روان. لو كان اقتحام حديقة سمومٍ هو فكرتك عن الحكم العقلاني...

ـ ماذا!؟

قاطعتها، من دون أن أكترث بالوقاحة الآن.

ـ ماذا قلتِ؟

قالت ساندرا بغضب:

ـ إنها حديقة سموم. كنت ستعرفين ذلك، لو اهتممت بقراءة الملف الذي قدمته لك. من الواضح أنك لم تفعلي.

ـ سموم...

مددت يدي نحو الملف، وبدأت أقلب الصفحات بشكل محموم. آلمني الشعور بالظلم. كنت قد قرأت الملف اللعين بالفعل، لكن طوله كان يبلغ ٢٥٠ صفحة. لو كانت هناك معلومات خطيرة، كان يجب عليها وضعها في المقدمة، بدلًا من دفنها وسط صفحات وصفحات من الأنواع المقبولة من رقائق البطاطس، ونوع الأحذية الملائم الذي يجب ارتداؤه من أجل التربية البدنية.

ـ فقط... ما هذا حتى؟
ـ كان مالك «هيذربراي» السابق عالم كيمياء تحليلية، متخصصًا في السموم البيولوجية. وكان هذا هو مكانه...
توقفتْ عن الحديث، ومن الواضح أنها غاضبة جدًّا من الموقف برمته، بدرجة تمنعها حتى من العثور على الكلمات.
ـ مكانه الذي يُجري فيه اختباراته الشخصية، على ما أعتقد. كل نبات في تلك الحديقة سام بدرجة ما، وبعضها شديد السمية. ولا حاجة إلى تناول عديد منها، يكفي الاحتكاك بها أو لمس الأوراق.
أوه. ارتفعت يدي نحو الطفح الجلدي على جبهتي، الذي اتضح معناه فجأة.
ـ نحن نحاول إيجاد أفضل طريقة للتعامل معها، لكن الحديقة اللعينة تتمتع بمكانة تراثية، أو شيء من هذا القبيل. في الوقت الحالي، نبقيها مغلقة بإحكام. ويجب أن أقول إنه لم يخطر على بالي مطلقًا أنك ستأخذين الأطفال في نزهة...
كان دوري أنا لمقاطعتها الآن.
ـ ساندرا...
جعلتُ صوتي ثابتًا، وأكثر هدوءًا وعقلانية مما كنت أشعر في الواقع.
ـ أعتذر من دون تحفظ لعدم الانتباه بدرجة كافية لتلك الصفحة في الملف، هذا خطئي بنسبة مائة في المائة، وسأصححه على الفور. لكن يجب أن تعرفي أن الذهاب إلى هناك لم يكن فكرتي أنا. مادي وإيلي اقترحتا الأمر، وهما تعرفان كيفية فتح القفل من دون مفتاح. هناك طريقة ما لتجاوزه من الداخل، ويمكن لإيلي الوصول إليه. من الواضح أنهما دخلتا هناك من قبل.
جعل ذلك ساندرا تخرس تمامًا. ساد الصمت على الطرف الآخر من الهاتف، بينما كنت أنتظر ردها. كان بوسعي سماع تنفسها، وتساءلتُ للحظة

لو كنتُ قد اقترفتُ خطأ استراتيجيًا سيئًا، لأنني ذكرتُ حقيقة أنها لم يكن لديها بوضوح أدنى فكرة عن الأماكن التي كان أطفالها يتجولون فيها. بعد ذلك، سعلتْ.

ـ حسنًا، لن نتحدث أكثر عن الأمر في الوقت الحالي. هل يمكنني الحديث مع مادي مرة أخرى من فضلك؟

وكان هذا هو كل ما في الأمر. بلا «شكرًا للفت انتباهي إلى ذلك». ومن دون اعتراف بأنها هي نفسها لم تكن فائزة تمامًا بالميداليات الذهبية في التربية. لكن ربما كان ذلك أكثر مما يمكن أن آمله.

أعدت الهاتف إلى مادي، التي وجهتْ إليَّ ابتسامة صغيرة وأنا أناولها إياه، وعيناها الداكنتان مليئتان بالخبث.

أخذتْه إلى غرفة التلفزيون مرة ثانية، وإيلي تسير خلفها، آملة الحصول على دور آخر. وعندما صار طرف مادي من المحادثة أكثر خفوتًا، التقطتُ الجهاز اللوحي الذي كان على طاولة المطبخ، وفتحت جوجل. ثم كتبت «آكليس».

ظهرت سلسلة من صور مرعبة عبر الجزء العلوي من الشاشة، مجموعة متنوعة من الوجوه الأنثوية البيضاء الشبيهة بالجماجم، في أطوار مختلفة من التحلل، بعضها شاحب وجميل، بوجنات مدمَّرة، والبعض الآخر متعفن ومتحلل، ورائحة الموت النتنة تفوح من أفواههن الفاغرة.

كانت هناك مدخلات بحث مختلفة تحتها، ونقرت أحدها بصورة عشوائية.

كان يقول: آكليس (تُنطق آك-ليس)، الربة الإغريقية للموت والبؤس والسم.

أغلقتُ الشاشة. حسنًا، بملف أو من دون ملف، لا يمكنني القول إنني لم أتلقَ تحذيرًا. كان هناك، مكتوب على قاعدة التمثال في منتصف الحديقة. لكنني لم أفهم الرسالة فحسب.

ـ لقد انتهيت.

جاء صوت مادي من غرفة التلفزيون، وكتمتُ شعوري بالضيق، وأنا أسير عائدة إلى حيث كانت الفتاتان جالستين القرفصاء على الأريكة، تنتظرانني بوضوح بشيء من الخوف. لم أقل شيئًا بينما مادي تعيد إليَّ الهاتف، بل ألغيتُ الإيقاف المؤقت للفيلم فحسب، وجلستُ على الطرف البعيد من الأريكة لمواصلة المشاهدة، مع أن أعينهما ظلت تتنقل إليَّ، وقد ارتسمت مشاعر مختلفة تمامًا على وجه كل منهما. كان وجه إيلي قلقًا... في انتظار التعرض للتوبيخ. كانت تعلم أنه لم يكن من المفترض دخولهما إلى تلك الحديقة، وقد تركتْ نفسها تستسلم للإغراء، كي تُظهر مهارتها في فتح البوابة وفي إدخالنا. كان تعبير مادي مختلفًا جدًّا، وأصعب في قراءته، لكنني اعتقدتُ أنه بوسعي معرفة ماهيته. الانتصار.

أرادت لي أن أتورط في المشكلات، وقد فعلتُ.

بعد ذلك بوقت طويل، على العشاء، بينما كنت أمسح صلصة الطماطم من وجنة بيترا، وأبتلع ما في فمي من معكرونة الحروف الأبجدية، قلت بشكل عارض:

ـ يا فتيات، هل كنتما تعرفان أن النباتات في تلك الحديقة خطيرة؟

انتقلت عينا إيلي نحو مادي، التي بدا عليها التردد. قالت أخيرًا:

ـ أي حديقة؟

مع أن نبرة صوتها لم تكن تحمل الاستفهام. فكرت أنها تحاول اكتساب مزيد من الوقت. وجهت إليها ألطف ابتسامة لديَّ، ومنحتها نظرة تقول: «لا تعبثي معي، يا عزيزتي».

قلت:

ـ حديقة السموم. التي بها التمثال. قالت والدتكِ إنه لم يكن من المفترض أن ندخل إلى هناك. هل كنت تعرفين؟

قالت مادي مراوغة:

ـ ليس مسموح لنا بالدخول من دون صحبة شخص بالغ.

ـ إيلي، هل كنت تعرفين؟

التفتُّ إليها، لكنها رفضت أن تلتقي نظرتي، وأخيرًا أمسكت بذقنها مجبرة إياها على النظر إليَّ.

ـ أوه!

ـ إيلي، انظري إليَّ. هل كنت تعرفين أن تلك النباتات خطيرة؟

لم تقل شيئًا، بل حاولت فقط أن تدير ذقنها بعيدًا.

ـ هل كنت تعرفين؟

همستْ أخيرًا:

ـ نعم. ماتت فتاة أخرى.

لم يكن ذلك هو الجواب الذي كنت أتوقعه، وتوقفتُ وتركت ذقنها إثر دهشتي.

ـ ماذا قلتِ؟

كررت إيلي وهي لا تزال ترفض أن تلتقي عينها عيني:

ـ كانت هناك فتاة صغيرة أخرى. لقد ماتت. أخبرتنا جين بذلك.

ـ يا للهول!

انزلقت مني الكلمة من دون أن أدرك، ورأيت من ابتسامة مادي المتكلفة أنها سوف تختزن هذا أيضًا لتكرره لساندرا في المرة المقبلة التي تتصل فيها.

ـ ماذا حدث؟ متى؟

قالت مادي:

ـ منذ زمن بعيد.

بدا من الواضح أنها على العكس من إيلي، لم تكن تمانع الحديث حول الموضوع. في الواقع، كان هناك نوع من المتعة في نبرتها.

ـ قبل أن نولد. كانت ابنة الرجل الذي عاش هنا قبلنا. لذلك جُن.

للحظة، لم أفهم الكلمة الأخيرة، لكن بعد ذلك اتضح لي الأمر. كانت تقول كلمة «جُن»، لكن باللكنة الاسكتلندية، وهي تكرر أيًّا ما قالته لها جين ماكنزي.

ـ جُن؟ تقصدين أنه فقدَ عقله؟

قالت مادي بنبرة عملية:

ـ أجل. كان لا بد من إيداعه في مصحة. ليس على الفور، لكن بعد فترة من الحياة هنا مع شبحها. كانت توقظه ببكائها في منتصف الليل، بعد رحيلها. أخبرتنا جين بذلك. لذا لم يعُد ينام بعد فترة. كان يذرع الغرفة جيئة وذهابًا فحسب طوال الليل. ثم فقدَ عقله. كما تعلمين، فإن الناس يفقدون عقولهم إذا منعتهم من النوم لمدة طويلة بما يكفي. يفقدون عقولهم، ثم يموتون.

يذرع. أصابتني الكلمة بصدمة حادة، ولثانية، لم أعرف ما الذي يجب أن أقوله. ثم تذكرت شيئًا آخر.

ـ مادي...

ابتلعتُ ريقي، محاولة التفكير في كيفية صياغة سؤالي.

ـ مادي... هل... هل هذا هو ما كنت تقصدينه؟ من قبل؟ عندما قلتِ إن ذلك لن يعجب الأشباح؟

ـ لا أعرف ما الذي تعنينه.

كان وجهها جامدًا وخاليًا من التعبير، وكانت قد دفعت طبقها بعيدًا.

ـ عندما عانقتِني، في ذلك اليوم الأول الذي جئتُ فيه. قلتِ: «لن يعجب ذلك الأشباح».

قالت ببرود:

ـ كلا، لم أفعل. لم أعانقكِ. أنا لا أعانق الناس.

لكنها تجاوزتْ حدود قدراتها بذلك التعليق الأخير. كان من الممكن أن أصدق أنها لم تقل ما ظننتُ أنني سمعته، لكن من المستحيل أن أنسى

ذلك العناق الصغير الجامد واليائس. لقد عانقتني بالفعل. وجعلتني تلك المعرفة واثقة فجأة مما سمعته أيضًا. هززت رأسي.

ـ أنت تعرفين أنه لا وجود للأشباح، أليس كذلك؟ مهما أخبرتك جين، فهذا مجرد هراء يا مادي. إنهم فقط أشخاص يشعرون بالحزن على أشخاص آخرين لقوا حتفهم، ويتمنون لو كان بوسعهم رؤيتهم مرة ثانية، لذا يختلقون الحكايات ويتخيلون أنهم يرونهم. لكن كل ذلك كلام فارغ.

قالت مادي:

ـ لا أعرف ما الذي تتحدثين عنه.

وهزت رأسها حتى ضرب شعرها المسترسل الداكن وجنتيها.

ـ لا توجد أي أشباح يا مادي. أعدك بذلك. إنها مجرد خيال. لا يمكنها إيذاؤك، أو إيذائي، أو إيذاء أي منا.

قالت بصوت خالٍ من التعبير:

ـ هل يمكنني النزول الآن؟

وتنهدت.

ـ ألا تريدين حلوى البودينج؟

ـ لست جائعة.

ـ فلتذهبي إذن.

انزلقت من مقعدها، وتبعتها إيلي، ظلها الصغير المطيع.

وضعت كوبًا من الزبادي أمام بيترا، ثم درت لأرفع طبقي البنتين. كان طبق إيلي مجرد الفوضى المعتادة من قشور الخبز المحمص وصلصة السباجيتي، مع أكبر قدر ممكن من حبات البازلاء المختبئة تحت ملعقتها. لكن طبق مادي... كنت على وشك إفراغه في حاوية السماد، عندما توقفت وأدرت الطبق.

كانت قد أكلت معظم عشائها، لكن تبقت دستة أو نحو ذلك من الأحرف

الأبجدية. ورأيت الآن عندما كنت على وشك التخلص منها أن الأحرف بدت كما لو كانت مرتبة في كلمات. انزلقت العبارة بشكل منحرف عبر الطبق حيث قلبته نحو حاوية السماد، لكنها كانت لا تزال قابلة للقراءة.

ن ح ن ن
ك ر
هـ ك

نحن نكرهكِ.

بطريقة ما، كانت رؤيتها مكتوبة هناك ببراءة معكرونة الأحرف الأبجدية أكثر إزعاجًا من أي شيء آخر. كشطت الصحن بعنف فارتدت المعكرونة من داخل غطاء حاوية السماد، ثم ألقيته في الحوض حيث ارتطم بكأس وتحطم كلاهما، مما أدى إلى تطاير شظايا الزجاج وبقع صلصة الطماطم.

اللعنة.

اللعنة، اللعنة، اللعنة، اللعنة.

ـ أنا أيضًا أكرهكما!

أردت أن أصرخ خلف ظهريهما المنسحبين، بينما هما تسيران بهدوء إلى غرفة التلفزيون لتشغيل نتفليكس:

ـ أنا أيضًا أكرهكما، أيتها الصغيرتان الحقيرتان المخيفتان اللعينتان!

لكن ذلك لم يكن صحيحًا. ليس تمامًا.

كنت أكرههما بالفعل، في تلك اللحظة. لكنني رأيت نفسي أيضًا. فتاة صغيرة سريعة الغضب، ممتلئة بعواطف يفوق حجمها جسدها الصغير، عواطف لم تتمكن من فهمها أو احتوائها.

ـ أنا أكرهك!

تذكرت أنني كنت أبكي في وسادتي، بعد أن تخلصت أمي من دميتي

المفضلة التي على شكل دب، وقد صارت قديمة جدًّا، ورثَّة للغاية، وطفولية بدرجة بالغة بالنسبة إلى فتاة كبيرة مثلي، تبعًا لها.

ـ أنا أكرهك جدًّا!

لكن ذلك لم يكن صحيحًا حينها أيضًا. كنت أحب والدتي. أحببتها كثيرًا، لدرجة أن ذلك تسبب لها في الاختناق، أو كان ذلك هو الانطباع الذي أعطته. كل تلك السنوات التي كان يتم فيها تخليص الأكمام والتنانير من الأيدي الصغيرة، وحلها من حول الأعناق. «هذا يكفي الآن، سوف تفسدين شعري»، و«أوه، بحق السماء، إن يديك قذرتان»، و«توقفي عن التصرف كطفلة الآن، فتاة كبيرة مثلك». كل تلك السنوات وأنا مفرطة في الاحتياج، ومفرطة في الإمساك بها، ومفرطة في قذارة يدي، وأنا أحاول أن أصبح أفضل، وأكثر نظافة، وأكثر جدارة بالحب فحسب.

لم تكن تريدني. أو هذا ما شعرت به في بعض الأحيان.

لكنها كانت كل ما لديَّ.

كان لدى مادي أكثر مما لديَّ بكثير، أب، وثلاث شقيقات، ومنزل جميل، وكلبان، لكنني أدركت حزنها وغضبها وإحباطها، طفلة غريبة صغيرة داكنة بين شقيقاتها الشقراوات.

حتى إننا كنا نبدو متشابهتين.

عندما نظرت إليَّ، بلمسة الانتصار تلك في عينيها الداكنتين الشبيهتين بعينَي الدمى، أدركتُ شيئًا آخر أيضًا، وعرفتُ الآن ما هو. كانت ومضة من نفسي في تلك العينين. ومضة من عينَي البُنيتين الداكنتين، ومن تصميمي. كانت مادي امرأة لديها خطة، تمامًا مثلما كنت أنا. السؤال هو، ماذا كانت خطتها؟

كنت متعبة للغاية بعد الليلة السابقة التي قضيتها من دون نوم تقريبًا، لذلك عجلت بإرسال الفتيات إلى الطابق العلوي كي يخلدن إلى النوم في وقت مبكر للغاية. لدهشتي، لم يعترضن، ووجدت نفسي أتساءل ما إذا كن متعَبات مثلما كنت أنا.

خلدت بيترا إلى النوم من دون ما هو أكثر من احتجاج رمزي. وعندما ذهبت للاطمئنان على مادي وإيلي، كانت كلتاهما ترتدي منامتها، أو كادت تنتهي من ارتدائها، في حالة إيلي. عاونتها في اكتشاف الاتجاه الصحيح لارتداء قميص المنامة، وقُدتهما إلى الحمام حيث غسلتا أسنانهما بطاعة، بينما وقفت لأشرف عليهما.

سألتهما، وأنا أضعهما في فراشيهما الصغيرين:

ـ هل تريدان حكاية؟

ورأيت عينَي إيلي تتجهان إلى مادي، وهي تبحث عن الإذن بالحديث. لكن مادي هزت رأسها.

ـ كلا، لقد كبرنا جدًّا على الحكايات.

قلت بضحكة صغيرة:

ـ أعرف أن هذا ليس صحيحًا. الجميع يحبون حكايات قبل النوم.

في أي ليلة أخرى، ربما كنتُ سأجلس وأفتح كتابًا، وأبدأ على أي حال في تحدٍّ لرفض مادي. لكنني كنت متعبة. متعبة للغاية. كان الوجود مع الفتيات طوال اليوم منذ شروق الشمس حتى الغروب مرهقًا بطريقة مختلفة تمامًا

عن الحضانة، طريقة لم أتوقعها أو أفهمها بالكامل حتى الآن. فكرت في كل الأمهات اللاتي كن يوصلن أطفالهن وهن يتحدثن عن مدى إنهاكهن، والازدراء الطفيف الذي شعرت به حيالهن عندما كان كل ما عليهن التعامل معه هو طفل أو طفلان على الأكثر. لكنني أدركت الآن ما كن يتحدثن عنه. لم يكن الأمر جسديًّا بدرجة العمل نفسها في الحضانة، ولا مكثفًا مثله، لكنها كانت الطريقة التي يمتد بها إلى ما لا نهاية، والطريقة التي لا تنقطع بها الاحتياجات أبدًا، ولم تكن هناك لحظة على الإطلاق يمكنك خلالها تسليمهم إلى زميلتك، والهرب للحصول على استراحة قصيرة للتدخين لتكوني على طبيعتك فحسب.

لم أكن خارج ساعات العمل قَطُّ هنا. أو على الأقل، ليس في المستقبل المنظور.

قلت أخيرًا عندما رأيت ذقن إيلي يرتعش:

ـ ما رأيكما في أن أشغل كتابًا مسموعًا؟

أخرجت هاتفي، وتمكنت من الانتقال إلى نظام الوسائط في تطبيق هابي، ثم إلى الملفات الصوتية، حيث مررت عبر قائمة العناوين. كان الترتيب مربكًا. لم يبدُ أن هناك أي تمييز بين أنواع الملفات المختلفة، وتم إدراج «موزارت» بجانب «موانا»، و«ثالونيوس مونك»، و«ل. م. مونتجمري». لكن بينما أمرر، أحسست برأس صغير دافئ يندفع أسفل ذراعي، وأخذت يد إيلي الصغيرة الهاتف.

قالت:

ـ يمكنني أن أريك.

وضغطتْ على أيقونة تشبه دب باندا منمقًا، ثم أيقونة أخرى تشبه الرقم «٧» مسطحًا، لكنني أدركت عندما ضغطتْها إيلي أنها من المفترض أن تشير إلى الكتب.

أومضت قائمة بالكتب الصوتية للأطفال.

سألتُ:

ـ هل تعرفين أي واحد تريدينه؟

لكنها هزت رأسها. مسحت القائمة، واخترت واحدًا بصورة عشوائية، «خنزير الراعي»، تأليف «ديك كينج سميث»، مما بدا خيارًا مثاليًّا. كان طويلًا ومريحًا ولطيفًا ومفيدًا. نقرتُ للتشغيل، واخترت «غرفة نوم الفتيات» من قائمة مكبرات الصوت، وانتظرت النغمات الأولى من الموسيقى التمهيدية. بعد ذلك وضعت إيلي في الفراش.

قلت:

ـ هل تريدين قبلة؟

لم تُجِب، لكنني ظننت أنني رأيت إيماءة صغيرة، وانحنيت وطبعت قبلة سريعة على وجنتها الناعمة كوجنة رضيع، قبل أن تتمكن من تغيير رأيها.

ذهبتُ بعدها إلى مادي. كانت مستلقية وعيناها مغمضتان بإحكام، مع أنني رأيت حدقتيها تتحركان أسفل جفنيها اللذين برِقة الورق، واستطعت أن أميز من تنفسها أنها أبعد ما تكون عن النوم.

سألتها، وأنا أعرف ماذا ستكون الإجابة، لكنني أردت أن أكون عادلة:

ـ هل تريدين قبلة قبل النوم يا مادي؟

لم تقل شيئًا. وقفتُ للحظة أستمع إلى تنفسها، ثم قلت:

ـ ليلة سعيدة، يا فتيات. أحلامًا سعيدة. ناما بعمق، لديكما مدرسة غدًا.

ثم رحلت، وأغلقت الباب خلفي.

أطلقت تنهيدة ارتياح مرتجفة، وتكاد تكون متشككة، عندما خرجت إلى الرواق.

هل يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ هل كن جميعًا في الفراش حقًّا في أمان، وقد اغتسلن ومشطن شعورهن، ولا أحد يصرخ؟ بدا الأمر، مقارنة بالليلة الماضية على أي حال، يسيرًا بشكل مخادع.

لكن ربما... ربما أكون قد تجاوزتُ الفترة الصعبة معهن. من المحتمل

أن ذلك الاحتجاج الأول الغاضب كان مجرد صدمة لابتعادهن عن والدتهن، مع وجود شخص غريب نسبيًّا في موضع المسؤولية. ربما كان كل ما يتطلبه الأمر هو قضاء يوم لطيف معًا، ومكالمة هاتفية من ساندرا.

رق قلبي بينما أنا أتفقد قفل باب غرفة المرافق، وأخوض حربًا مع لوحة الباب الأمامي وأضواء الردهة، ثم صعدت السلم إلى غرفتي بإرهاق كنت أواجه صعوبة متزايدة في التغلب عليه.

كنت أمرُّ أمام غرفة بيل وساندرا، عندما اعتقدت أنني سمعت شيئًا. أو ربما شاهدته، كان من الصعب معرفة ذلك. اضطراب حركة بسيطة في الشق المظلم بين الباب والإطار. هل كان الأمر نابعًا من خيالي فحسب؟ كنت في غاية الإرهاق. ربما كان عقلي يمارس الحيل ضدي.

دفعت الباب براحة يدي بهدوء شديد جدًّا، حيث لم أرغب في إزعاج الفتيات، واستمعت إليه وهو يصدر وشيشًا خلال اندفاعه عبر السجادة الفضية السميكة.

كانت الغرفة في الداخل خالية وساكنة تمامًا. كانت الستائر مفتوحة، ومع أن الظلام كان يحل في لندن حينها، إلا أننا كنا في أقصى الشمال هنا، بحيث إن الشمس أخذت تنزلق للتو فقط خلف الجبال. ارتسمت مربعات من الضوء الأحمر الشاحب بشكل مائل عبر الأرضية، محولة السجادة إلى رقعة شطرنج نارية، مع أن أركان الغرفة كانت غارقة في ظلال عميقة يصعب اختراقها. تركت يدي تنزلق فوق الغطاء القطني السميك النظيف للحافهما عندما مررت بفراشهما، وألقيت نظرة نحو الظلال، وشعرت بنبضي يتسارع لجرأة هذا الاقتحام. إذا كانت ساندرا تراقب من خلال الشاشة الآن، فما الذي سوف تراه؟ شخصًا يجوس في غرفة نومها، ويتحسس فرش سريرها. ظننت أنني سمعت صوتًا... تدربت على الحجة في عقلي، لكنني كنت أعرف أن ذلك لم يعُد صحيحًا. كنت أبحث عن عذر.

كان هناك زوج من الأقراط على طاولة السرير الجانبية الأقرب إلى الباب. لا بد أن هذا هو جانب ساندرا. مما يعني أن بيل كان ينام...

درت حول السرير على أطراف أصابعي، محاولة أن أبقى في الظلال بقدر استطاعتي. كنت أعرف من التحديق إلى شاشة غرفة نوم مادي وإيلي أن دقة الصور لم تكن جيدة في الظلام. كان من الصعب للغاية تمييز أي شيء خارج بقعة الضوء الصغيرة الدافئة التي يلقيها المصباح الليلي، وكان التباين أكبر هنا بين مربعات ضوء الغروب والظلال العميقة في باقي الغرفة.

فتحتُ درج طاولة فراش بيل الجانبية بهدوء شديد للغاية، ونظرت إلى فوضى المقتنيات الشخصية بالداخل. ساعة يد لها سوار مكسور، وكمية ضخمة من العملات المعدنية، وبعض التذاكر، ورذاذ لحساسية الأنف، ومشط. لست متأكدة ما الذي كنت آمله، لكن لو كان الأمر هو الحصول على فكرة عن الشخص الذي يعيش هنا، وينام هنا، ويضع رأسه على الوسادة البيضاء الناصعة، فقد خاب أملي. كانت الأشياء غير شخصية على نحو لافت للنظر.

فكرت في ذلك اللقاء في المطبخ، وفي ساقه المكسوة بقماش الدنيم وهي تنزلق بين فخذيَّ باقتحام واثق تَوَلد عبر الممارسة الطويلة، وشعرت بالغثيان. من أنت؟

شعرت فجأة أنني يجب أن أخرج، وهرعت عبر السجادة ذات المربعات، ولم أعُد أكترث بالاختفاء وسط الظلال، أو إذا رأتني ساندرا أو بيل. فليشاهداني. كلاهما.

أغلقت الباب في غرفتي بالأعلى، وشعرت أنني أحصن نفسي بعيدًا عن باقي المنزل. بينما الستائر تنغلق بشكل آلي فوق زجاج النافذة، كانت آخر لمحة لي من العالم الخارجي هي خطوط الغروب الدامية وهي تتلاشى خلف قمم «كيرنجورمز» البعيدة، وضوء في نافذة جاك يلتمع بثبات عبر الفناء الذي أخذ الظلام يحل عليه.

فكرت فيه وأنا أدع رأسي يغوص في نعومة الوسادة المحشوة بريش الإوز. فكرت في يديه ذلك الصباح، والسهولة التي كبح بها الكلبين المتحمسين، والطريقة التي سيطر بها عليهما، وأبقاهما عند قدميه. وفكرت في المفتاح، وكيف توجه من دون خطأ إلى مكان اختفائه، والذي كان مكانًا بحثت فيه بالفعل.

لكنني تذكرت أشياء أخرى بعد ذلك: لطفه في تلك الليلة الأولى، البادي في مجيئه للاطمئنان عليَّ، وصوته عبر جهاز مراقبة الأطفال وهو يساعد بيترا على الخلود إلى النوم، ويدندن لها برقة جعلت معدتي تنقبض بطريقة غريبة لم أستطع تحديدها. لم يكن هناك أي خداع في ذلك، ولا أي تظاهر. كانت تلك الرقة حقيقية، كنت متأكدة من ذلك.

تساءلت لو كان هو الموجود في المطبخ تلك الليلة، بدلًا من بيل، هل كنت سأخرج مترنحة من الغرفة يتنابني الغثيان، شاعرة بالاضطراب والاشمئزاز؟ أم هل كان رد فعلي سيختلف تمامًا؟ ربما فتحت ساقيَّ له، وملت إلى الأمام، وتضرج وجهي بالحمرة.

لكن في الوقت نفسه الذي طرأت فيه الفكرة، جاعلة وجنتيَّ تتوردان في الظلام، تذكرت مرة أخرى ركوعي على أرض غرفة المرافق، ماسحة أسفل الغسالة بمصباح هاتفي. لم يكن ذلك المفتاح هناك. لم تزِد تلك الساعات الفاصلة من شكي في هذه الحقيقة، بل على العكس. صرت واثقة تمامًا الآن.

مما كان يعني...

فركت وجهي بكفي، مقاومة الرغبة في فرك الحكة التي أخذت تتلاشى، والتي خلَّفها النبات الزاحف. كنت أفكر على نحو منافٍ للعقل. لم يكن هناك أي سبب معقول يدفعه لسرقة ذلك المفتاح، لمجرد إثارة أعصابي. كانت لديه مفاتيحه الخاصة على أي حال، ومصرح له استخدام بصمة إبهامه على الباب الأمامي. (همس لي عقلي الباطن: لكن... ربما كان هناك سجل

للمرات التي يستخدم فيها أحدهم القفل، وهو سجل لن يكون متوفرًا في حالة قفل ومفتاح من الطراز القديم).

لكن، لا. لا. لم يكن الأمر منطقيًّا. لمَ يكبد نفسه عناء إخفاء مفتاح لبضع ساعات؟ ما الذي سوف يستفيده من ذلك؟ لا شيء، سوى جعلي ألتزم الحذر. وكانت هناك قلادتي أيضًا، قلادتي التي لم أعثر عليها بعد، مع أنه لم يتسنَّ لي الوقت للبحث كما يجب. لا يمكن أن يكون جاك هو المسؤول عن ذلك، بكل تأكيد. كان هذا كله بسبب جنون الارتياب. تضيع الأشياء طوال الوقت. تسقط المفاتيح. يتم ترتيب القلائد في الجيوب والأدراج، وتُكتشف بعد أيام. سيكون هناك تفسير معقول تمامًا لكل هذا، تفسير لا يتطلب وجود نظرية المؤامرة.

كتمتُ الفكرة، بينما أنا أنقلب، تاركة النوم يدثرني مثل بطانية سميكة.

لم تكن فكرتي الأخيرة والنوم يغلبني بخصوص جاك، ولا بخصوص المفتاح، ولا حتى بخصوص بيل. كانت بخصوص وقع الأقدام في غرفة العلية.

والرجل العجوز الذي فقدَ ابنته بسبب حديقة سمومه.

كانت هناك فتاة صغيرة أخرى.

اتجهت يدي إلى عنقي بلا جدوى، محاولة الإمساك بقلادة لم تكن هناك. ثم نمت أخيرًا.

استيقظت على صوت صرخات وارتباك عالٍ للغاية، لدرجة أن رد فعلي الأول كان أنني وضعت يدي على أذني، في الوقت ذاته الذي انتصبت فيه جالسة في الفراش، وأنا أحدق إلى ما حولي بعنف، وأرتجف من البرد.

كانت الأنوار مضاءة، وكلها مرفوعة إلى أقصى درجات السطوع الحارق للعين. وكانت الغرفة باردة كالجليد. لكن الضجيج، يا إلهي، الضجيج.

كانت موسيقى، أو على الأقل هذا هو ما افترضته. لكنها كانت عالية جدًّا ومشوهة، لدرجة أنه لم يكن من الممكن التعرف على اللحن، وقد حوله العواء والأنين الصادر من مكبرات الصوت في السقف إلى صخب من دون معالم محددة.

للحظة، لم أتمكن من التفكير فيما عليَّ فعله بحق الجحيم. ثم هرعت إلى اللوحة على الجدار، وشرعت في الضغط على الأزرار، ونبضي يدق في أذني، والموسيقى الصارخة المشوهة مثل العواء في رأسي. لم يحدث شيء، سوى أن أنوار الخزانات أضيئت، وانضمت إلى البقية.

صرخت:

ـ أَطفِئ الموسيقى! أَطفِئ مكبرات الصوت! اخفِض الصوت!

لا شيء، لا شيء على الإطلاق.

سمعت نباحًا غاضبًا من الطابق السفلي، وصرخات مذعورة كالقطار البخاري آتية من غرفة بيترا. تخليت أخيرًا عن محاولاتي مع اللوحة، واختطفت روبي وهربت.

كانت الموسيقى صاخبة بالقدر نفسه خارج غرف الأطفال، بل أعلى، حيث بدا أن جدران الرواق الضيقة تنقلها. وكانت الأنوار مضاءة أيضًا في الأسفل، مظهرة إليَّ لمحة من بيترا عبر باب غرفة نومها وهي تقف في فراشها بشعر مشعث الأطراف، صارخة من الخوف.

انتزعتها، وهرعت إلى غرفة الفتاتين في نهاية الرواق، ودفعت الباب لأفتحه، لأجد مادي ملتفة في فراشها في وضع جنيني، ويداها على أذنيها، وإيلي مختفية عن الأنظار.

صرخت فوق ضجيج الموسيقى، وعويل بيترا الشبيه بسيارات الإطفاء:

ـ أين إيلي؟

رفعت مادي عينيها، ووجهها خالٍ من التعبير بفعل الخوف، ويداها لا تزالان على أذنيها. قبضتُ على معصمها، وسحبتُها لتقف على قدميها.

صحت في وجهها مباشرة:

ـ أين إيلي ؟

فابتعدتْ وهربتْ هابطة السلم، وأنا في أعقابها.

كان الضجيج على القدر نفسه من السوء في ردهة المدخل، وإيلي هناك في منتصف السجادة الفارسية أسفل السلم. جثمت على شكل كرة صغيرة، وذراعاها ملفوفتان حول رأسها. تقافز الكلبان الخائفان حولها، وقد أُطلق سراحهما من فراشيهما في غرفة المرافق، مضيفين نباحهما المحموم إلى الضوضاء.

صحتُ:

ـ إيلي، ماذا حدث؟ هل ضغطتِ شيئًا ما؟

نظرتْ إليَّ بوجه خالٍ من التعبير من دون فهم، وهززتُ رأسي ثم هرعتُ إلى الجهاز اللوحي القابع على طاولة الإفطار المعدنية. فتحتُ تطبيق إدارة المنزل، لكن عندما أدخلتُ رمز الوصول الخاص بي، لم يحدث شيء. هل

تذكرته بشكل خاطئ؟ أدخلته مرة أخرى، ونباح الكلبين الغاضب كمطرقة صوت في جمجمتي. لم يحدث شيء مرة أخرى.

أنت ممنوع

تسنى لي الوقت لقراءة ذلك قبل أن تضيء الشاشة لحظيًّا، ثم انطفأت، وقد أومض تحذير بطارية حمراء للحظة قبل أن تصير سوداء. اللعنة.

ضربتُ لوحة الجدار بيدي، فأُضيئت الأنوار فوق الموقد، وارتفع صوت يوتيوب من شاشة على الثلاجة، لكن صوت الموسيقى لم ينخفض. شعرت بقلبي يدق بقوة داخل صدري، واضطرابي يزيد أكثر فأكثر، عندما أدركت أنه ليست لديَّ أي وسيلة لإيقاف هذا الشيء. يا لها من فكرة حمقاء لعينة، منزل ذكي؟ كان هذا أقل شيء ذكاء يمكنني تخيله.

كان الأطفال يرتجفون حينها، وبيترا لا تزال تطلق صرخات ضيق تصم الأذن بجوار أذني، بينما الكلبان يركضان في دوائر حولنا. جربت زر الطاقة على الجهاز اللوحي بعجز أكبر، وأنا لا أتوقع أن يعمل، ولم يحدث ذلك. كانت الشاشة مظلمة تمامًا. كان هاتفي في الطابق العلوي، لكن هل يمكنني ترك الأطفال المرعوبين لفترة تكفي لجلبه؟

كنت أحدق إلى ما حولي، متسائلة عما سأفعله بحق السماء، عندما شعرت بلمسة على كتفي. جفلت بشدة، لدرجة أنني كدت أُسقط بيترا، واستدرت باتهام لأجد جاك جرانت يقف خلفي على مسافة قريبة للغاية، لدرجة أن كتفي لامس صدره العاري بينما أنا أستدير. تراجع كلانا خطوة إلى الوراء بشكل لاإرادي، وكدت أتعثر بأحد المقاعد.

كان عاريًا فيما فوق الخصر، وبدا من الواضح أنه كان نائمًا، بحسب شعره المشعث. صاح بشيء ما، وهو يشير إلى الباب، لكنني هززت رأسي، واقترب وهو يحيط أذني بيديه.

ـ ما الذي يحدث؟ كان بإمكاني سماع الضجيج من الإسطبلات.

صحت أنا الأخرى:

ـ ليست لديَّ أدنى فكرة! كنت نائمة، ربما لمست إحدى الفتيات شيئًا ما، لا أستطيع إيقافه.

صرخ قائلًا:

ـ هل يمكنني أن أحاول؟

وشعرت بالرغبة في الضحك في وجهه.

هل يمكنه ذلك؟ سوف أُقبِّله إذا نجح. دفعت إليه الجهاز اللوحي بشكل يكاد يكون عدوانيًّا.

ـ تفضل!

حاول تشغيل الجهاز اللوحي، وأدرك كما فعلت أنا، أن طاقته نفدت. ثم ذهب إلى غرفة المرافق، وفتح خزانة هناك، حيث يتم الاحتفاظ بجهاز توجيه الإنترنت اللاسلكي، إلى جانب عداد الكهرباء. لستُ متأكدة تمامًا مما فعله هناك، حيث كنت منشغلة للغاية بتهدئة بيترا التي زاد اضطرابها. لكن الظلام الحالك ساد فجأة، وتوقف الصوت بشكل مفاجئ على نحو مربك. وجدت طنينًا في أذني من آثاره.

سمعت وسط الصمت شهقات إيلي اللاهثة المذعورة، ومادي وهي تتأرجح إلى الأمام والخلف.

توقفت بيترا عن البكاء بين ذراعَي، وشعرت بجسدها الضئيل يتصلب من أثر المفاجأة، ثم كركرتْ ضاحكة.

قالت:

ـ نامي... «باي»!

بعد ذلك علا صوت تكة، وعادت الأنوار مرة أخرى، أقل سطوعًا هذه المرة، ومضاء عدد أقل منها.

قال جاك:

ـ هاكِ.

عاد ثانية وهو يمسح جبهته، والكلبان يسيران في أعقابه، وقد هدأ فجأة مرة أخرى.

ـ لقد عاد إلى الإعدادات الافتراضية الآن. اللعنة. حسنًا.

كان العرق يندي جبينه على الرغم من برودة الهواء، وعندما جلس إلى طاولة المطبخ والجهاز اللوحي بين يديه، كان بوسعي رؤية أن يديه ترتعشان.

كانت يدي ترتعش أنا أيضًا، عندما وضعت بيترا إلى جوار مادي.

أوصل جاك الجهاز اللوحي بالتيار الكهربائي، ووضعه الآن في انتظار أن يشحن بما يكفي لتشغيله.

قلت بوهن:

ـ شـ... شكرًا.

كانت إيلي لا تزال تنشج في الردهة.

ـ إيلي، لا داعي للبكاء يا حلوتي. كل شيء على ما يرام الآن. انظري... إمممم...

عبرتُ المطبخ، وشرعتُ أبحث في الخزائن.

ـ انظري... ها نحن ذا، خذي بسكويتة بالمربى. أنت أيضًا، يا مادي.

قالت مادي بصوت خالٍ من التعبير:

ـ لقد غسلنا أسناننا.

وكتمتُ ضحكة هستيرية. كان ما أردت قوله هو: «فلتذهب الأسنان إلى الجحيم»، لكنني تمكنت من الامتناع عن ذلك بصعوبة.

ـ أعتقد أنه لا بأس في الأمر، هذه المرة فقط. لقد تعرضنا جميعًا لصدمة. السكر مفيد في حالة الصدمة.

قال جاك بجدية:

ـ أجل، هذا صحيح. كانوا يجعلونك قديمًا تشربين الشاي المحلى، لكن بما أنني في الحقيقة لا أحب السكر في الشاي خاصتي، فسآخذ بسكويتة بالمربى أنا أيضًا، شكرًا يا روان.

ناولتُ واحدة لجاك، وقضمتُ واحدة بنفسي.

ـ أرأيتِ؟ لا بأس.

تحدثتُ من بين الفتات:

ـ هاك، يا مادي.

تناولتْها بحذر، ثم دفعتْها في فمها، وكأنني على وشك أن آخذها منها مرة أخرى.

أكلتْ إيلي بسكويتتها بتمهل أكبر.

صاحتْ بيترا رافعة ذراعيها:

ـ واحدة لي!

انصرفتُ عن التفكير في الأمر بعدم اكتراث. لم أكن سأفوز بأي جوائز في مجال تغذية الأطفال، لكني لم أعُد أبالي بذلك. كسرتُ واحدة إلى نصفين، وأعطيتها قطعة من البسكويت هي الأخرى، ثم ألقيتُ بقطعة إلى كل من الكلبين علاوة على ذلك.

قال جاك عندما شرعت بيترا تحشو البسكويت في فمها بسعادة:

ـ حسنًا، ها نحن قد عدنا إلى العمل مرة أخرى.

للحظة، لم أدرك ما يعنيه، ثم رأيت أنه يحمل الجهاز اللوحي والشاشة تلقي وهجًا على وجهه.

ـ لقد فتحت التطبيق. جربي رقم التعريف الشخصي الخاص بك أولًا.

تناولتُ منه الجهاز اللوحي، واخترت اسم المستخدم الخاص بي من القائمة المنسدلة الصغيرة، وأدخلت رقم التعريف الشخصي الذي أعطته لي ساندرا لتطبيق إدارة المنزل.

أومضت على الشاشة عبارة:

أنت ممنوع من الدخول

وبعد ذلك عندما نقرت على علامة «i» الصغيرة بجوار الرسالة:

عذرًا، لقد أدخلتَ رقم تطبيق هابي الخاص بك بشكل غير صحيح

عدة مرات، وأنت الآن ممنوع من الدخول. الرجاء إدخال كلمة مرور المسؤول لتجاوز ذلك، أو انتظر أربع ساعات.

قال جاك بأسف:

ـ آه، من السهل ارتكاب ذلك الخطأ في هذه الظروف.

قلت بانزعاج:

ـ لكن مهلًا، انتظر، هذا غير منطقي. لقد أدخلت رمز المرور الخاص بي مرة واحدة. كيف يمكن أن يمنعني من الدخول من أجل ذلك؟

قال جاك:

ـ لا يمكنه هذا. لديك ثلاث مرات للمحاولة، ثم يوجه لك تحذيرًا. لكن أعتقد أنه مع كل الجلبة...

كررت قائلة:

ـ لقد أدخلته مرة واحدة فقط.

وبعد ذلك، عندما لم يُجِب، قلت بقوة أكبر:

ـ مرة واحدة!

قال جاك بلطف:

ـ حسنًا، حسنًا.

لكنه وجه لي نظرة جانبية من تحت غرة شعره، وفي عينيه نوع من التقييم إلى حد ما.

ـ دعيني أحاول.

ناولته الجهاز اللوحي، شاعرة بالانزعاج بطريقة غير منطقية. بدا من الواضح أنه لم يكن يصدقني. فما الذي حدث إذن؟ هل حاول شخص ما تسجيل الدخول باسم المستخدم الخاص بي؟

بينما أنا أراقبه، بدَّل جاك المستخدمين، وأدخل رقم التعريف الشخصي الخاص به. أضاءت الشاشة لفترة وجيزة، ثم دخل التطبيق.

رأيت أن شاشته منسقة بشكل مختلف عن شاشتي. كانت لديه بعض

الصلاحيات التي لم أكن أملكها. إذنٌ بالوصول إلى الكاميرات في المرآب، وفي الخارج، لكن ليس لتلك الموجودة في غرفة نوم الأطفال وغرفة اللعب، كما كان لديَّ أنا. كانت أيقونات تلك الغرف رمادية اللون، وغير متاحة. لكن عندما نقر على المطبخ، تمكن من تعتيم الأنوار من خلال النقر على مفاتيح التحكم في التطبيق.

كان ذلك الإدراك بمثابة صدمة صغيرة.

ـ انتظر...

انفلتت مني الكلمات قبل أن أفكر في كيفية صياغتها.

ـ هل يمكنك التحكم في الأضواء هنا من خلال التطبيق؟

قال، وهو ينقر للوصول إلى شاشة أخرى:

ـ فقط في حال كنت هنا. إذا كنت مستخدمًا رئيسيًّا ـ هذا يعني ساندرا وبيل في الأساس ـ فيمكنك التحكم في كل شيء عن بعد. لكن لا يمكن لبقيتنا سوى التحكم في الغرف التي نوجد بها. إنه نوع من تحديد الموقع. إذا كنت قريبة بدرجة كافية من اللوحة في الغرفة، يمكنك الوصول إلى ذلك النظام.

اعتقدت أن الأمر بدا منطقيًّا. إذا كنت قريبًا بما يكفي للوصول إلى مفتاح الإضاءة، فلمَ لا يتم منحك إمكانية الوصول إلى باقي مفاتيح التحكم في الغرفة؟ لكن من جهة أخرى... ما مدى القرب الكافي؟ كنا أسفل غرفة مادي وإيلي مباشرة هنا. هل يمكنه التحكم في الأنوار هناك من هاتفه هنا بالأسفل؟ ماذا عن الفناء في الخارج؟

لكنني تمالكت نفسي. لم يكن هناك جدوى من هذا. لم يكن بحاجة إلى الوصول إلى مفاتيح التحكم من الفناء. كانت لديه نسخة من المفاتيح.

لكن... أي طريقة أفضل من ذلك لتجعل شخصًا يعتقد أنك لست متورطًا... بينما أنت كذلك بالفعل؟

هززت رأسي. كان عليَّ التوقف عن هذا. كان من الممكن أن تكون

إيلي هي من عبثت بجهاز الآيباد في منتصف الليل. ربما نزلت وهي تريد أن تلعب «كاندي كراش»، أو تشاهد فيلمًا، وضغطت بطريق الخطأ على شيء لم يكن يجب عليها أن تضغطه. من المحتمل أنه كان نوعًا من الإعدادات المبرمجة مسبقًا، شغلته من دون أن أدرك، وكأنها الصيغة المقابلة في التطبيق من الاتصال الهاتفي بأحدهم عن طريق الخطأ، بينما الهاتف في جيبك. ربما كان بيل وساندرا، إذا وصل الأمر إلى هذا الحد. إذا كنت سأصاب بجنون الارتياب، فربما عليَّ في النهاية قطع الطريق حتى آخره. لمَ أتوقف عند عامل عشوائي؟ لمَ لا أوسع نطاق الشبهات لتشمل الجميع؟ لم تكن هناك أدنى أهمية لكونهما قد وظفاني للتو، ولأن لديهما أسبابًا أقل من أي شخص آخر لحملي على الرحيل. أو، في هذا الصدد، فقد كان هناك مستخدمون آخرون. من عساه يدري أي صلاحيات قد تحوزها ريانون؟

أدركت فجأة أن جاك كان يراقبني، وذراعاه معقودتان على صدره العاري. لمحت صورتي منعكسة في جدار المطبخ الزجاجي، بلا حمالة صدر، وأنا أرتدي قميصي الخفيف، ووجهي لا يزال متغضنًا من أثر الوسادة، وشعري يبدو كما لو كنت تعرضت للجر إلى الوراء من بين شجيرة، أبعد ما أكون عن الصورة الأنيقة الاحترافية المتحفظة التي حاولت إظهارها خلال النهار، لدرجة أن التباين كان مثيرًا للضحك. شعرت بوجنتيَّ تزيدان سخونة.

ـ يا إلهي، أنا آسفة جدًّا، يا جاك. لم يكن عليك أن...

توقفتُ عن الحديث.

نظر إلى نفسه بدوره، وبدا أنه أدرك وضعه وهو نصف عارٍ، وأطلق ضحكة محرجة، وتضرجت وجنتاه بالحمرة.

ـ كان يجب أن أرتدي شيئًا ما. ظننت أنكن جميعًا تعرضتن للقتل في أَسِرتكن، لذا لم أتوقف في الواقع حتى أرتدي ملابسي... اسمعي، اجعلي الفتيات يخلدن إلى النوم، وسأرتدي قميصًا وأهدئ الكلبين، وبعد ذلك سوف أشغل بعض برامج الفيروسات على التطبيق.

احتججتُ قائلة:
ـ لست مضطرًّا إلى فعل ذلك هذه الليلة.
لكنه هز رأسه.
ـ لا، أنا أرغب في ذلك. مهما حاولت، لا أستطيع فهم لمَ لا يعمل بكفاءة، ولا أريدكن أن تستيقظن مرة ثانية في الليلة نفسها. لكن ليست هناك حاجة إلى أن تنتظريني. يمكنني أن أغلق الباب خلفي. أو يمكنني النوم هنا لو كنت تشعرين بالقلق.
أشار إلى الأريكة.
ـ بوسعي إحضار بطانية.
ـ لا!
خرجتْ أكثر حدة وتأكيدًا مما كنتُ أنتوي، وجاهدتُ لأداري رد فعلي المبالغ فيه.
ـ لا، أعني... لست مضطرًّا إلى فعل ذلك. حقًّا. سوف...
اخرسي، أيتها الفتاة الحمقاء.
ازدردتُ ريقي.
ـ سأضع الفتيات في الفراش، وأعود إلى الطابق السفلي. لن أتغيب طويلًا.
على الأقل، أملتُ ألا أفعل. كانت بيترا تبدو مستيقظة تمامًا لدرجة مثيرة للقلق.

ربما مرت ساعة بعد ذلك، بعد أن وضعت الفتيات في الفراش للمرة الثانية تلك الليلة، وهدَّأتُ بيترا بدرجة لم تخلد معها إلى النوم تمامًا، لكنها كادت تنام، ثم نزلتُ مرة أخرى إلى المطبخ. توقعت نوعًا ما أن يكون جاك قد جمع أشياءه ورحل، لكنه كان في انتظاري، مرتديًا قميصًا من قماش الفلانيل منقوشًا بالمربعات هذه المرة، وفي يده كوب من الشاي.

سألني:

ـ هل تريدين واحدًا؟

للحظة، لم أكن متأكدة مما يتحدث عنه، ثم رفع كوبه وهززت رأسي.

ـ كلا، شكرًا. لن أنام إذا تناولت أي شيء يحتوي على الكافيين الآن.

ـ كلامك معقول. هل أنتِ بخير؟

لا أعرف لمَ كان هذا السؤال البسيط هو ما تسبب في ذلك. ربما كان القلق الحقيقي البادي في صوته، أو الارتياح الهائل للوجود مع شخص بالغ آخر بعد قضاء ساعات طويلة بمفردي مع الأطفال. ربما كانت مجرد الصدمة مما حدث، وقد ظهر تأثيرها أخيرًا. لكنني انفجرت في البكاء.

ـ مهلًا.

وقف في حرج، وهو يدفع يديه في جيبيه، ثم يخرجهما ثانية، وبعد ذلك، كما لو أنه اتخذ قراره، عَبَر المطبخ بسرعة، وأحاطني بذراعيه. استدرت، لم أستطع أن أمنع نفسي، ودفنت وجهي في كتفه، وشعرت بجسدي بأكمله يرتجف من البكاء.

كرر قائلًا:

ـ مهلًا، اهدئي...

لكن صوته أتاني هذه المرة من خلال صدره، أعمق وأرق، وأبطأ نوعًا ما. ترددتْ يده فوق كتفي، ثم استقرتْ برقة بالغة على شعري.

ـ روان، سيكون كل شيء على ما يرام.

كانت تلك الكلمة الوحيدة، روان، هي ما أعادتني إلى رشدي، وذكرتني بمن أكون، وبمن يكون هو، وبما أفعله هنا. ازدردت ريقي بقوة، وتراجعت خطوة إلى الوراء، وأنا أمسح عيني بكمي.

ـ يا إلهي، جاك، أنا آ... آسفة جدًّا.

كان صوتي لا يزال مرتعشًا وأجش من أثر البكاء، ومد هو يده. ظننتُ للحظة أنه سوف يلمس وجنتي، ولم أكن متأكدة ما إذا كنت أرغب في

الابتعاد، أم الاقتراب من تربيته هذا، ثم أدركت أنه كان يقدم لي منديلًا. تناولته وتمخطت.

تمكنت أخيرًا من أن أقول:

ـ رباه.

ثم اتجهت نحو أريكة المطبخ وجلست، وأنا أشعر أن ساقيَّ على وشك الانهيار.

ـ جاك، لا بد أنك تعتقد أنني حمقاء تمامًا.

ـ أعتقد أنك امرأة تعرضت لخوف شديد، وحافظتْ على تماسكها من أجل الأطفال. وأظن أيضًا...

توقف عند ذلك، وعض شفته. تجهمتُ.

ـ ماذا؟

ـ لا، لا يهم.

ـ بل يهم.

فجأة، أردت بشدة بالغة أن يقول أيًّا ما كان على وشك أن يقوله، مع أنني كنت خائفة بدرجة كبيرة مما قد يكون.

أصررتُ قائلة:

ـ أخبِرني.

وتنهد هو.

ـ يجب ألا أقول ذلك. أنا لا أتحدث بسوء عن أرباب عملي.

أوه. إذن لم يكن الأمر هو ما كنت أخشاه نوعًا ما. صرت الآن أشعر بمجرد الفضول.

ـ لكن؟

ـ لكن...

قطع حديثه وهو يعض شفته، ثم بدا وكأنه حسم رأيه.

ـ آه، اللعنة. لقد قلت الكثير بالفعل. أعتقد أن ساندرا وبيل ما كان عليهما

أن يضعاك في هذا الموقف على الإطلاق. إن ذلك ليس عادلًا بالنسبة إليك، وليس عادلًا بالنسبة إلى الأطفال، ما دام الحديث وصل إلى هذا الحد.

أوه.

حان دوري الآن لأشعر بالحرج. ما الذي يمكنني قوله للرد على ذلك؟ قلت أخيرًا:

ـ كنت أعلم ما الذي قبلتُ تولي مسؤوليته.

ـ أجل، لكن هل كنت تعرفين حقًّا؟

جلس إلى جواري، جاعلًا وسائد الأريكة تصدر صريرًا.

ـ أراهنكِ أنهما لم يكونا صادقين بنسبة مائة في المائة بشأن تلك الفتاة، أليس كذلك؟

ـ من؟ مادي؟

أومأ، وتنهدتُ.

ـ حسنًا، لا، أنت على حق. لم يكونا صادقين. أو ليس تمامًا. لكنني اختصاصية رعاية أطفال، يا جاك. وهذا ليس شيئًا لم أواجهه من قبل.

ـ حقًّا؟

ـ حسنًا، ربما لم ألتقِ أي شخص مثل مادي تمامًا، لكنها مجرد فتاة صغيرة، يا جاك. يتعرف بعضنا على بعض، هذا كل ما في الأمر. استمتعنا بنهار لطيف اليوم.

لكن هذا لم يكن صحيحًا تمامًا، أليس كذلك؟ كانت قد حاولتْ أن تجعلني أُطرد من وظيفتي، أولًا من خلال استدراجي إلى حديقة السموم اللعينة تلك، وثانيًا عن طريق الوشاية بي إلى والدتها، بطريقة مدروسة لجعلي أبدو بأسوأ ما يمكن.

ـ جاك، هل هناك أي طريقة كان يمكن أن تكون...

توقفتُ، وعدلت ما كنت على وشك أن أقوله.

ـ واحدة من الأطفال تسببت في تشغيل كل تلك الأشياء؟ لقد كن يعبثن بالجهاز اللوحي في وقت سابق، هل هناك أي طريقة يمكن أن يكن من خلالها... لا أدري... برمجنه مسبقًا بطريق الخطأ؟

فكرت: «أو عمدًا»، إلا أنني لم أقل ذلك.

لكنه هز رأسه.

ـ لا أعتقد ذلك. سيكون هناك سجل لتسجيل الدخول. وعلى أي حال، مما ذكرتِه، فقد تجاوز كل مكبر صوت ونظام إضاءة في المنزل. لا يملك أي من مستخدمي هذا الجهاز اللوحي صلاحيات الوصول لفعل هذا. ستحتاجين إلى كلمة مرور المسؤول من أجل ذلك.

ـ إذن... في الأساس يجب أن يكون إما بيل وإما ساندرا؟ هل هذا هو ما تقصده؟

كانت الفكرة بالغة الغرابة، ولا بد أن شكوكي ظهرت على وجهي.

ـ هل من الممكن أن يكون الأطفال حصلوا على رقم التعريف الشخصي الخاص بهما بطريقة ما؟

ـ ربما. لكنهم ليسوا مسجلين حتى كمستخدمين لهذا الجهاز اللوحي. انظري.

نقر القائمة المنسدلة الصغيرة في تطبيق إدارة المنزل التي أدرجت المستخدمين المحتملين لهذا الجهاز. أنا، وهو، وجين، ومستخدمًا أخيرًا مسجلًا تحت اسم «ضيف». كان هذا هو كل شيء.

ـ إذن ما تقصده هو...

تحدثت ببطء، محاولة التفكير في الأمر.

ـ للحصول على مستوى صلاحيات وصول المسؤول، فلن تحتاج إلى رقم التعريف الشخصي الخاص بساندرا فحسب، بل ستحتاج إلى هاتفها؟

ـ إلى حد كبير، أجل.

أخرج هاتفه، وأراني لوحة صلاحيات الوصول الخاصة به.

ـ أرأيتِ؟ أنا المستخدم الوحيد المسجل على هاتفي. هذه هي طريقة تصميمه.

ـ ولتسجيل مستخدمين جدد على جهاز...

ـ أنت بحاجة إلى شفرة محددة. لا بد أن ساندرا أعطتكِ واحدة عند مجيئك هنا، أليس كذلك؟

أومأتُ.

ـ ودعني أخمن، لا يمكن إنشاء الشفرة إلا من قِبل...

ـ من قِبل مستخدم مسؤول، أجل. ما ذكرتِه صحيح.

لم يكن الأمر منطقيًّا. هل فعل بيل أو ساندرا هذا بطريقة ما؟ لم يكن ذلك خارج حدود الاحتمال، كنت قد قرأت عن التطبيق عندما أخبرتني ساندرا بشأنه لأول مرة، وحسب ما فهمته، كان الهدف من النظام هو أنه يمكنك التحكم فيه من أي مكان يمكن الوصول فيه إلى الإنترنت، تفقُّد الدائرة التلفزيونية المغلقة في أثناء وجودك في عطلة في فيربير، وإضاءة الأنوار عندما تكون في الطابق العلوي وترغب في النزول، وخفض التدفئة عندما تكون عالقًا وسط الزحام المروري في إنفرنيس. لكن لمَ يفعلان ذلك؟

تذكرت ما قاله جاك عندما ذهبت لاصطحاب الفتيات إلى الفراش. ومع أنني كنت أعرف أنني أتعلق بقشة، كان لا يزال يتعين عليَّ طرح السؤال.

ـ وفحص الفيروسات؟

هز رأسه.

ـ لا شيء على الجهاز اللوحي على الإطلاق. إنه نظيف تمامًا.

ـ اللعنة.

مرَّرتُ يدي خلال شعري، ووضع يده على كتفي، لامسًا إياي مرة أخرى برقة، لكنني شعرت بشحنة كهربية من نوع ما تسري بيننا، مما جعل الشعر ينتصب على ذراعي، وارتجفت بخفة.

ارتسم الأسف على وجه جاك، وقد أساء تفسير رد فعلي.

ـ انظري إليَّ، وأنا أثرثر هكذا. لا بد أنك تشعرين بالبرد والإرهاق. سوف أدعك تخلدين إلى النوم.

لم يكن ذلك صحيحًا. ليس بعد الآن. لم أكن أشعر بالبرد، وفجأة، كنتُ أبعد ما يكون عن الشعور بالإرهاق أيضًا. ما أردته هو تناول مشروب معه، ويُفضل أن يكون أقوى مشروب ممكن. لم أكن أتناول المشروبات الكحولية عادة، لكن كان على طرف لساني أن أذكر زجاجة السكوتش الموجودة في خزانة المطبخ. إلا أنني كنت أعرف إن فعلت ذلك، فسأبدأ شيئًا في غاية الحماقة حقًّا، شيئًا قد لا أتمكن من إيقافه.

قلت أخيرًا:

ـ حسنًا. ربما تكون هذه نصيحة جيدة. شكرًا لك، يا جاك.

وقفت، وفعل ذلك هو الآخر، ووضع كوب شايه وهو يتمطى، حتى سمعت طقطقة مفاصله، وظهر جزء صغير من بطنه المشدود بين طرف قميصه وحزامه.

بعد ذلك، فعلت شيئًا فاجأني أنا نفسي. شيئًا لم أكن أنتوي فعله، حتى اللحظة التي وجدت نفسي أفعل فيها ذلك.

وقفت على أطراف أصابعي، وجذبت كتفه نحوي، وقبَّلت وجنته. شعرت برقة جلده، وبخشونة لحيته التي لم يحلقها منذ يوم تحت شفتي، وبدفئه. وأحسست بشيء في أعماقي يتقلص من الرغبة.

عندما تراجعت إلى الوراء، كانت ملامحه خالية من التعبير من أثر المفاجأة، وظننت للحظة أنني ارتكبت خطأ فادحًا، واشتد تقلص معدتي إلى حد الغثيان. لكن بعد ذلك، انفرج فمه في ابتسامة عريضة، وانحنى وبادلني القبلة برقة شديدة، وشفتاه دافئتان وناعمتان للغاية على وجنتي.

ـ ليلة سعيدة، يا روان. هل أنت متأكدة أنك ستكونين بخير الآن؟ ألا تحتاجين إلى أن... أبقى؟

كانت هناك وقفة متناهية الصغر قبل تلك الكلمة الأخيرة.

ـ أنا متأكدة.

أومأ، ثم استدار ورحل من باب غرفة المرافق.

أغلقته خلفه، ودار المفتاح مُصدرًا تكة مُطَمئنة، ثم أعدت المفتاح إلى مكانه، ووقفت أراقب هيئته مقابل الضوء المتدفق من نوافذ الإسطبل، وهو يسير عائدًا إلى شقته الصغيرة. بينما هو يصعد الدرج المؤدي إلى بابه الأمامي، استدار ورفع يده في وداع، ومع أنني لم أكن متأكدة ما إذا كان سيتمكن من رؤيتي في الظلام، فقد رفعت يدي في المقابل.

ثم رحل، وأغلق الباب خلفه، وانطفأ الضوء الخارجي، مخلفًا وراءه ظلامًا دامسًا صادمًا. بقيت أنا واقفة هناك وجلدي يرتجف، وأنا أقاوم الرغبة في أن ألمس بأطراف أصابعي موضع خدي الذي لامسته شفتاه.

لم أعرف ما الذي كان يقصده عندما عرض البقاء. ما الذي كان يأمله، ويتوقعه.

لكنني عرفت ما كنت أريده أنا. وكنت أدري أنني أوشكت للغاية على إبداء الموافقة.

أعرف ما الذي تفكر فيه، يا سيد ريكسام. لا شيء من هذا يساعد قضيتي. وهذا هو ما اعتقده السيد جيتس أيضًا.

لأننا نعرف أين يقودنا هذا، أنا وأنت، أليس كذلك؟

يقود إليَّ، وأنا أتسلل من المنزل في ليلة صيفية ممطرة، وجهاز مراقبة الأطفال في إحدى يديَّ، راكضة عبر الفناء، وأعلى السلم المؤدي إلى شقة الإسطبل.

وإلى جثة طفلة ممددة... لكن لا. لا يمكنني التفكير في ذلك، وإلا سأبدأ في البكاء مرة أخرى. وإذا فقدت السيطرة على نفسك هنا، فإنك حقًّا تفقدها، أعرف ذلك الآن. لم أكن أعلم من قبل أن هناك طرقًا كثيرة للغاية للتعامل مع الألم الذي لا يطاق، لدرجة أنه لا يمكن تحمله، لكنني رأيتها جميعًا هنا. النساء اللاتي تقطعن جلودهن، وتنتزعن شعورهن، وتلطخن زنازينهن بالدم والبراز والبول. أولئك اللاتي يستنشقن المخدرات ويحقنَّها ويدخنَّها من أجل السلوان. اللاتي ينمن وينمن وينمن، ولا ينهضن من الفراش على الإطلاق، ولا حتى من أجل الوجبات، حتى يصبحن لا شيء سوى عظام، وجلد رمادي، ويأس.

لكن يجب أن أكون صادقة معك، هذا هو ما لم يفهمه ـ لم يستطع أن يفهمه ـ السيد جيتس. كان تمثيل دور هو ما أوصلني إلى هنا في المقام الأول. روان، المربية المثالية بستراتها المحبوكة ذات الأزرار المغلقة، وابتسامتها الملتصقة على وجهها، وسيرتها الذاتية المثالية، لم يكن لها وجود قَطُّ، وأنت تعرف ذلك. كان هناك شخص مختلف للغاية خلف ذلك المظهر الأنيق

المبتهج، امرأة تدخن وتتناول الشراب وتُطلق السباب، وكانت يدها تتوق لتوجيه الصفعات في أكثر من مناسبة. حاولت أن أخفيها، وأن أطوي قمصاني بنظام، في حين كانت رغبتي الداخلية إلقاءها على الأرض، وأن أبتسم وأومئ بينما كنت أريد أن أقول لآل إلينكورت أن يذهبوا إلى الجحيم. وعندما أخذتني الشرطة لاستجوابي، أرادني السيد جيتس أن أستمر في التظاهر، وفي إخفاء شخصيتي الحقيقية. لكن إلى أين أوصلني ذلك التظاهر؟ إلى هنا.

يجب أن أقول الحقيقة، الحقيقة كاملة، ولا شيء سوى الحقيقة. لأن إغفال تلك الأجزاء سيكون أقل من الحقيقة كاملة. إخبارك بالأجزاء التي تبرئني فقط، سيجعلني أنزلق إلى الفخ القديم. لأن الأكاذيب هي التي أوصلتني هنا في المقام الأول. ويجب أن أصدق أن الحقيقة هي التي سوف تطلق سراحي.

كنت قد نسيت في أي يوم كنا، عندما استيقظت. عندما رن جرس ساعتي المنبهة، أصخت السمع لصوت الأطفال بإرهاق، وحين لم يستقبلني سوى الصمت، ضغطت زر الإغفاء وعدت إلى النوم. رن مرة أخرى بعد عشر دقائق، وظننت هذه المرة أن بوسعي سماع صوت آتٍ من الطابق السفلي. بعد أن استلقيت هناك لعشر دقائق إضافية، وأنا أهيئ نفسي لليوم، أنزلت ساقيَّ من الفراش ووقفت مترنحة، شاعرة بالدوار من قلة النوم. ثم نزلت إلى المطبخ ولم أجد مادي وإيلي، بل جين ماكنزي وهي تغسل الأطباق، ويبدو عليها الاستهجان.

قالت عندما دخلتُ الغرفة، وأنا أفرك عينَي وأتوق إلى القهوة:

ـ ألم تستيقظ الطفلتان بعد؟

هززت رأسي.

ـ نعم، كانت لدينا...

ما الذي يجب أن أقوله؟ فجأة، لم أستطع حمل نفسي على رواية الحكاية بأكملها. في النهاية، أكملت قائلة:

ـ ليلة مضطربة بعض الشيء. فكرت أن أدعهما تستيقظان متأخرًا.

ـ حسنًا، لا بأس بذلك في عطلة نهاية الأسبوع، لكن الساعة الآن ٢٥ , ٧، ويجب أن تغتسلا وترتديا ملابسهما، وأن تكونا داخل تلك السيارة في الساعة ١٥ , ٨.

الساعة ١٥ , ٨؟ أعدتُ التفكير، ثم أدركتُ الوضع. اللعنة.

ـ يا إلهي، إنه يوم الاثنين.

ـ أجل، وعليك أن تسرعي إذا كنت تريدين الوصول في الوقت المناسب.

ـ لن أذهب.

كانت مادي مستلقية على وجهها في فراشها، ويداها على أذنيها. بدأت أشعر باليأس. لم يكن الأمر متعلقًا بما سأقوله لساندرا إن لم أتمكن من إيصال الفتاتين إلى المدرسة، بل بكوني أحتاج إلى هذه الاستراحة. كنت قد حصلت بالكاد على ثلاث ساعات من النوم في الليلة الماضية. بوسعي التعامل مع رضيعة متعكرة المزاج. لم يكن بوسعي التعامل مع طفلتين في سن المدرسة الابتدائية أيضًا، ناهيك عن طفلة عنيدة ومتمردة مثل مادي.

ـ سوف تذهبين، وهذه هي نهاية النقاش.

ـ لن أذهب، ولا يمكنك إجباري.

ما الذي يمكنني قوله للرد على هذا؟ كان ذلك صحيحًا، في النهاية.

ـ إذا ارتديت ملابسك الآن، فسيتبقى وقت لتناول الكوكو بوبس.

وصلت الأمور إلى هذا الحد، إذن، رشوتها بقائمة الأطعمة المحظورة من ساندرا عند كل عقبة. لكن ذلك نجح مع إيلي، التي افترضتُ أنها كانت في الطابق السفلي الآن، وقد ارتدتْ ملابسها بصورة أو بأخرى (مع أنها لم تغتسل أو تتمشط)، وتتناول حبوب الإفطار مع جين.

ـ لا أريد كوكو بوبس. لا أحب كوكو بوبس. إنها للأطفال الصغار.

قلت بحدة:

ـ حسنًا، يبدو ذلك ملائمًا، نظرًا إلى أنك تتصرفين كالأطفال الصغار!

ثم ندمتُ عندما سمعتها تضحك.

فكرتُ: «لا تتفاعلي. لا تمنحيها تلك السيطرة عليك. عليك التزام الهدوء، وإلا ستعرف أنها تملك القدرة للتأثير فيك».

فكرتُ في العد حتى عشرة، ثم تذكرت «الواحد ونصف» المؤلمة منذ ليلتين مضتَا، وعدلت خططي على عجل.

ـ مادي، بدأتُ أشعر بالملل الشديد هنا. أقترح أن ترتدي زيك المدرسي، ما لم تريديني أن أصحبك إلى المدرسة بملابس نومك.

لم تقل شيئًا، وفي النهاية تنهدتُ.

ـ حسنًا إذن، إذا كنت تريدين التصرف كالأطفال الصغار، فسأضطر إلى معاملتك كطفلة صغيرة، وأُلبسك ثيابك كما أفعل مع بيترا.

حملتُ الملابس وتقدمت ببطء من الفراش، على أمل أن بعض التحذير قد يحفزها للنهوض سريعًا وارتداء ملابسها، لكنها ظلت مستلقية هناك، وجعلت جسدها مرتخيًا وثقيلًا بقدر استطاعتها، حتى صرخ ظهري احتجاجًا حين شرعت ألبسها ثيابها عنوة. كانت مرتخية مثل دمية من القماش، لكن أثقل مائة مرة، وعندما تراجعتُ أخيرًا كنت أتنفس بقوة. كانت تنورتها منحرفة، وشعرها مشعثًا حيث سحبتُ القميص على رأسها، لكنها كانت مرتدية ملابسها بطريقة أو بأخرى، بالمعنى الوارد لذلك.

أخيرًا، أدركتُ أنني يمكنني استغلال سلبيتها، فسحبت جوربًا على كل قدم، ثم حشرتُ حذاءها المدرسي في قدميها.

قلت، وأنا أحاول إبعاد نبرة الانتصار عن صوتي:

ـ ها قد ارتديت ملابسك. أحسنت يا مادي. الآن، سأكون في الطابق السفلي أتناول الكوكو بوبس مع إيلي، إن أردت الانضمام إلينا. وإلا سأراك في السيارة خلال خمس عشرة دقيقة.

قالت متخشبة، ولا شيء يتحرك فيها سوى فمها:

- لم أغسل أسناني.

أطلقت ضحكة.

- أنا لا أكترث...

أوقفتُ نفسي في الوقت المناسب، وأعدتُ الصياغة.

- على الإطلاق. لكن لو كنت منزعجة...

ذهبتُ إلى الحمام في الرواق، ووضعتُ بعض معجون الأسنان على طرف الفرشاة، منتوية ترك الأمر لها فيما إذا كانت ستغسل أسنانها. لكن عندما عدتُ ممسكة بالفرشاة، كانت جالسة على فراشها.

قالت وصوتها يكاد يكون طبيعيًا، بعد خبثها وتجهمها قبل بضع دقائق:

- هل ستغسلين لي أسناني؟

عبستُ. ألم تكن أكبر سنًا في الثامنة، من أن يغسل لها أحدهم أسنانها؟ ما الذي ذكره الملف؟ لم أستطع أن أتذكر.

أخيرًا قلت:

- إممم... حسنًا.

فتحتْ فمها مثل طائر صغير مطيع، وأدخلتُ فرشاة الأسنان، لكنني لم أفرك أسنانها بالفرشاة لأكثر من بضع ثوانٍ، حتى لوت رأسها بعيدًا عن الفرشاة، وبصقتْ في وجهي تمامًا، وانزلقتْ كتلة من البلغم الأبيض برائحة النعناع على وجهي وشفتي، وعلى قميصي.

لم أتمكن من الحديث للحظة، ولم أستطع أن أقول شيئًا، وبعد ذلك، قبل أن تسنح لي الفرصة في التفكير فيما أفعله، اندفعتْ يدي لتصفع وجهها.

جفلتْ، ومنعت نفسي بما شعرت وكأنه جهد خارق، ويدي على بعد بوصات من وجهها، وأحسست بأنفاسي متسارعة وخشنة في صدري.

التقت عيناها عينَي، وأخذت تضحك، من دون بهجة على الإطلاق، نوع من كركرة السعادة الخالية من المرح، جعلتني أرغب في الهروب منها.

كان جسدي بأكمله يرتجف من أثر الأدرينالين، وكنت أدرك كم أوشكت

على فقدان السيطرة على نفسي، وصفع تلك الابتسامة على وجهها الصغير الماكر. لو كانت طفلتي، لفعلتها من دون شك. كان غضبي حارًّا ومطلقًا.

إلا أنني منعت نفسي. منعت نفسي بالفعل.

لكن هل سيبدو الأمر كذلك على الشاشة، لو كانت ساندرا تراقب؟

لم أستطع الوثوق بنفسي كي أتحدث. بدلًا من ذلك، تركت مادي على الفراش، تضحك تلك الضحكة الخشنة الخالية من البهجة، وسرت إلى الحمام مرتجفة، وأنا لا أزال أمسك بفرشاة الأسنان. وبيد مرتعشة، مسحت معجون الأسنان من وجهي وصدري، وشطفت فمي من نقط البصاق.

ثم وقفت فوق الحوض، وتركت الصنبور مفتوحًا، وكل يد من يديَّ على أحد جانبَي الحافة الخزفية، شاعرة بجسدي كله يرتجف من البكاء المكتوم.

ـ روان؟

أتى النداء من الطابق السفلي، خافتًا من صوت الماء الجاري، ولهاثي الباكي. كانت جين ماكنزي.

ـ جاك جرانت في الخارج، مع السيارة.

تمكنت من الرد، آملة ألا يفضح صوتي دموعي:

ـ أنا... أنا قادمة.

ثم رششت وجهي بالماء وجففت عيني، وسرت عائدة إلى غرفة النوم حيث كانت مادي تنتظر.

قلت وأنا أحافظ على ثبات صوتي بقدر استطاعتي:

ـ حسنًا، يا مادي. حان وقت المدرسة. جاك في الخارج مع السيارة، دعينا لا نبقيه منتظرًا.

ولصدمتي اللامتناهية، نهضتْ بهدوء، والتقطتْ حقيبتها المدرسية، وتوجهتْ إلى السلم.

قالت من دون أن تستدير:

ـ هل يمكنني تناول موزة في السيارة؟

ووجدت نفسي أومئ، وكأن شيئًا لم يحدث.

قلتُ وأنا أسمع صوتي في أذني باردًا وخاليًا من المشاعر:

ـ أجل.

ثم فكرتُ أنني يجب أن أقول شيئًا، ولا يمكنني أن أترك هذا يمر.

ـ مادي، بخصوص ما حدث للتو، لايمكنك البصق على الناس هكذا. هذا مقزز.

ـ ماذا؟

الفتتْ لتنظر إليَّ، ووجهها نموذج للبراءة المجروحة.

ـ ماذا؟ لقد سعلت. كان الأمر رغمًا عني.

ثم ركضتْ هابطة باقي الدرج، وخرجتْ إلى السيارة المنتظرة، كما لو أن الصراع المرير خلال العشرين دقيقة الماضية لم يكن شيئًا سوى من نسج مخيلتي.

وجدت نفسي أتساءل عمن انتصر في تلك المواجهة، حين تفقدتُ مقعد سيارة بيترا وربطت حزامي في الأمام بجوار جاك. ثم طرأ لي كم كانت هذه الديناميكية فاسدة حقًا، وأن علاقتي بهذه الفتاة الصغيرة المتضررة لم تكن تدور حول الاهتمام وتقديم الرعاية، بل الانتصار والسيطرة والحرب.

لا. بصرف النظر عن محصلة ذلك الموقف، فأنا لم أفُز. لقد خسرت في اللحظة التي سمحت فيها لمادي بتحويل الأمر إلى معركة.

لكنني لم أضربها. مما يعني أنني، حتى لو لم يكن هناك أي شيء آخر، قد انتصرت على أسوأ غرائزي.

لم أدع الشياطين تفوز. ليس هذه المرة.

عندما أُغلقت بوابة المدرسة، شعرت بنوع من الارتياح الواهن يغمرني، لدرجة أنني كدت أهوي على الرصيف وظهري مستند إلى السور الحديدي، ووجهي بين يديَّ.

لقد فعلتُها. لقد فعلتها. ومكافأتي الآن هي خمس ساعات من شيء ما يقارب الاسترخاء. كانت بيترا لا تزال معي بالطبع، لكن خمس ساعات بصحبتها لم تكن شيئًا يقارن بتعاسة إيلي المزعجة، وحملة مادي المريرة للانتقام.

بقيتُ منتصبة بطريقة ما، وسرت عائدة ودرت حول الناصية إلى الشارع الجانبي، حيث كان جاك ينتظر في السيارة مع بيترا.

سأل، بينما أنا أفتح باب السيارة، وأنزلق كي أجلس بجانبه:

ـ هل نجحت؟

وشعرت بابتسامة عريضة تشق وجهي، وأنا عاجزة عن إخفاء شعوري بالارتياح.

ـ أجل. سوف تظلان خلف القضبان خلال الساعات القليلة المقبلة، على أي حال.

قال بارتياح، وهو يضغط على دواسة السرعة، حتى انزلقنا مبتعدين عن حافة الرصيف بذلك الطنين الخافت على نحو مثير للأعصاب، والذي بتُّ أتوقعه من السيارة:

ـ أرأيت؟ إنك تؤدين عملًا رائعًا.

قلت بشيء من المرارة:

ـ لا أتفق معك في هذا. لم أكن واثقة ما إذا كنت سأنجح في جعل مادي تخرج إلى السيارة، كي أكون صادقة. لكنني نجحت في الصمود لصباح يوم آخر، وربما يكون هذا هو المهم.

سأل جاك بأسلوب عملي، بينما نحن نتوجه إلى وسط المدينة الصغيرة التي تقع فيها مدرسة البنات الابتدائية:

ـ ما الذي تريدين فعله الآن؟ يمكننا العودة إلى المنزل مباشرة، لو كانت لديك أعمال يتعين إنجازها، أو يمكننا التوقف لتناول القهوة إذا شئت، وبوسعي أن أريك جزءًا بسيطًا من كارن بريدج.

ـ ستكون جولة صغيرة أمرًا رائعًا. لم تسنح لي الفرصة حقًّا لرؤية أي شيء تقريبًا، بخلاف «هيذربراي»، ولقد بدت كارن بريدج جميلة للغاية عندما مررنا خلالها.

ـ أجل، إنه مكان صغير لطيف. وبه مقهى جيد أيضًا، يدعى «باريتش بوت». إنه يقع عند الطرف الآخر من القرية، لكن لا تتوفر كثير من الأماكن لركن السيارة هناك، لذا سأوقف السيارة عند الكنيسة، ويمكننا السير بطول الشارع الرئيسي، وسأريكِ ما يمكن مشاهدته.

بعد عشر دقائق، غالبتُ بيترا حتى أجلستها في عربتها، وشرعنا نسير عبر الشارع الرئيسي في كارن بريدج، وجاك يشير إلى المحلات التجارية والحانات، ويومئ برأسه إلى المارة بين حين وآخر. كان مكانًا صغيرًا جذابًا، مبنيًّا على نطاق أصغر نوعًا ما عما كنت تتوقعه عن بعد، والمباني الجرانيتية أكثر أناقة وأضيق مما كانت تبدو عليه من مسافة بعيدة. رأيت أنه كانت هناك محلات تجارية خالية أيضًا. كان أحدها محل جزارة في السابق، وآخر بدا كأنه كان لبيع الكتب أو القرطاسية. أومأ جاك برأسه عندما أشرت إليهما.

ـ هناك كثير من المنازل الكبيرة حولنا، لكن المتاجر الصغيرة لا تزال

تواجه المصاعب. المتاجر السياحية أحوالها على ما يرام، لكن الأماكن الصغيرة لا تستطيع منافسة أسعار السوبر ماركت.

كان «باريتش بوت» مقهى صغيرًا أنيقًا على الطراز الفيكتوري، عند نهاية الشارع الرئيسي، وكان به جرس نحاسي أصدر رنينًا عندما فتح جاك الباب، وأمسكه لي كي أتمكن من المناورة، وإدخال عربة بيترا عبر عتبته.

في الداخل، خرجت امرأة ذات مظهر أمومي من خلف الطاولة للترحيب بنا.

ـ جاكي جرانت! حسنًا، لقد مرت فترة طويلة منذ آخر مرة أتيت إلى هنا لتناول قطعة من الكعك. كيف حالك يا عزيزي؟

ـ أنا بخير، يا سيدة أندروز، شكرًا لك. وكيف حالك أنت؟

ـ أوه، حسنًا، لا أستطيع الشكوى من شيء. ومن تكون صديقتك؟

وجهت إليَّ نظرة لم أتمكن من فهمها تمامًا. كان بها شيء... حسنًا، ماكر هي أقرب كلمة يمكنني العثور عليها لوصفها، وكأنها كانت تريد قول المزيد، إلا أنها امتنعت عن ذلك. ربما كان مجرد حب استطلاع تقليدي. أردت أن أدير عينيَّ في محجريهما. لم نعُد في خمسينيات القرن الماضي. بالتأكيد من المسموح أن يتناول الرجال والنساء فنجانًا من الشاي من دون أن تنتشر الشائعات، حتى في مكان صغير مثل كارن بريدج.

قال جاك ببساطة:

ـ أوه، هذه روان. روان، هذه هي السيدة أندروز التي تدير المقهى. روان هي مربية الأطفال الجديدة في «هيذربراي»، يا سيدة أندروز.

قالت السيدة أندروز، وهي تبتسم وقد لانت ملامحها:

ـ أوه، هذه أنت إذن يا عزيزتي. لقد أخبرتني جين ماكنزي بالفعل، وسقط الأمر من ذهني تمامًا. حسنًا، إنه لمن دواعي سروري أن أقابلك. لنأمل أن تكون لديك قوة للبقاء، أكثر من الفتيات الأخريات.

جازفتُ قائلة:

ـ سمعت أنهن لم يستمررن لفترة طويلة.

ضحكت السيدة أندروز، وهزت رأسها.

ـ لا، لم يستمرون بالفعل. لكنك لا تَبدين من النوع الذي يخاف بسهولة.

فكرتُ في كلماتها، بينما أنا أفك مشابك حزام عربة بيترا، وأضعها في المقعد المرتفع الذي جلبه جاك من مؤخرة المقهى. هل كان ذلك صحيحًا؟ كنت سأقول ذلك منذ بضعة أيام مضت. لكن الآن، عندما تذكرت نفسي وأنا راقدة متصلبة وأرتعد في الفراش، أستمع إلى صرير... صرير... وقع الأقدام من فوقي، لم أكن متأكدة تمامًا.

قلت أخيرًا بعد أن طلبنا ما نريده، وبينما نحن في انتظار مشروباتنا:

ـ جاك، هل تعرف ما الذي يقع أعلى غرفة نومي؟

ـ أعلى غرفة نومك؟

بدا مندهشًا.

ـ لا، لم أكن أعلم بوجود طابق آخر بالأعلى هناك. هل هو دور علوي للتخزين، أم غرفة علية حقيقية؟

ـ لا أدري. لم أصعد هناك من قبل. لكنَّ هناك بابًا مغلقًا في غرفتي، أفترض أنه يقود إلى هناك، و... حسنًا...

ازدردت ريقي، وأنا غير متأكدة من كيفية صياغة هذا.

ـ ظننت... حسنًا، لقد سمعت بعض الأصوات الغريبة بالأعلى هناك منذ ليلتين.

سأل، وهو يرفع أحد حاجبيه:

ـ جرذان؟

وهززت كتفي، وأنا محرجة للغاية من قول الحقيقة.

ـ لا أدري. ربما. لكن ربما لا. بدا وكأنه...

ازدردت ريقي مرة أخرى، وأنا أحاول عدم نطق الكلمة التي تحوم على طرف لساني... بشري.

ـ أكبر.

ـ إنهم يصدرون ضجيجًا رهيبًا في أثناء الليل، أو على الأقل لديهم القدرة على ذلك. لديَّ مجموعة من المفاتيح في مكان ما، هل تريدينني أن أجرب بعد ظهر هذا اليوم؟

ـ أشكرك.

كان هناك نوع من الشعور بالارتياح في مشاركة مخاوفي، لكن بحذر، مع أنني أحسست بالحماقة بعض الشيء حينها، وقد غادرت الكلمات شفتي. فما الذي كنت سأعثر عليه بالأعلى هناك في النهاية، سوى الغبار والأثاث القديم؟ لكن الأمر لن يضر، وربما كان هناك تفسير بسيط: نافذة تُركت مفتوحة، أو كرسي قديم يهتز أمام تيار الهواء، أو مصباح يتأرجح بفعل النسيم.

ـ هذا كرم منك حقًّا.

ـ هاكما الآن.

أتى الصوت من خلفنا، واستدرت لأرى السيدة أندروز وهي تحمل فنجانين من القهوة، كابوتشينو حقيقي أعده إنسان، بدلًا من تطبيق لعين. رفعتُ فنجاني إلى شفتي، وارتشفت رشفة طويلة ساخنة، وشعرت بها تحرق حلقي من الداخل، وتدفئ أحشائي. ولأول مرة منذ بضعة أيام، أحسست بالثقة تعود إليَّ.

قلت للسيدة أندروز:

ـ هذا رائع، شكرًا لك.

وابتسمتْ بارتياح.

ـ أوه، على الرحب والسعة. أعتقد أنه لا يضاهي الماكينة الفاخرة التي يمتلكها السيد والسيدة إلينكورت في «هيذربراي»، لكننا نفعل أفضل ما في وسعنا.

قلت بضحكة، وأنا أفكر في شعوري بالارتياح للتعامل مع إنسان حقيقي على سبيل التغيير:

ـ لا، على الإطلاق. في الواقع، فإن ماكينة صنع القهوة الخاصة بهما فاخرة أكثر مما يجب بالنسبة إليَّ. لا يمكنني التعامل معها.

ـ تبعًا لما تقوله جين ماكنزي، فإن المنزل بأكمله على هذا النحو إلى حد ما، أليس كذلك؟ تقول إن المرء يخاطر بحياته، وهو يحاول إشعال الأنوار.

ابتسمت، وأنا أتبادل نظرة سريعة مع جاك، لكنني لم أقل شيئًا.

قالت السيدة أندروز في النهاية:

ـ حسنًا، لا يتواءم ما فعلاه بالمنزل مع ذوقي الشخصي، لكن على الأقل من الجيد أنهما اشتريا المكان.

مسحتْ يديها بمئزرها.

ـ لا يوجد الكثير هنا ممن كانوا سيُقدِمون على ذلك، مع تاريخه هذا.

ـ أي تاريخ؟

رفعتُ رأسي بدهشة، وهشتْ هي بيدها.

ـ أوه، لا تنصتي إليَّ. أنا مجرد امرأة عجوز ثرثارة. لكنْ هناك شيء ما بخصوص ذلك المنزل، كما تعلمين. لقد سلب حياة أكثر من طفل. لم تكن ابنة الطبيب الصغيرة هي الأولى، بأي حال من الأحوال.

ـ ما الذي تعنينه؟

تناولت رشفة أخرى من القهوة، وأنا أحاول تهدئة القلق المتصاعد بداخلي.

قالت السيدة أندروز:

ـ في الماضي عندما كان يطلق عليه منزل ستروان...

خفضتْ صوتها.

ـ كان آل ستروان أسرة عريقة للغاية، ولم يكونوا...

زمت شفتيها بتزمت.

ـ حسنًا، لم يكونوا في كامل قواهم العقلية في النهاية. قتل أحدهم زوجته

وطفله، أغرقهما في الحمام. وعاد آخر من الحرب، وأطلق على نفسه الرصاص من بندقيته الخاصة.

يا إلهي. تذكرت فجأة حمام الأسرة المجهز على نحو فاخر في «هيذربراي»، بحوض الاستحمام الضخم والبلاط المغربي. لا يمكن أن يكون حوض الاستحمام نفسه، لكن من الممكن تصور أن تكون هي الغرفة نفسها.

قلت، وأنا أشعر بعدم الارتياح:

ـ سمعت أنه كان هناك... حادث تسمم.

وأومأتْ برأسها.

ـ أجل، كان ذلك هو الطبيب، الدكتور جرانت. جاء إلى المنزل في الخمسينيات، بعد أن باعه آخر آل ستروان، وانتقلوا للإقامة عبر الحدود. لقد سمم ابنته الصغيرة، أو هكذا يقال. سيقول لك بعضهم عن طريق الخطأ، والبعض الآخر...

لكنها قطعتْ حديثها. كان عميل آخر قد دخل، مما جعل الجرس أعلى الباب يصدر رنينًا. فردت السيدة أندروز مئزرها، واستدارت بابتسامة.

ـ لكن هأنذا أتمادى في الثرثرة. إنها مجرد شائعات تافهة وخرافات. يجب ألا تعيريها اهتمامًا. حسنًا، مرحبًا كارولين. ما الذي يمكنني أن أجلبه لك هذا الصباح؟

بينما هي تبتعد لتخدم عميلتها الأخرى، راقبتها وهي تمضي، متسائلة عما كانت تعنيه. لكنني نفضت صدمتي بعد ذلك.

كانت محقة. لم تكن بالفعل سوى مجرد خرافات. كل المنازل التي تفوق عمرًا معينًا شهدت الوفيات والمآسي، ولم تكن وفاة طفلة في «هيذربراي» تعني شيئًا.

لكن مع ذلك، رنت كلمات إيلي في رأسي، وأنا أثبت صدرية بيترا تحت ذقنها بشكل أكثر إحكامًا، وأخرج علبة كعك الأرز.

كانت هناك فتاة صغيرة أخرى.

عدنا إلى منزل «هيذربراي» عبر الطريق الطويل، وقدنا ببطء بجوار المجاري المائية الداكنة كالخث، وعبر غابات الصنوبر المرقطة بالشمس. غفت بيترا في الخلف، بينما أشار جاك إلى المعالم المحلية: قلعة مهدمة، وحصن مهجور، ومحطة فيكتورية أخرجها بيتشينج من الخدمة. كانت الجبال تلوح في الأفق، وحاولت متابعة القمم التي ذكر جاك أسماءها.

سأل، بينما كنا ننتظر عند تقاطع مع الطريق الرئيسي حتى تمر شاحنة:

ـ هل تحبين التمشية في التلال؟

وأدركت أنني لا أعرف الجواب عن سؤاله.

ـ أنا... حسنًا، في الحقيقة لست متأكدة. لم أفعل ذلك من قبل. أنا أحب التمشية، على ما أعتقد. لماذا؟

ـ أوه... حسنًا...

كان هناك تردد مفاجئ في صوته، وعندما ألقيت نحوه نظرة جانبية، كانت وجنتاه متوردتين.

ـ لقد ظننت فحسب... أتعرفين... بعد عودة ساندرا وبيل، وعندما تصيرين حرة في نهايات الأسبوع مرة أخرى، ربما نستطيع... يمكنني اصطحابك أعلى أحد الجبال. إذا أعجبتك الفكرة.

قلت:

ـ أنا... إنها تروق لي.

ثم جاء دوري أنا حتى يتضرج وجهي حمرة.

ـ تعجبني الفكرة حقًا. أعني، إذا لم تمانع كوني بطيئة... أعتقد أنني سأضطر إلى شراء حذاء، وبعض الأشياء.

ـ سوف تحتاجين إلى حذاء جيد. ومعطف واقٍ من المطر. يمكن أن ينقلب الطقس بسرعة كبيرة في الجبل. لكن...

أصدر هاتفه صوت زقزقة صغيرة، ونظر إليه ثم عبس، وناوله لي.

ـ معذرة يا روان، هذا من بيل. هل لديك مانع من إخباري ما يقوله؟ لا أريد قراءته بينما أنا أقود، لكنه لا يرسل رسالة نصية عادة ما لم يكن الأمر عاجلًا.

ضغطتُ على النص الموجود على الشاشة الرئيسية، وأومض عرض مختصر للرسالة، كان هو كل ما يمكنني رؤيته من دون فتح الهاتف، لكنه كان كافيًا.

ـ جاك، أنا في حاجة ماسة إلى النسخ المطبوعة من ملفات بيمبرتون الليلة. برجاء ترك كل شيء آخر وإحضارها... هنا تنقطع الرسالة.

قال جاك:

ـ اللعنة.

ثم ألقى نظرة عبر مرآة الرؤية الخلفية وهو يشعر بالذنب، إلى حيث كانت بيترا مستغرقة في النوم.

ـ معذرة، لم أتعمد السباب، لكن ها قد ضاعت فترة ما بعد الظهيرة والمساء، ومعظم الغد أيضًا. كانت لديَّ خطط.

لم أسأل عن خططه. شعرت فقط بهجمة مفاجئة من... ليست الخسارة تحديدًا... ولا الخوف تمامًا أيضًا... لكنْ نوع من القلق عند إدراك أنه لن يكون موجودًا، وسأكون وحدي تمامًا مع الأطفال لمعظم الوقت طوال أربع وعشرين ساعة، حتى يقود جاك السيارة إلى هناك ويستريح، ثم يقود عائدًا.

أدركت أن ذلك يعني شيئًا آخر أيضًا، عندما خرجنا من نفق أشجار الصنوبر المعتم إلى ضوء شمس يونيو: إنه لا توجد إمكانية كي نجرب فتح باب غرفة العلية، حتى عودته.

رحل جاك بمجرد عودتنا تقريبًا. ومع أنني قبلت بامتنان عرضه باصطحاب

الكلبين معه كي يريحني من مسؤولية إطعامهما، وتمشيتهما علاوة على كل شيء آخر، إلا أن المنزل ساده شعور هادئ غير مألوف بعد رحيلهم جميعًا. أطعمت بيترا، ووضعتها في الفراش كي تنام وقت القيلولة، ثم جلست بعض الوقت في المطبخ الواسع، وأنا أطرق بأصابعي على سطح الطاولة الخرساني، وأراقب السماء المتغيرة خارج النوافذ المرتفعة. كان منظرًا رائعًا حقًا، وكان بوسعي في وضح النهار هكذا أن أرى لمَ قطع ساندرا وبيل المنزل إلى نصفين كما فعلا، مضحين بالعمارة الفيكتورية مقابل هذا الامتداد الشامل للتلال والمستنقعات.

مع ذلك، كان الأمر يخلف شعورًا غريبًا بعدم الأمان، بتلك الطريقة التي تبدو بها الواجهة ذات الأربعة مربعات أنيقة للغاية ولم تُمس، في حين أن الخلف انتُزع، كاشفًا عن المنزل من الداخل بالكامل. مثل مريض يبدو سليمًا بما يكفي من فوق ملابسه، لكن إذا رفعت قميصه، ستجد أن جروحه تُركت تنزف، من دون خياطة. كان هناك إحساس غريب بانقسام الهوية أيضًا، كما لو أن المنزل كان يحاول جاهدًا ليكون شيئًا ما، بينما سحبه بيل وساندرا بلا هوادة في الاتجاه الآخر، وقطعا أطرافه، وأجريا عملية قلب مفتوح على عظامه القديمة الجليلة، محاولين أن يصنعا منه شيئًا ضد إرادته، شيئًا لم يكن من المفترض قَطُّ أن يكونه: حديثًا وأنيقًا ولامعًا، حيث أراد أن يكون راسخًا ومتواريًا عن الأنظار.

لن يعجب ذلك الأشباح... سمعتها مرة أخرى بصوت مادي الرفيع الصغير، وهززت رأسي. الأشباح. يا لها من سخافة. مجرد حكايات شعبية وشائعات، ورجل عجوز حزين، يحيا هنا بعد وفاة طفلته.

فتحت هاتفي، لعدم وجود شيء آخر أفعله، أكثر من أي سبب آخر، وكتبت:

منزل «هيذربراي»، موت طفلة، حديقة سموم

كانت معظم النتائج الأولى غير ذات صلة، لكن مع استمراري في التمرير

للأسفل، وصلت أخيرًا إلى مدونة ذات اهتمامات محلية، كتبها مؤرخ هاوٍ من نوع ما.

> **ستروان**ـ منزل «ستروان» (أُعيدت تسميته الآن باسم «هيذربراي») بجوار كارن بريدج، في اسكتلندا، هو تحفة أخرى لمؤرخي الحدائق، لكونه يحوي واحدة من حدائق السموم القليلة المتبقية في المملكة المتحدة (مثال آخر هو المثال الشهير في قلعة «ألنويك» في نورثمبرلاند). زرعها في الأصل الكيميائي التحليلي كينويك جرانت في خمسينيات القرن الماضي، ويُعتقد أنها تحتوي على بعض أندر الأمثلة من النباتات المحلية وأكثرها سمِّية، مع التركيز الخاص على الأصناف المتوطنة في اسكتلندا. للأسف، تُركت الحديقة في حالة من الإهمال بعد موت إلسبيث، ابنة جرانت الصغيرة، التي توفيت عام ١٩٧٣ في سن الحادية عشرة، بعد أن تناولت إحدى نبتات الحديقة بطريق الخطأ، تبعًا للأسطورة المحلية. مع أنها في أوجها كانت تُفتح أحيانًا للباحثين وأفراد الجمهور، إلا أن الدكتور جرانت أغلق الحديقة تمامًا بعد وفاة ابنته. وبعد وفاته هو في عام ٢٠٠٩، بيع المنزل لمشترٍ خاص. منذ بيعه، أُعيدت تسمية «ستروان» ليصبح منزل «هيذربراي»، ويُعتقد أنه تعرض لإعادة تصميم على نطاق واسع. لا يُعرف ما تبقّى من حديقة السموم، لكن من المأمول أن يُقدر الملاك الحاليون الأهمية التاريخية والنباتية لهذا الجزء من التاريخ الاسكتلندي، وأن يحافظوا على إرث الدكتور جرانت بما يستحقه من احترام.

لم تكن هناك أي صور، لكنني عدت إلى جوجل، وكتبت:

> الدكتور كينويك جرانت

كان اسمًا غير شائع، وكانت هناك القليل من النتائج، لكن بدا أن معظم الصور التي ظهرت هي للرجل نفسه. كانت الأولى صورة بالأبيض والأسود لرجل يبلغ الأربعين من العمر ربما، بلحية أنيقة مشذبة على شكل عثنون، ونظارة صغيرة لها إطار من السلك، يقف أمام ما بدا كأنه البوابة المصنوعة من الحديد المشغول للحديقة المسورة التي دخلتها

بالأمس أنا ومادي وإيلي. لم يكن مبتسمًا. بدا وجهه وكأنه شخص لا يبتسم بسهولة، مع تعبير جاد بطبيعته في حالة الاسترخاء، لكن كان هناك نوع من الفخر في وقفته.

شكلت الصورة الثانية تباينًا محزنًا. كانت لقطة أخرى بالأبيض والأسود، من الواضح أنها للرجل نفسه، لكن هذه المرة كان الدكتور جرانت في الخمسينيات من عمره. كان تعبيره مختلفًا تمامًا، قناعًا مشوهًا من المشاعر، كان يمكن أن يكون حزنًا أو خوفًا أو غضبًا، أو مزيجًا من الثلاثة. بدا أنه يركض نحو مصور غير مرئي ويده ممدودة، إما كي يدفع الكاميرا بعيدًا، وإما ليحجب وجهه، لم يكن واضحًا أيهما. خلف لحيته الشبيهة بالعثنون، التوى فمه في تكشيرة مزمجرة جعلتني أجفل، حتى عبر الشاشة الصغيرة ومرور العقود.

كانت الصورة الأخيرة بالألوان، وبدت اللقطة وكأنها مأخوذة من بين قضبان بوابة. أظهرت رجلًا مسنًّا أحدب ومحنيًّا، يرتدي بدلة ورشة برتقالية، وقبعة عريضة الحواف ظللتْ وجهه. كان بالغ النحافة، لدرجة الهزال، ويتكئ على عصا، ونظارته سميكة ومضببة، إلا أنه كان يحدق بشراسة إلى الشخص الذي يلتقط الصورة، ويده الحرة مرفوعة في قبضة نحيلة، وكأنه يهدد المشاهد. نقرت على الصورة، محاولة اكتشاف سياق اللقطة، لكن لم يكن هناك أي شيء. كانت مجرد صفحة من بنتريست، من دون أي معلومات حول مكان العثور على الصورة. أشار التعليق على الصورة إلى:

الدكتور كينويك جرانت، ٢٠٠٢

بينما أنا أغلق الهاتف، كان الشعور الغالب عليَّ هو نوع من الحزن اليائس، على الدكتور جرانت، وعلى ابنته، وعلى هذا المنزل، حيث حدث كل شيء.

لم أعُد قادرة على الجلوس مع أفكاري في صمت أكثر من ذلك، فنهضت ووضعت جهاز مراقبة الأطفال في جيبي، وأخذت كرة من الخيط الخاص

بالطهي من الدرج بجوار الموقد، وغادرت المنزل من باب غرفة المرافق، متتبعة المسار الذي أطلعتني عليه الفتيات في اليوم السابق.

كانت شمس الصباح قد حُجبت، وشعرت بالبرد عندما وصلت إلى الطريق المرصوف بالطوب الذي يؤدي إلى حديقة السموم. كان من الغريب أن يفكر المرء أننا في شهر يونيو، حيث إنني كنت سأتعرق في لندن مرتدية التنانير القصيرة والقمصان التي من دون أكمام، وألعن تكييف الهواء الرديء في «ليتل نيبرز». أما هنا، في منتصف الطريق تقريبًا إلى الدائرة القطبية الشمالية، فبدأت أشعر بالندم لأنني لم آخذ معطفي. كان جهاز مراقبة الأطفال صامتًا في جيبي عندما وصلت إلى البوابة، ومرَّرت يدي من خلال الشبكة المعدنية، محاولة فتح القفل كما فعلت إيلي.

كان الأمر أكثر صعوبة مما أظهرتْه. لم يكن الأمر مجرد أن الفتحة في الحديد المشغول كانت أضيق من أن تناسب يدي بشكل مريح، بل كانت الزاوية أيضًا. حتى بعد أن حشرت يدي بالداخل، وأطلقت السباب عندما سلخ الصدأ الجلد عن براجمي، لم أستطع الوصول إلى القفل بأصابعي.

غيرت الوضع، وركعت على الحصى الرطب، وشعرت بالبرد يمر عبر القماش الخفيف لجواربي الشفافة، حتى تمكنت أخيرًا من الوصول إلى لسان المزلاج بطرف إحدى أصابعي. ضغطت، وضغطت أكثر... ثم انفتحت البوابة مُصدرة رنينًا، وكدت أسقط إلى الأمام على الطوب المتآكل.

كان من الصعب تصديق أنني أخطأتها بوصفها حديقة عادية. الآن وقد صرت أعرف تاريخها، بدت علامات التحذير في كل مكان. توت الغار الأسود المكتنز، وإبر شجر الطقسوس الرفيعة، وبقع متفرقة من قفاز الثعلب التي تناثرت بذورها ونَمت ذاتيًّا، ومجموعات من نبات القراص التي ظننتها حشائش ضارة عندما دخلت الحديقة لأول مرة، لكنها كانت كما رأيت حينها تحمل علامة معدنية صدئة مغروسة بعمق في التربة، مكتوبًا عليها القراص

الكبير. وكانت هناك أنواع أخرى أيضًا لم أتعرف عليها: نبات له زهور أرجوانية صارخة، وآخر مسح ساقي بإحساس يشبه الإبر الصغيرة. وبقعة من شيء ما يشبه المريمية، لكن لا بد أنه كان شيئًا مختلفًا تمامًا. وعندما دفعت باب سقيفة متداعية، كانت هناك كمية وفيرة من عيش الغراب والفطر لا تزال تنبت ببسالة في الظلام.

لم أستطع منع نفسي من الارتعاد، وأنا أسحب الباب بهدوء لأغلقه، وشعرت بالخشب الرطب وهو يحتك بالبلاط. كان هناك قدر كبير للغاية من السموم، بعضها مغرٍ، والبعض الآخر ليس كذلك. بعضها مألوف، وبعضها كنتُ على ثقة من أنني لم أرَها من قبل. بعضها في غاية الجمال، لدرجة أنني أردت أن أكسر غصنًا، وأضعه في إبريق في المطبخ، لكنني لم أجرؤ على ذلك. حتى النباتات المألوفة بدت غريبة ومشؤومة في هذا المحيط، حيث لم تعُد مزروعة من أجل زهورها وألوانها الجميلة، بل لكونها مميتة.

أحطت جسدي بذراعيَّ في أثناء سيري، كي أحمي نفسي جزئيًّا، لكن الحديقة كانت متضخمة للغاية لدرجة أنه كان من المستحيل تجنب الاحتكاك بالنباتات تمامًا. بدت لمسة الأوراق كالوخز على بشرتي، ولم أعُد قادرة على تحديد ما إذا كانت النباتات سامة عند اللمس، أم إذا كان الأمر محض ارتياب من جانبي تَسبب في شعور بشرتي بالحكة والوخز عندما احتككت بها خلال مروري.

لم ألحظ شيئًا آخر إلا عندما استدرت كي أرحل: مقص تقليم، قابعًا على الجدار المنخفض من الطوب المحيط بأحد الأحواض. كان جديدًا ولامعًا، وليس صدئًا على الإطلاق. وعندما نظرت إلى الأعلى، رأيت أن الشجيرة التي تعلو رأسي قد قُلمت، ليس بدرجة كبيرة، لكن بقدر يكفي لإفساح الطريق. وعلى مسافة أعلى، رأيت أن أحدهم استخدم قطعة من الدوبارة لتثبيت جزء متدلٍّ من نبات متسلق.

في الواقع، كلما أمعنت النظر، زدت ثقة من أن هذه الحديقة ليست مُهمَلة بالدرجة التي تبدو للعيان. كان شخص ما يعتني بها، ولم تكن مادي أو إيلي. لم يكن أي طفل ليفكر في تقليم ذلك الفرع المتدلي بعناية، بل كانوا سيكسرونه، أو ينحنون أسفله فحسب، في حال ما إذا كانوا طوالًا بما يكفي ليلحظوه.

من كان، إذن؟ ليست ساندرا. كنت على ثقة من ذلك. جين ماكنزي؟ جاك جرانت؟

تردد الاسم في رأسي بجرس غريب. جاك... جرانت.

لم يكن لقب أسرة غير شائع، خاصة هنا، لكن مع ذلك بدا الأمر لافتًا. الدكتور كينويك جرانت. هل يمكن حقًّا أن تكون مصادفة؟

بينما وقفت أتساءل، أصدر جهاز مراقبة الأطفال في جيبي صيحة تذمر صغيرة، مما أعادني إلى الواقع وتذكرت ما أتيت لأفعله هنا.

التقطت مقص التقليم، وأسرعت عائدة إلى البوابة، وأغلقتها خلفي بإحكام. جعل الرنين الصادر عنها وهي تنغلق سربًا من الطيور يرتفع إلى السماء من أشجار الصنوبر أعلى المنحدر، وبدا صداها يتردد عائدًا إليَّ من التلال المقابلة، لكنني كنت في عجلة من أمري حينها لأعيرها أي اهتمام.

أخرجت الخيط من جيبي، وقصصت قطعة طويلة، ثم وقفت على أطراف أصابعي، وبدأت ألفها حول الجزء العلوي من البوابة، فوق مستوى رأسي، حيث لا يمكن لأي طفل الوصول إليها، وجدلتها دخولًا وخروجًا من بين البوابة المزخرفة، وحول ساكف الباب المبني من الطوب بالأعلى، حتى استخدمت آخر جزء من الخيط، وصارت البوابة محكمة تمامًا. بعد ذلك، عقدته عقدة سهلة الفك، ولففت الأطراف حول أصابعي وشددت الخيط بإحكام، حتى تحولت أطراف أصابعي إلى اللون الأبيض.

أصدر جهاز مراقبة الأطفال في جيبي صيحة مرة أخرى، بعزم أكبر هذه المرة، لكنني بت واثقة الآن من أن البوابة مُحكمة، وأن لا شيء أقل من

سلم سيمكِّن مادي وإيلي من اقتحامها هذه المرة. أسقطت مقص التقليم في جيبي، والتقطت هاتفي، وضغطت أيقونة مكبر الصوت في تطبيق هابي.

ـ أنا قادمة، يا بيترا، اهدئي، اهدئي يا عزيزتي، لا داعي للبكاء، أنا قادمة.

وركضتُ عبر الطريق المرصوف بالطوب المؤدي إلى المنزل.

انشغلت في الساعات التالية مع بيترا، ثم بمحاولة اكتشاف طريقة قيادة «التيسلا» لجلب الفتاتين من المدرسة. كان جاك قد أخذ سيارة آل إلينكورت الثانية، وهي سيارة «لاندروفر»، حتى يذهب للقاء بيل، وأعطاني دورة تدريبية سريعة في قيادة «التيسلا» قبل رحيله، لكن كان لها طراز مختلف على نحو لا يمكن إنكاره، واستغرق مني الأمر بضعة أميال لاعتيادها. لم يكن بها دبرياج، ولا سرعات، وتتباطأ بشكل غريب في كل مرة ترفع فيها قدمك عن دواسة السرعة.

كانت كلتا الفتاتين متعبة بعد يومها في المدرسة. لم تقولا شيئًا بينما نحن نقود عائدين إلى المنزل، ومرت فترتا ما بعد الظهيرة والمساء من دون حوادث. تناولتا العشاء، وتناوبتا اللعب على الجهاز اللوحي، ثم ارتدتا مناميتيهما، وأوَتا إلى فراشيهما من دون صوت تقريبًا. عندما صعدت في الساعة الثامنة لأطفئ أنوارهما وأغطيهما، سمعت صوت شخص بالغ آتٍ عبر مكبرات الصوت.

ظننت في البداية أنهما تستمعان إلى كتاب صوتي، لكن بعد ذلك سمعت مادي تقول شيئًا ما، وصوتها الصغير غير واضح من خلال الباب، وأجاب الصوت المضخَّم عبر مكبرات الصوت:

ـ أوه، يا عزيزتي، أحسنت! عشرة من عشرة! أنا فخور بك للغاية. وماذا عنك، يا إيلي؟ هل كنت تتدربين على الهجاء أنت الأخرى؟

كانت ساندرا. كانت قد اتصلت بغرفة الأطفال، وكانت تحادثهما قبل أن تخلدا إلى النوم.

وقفت للحظة أحوم خارج الباب، ويدي على المقبض، أستمع إلى حديثهن، نصف آملة أن أسمع شيئًا عن نفسي، ونصف خائفة من ذلك.

لكن بدلًا من ذلك، سمعت ساندرا تطلب من الطفلتين أن تهدآ، وخفتتِ الأضواء، وشرعتْ تغني تهويدة.

كان هناك شيء حنون للغاية، وشخصي جدًّا في ذلك الفعل البسيط، وصوت ساندرا يتردد في النغمات العالية، ويتعثر في كلمة صعبة من كلمات الأغنية، حتى أحسست أنني كمن يسترق السمع. أردت أكثر من أي شيء آخر، أن أفتح الباب وأتسلل داخلة على أطراف أصابعي، وأحتضن مادي وإيلي، وأقبل جبهتيهما الصغيرتين الدافئتين، وأخبرهما كم هما محظوظتان لأن لديهما أمًّا كانت تريد على الأقل أن تكون موجودة هناك، حتى لو لم يكن بوسعها ذلك.

لكنني كنت أعرف أن ذلك من شأنه أن يكسر الوهم بأن والدتهما حاضرة بالفعل، وتراجعتُ. لو أرادت ساندرا الحديث معي، فلا ريب في أنها ستتصل في المطبخ في الأسفل، بعد انتهائها.

بينما أنا أتناول الطعام وأقوم بالترتيب، انتظرت صوتها، بعصبية بعض الشيء، وهو يطقطق عبر جهاز الاتصال الداخلي، إلا أنه لم يأتِ. بحلول الساعة التاسعة مساء، كان المنزل صامتًا، فأغلقتُ الأبواب، وأويت إلى الفراش بشعور وكأنني أمشي على قشور البيض.

بعد أن انتهيت من تنظيف أسناني وأطفأت الأنوار، استلقيت في الفراش، وأحسست بأطرافي وهي تؤلمني من أثر الإرهاق. كان هاتفي في يدي، لكن بدلًا من أن أوصله مباشرة بالكهرباء حتى يشحن وأنام، وجدت نفسي أبحث في جوجل عن الدكتور جرانت مرة أخرى.

حدقت إلى صورته لمدة طويلة، وأنا أفكر في كلمات السيدة أندروز في المقهى. كان هناك شيء ما بخصوص التباين بين تلك الصورة الأولى والأخيرة، يكاد يكون صادمًا. شيء ينم عن ليالٍ طويلة من الحزن والعذاب،

ربما حتى في هذه الغرفة ذاتها. كيف كان شعور الحياة هنا طوال تلك السنوات، والشائعات المحلية تدور حوله، وذكريات ابنته قاسية ومؤلمة للغاية؟

بالعودة إلى شاشة البحث، كتبت:

وفاة إلسبيث جرانت كارن بريدج

وانتظرت حتى ظهرت الروابط.

لم تكن هناك أي صورة، أو على الأقل لم أستطع العثور على واحدة. ولم تحظَ بنعي يُذكر، بل مجرد فقرة في صحيفة «كارن بريدج أوبزرفر» (التي توقفت عن الصدور الآن) تذكر أن إلسبيث جرانت، الابنة المحبوبة للدكتور كينويك جرانت والراحلة إيلسا جرانت، تُوفيت في مستشفى «سانت فينسينتس كوتيدج»، في يوم ٢١ أكتوبر، عام ١٩٧٣، في سن الحادية عشرة.

كان هناك مقال آخر موجز بعدها ببضعة أسابيع، هذه المرة في صحيفة «إنفرنيس جازيت»، يسجل نتائج تشريح الجثة والتحقيق في موت إلسبيث. بدا أنها تُوفيت بسبب تناول برونوس لوروسيراسوس، أو توت كرز الغار، الذي صُنعت منه المربى بطريق الخطأ. على ما يبدو أنه كان من السهل بالنسبة إلى الباحثين عن الطعام عديمي الخبرة الخلط بين توت كرز الغار والكرز أو البيلسان، وكان يُعتقد أن الطفلة جمعتها بنفسها وأحضرتها لمدبرة المنزل التي وضعتها في القِدر ببساطة من دون التحقق منها. لم يكن الدكتور جرانت نفسه يتناول المربى قَطُّ، مُفضلًا العصيدة والملح. ولم تكن مدبرة المنزل تعيش هناك، وكانت تتناول وجباتها في منزلها بالقرية. واستقالت مربية إلسبيث من منصبها قبل شهرين تقريبًا من الحادث، لذا كانت إلسبيث هي الشخص الوحيد الذي تناول السم. مرضتْ على الفور تقريبًا، وماتت بسبب فشل الأعضاء المتعدد، على الرغم من الجهود المضنية لإنقاذها.

صدر حكم بالقتل الخطأ، ولم تُوجَّه أي تهم نتيجة وفاتها.

إذن كانت إلسبيث هي الشخص الوحيد المُعرَّض لخطر تناول تلك المربى. كان بوسعي إدراك سبب ظهور الشائعات، مع أنه لم يكن من الواضح لمَ اختصتْ بالدكتور جرانت، وليس بمدبرة المنزل التي لم يُذكر اسمها. ربما كانت الحكاية هي أن السكان المحليين يعتنون بأمر مَن ينتمون إليهم. وماذا عن المربية؟ كانت قد استقالت «قبل شهرين فحسب»، تبعًا لكاتب المقال، الذي تمكن من وضع العبارة البسيطة بطريقة تجعلها تبدو بريئة وموحية في الوقت ذاته، لكن من المفترض أنها لم يكن لها علاقة بالحادث، وإلا كان ذلك سيُثار في التحقيق. وقد ذُكر غيابها فقط فيما يتعلق بحقيقة أن إلسبيث لم تكن خاضعة للإشراف في أثناء قطف التوت، وبالتالي، من خلال الاستدلال، كانت أكثر عرضة لاقتراف خطأ في التعرف على النباتات.

مع ذلك، كلما تأملت الفكرة، بدا أن هناك مشكلات أكثر فيما يتعلق بالاقتراح القائل إن إلسبيث جمعت التوت بطريق الخطأ. كنت طفلة تعيش في الضواحي في تسعينيات القرن الماضي، غير معتادة تمامًا قطفَ الفاكهة، وحتى أنا كانت لديَّ فكرة مبهمة عن شكل الغار، مقارنة بالبيلسان. هل يمكن لابنة خبير في السموم، لديه حديقة مغلقة مخصصة بشكل واضح للنباتات القاتلة، أن ترتكب مثل هذا الخطأ بالفعل؟

عند إعادة قراءة المقال، شعرت بموجة من التعاطف المفاجئ مع المربية، الحلقة المفقودة في القضية. لم يتم استجوابها. ولم يُذكر ما حدث لها. لكنها فوتت بفارق بضعة أسابيع فقط، احتمال التورط في فضيحة. ففي النهاية، أي مستقبل ينتظر مربية مات تحت رعايتها الطفل الذي هي مسؤولة عنه؟ مستقبل كئيب حقًّا.

لست متأكدة متى استغرقت في النوم أخيرًا، وهاتفي لا يزال في يدي، لكنني

أعرف أن الوقت كان متأخرًا جدًّا عندما انتزعني صوت مفاجئ من النوم. كان صوت رنين، مثل جرس الباب، وليس أحد أجهزة تنبيهي المعتادة. جلست وأنا أرمش وأفرك عيني، ثم أدركت أن الضوضاء صادرة عن هاتفي. حملقت إلى الشاشة. كان تطبيق هابي يومض. كُتب على الشاشة:

جرس الباب يدق.

صدر الصوت مرة أخرى، «بينج بونج» منخفضة، بدا أنها قادرة على تجاوز جميع إعداداتي الخاصة بعدم الإزعاج. أومضت رسالة عندما ضغطت على الأيقونة.

افتح الباب؟ تأكيد / إلغاء.

ضغطت «إلغاء» على عجل، ثم نقرت حتى وصلت إلى أيقونة الكاميرا. أظهرت إليَّ الشاشة منظرًا للباب الأمامي، لكن الضوء الخارجي لم يكن مشتعلًا، ولم أتمكن من رؤية شيء في حِمى الشرفة سوى العتمة المنقطة غير الواضحة. هل عاد جاك؟ هل نسي مفاتيحه؟ أيًّا كان، عندما دق جرس الباب للمرة الثالثة، كان بوسعي سماع الدقات تتردد قادمة عبر بيت الدرج، إلى جانب صوتها الصادر من هاتفي، وأدركت أن عليَّ أن أجيبه قبل أن يوقظ الضجيج الفتيات.

كانت الغرفة باردة بشكل غير طبيعي، وارتديت روبي قبل أن أخطو بهدوء إلى الطابق السفلي، ووقع قدمي خافت على السجادة السميكة، وأنا أشق طريقي وسط شبه عتمة، من دون أن أرغب في إشعال الضوء والمجازفة بإيقاظ الأطفال. عانيت لحظة صراع مع لوحة الإبهام في الردهة، ثم انفتح الباب بصمت ليكشف عن... لا شيء.

ساد الظلام تمامًا. كان مكان وقوف «اللاند روفر» لا يزال خاليًا، ولم تكن أي من مصابيح الأمان الحساسة للحركة حول الفناء مضاءة، مع أن ضوء الشرفة اشتعل ما إن تجاوزتُ العتبة، وقد أحس بوجودي. حميت عيني بكفي من وهجه القاسي، ونظرت عبر الفناء وأسفل الممر، وأنا أرتجف بعض

الشيء في هواء الليل البارد. لا شيء. لم تكن هناك أي أنوار مضاءة في شقة جاك أيضًا. هل تسبب شيء ما في تشغيله بطريق الخطأ؟

أغلقت الباب، وصعدت عائدة ببطء إلى غرفة نومي، لكنني كنت بالكاد في منتصف دورة الدرج الثانية، عندما دق الجرس مرة أخرى.

اللعنة.

بتنهيدة، شددت حزام روبي بقوة أكثر، وعدت إلى الطابق السفلي، مسرعة هذه المرة.

لكن عندما فتحت الباب، لم يكن هناك أحد مرة أخرى.

أغلقت الباب بقوة أكثر مما قصدت هذه المرة، وقد جعل الإرهاق غضبي يغلي للحظة، ووقفت في ظلام الردهة كاتمة أنفاسي، ومصيخة السمع لصوت من الطابق العلوي: ربما صوت عويل بيترا المتصاعد كصافرة الإنذار. لكن لم يأتِ شيء.

مع ذلك، بدلًا من العودة إلى غرفتي في الطابق العلوي هذه المرة، توقفت وألقيت نظرة على بيترا، وهي نائمة في سلام، ثم أطللت على غرفة مادي وإيلي. في الوهج الناعم لمصباحهما الليلي، استطعتُ أن أراهما مستغرقتين في النوم، وشعرهما المتعرق متناثر على الوسادة، وفماهما الملائكيان الصغيران مفتوحان، وغطيطهما الخافت يُقلق الهدوء بالكاد. بدت كلتاهما صغيرة وضعيفة للغاية في نومها، وانقبض قلبي بسبب غضبي حيال مادي في ذلك الصباح. قلت لنفسي إنني سوف أنجز عملًا أفضل غدًا، وإنني سأتذكر كم هي صغيرة، وكيف أن الأمر لا بد أن يكون مربكًا، نظرًا إلى كونها متروكة مع امرأة تعرفها بالكاد. في كلتا الحالتين، بدا من الواضح أن إحداهما لم تكن تعبث بجرس الباب، وأغلقتُ الباب بهدوء، وعدت في طريقي إلى غرفتي بالطابق العلوي.

كانت لا تزال باردة للغاية، وعندما أغلقت الباب خلفي، انتفختِ الستائر، وأدركت السبب. كانت النافذة مفتوحة.

عبست وأنا أسير عابرة الغرفة تجاهها.

كانت مفتوحة، وليس بدرجة قليلة فقط، وكأن شخصًا أراد تهوية الغرفة، بل مفتوحة تمامًا، وإطار النافذة السفلي مرفوع للأعلى لأقصى درجة ممكنة. تقريبًا ـ أتتِ الفكرة رغمًا عني ـ كما لو كان شخص ما يميل إلى الخارج لتدخين سيجارة، على الرغم من سخافة ذلك.

لا عجب أن الغرفة كانت باردة. حسنًا، على الأقل كان من السهل حل الأمر، أسهل من القتال مع لوحة التحكم على أي حال. قد تكون الستائر، والأبواب، والأنوار، والبوابات، وحتى ماكينة صنع القهوة في هذا المكان، تعمل بصورة آلية، لكن النوافذ على الأقل كانت لا تزال أصلية من العصر الفيكتوري، ويتم تشغيلها يدويًّا لحسن الحظ. حمدًا للرب.

جذبت إطار النافذة إلى الأسفل، وسحبتُ عبره المزلاج النحاسي، ثم أسرعت عائدة إلى ملاذ اللحاف الريش الذي كان لا يزال دافئًا، وأنا أرتجف على نحو ممتع بينما أستكين في ثناياه.

كنت أعود إلى النوم عندما سمعته... ليس جرس الباب هذه المرة، بل صرير واحد منفرد.

جلست في الفراش، ممسكة بهاتفي إلى صدري. اللعنة. اللعنة. اللعنة. اللعنة.

لكن الصوت التالي لم يأتِ. هل أخطأت السمع؟ هل كان شيئًا آخر غير وقع الخطوات الذي أيقظني في الليلة السابقة؟ ربما غصن في مهب الريح فحسب، أو لوح أرضي يتمدد؟

لم أستطع سماع أي شيء، سوى وشيش دمي في أذني، وفي النهاية استلقيت مرة أخرى ببطء، وأنا لا أزال قابضة على هاتفي في يدي، وأغلقت عيني في الظلام.

لكن حواسي كانت في حالة تأهب قصوى، وبدا النوم مستحيلًا. استلقيت هناك لأكثر من أربعين دقيقة، وأنا أحس بخفقان نبضي، وأستشعر أفكاري تتسابق بمزيج من الارتياب والخرافات الجامحة.

ثم صدر ثانية، كما كنت نصف خائفة من ذلك، ونصف منتظرة إياه.

صريبير...

ثم بعد وقفة قصيرة للغاية، صرير... صرير... صرير...

لم يكن هناك أدنى شك هذه المرة، كان صوت خطوات تذرع جيئة وذهابًا.

وثب قلبي إلى حلقي مترنحًا بنوع من الغثيان، وتسارع نبضي بدرجة كبيرة، حتى إنني اعتقدت للحظة أنني سأصاب بالإغماء، لكن بعد ذلك سيطر عليَّ الغضب. قفزت من الفراش، وركضت إلى الباب المغلق في ركن الغرفة، حيث جثوت على ركبتي، محدقة عبر ثقب المفتاح، وقلبي كالطبلة في صدري.

شعرت بالضعف على نحو سخيف، وأنا راكعة هناك بملابس نومي، بعين واحدة مفتوحة عن آخرها، وملتصقة بثقب مظلم. وللحظة، راودني خيال مريض مضطرب بأن أحدهم يدفع شيئًا ما عبر الثقب، ربما عود أسنان أو قلم رصاص مبري، ويخترق قرنيتي بقسوة، وسقطت للخلف، وأنا أرمش وعيني تدمع بفعل التيار الهوائي المترب.

لكن لم يكن هناك شيء. لا وجود لعود أسنان، يعميني متعمدًا. ولا شيء لأراه أيضًا. مجرد السواد اللامتناهي، والنسيم البارد المحمل بالغبار من هواء غرفة العلية الفاسد. حتى لو كان هناك منعطف في الدرج، أو باب مغلق في الأعلى، مع وجود نور مضاء في غرفة العلية نفسها، كان بعض الضوء سيهرب ليلوث ظلام الدرج الحالك. لكن لم يكن هناك شيء. ولا حتى أضعف بصيص. في حال كان هناك شخص بالأعلى، فقد كان يفعل أيًّا ما كان الذي يفعله في الظلام.

صرير... صرير... صرير... أتى الصوت مرة أخرى، على نحو لا يحتمل في انتظامه. ثم وقفة، يليها مرة أخرى صرير... صرير... صرير...

صحت أخيرًا، بعد أن لم أعُد قادرة على الجلوس، والاستماع في صمت وخوف أكثر من ذلك:

ـ بوسعي سماعك!

ألصقت فمي بثقب المفتاح، وصوتي يرتجف بمزيج من الرعب الغاضب:

ـ أستطيع سماعك! ما الذي تفعله هناك بالأعلى بحق الجحيم، أيها المريض؟ كيف تجرؤ؟ أنا أتصل بالشرطة، لذا من الأفضل أن تخرج من هناك!

لكن الخطوات لم ترتبك حتى. تلاشى صوتي كما لو كنت صحت في فراغ أجوف. صرير... صرير... صرير... بعد ذلك، تمامًا مثلما حدث من قبل، وقفة صغيرة، ثم استُؤنفت مرة أخرى من دون أدنى فقدان للإيقاع. صرير... صرير... صرير... وكنت أعرف في الحقيقة أنني لن أتصل بالشرطة بالطبع. ما الذي يمكنني قوله، بحق الجحيم؟ «أوه، أرجوك، أيها الشرطي، هناك صوت صرير قادم من غرفة عليتي!» لم يكن هناك مركز شرطة أقرب من إنفرنيس، ومن المستبعد أنهم يستقبلون مكالمات روتينية في منتصف الليل. كان خياري الوحيد هو ٩٩٩. وحتى في حالتي المرتعدة من الخوف، كانت لديَّ فكرة جيدة للغاية عما سيقوله عامل الهاتف إذا اتصلت امرأة هستيرية برقم الطوارئ في منتصف الليل، مُدعية أن هناك أصواتًا مخيفة تصدر من غرفة علية منزلها.

لو كان جاك هنا فقط، لو كان شخص ما هنا فحسب، بخلاف الفتيات الثلاث اللاتي أتلقى راتبي لحمايتهن، لا لإخافتهن أكثر.

يا إلهي. فجأة، لم أعُد أتحمل الأمر أكثر من ذلك، وفهمت نوع الرعب المظلم الذي دفع أولئك المربيات الأربع السابقات لترك منصبهن والرحيل. الاستلقاء هنا ليلة بعد ليلة، والاستماع، والانتظار، والتحديق عبر الظلام إلى ذلك الباب المغلق، وثقب المفتاح ذاك المفتوح على الظلام...

لم يكن هناك شيء يمكنني فعله. بوسعي الذهاب للنوم في غرفة المعيشة، لكنني ظننتُ أنني قد أفقد عقلي تمامًا إذا بدأت الأصوات تصدر هناك أيضًا، وكان هناك شيء أسوأ تقريبًا في فكرة استمرار تلك الأصوات في غرفة العلية،

بينما أنا أجهل ذلك وأنام بالأسفل. على الأقل إذا كنت هنا، أراقب وأسمع، فلن يستطيع أيًا ما كان موجود بالأعلى أن...

ازدردت ريقي في الظلام، وحلقي جاف.

كانت راحتاي تتعرقان، ولم أستطع إكمال الفكرة.

لن أنام الليلة مرة أخرى، كنت أعرف ذلك الآن.

بدلًا من ذلك، لففت نفسي بلحافي وأنا أرتجف بشدة، وأشعلت النور، وجلست وهاتفي في يدي، وأنا أستمع إلى الإيقاع الثابت للأقدام التي تذرع فوقي. وفكرت في الدكتور جرانت، الرجل العجوز الذي عاش هنا من قبل، الرجل الذي بذلت ساندرا وبيل قصارى جهدهما للتخلص منه، فقاما بالدهان والتنظيف، وإعادة التصميم حتى لم يتبقَّ له بالكاد أي أثر، باستثناء حديقة السموم الفظيعة تلك، خلف بوابتها المغلقة.

وربما باستثناء أيًا ما كان ذلك الذي يذرع غرفة العلية ليلًا.

سمعت الكلمات مرة أخرى، بصوت مادي الصغير العملي البارد، وكأنها بجانبي تهمس في أذني. لم يعُد ينام بعد فترة. كان يذرع الغرفة جيئة وذهابًا فحسب طوال الليل. ثم فقدَ عقله. كما تعلمين، فإن الناس يفقدون عقولهم إذا منعتهم من النوم لمدة طويلة بما يكفي...

هل شرعت أفقد عقلي بالفعل؟ هل كان ذلك هو الأمر؟

رباه. هذه سخافة. لا يصاب الناس بالجنون من قلة النوم لليلتين. كنت أتصرف بشكل ميلودرامي تمامًا.

ومع ذلك، عندما مرت الخطوات فوقي مرة أخرى، بطيئة وبلا هوادة، أحسست بنوع من الذعر يتصاعد بداخلي ويتملكني، ولم أستطع منع عيني من الالتفات إلى الباب المغلق، وتخيلته وهو ينفتح، والوقع البطيء للأقدام العجوز على السلم بالداخل، ثم ذلك الوجه الأجوف الشاحب وهو قادم نحوي وسط الظلام، والذراع النحيلة ممتدة.

إلسبيث...

لم يكن صوتًا قادمًا من الأعلى، بل في داخل عقلي. صرخة حشرجة الموت لأب حزين على ابنته المفقودة.

إلسبيث...

لكن الباب لم ينفتح. لم يأتِ أحد. ومع ذلك، استمرت تلك الخطوات فوقي، ساعة بعد ساعة. صرير... صرير... صرير... الخطوات المتواصلة لشخص ما لا يستطيع أن يستريح.

لم أستطع أن أحمل نفسي على إطفاء النور. ليس هذه المرة. ليس مع تلك الخطوات المتواصلة التي لا تهدأ فوقي.

بدلًا من ذلك، استلقيت على جنبي في مواجهة الباب المغلق، وهاتفي في يدي، وأنا أراقب وأنتظر، حتى بدأت الأرض تحت النافذة المقابلة لفراشي تصير أفتح مع بزوغ الفجر. وأخيرًا، نهضت متيبسة الأطراف، شاعرة بالغثيان من الإرهاق، وشققت طريقي إلى دفء المطبخ بالأسفل كي أصنع لنفسي أقوى فنجان من القهوة يمكنني أن أتحمل شربه، وكي أحاول مواجهة اليوم.



كان الطابق الأرضي خاليًا يتردد فيه الصدى، وهادئًا على نحو غريب من دون وجود شخير ولهاث الكلبين. فوجئت عندما وجدت أن جزءًا مني يشتاق إلى الإلهاء الذي يوفره أنفاهما المستكشفان، وتوسلهما المستمر للحصول على المكافآت.

بينما كنت أشق طريقي عبر الردهة متجهة إلى المطبخ، وجدت نفسي ألتقط آثار كنوز من ممتلكات الفتيات: مجموعة من ألوان الشمع المبعثرة على سجادة الردهة، دمية على شكل إحدى شخصيات كارتون «حصاني الصغير»، مهجورة أسفل طاولة الإفطار، وبعد ذلك ـ بشكل غريب ـ زهرة بنفسجية واحدة ذابلة، في منتصف أرض المطبخ. انحنيت شاعرة بالحيرة، متسائلة من أين أتت. كانت مجرد زهرة واحدة، وبدت كما لو أنها سقطت من باقة، أو من نبتة منزلية، لكن لم تكن هناك أزهار في هذه الغرفة. هل قطفتها إحدى الفتيات؟ لكن لو كان الأمر كذلك، فمتى؟

بدا من المؤسف أن أتركها تموت، لذا ملأت كوب قهوة بالماء، ووضعت به ساق الزهرة، ثم وضعت الكوب على طاولة المطبخ. ربما تنتعش.

كنت أتناول فنجان قهوتي الثاني في هدوء، وأشاهد الشمس وهي ترتفع فوق التلال الواقعة شرق المنزل، عندما صدر الصوت على ما يبدو من العدم.

ـ روان...

كان رفيعًا ومرتعدًا، ومسموعًا بالكاد، ومع ذلك مرتفعًا بطريقة ما، بدرجة

تكفي لأن يتردد صداه حول المطبخ الصامت، وجعلني أجفل حتى انسكبت القهوة الساخنة على معصمي، وعلى كُم روبي.

ـ اللعنة.

بدأت أمسح، وأنا ألتفت في الوقت ذاته لأرى مصدر الصوت. لم يكن هناك أحد، أو على الأقل لا أحد ظاهر للعيان.

ناديت قائلة:

ـ مَن هناك؟

وهذه المرة، سمعت صريرًا من ناحية الدرج، صريرًا واحدًا، يشبه إلى حد مخيف ذلك الذي كان من الليلة السابقة، لدرجة أن قلبي توقف عن الخفقان للحظة. ناديت مرة ثانية، بعدوانية أكثر مما كنت أنتوي:

ـ من ينادي؟

وخطوت بغضب خارجة إلى الردهة.

ترددت هيئة صغيرة فوقي عند قمة الدرج. إيلي. كان وجهها قلقًا، وشفتها ترتجف.

شعرت بالندم على الفور.

ـ أوه، يا عزيزتي. أنا آسفة، لقد أخفتِني. لم أتعمد زجرك. انزلي.

قالت:

ـ ليس مسموحًا لي بذلك.

كانت لديها بطانية في يدها، وكانت تبرم حافتها الزخرفية الحريرية بين أصابعها، وشفتها السفلى ممدودة للخارج، وترتجف بدرجة خطرة وقد أوشكت على البكاء. فجأة، بدت أصغر كثيرًا من سنوات عمرها الخمس.

ـ بالطبع مسموح لك. من قال إنه غير مسموح لك؟

ـ أمي. لا يُسمح لنا بالخروج من غرفنا حتى ترتفع أذنا الساعة الأرنب.

أوه. تذكرت فجأة الفقرة الموجودة في الملف بخصوص استيقاظ إيلي المبكر، والقاعدة المتعلقة بساعة الأرنب السعيد، التي كانت تتحول

إلى الأرنب المستيقظ تمامًا في الساعة السادسة صباحًا. نظرت خلفي عبر القنطرة إلى ساعة المطبخ. ٤٧ , ٥.

حسنًا، لا يمكنني معارضة قاعدة ساندرا تمامًا... لكن ها نحن ذا، وكان هناك جزء كبير مني يشعر بالارتياح لرؤية إنسان آخر. بدت أشباح الليلة الماضية وكأنها تتراجع بطريقة ما في وجود إيلي، لتصير شيئًا منافيًا للعقل.

قلت ببطء، وأنا أحاول التقدم بحذر ما بين مساندة ربة عملي، والتعاطف مع طفلة صغيرة على مشارف البكاء:

ـ حسنًا... حسنًا، لقد استيقظتِ الآن. هذه المرة فقط، أظن أنه بوسعنا التظاهر أن الأرنب استيقظ مبكرًا.

ـ لكن ما الذي سوف تقوله أمي؟

قلت:

ـ لن أخبر أحدًا إذا لم تفعلي أنت.

ثم عضضت شفتي. من القواعد الأساسية لرعاية الأطفال، ألا تطلب من الطفل إخفاء الأسرار عن أحد الوالدين. هذا هو الطريق إلى جميع أنواع السلوك الخطيرة، وسوء التفاهم. لكنني قلت ذلك الآن، وأمَّلت أن تكون إيلي عدته تعليقًا مسليًا، بدلًا من دعوة للتآمر ضد والدتها. لم يسعني إلا إلقاء نظرة للأعلى تجاه الكاميرا في الزاوية. لكن بالتأكيد لن تكون ساندرا مستيقظة في السادسة صباحًا، ما لم تكن مضطرة إلى ذلك.

ـ تعالَي إلى الطابق السفلي، وسنتناول الكاكاو الساخن معًا، وبعد ذلك عندما يستيقظ الأرنب، يمكنك الصعود وارتداء ملابسك.

في المطبخ بالأسفل، جلست إيلي على أحد المقاعد المرتفعة، وهي تركل أرجل الكرسي بكعبيها، بينما سخنت الحليب على موقد الحث، وقلبت فيه مسحوق الشوكولاتة. بينما شربته إيلي، وارتشفت أنا قهوتي التي أخذت تبرد الآن، تحدثنا عن المدرسة، وعن صديقتها المقربة كاري، وعن افتقاد

الكلبين، وأخيرًا، تجرأت على السؤال عما إذا كانت تفتقد والديها. تغضن وجهها حينها بعض الشيء.

ـ هل يمكننا الاتصال بأمي مرة أخرى الليلة؟

ـ أجل، بالطبع. يمكننا المحاولة، على أي حال. لقد كانت مشغولة للغاية. أنت تعرفين ذلك.

أومأت إيلي، ثم نظرت من النافذة، وقالت:

ـ لقد رحل، أليس كذلك؟

ـ من؟

انتابتني الحيرة. هل كانت تتحدث عن والدها، أم جاك؟ أو ربما... ربما شخص آخر؟

ـ من الذي رحل؟

لم تُجِب، بل ركلت الكرسي بساقيها فحسب.

ـ أفضل الأمر عندما يرحل. فهو يجبرهن على فعل أشياء لا يُرِدن فعلها.

لا أدري لماذا، لكن الكلمات أعادت إليَّ ذكرى حادة عن شيء لم أفكر فيه بالكاد منذ أول ليلة لي هنا، تلك الرسالة المغضنة غير المكتملة من كاتيا. ترددت الكلمات في رأسي، كما لو أن شخصًا ما همس بها في أذني بإلحاح.

أردت أن أقول لك من فضلكِ كوني...

فجأة، بدا وكأنه تحذير، أكثر من أي وقت مضى.

قلت بشكل أكثر إلحاحًا هذه المرة:

ـ من؟ عمن تتحدثين، يا إيلي؟

لكنها أساءت فهم سؤالي، أو ربما اختارت إساءة تفسيره عمدًا.

ـ الفتيات.

كان صوتها عمليًّا للغاية. وبعد ذلك، وضعت كوب الكاكاو، وانزلقت من المقعد.

ـ هل يمكنني الذهاب ومشاهدة التلفزيون؟

قلت بينما وقفت أنا الأخرى، وشعرت بقلبي يدق في صدري فجأة:

ـ إيلي، انتظري. من الذي تتحدثين عنه؟ من رحل؟ من يجبر الفتيات على فعل أشياء؟

لكنني كنت ملحة بدرجة زائدة، وبينما قبضت يدي على معصمها، ابتعدت وقد انتابها الخوف فجأة من حدتي.

ـ لا شيء. لا أتذكر. لقد ألفتُ ذلك. قالت لي مادي أن أقول هذا. لم أقل ذلك على أي حال.

تداعت الأعذار، واحدًا تلو الآخر، وكل منها سخيف مثل سابقه، ولوتْ يدها الصغيرة لتحررها من قبضتي. لم تكن لديَّ أي فكرة ماذا أقول. فكرت أن أتبعها عندما انسلت خارجة من الغرفة، وترددتِ المقدمة الموسيقية لكارتون «الخنزيرة بيبا» في غرفة اللعب. لكنني كنت أعلم أن الأمر لن ينجح. لقد أخفتها وضيعت فرصتي. كان يجب أن أسأل بشكل عرضي أكثر. صارت ترفض الحديث الآن، كما يفعل الأطفال الصغار عندما يدركون أنهم قالوا شيئًا أكثر خطورة مما كانوا يقصدون. كان الخوف نفسه الذي رأيته لدى الأطفال الصغار عندما يرددون كلمة غير لائقة من دون أن يفهموا رد الفعل الذي ستثيره، محاولة خائفة للتراجع بعيدًا عن رد فعل لم يتوقعوه، يلي ذلك صمت تام، وإنكار أنهم تفوهوا بذلك على الإطلاق. إذا ضغطت على إيلي الآن، فسوف أضر فرصتي في النجاح معها وحسب، وأمنعها من أن تُسر لي بأي شيء آخر لاحقًا.

الفتيات... إنه يجبرهن على فعل أشياء لا يِرُدن فعلها...

شعرت بالغثيان. كان الأمر من ذلك النوع من الأشياء التي يُحذر منها كل دليل لحماية الأطفال، السيناريو الكابوسي الذي كنت تأمل ألا تقابله أبدًا. لكن... هل كان كذلك بالفعل؟ أي فتيات كانت إيلي تتحدث عنهن؟ عن نفسها وعن مادي؟ أم عن بعض الفتيات المختلفات تمامًا؟ ومن «هو»؟ بيل؟ جاك؟ أم شخص مختلف تمامًا... مدرس، أو...

لكن كلا. أبعدت صورة الوجه الشرس المحزون الذي يحدق إليَّ من

شاشة هاتفي. كان ذلك محض خيال. إذا قصدتُ ساندرا بشيء كهذا، فسيحق لها أن تضحك ساخرة مني.

لكن هل يمكنني التوجه إلى ساندرا بشيء كهذا؟ في حين أن إيلي ستنكر ما قالته، وفي حين قد لا يكون شيئًا ذا شأن على الإطلاق؟ في النهاية، لم يكن هناك شيء يمكنني تحديده بدقة، لأقول: «هذا أمر مثير للقلق بالتأكيد».

كنت لا أزال أحدق إلى إثر إيلي، وأقضم حافة ظفري، عندما جعلني صوت آتٍ من الردهة أجفلُ، واستدرت لأرى الباب ينفتح، وجين ماكنزي تقف على عتبة الباب وتخلع معطفها.

قلت:

ـ سيدة ماكنزي.

كانت أنيقة الملبس، وترتدي تنورة من الصوف، وقميصًا قطنيًا أبيض، وصرت فجأة واعية للغاية بحالي من التعري، مرتدية روبًا من دون كثير من الملابس تحته.

كان كل ما قالته:

ـ لقد استيقظتِ مبكرًا.

وشعرت بوخز استهجانها. ربما كان السبب هو قلة النوم، أو القلق المتبقي من كلمات إيلي، لكن أعصابي غلت فجأة.

طالبتها قائلة:

ـ لمَ لا تحبينني؟

استدارت لتنظر إليَّ، وهي تضع معطفها في خزانة الردهة.

ـ أستميحك عذرًا؟

ـ لقد سمعتِني. لقد كنت تعاملينني ببرود تام منذ وصولي. لماذا؟

ـ أظن أنكِ تتخيلين أشياء يا آنسة.

ـ أنت تعرفين تمامًا أنني لست كذلك. إذا كان الأمر متعلقًا بما حدث في ذلك اليوم الأول، فأنا لم أغلق الباب اللعين، ولم أحبس الأطفال بالخارج. لمَ أفعل هذا؟

قالت جين ماكنزي بغموض:

ـ اللطيف هو من يتعامل بلطف.

واستدارت لتدخل غرفة المرافق، لكنني ركضت خلفها، وقبضت على ذراعها.

ـ ما الذي يعنيه ذلك، بحق الجحيم؟

سحبت نفسها من قبضتي، وتوهجت عيناها تجاهي فجأة بما لا يمكن أن أطلق عليه اسمًا سوى الكراهية.

ـ أرجو ألا تلمسيني بهذه الطريقة يا آنسة، وألا تطلقي السباب أمام الأطفال أيضًا.

أجبتها قائلة:

ـ كنت أسألك سؤالًا منطقيًّا تمامًا.

لكنها تجاهلتني، وسارت نحو غرفة المرافق، وهي تفرك ذراعها بعناية مبالغ فيها، وكأنني تسببت لها في حرق احتكاكي.

صحت خلفها:

ـ وتوقفي عن مناداتي آنسة. نحن لسنا في مسلسل «داونتون آبي» اللعين!

ردت على نحو لاذع من دون أن تستدير:

ـ ما الذي تفضلين أن أناديك به إذن؟

كنت قد استدرت على عقبي، وأنا أستعد لإيقاظ مادي، لكن كلماتها أوقفتني في مساري، واستدرت لأحدق إلى مظهرها الخالي من التعبير، وهو محني فوق حوض غرفة المرافق.

ـ مـ... ماذا قلت؟

لكنها لم تُجِب، بل فتحت الصنابير فقط، وأغرقت صوتي.

صحت وأنا أراقبهما عبر بوابة المدرسة، وهما تسيران إلى فصليهما:

ـ وداعًا، يا فتيات!

لم تقل مادي شيئًا. مضت قُدمًا فحسب، ورأسها محني، متجاهلة ثرثرة باقي الفتيات الصغيرات. لكن إيلي رفعت رأسها من حديثها مع فتاة صغيرة ذات شعر أحمر، ولوحت. كانت ابتسامتها عذبة ومبهجة، وشعرت بنفسي أبادلها الابتسام، ثم ابتسمتْ لبيترا التي كانت تهتز وتغرغر على خصري. كانت الشمس مشرقة، والعصافير تغرد، ودفء يوم جميل من شهر يونيو يتدفق من بين أوراق الأشجار. بدت مخاوف وخيالات الليلة الماضية ـ ذكرى ذلك الوجه الملتوي المحزون الذي يطل من شاشة هاتفي ـ بدا كل ذلك غير معقول فجأة في ضوء النهار.

كنت أعيد ربط حزام بيترا في مقعد السيارة الخاص بها، عندما أصدر هاتفي رنة، وألقيت نظرة عليه، متسائلة ما إذا كان أمرًا مهمًّا. كانت رسالة بريد إلكتروني. من ساندرا.

أوه، اللعنة.

مرت في ذهني سريعًا أفكار ممتلئة بالارتياب: هل شاهدتْ لقطات الكاميرا التي صورتني، وأنا أكاد أضرب مادي، أو السيل اللامتناهي من المكافآت التي كنت أرشي بها الفتيات؟ أم هل كان شيئًا آخر؟ شيئًا قالته جين ماكنزي؟

كانت معدتي تتقلص عندما نقرت لأفتحها، لكن عنوان الرسالة كان مباشرًا بما فيه الكفاية: «تحديث». أيًا ما كان يعنيه ذلك.

مرحبًا، روان،

معذرة لأنني أرسل رسالة بريد إلكتروني، لكنني في اجتماع، ولا يمكنني الحديث، وأردت أن أرسل إليكِ تحديثًا سريعًا بخصوص سير الأمور هنا. لقد سار المعرض التجاري بشكل جيد للغاية، لكن تم استدعاء بيل إلى دبي لاستكشاف بعض الأخطاء وإصلاحها هناك، مما يعني أنني سأضطر إلى تولي مسؤولية مشروع «كينسينجتون». وهذا ليس مثاليًا، لأنه يعني أنني سأتغيب لفترة أطول بعض الشيء مما كنت أتمنى، لكن لا يمكن فعل شيء إزاء

ذلك. من المفترض أن أعود يوم الثلاثاء المقبل (أي أسبوع من اليوم). هل تتدبرين الأمور بشكل جيد؟ هل يبدو هذا ممكنًا؟
فيما يتعلق بالأطفال، فإن ريانون ستنتهي من المدرسة اليوم. لقد تطوعت والدة إليس بكرم لأن تجلب كلتا الفتاتين (إنهم يقطنون بالقرب من بيتلوكري، لذا عليهم أن يقودوا عبر هذا الطريق على أي حال). وسوف تعود ري إلى «هيذربراي» في أي وقت من قرابة الساعة الثانية عشرة فصاعدًا. لقد أرسلت إليها رسالة نصية، لذا فهي تعرف ما يدور، وهي متحمسة للقائك.
تحدث جاك إلى بيل بالأمس، وذكر أنك انسجمت مع الفتيات على نحو جيد للغاية. يسعدني جدًّا سماع أن كل شيء يسير على ما يرام. اتصلي إذا كانت لديك أي مخاوف. سأحاول الاتصال الليلة قبل موعد نوم الفتيات.
قبلاتي،
ساندرا

أغلقت البريد الإلكتروني، وأنا غير متأكدة ما إذا كان الشعور الطاغي لديَّ هو الراحة أم الخوف. لقد شعرت بالارتياح أكثر بالفعل، بكل تأكيد، خاصة أن جاك قدم شهادة جيدة في حقي، على ما يبدو. لكن أسبوع آخر... لم أدرك حتى قرأت كلمات ساندرا كم كنت أُعول على عودتها يوم الجمعة هذا، وأعد الأيام في رأسي مثل حكم بالسجن.

والآن... أُضيفت أربعة أيام أخرى إلى فترة عقوبتي. وليس مع الصغار فقط، لكن مع ريانون أيضًا. كيف شعرت حيال ذلك؟

كانت فكرة وجود شخص آخر في المنزل مريحة بلا شك. كان هناك شيء سخيف بالفعل في ذكرى تلك الخطوات البطيئة المدروسة، لكن حتى في وضح النهار، أحسست بالشعر يبدأ في الانتصاب على ذراعي عندما تذكرت وجودي مستلقية هناك، وأنا أستمع إليها وهي تذرع جيئة وذهابًا. من المؤكد أن وجود شخص ما في غرفة النوم المجاورة سيخفف من حدة الأمر، حتى لو كان شخصًا عدوانيًّا في الرابعة عشرة من العمر.

لكن عندما أدرت «التيسلا»، كانت الصورة التي أومضت في ذهني مختلفة، تلك الخربشات القرمزية عبر باب غرفة النوم:

اغرب من هنا! ممنوع الدخول، وإلا ستلقى حتفك!

كان هناك شيء ما. شيء مقارب للغاية من غضب مادي القوي الصامت.

ربما أتمكن من سبر أغواره مع ريانون، أيًّا ما كان الأمر.

استغرقت رحلة العودة من المدرسة إلى «هيذربراي» وقتًا أطول من صباح اليوم السابق، لأنه كانت هناك شاحنة على الطريق أمامي. تبعتها ببطء من كارن بريدج، وأنا أضغط دواسة السرعة بحذر، وكلما وصلنا إلى تقاطع في الطريق، كنت أشعر بالثقة أن الشاحنة ستنحرف عنده. لكن لسبب غير مفهوم، بدا أنها تسير في الاتجاه نفسه، حتى عندما زاد الطريق ضيقًا، وصار ريفيًّا أكثر. شعرت ببعض الراحة عندما أدركت أننا كدنا نصل إلى المنعطف المؤدي إلى منزل «هيذربراي». وكنت على وشك الإشارة إلى أنني سأنحرف يسارًا، عندما أشارت الشاحنة أيضًا، مجبِرة إياي أن أضغط بقوة على الفرامل.

بينما كنت أنتظر، و«التيسلا» واقفة في صمت، انفتح باب الراكب، وقفزتْ منه فتاة على كتفها حقيبة ظهر. قالت شيئًا للسائق، وانفتح باب الشاحنة الخلفي. سحبت حقيبة ضخمة للخارج، وتركتها تتخبط على الحصى بلامبالاة، ثم صفقت الباب وتراجعت للخلف، بينما ابتعد السائق عن حافة الرصيف. كنت على وشك أن أميل إلى الخارج وأسألها عمن تكون، وما الذي تفعله في مكان ناءٍ كهذا، عندما أخرجت هاتفها من جيبها، ورفعته بالقرب من مستشعر البوابات، فانفتحت.

لا يمكن أن تكون ريانون، بالتأكيد. لم يكن من المقرر عودتها حتى فترة ما بعد الظهيرة. وبالقطع لم تكن تلك الشاحنة الحقيرة تبدو وكأنها ملك لوالدة أي شخص. هل كانت شخصًا يعمل هنا؟ لكن في هذه الحالة، لمَ الحقيبة الضخمة؟

انتظرت لبضع دقائق حتى تعبر البوابة، ثم ضغطت دواسة السرعة. انزلقت «التيسلا» بنعومة عبر الممر خلف الفتاة، التي استدارت وعلى وجهها تعبير بالمفاجأة. مع ذلك، بدلًا من أن تبتعد عن الطريق، ثبتت مكانها ويداها على خصرها، والحقيبة الضخمة عند قدميها. ضغطت الفرامل مرة أخرى، وشعرت بالحصى ينسحق أسفل الإطارات، وأنزلت النافذة.

ـ هل يمكنني مساعدتك؟

قالت الفتاة:

ـ أنا التي يجب أن أسألك ذلك.

كان لديها شعر أشقر طويل، ولكنة سريعة أنيقة من دون أثر للكنة الاسكتلندية بها.

ـ من أنت بحق الجحيم، وما الذي تفعلينه في سيارة والديَّ؟

لقد كانت ريانون إذن.

ـ أوه، مرحبًا، لا بد أنكِ ريانون. معذرة، لم أتوقع عودتك حتى بضع ساعات أخرى. أنا روان.

كانت الفتاة لا تزال تنظر إليَّ بدهشة، وأضفتُ وقد بدأت أشعر بنفاد الصبر إلى حد ما:

ـ المربية الجديدة. ظننت أن والدتك أخبرتك.

بدا من الحماقة الاستمرار في هذه المحادثة من خلال نافذة سيارة، لذا وضعت السيارة في وضع الوقوف، ونزلت وأنا أمد يدي.

ـ سررت للقائك. آسفة لأنني لم أتوقع حضورك، قالت والدتك إنك لن تكوني هنا حتى الثانية عشرة.

شرعت الفتاة تقول، وقد قطبت ما بين حاجبيها الرفيعين:

ـ روان؟ لكنك...

ثم اتضح شيء ما، وهزت رأسها. ارتسمت ابتسامة على شفتيها، ولم تكن لطيفة للغاية.

ـ لا عليك.
أنزلتُ يدي.
ـ لكني ماذا؟
قالت ريانون:
ـ قلت لا عليك. ولا تعيري أي اهتمام لما قالته لك أمي، فليست لديها بحق الجحيم أي فكرة على الإطلاق عن أي شيء. كما لا بد أنك أدركت بالفعل.
تأملتني من رأسي حتى أخمص قدمي، ثم قالت:
ـ حسنًا، ما الذي تنتظرينه؟
ـ ماذا؟
ـ ساعديني على حمل حقيبتي.
أخذ ضيقي يزيد أكثر فأكثر، لكن لم يكن هناك جدوى من أن نبدأ بداية سيئة، لذا ابتلعت غضبي، وسحبتُ الحقيبة على عجلاتها إلى مؤخرة «التيسلا». كانت أثقل حتى مما بدت عليه. لم تنتظر ريانون إلى أن أنتهي من تحميلها في السيارة، بل صعدت إلى المقعد الخلفي بجوار بيترا.
قالت:
ـ مرحبًا، أيتها المزعجة.
لكن صوتها غلفته مسحة من المحبة، كانت غائبة بشكل ملحوظ وهي تتحدث إليَّ. ثم قالت لي بينما أنا أنزلق في مقعد السائق:
ـ حسنًا، دعينا لا نقضي اليوم بأكمله هنا، ونحن نتأمل المنظر.
صررت على أسناني، وابتلعت كبريائي، وضغطت دواسة السرعة بشدة كبيرة، لدرجة أن الحصى اندفع من خلف العجلات عندما بدأنا في التحرك عبر الممر متجهين نحو منزل «هيذربراي».

داخل المنزل، توجهت ريانون نحو المطبخ، تاركة إياي أحمل كلًّا من بيترا

والحقيبة الضخمة الثقيلة. عندما وصلتُ أخيرًا إلى الداخل، وبرفقتي بيترا، رأيت أن ريانون جلستْ بالفعل إلى طاولة الإفطار المعدنية، وكانت تأكل شطيرة عملاقة بدا من الواضح أنها صنعتها للتو.

خرج صوتها، وهي تمد نطقها للحروف:

ـ إذن أنت روان، أليس كذلك؟ يجب أن أقول إنك لا تَبدين كما كنت أتوقع على الإطلاق.

عبستُ. كان هناك شيء خبيث إلى حد ما في صوتها، وتساءلتُ ما الذي تعنيه بالضبط.

ـ ما الذي كنت تتوقعينه؟

ـ أوه... لا أدري. مجرد شخص... مختلف. لا تَبدين وكأنك روان، بطريقة ما.

ابتسمت ابتسامة عريضة، وقبل أن أتمكن من إبداء رد فعل، تناولت قضمة أخرى من الشطيرة، وقالت بغلظة، وفمها ممتلئ بالطعام:

ـ عليك أن تضيفي مزيدًا من المايونيز إلى قائمة تسوق الثلاجة. أوه، وأين الكلبان بحق الجحيم؟

رمشتُ بعيني. شعرتُ أنه يجب أن أكون أنا من يطرح الأسئلة، وأستجوبها. لمَ كنت أبدو دومًا وكأنني على الجانب الخاطئ من الصراع على القوة؟ لكنه كان سؤالًا منطقيًّا تمامًا، لذا حاولتُ الحفاظ على هدوء صوتي وأنا أجيب عنه:

ـ تم استدعاء جاك ليأخذ بعض الأوراق إلى والدك. اصطحب الكلبين معه، حيث ظن أنهما سوف يستمتعان بالرحلة.

لم يكن ذلك هو ما قاله على الإطلاق، لكن بطريقة ما لم أرغب في الاعتراف لهذه المراهقة المتغطرسة أنني لم أشعر أنني قادرة على الصراع مع ثلاث أطفال صغيرات وكلبين «لابرادور».

ـ متى يعود؟
ـ جاك؟ لا أدري. اليوم، على ما أتوقع.
أومأتْ ريانون وهي تمضغ بتفكر، ثم قالت وفمها ممتلئ بالطعام:
ـ بالمناسبة، عيد ميلاد إليس اليوم، ولقد دعتني والدتها للمبيت هناك. هل هذا ملائم؟
كان هناك شيء ما في نبرتها جعل من الواضح أنها تسألني كإجراء شكلي فحسب، إلا أنني أومأتُ.
ـ من الأفضل أن أرسل إلى والدتك رسالة نصية للتأكد، لكن بالطبع لا مانع لديَّ. أين تسكن؟
ـ بيتلوكري. إنها تبعد نحو ساعة بالسيارة، لكن شقيق إليس سيقلني.
أومأتُ وأخرجت هاتفي، وأرسلت رسالة نصية سريعة إلى ساندرا.

عادت ريانون بأمان. تريد الذهاب للمبيت مع إليس الليلة. أفترض أن هذا مسموح، لكن أرجو التأكيد.

رنت الرسالة على الفور تقريبًا:

لا توجد مشكلة. سأتصل في السادسة مساء. أبلغي ري محبتي.

أبلغتُ ريانون:
ـ ترسل إليك والدتك حبها، وتقول لا بأس.
أدارت عينيها في محجريهما، وكأنما تقول إن ذلك بديهي.
ـ متى سيتم اصطحابك بالسيارة؟
قالت ريانون:
ـ بعد الغداء.
أدارتْ ساقيها من جانب المقعد، ودفعتِ الطبق المتسخ نحوي عبر الطاولة.
ـ أراك لاحقًا.

راقبتها بينما هي تشق طريقها صاعدة الدرج، وساقاها الطويلتان في الزي المدرسي تصعدان منحنى السلم الرشيق، ثم تختفيان عند المنعطف.

لم تنزل لتناول الغداء. لم أُفاجأ على وجه الخصوص، نظرًا إلى الشطيرة التي تناولتها قبل ساعتين. لكن حيث إنني كنتُ أعد الغداء لي ولبيترا، شعرت أنه يجب عليَّ أن أسأل على الأقل ما إذا كانت ترغب في الانضمام إلينا. حاولتُ التحدث إليها باستخدام خاصية الاتصال الداخلي، لكنها رفضتِ الاتصال. بدلًا من ذلك، رنت رسالة عبر التطبيق:

لست جائعة.

هاه. لم أكن أعرف أنه يمكنه فعل ذلك.

أرسلت رسالة مجيبة إياها:

حسنًا.

بينما كنت أضع هاتفي في جيبي، طرأت لي فكرة أخرى، فأخرجته وأعدت فتح تطبيق هابي. شعرت ببعض الغثيان، ونقرت على القائمة التي تُظهر قائمة الكاميرات المتاح لي الوصول إليها. عندما مررت لأسفل القائمة حتى حرف «ر»، قلت لنفسي إنني لن أنظر، لكنني على الأقل سأعرف بهذه الطريقة... لكن عندما وصلت إلى هناك، «غرفة ريانون»، كانت رمادية اللون وغير متاحة، مما كان مصدر ارتياح في الغالب. سيكون هناك شيء غير ملائم بشكل لا يوصف بخصوص وضع كاميرات في غرفة نوم فتاة مراهقة في الرابعة عشرة من العمر.

بينما كنت أُطعم فم بيترا المتلهف الزبادي بالملعقة، وأتفادى أصابعها «المتعاونة»، وهي تحاول الإمساك بالملعقة، سمعت وقع أقدام على السلم، وأنعمت النظر إلى الردهة لأرى ريانون وهي تمسك حقيبة صغيرة في يد، وهاتفها في اليد الأخرى.

قالت فجأة:

ـ شقيق إليس هنا.

ـ عند الباب؟

ألقيتُ نظرة تلقائية على هاتفي، وأنا أشعر بالحيرة.

ـ لم أسمع الجرس.

ـ عند البوابة، بالطبع!

ـ حسنًا.

قاومتُ الرغبة في الرد بجواب ساخر.

ـ سوف أفتح له.

كان هاتفي على الطاولة، لكنني بالكاد فتحت التطبيق، ناهيك عن التنقل عبر قائمة البوابات والأبواب والمرائب المختلفة التي لديَّ إذنٌ بالوصول إليها، قبل أن تقطع ريانون منتصف الطريق إلى الباب.

ـ لا داعي لذلك.

ضغطتِ اللوحة بإبهامها، ثم فتحتِ الباب الأمامي.

ـ إنه ينتظرني على الطريق.

ـ انتظري.

أبعدتُ الزبادي عن متناول بيترا، ثم ركضتُ على عجل في أعقاب ريانون.

ـ انتظري لحظة. أحتاج إلى رقم والدة إليس.

قالت ريانون بنبرة مثقلة بالسخرية:

ـ أوه... لماذا؟

وهززتُ رأسي، رافضة الانجرار إلى تحديها.

ـ لأنكِ في الرابعة عشرة من العمر، ولم ألتقِ المرأة من قبل، وأنا أحتاج إليه فحسب. هل هو بحوزتك؟ لو لم يكن، فسوف أسأل والدتك.

ـ أجل، إنه لديَّ.

أدارتْ عينيها في محجريهما، لكنها أخرجتْ هاتفها، ثم بحثتْ عن

قطعة من الورق. كانت إحدى رسوم مادي ملقاة على الدرج، والتقطتْها وخربشتِ الرقم على ظهرها.

ـ هاك. هل أنت سعيدة؟

قلت:

ـ أجل.

مع أن ذلك لم يكن صحيحًا تمامًا. صفقتِ الباب خلفها، وراقبتها من النافذة، وهي تختفي حول المنحنى في الممر، ثم نظرت إلى الورقة. كان الرقم مكتوبًا في ركن مع اسم كاس، وأدخلته في تطبيق المراسلة على هاتفي.

> مرحبًا، كاس. أنا روان، مربية آل إلينكورت الجديدة. أردت فقط أن أشكركِ لاستضافة ريانون الليلة. وإذا كانت هناك أي مشكلات، أرجو الاتصال أو إرسال رسالة نصية لهذا الرقم. إذا كان بوسعك إبلاغي بالوقت الذي ستوصلينها فيه، فسيكون ذلك رائعًا. أشكرك. روان.

جاء الرد سريعًا على نحو مُطَمئن، بينما كنت أُطعم بيترا آخر ما تبقَّى من الزبادي.

> مرحبًا! سعيدة «بلقائك». هذا من دواعي سروري. من اللطيف دومًا استضافة ري. أعتقد أننا سنعيدها بحلول وقت الغداء غدًا، لكن لنترك ذلك للظروف. كاس.

لم أطالع صورة مادي أخيرًا إلا عندما ذهبت لأعيدها على الدرج. ذكرتني بالرسم الذي عثرت عليه في تلك الليلة الأولى، صورة المنزل والوجه الصغير الشاحب الذي يطل منه. لكن كان هناك شيء أكثر قتامة على نحو واضح، وأكثر إثارة للقلق في هذه الصورة.

كان هناك في منتصف الصفحة شكل بسيط، فتاة صغيرة بشعر مجعد وتنورة بارزة للخارج، وبدت وكأنها حبيسة داخل زنزانة من نوع ما. لكن عندما تأملتها من كثب أكثر، أدركت أنها لا بد أن يكون من المقصود أن تمثل حديقة السموم. كانت القضبان السميكة السوداء للبوابة الحديدية مرسومة عبر هيئتها، وكانت تقبض عليها بإحدى يديها، وتمسك شيئًا في الأخرى،

ظننت أنه غصن، مغطى بالأوراق الخضراء والتوت الأحمر. كانت الدموع تنهمر على وجهها، وفمها مفتوحًا في عويل يائس، وكانت هناك خربشات حمراء من الدماء على وجهها وعلى ثوبها. كانت الصورة بأكملها محاطة بخطوط سوداء سميكة حلزونية، كما لو كنت أحدق إلى الطرف الخاطئ لتليسكوب، داخل نفق كابوسي من نوع ما، يؤدي إلى الماضي.

من ناحية، كان مجرد رسم فتاة صغيرة، لا يختلف عن بعض الخربشات العنيفة أحيانًا التي شاهدتها في الحضانة، الأبطال الخارقون الذين يقتلون الأشرار، ورجال الشرطة يقاتلون اللصوص. لكنْ من ناحية أخرى... لا أدري. كان من الصعب أن أحدد ما الذي جعلني أجفل، لكن كان فيها شيء كريه للغاية بشكل يفوق الوصف، ومخيف جدًّا، وممتلئ بالرضا والبهجة من الموضوع المروع، لدرجة أنني تركت الورقة تسقط من بين أصابعي على الأرض، كما لو أنها أحرقتني.

وقفت هناك متجاهلة صرخات بيترا التي أخذت تزيد غضبًا خلفي.

ـ أنزلي. أنزلي! «بيتا» أنزلي **الآن!**

وحدقت إلى الصورة. أردت أن أغضنها وأرميها بعيدًا، لكنني كنت أعرف ماذا ستكون نصيحة حماية الطفل في «ليتل نيبرز». احفظ الصورة في الملف. حذر مسؤول الحماية في الحضانة من مخاوفك. ناقش القضايا المثارة في الصورة مع الوالدين أو الأوصياء إذا كان ذلك مناسبًا.

حسنًا، لم يكن هناك مسؤول حماية هنا سواي. لكني على ثقة تامة بأنني كنت سأريد أن أعرف بهذا الأمر لو كنت مكان ساندرا. لم أكن متأكدة من أين تستمد مادي هذه الأشياء، لكن يجب إيقاف الأمر.

التقطت الصورة وأنا أشعر بالانزعاج أكثر مما أردت أن أعترف، ووضعتها بحرص في أحد الأدراج في غرفة المكتب. ثم عدت إلى المطبخ، وشرعت أنظف بيترا وأضعها في الفراش من أجل قيلولتها.

لم أكن أقصد النوم في غرفة بيترا، لكنني استيقظت وجفلت، وغطاء الكرسي المصنوع من القماش القطني ذي المربعات مبلل باللعاب أسفل خدي، وقلبي يدق بقوة لأسباب لا يمكنني تحديدها. كانت بيترا لا تزال نائمة في فراشها، بينما كافحتُ لأعتدل في وضع قائم، محاولة فهم ما حدث، وما الذي أيقظني فجأة.

لا بد أنني غفوت بينما كنت أنتظر أن تخلد إلى النوم. هل... اللعنة، أتت الفكرة كلكمة مفاجئة في البطن. هل نمت خلال موعد جلب الفتيات من المدرسة؟ لكن كلا. عندما تفقدت هاتفي كانت الساعة الواحدة والنصف فقط.

ثم جاء مرة أخرى، الصوت الذي أيقظني من النوم. جرس الباب. أومض هاتفي بعبارة:

جرس الباب يدق.

وبعد ذلك:

افتح الباب؟ تأكيد / إلغاء.

تدفقت في جسدي صدمة من الفزع على نحو آلي، وجلستُ هناك للحظة وأنا مصابة بالشلل، نصف خائفة ونصف مترقبة لأن يبدأ الصوت، صرير... صرير... كما فعل في الليلة الماضية، لكنه لم يفعل، وأخيرًا أجبرت نفسي على التحرك. أنزلت قدميَّ على الأرض ووقفت، في انتظار أن يستقر ضغط دمي، وأن يتوقف قلبي عن الدق في أذني بقوة كقرع الطبول من أثر الفزع.

بينما أنا أفعل ذلك، مسحت زاوية فمي، ونظرت إلى الأسفل متأملة نفسي. مضت أيام قليلة فقط منذ أن حضرت، بأدائي المتقن لدور روان المربية المثالية، في تنورتها المصنوعة من التويد، وسترتها المحبوكة ذات الأزرار المقفولة بعناية. بدوت أبعد ما يكون عن الكمال الآن. كنت أرتدي سروالًا مجعدًا من الجينز، وكان قميصي مبقعًا من آثار إفطار بيترا. بدوت أكثر شبهًا بكثير بالشخص الذي كنت عليه في الواقع، كما لو أن شخصيتي الحقيقية تتسرب من بين شقوق الواجهة، وتتولى زمام الأمور.

حسنًا، فات الأوان لتغيير ملابسي الآن. بدلًا من ذلك، تركت بيترا نائمة بهدوء في فراشها، وشققت طريقي نزولًا على الدرج إلى الردهة، حيث ضغطت بإبهامي على اللوحة، وراقبت بينما الباب ينفتح في صمت.

للحظة، بدا الأمر وكأنه استمرار لليلة الماضية، حيث لم يكن هناك أحد. لكن بعد ذلك رأيت «اللاند روفر» متوقفة عبر الممر، وسمعت صوت انسحاق الحصى وهو يبتعد، ونظرت حول جانب المنزل، فرأيت شخصًا طويلًا وعريضًا يختفي باتجاه الإسطبلات، وكلبين يتواثبان عند قدميه.

ناديت بصوت أجش من أثر النوم:

ـ جاك؟

تنحنحت وحاولت مرة أخرى:

ـ مهلًا، جاك، هل كان هذا أنت؟

ـ روان!

استدار عند سماع صوتي، وأتى عائدًا عبر الفناء بخطوات واسعة، مبتسمًا ابتسامة عريضة.

ـ أجل، رننت الجرس. كنت سأسأل ما إذا كنت ترغبين في كوب من الشاي. لكنني ظننت أنك لا بد أن تكوني خرجت.

ـ لا... لا، كنت...

توقفت، وأنا غير متأكدة مما يجب أن أقوله، وبعد ذلك، نظرًا إلى وجهي

المتغضن من أثر النوم وملابسي المتسخة، قررت أن الحقيقة ربما كانت هي الأفضل.

ـ لقد نمت، في الواقع. بيترا نائمة لقيلولتها، ولا بد أنني غفوت. أنا... حسنًا، لم أحصل على قسط وافر من الراحة ليلًا.

ـ أوه... هل كانت الفتيات مشاكسات؟

ـ لا، لا، ليس هذا هو الأمر. إنه...

توقفت ثانية، ثم استجمعت شجاعتي.

ـ إنها تلك الأصوات التي كنت أتحدث عنها. من غرفة العلية. لقد أيقظتني مرة أخرى. جاك، أتعرف تلك المفاتيح التي ذكرتَها...

كان يومئ برأسه.

ـ أجل، بالتأكيد، لا توجد مشكلة. هل تريدين أن تجربي الآن؟

لمَ لا؟ كانت الفتاتان في المدرسة، وعلى الأرجح ستنام بيترا لساعة أخرى على الأقل. لم يكن وقتًا مثاليًّا لكنه ليس أسوأ من أي وقت آخر.

ـ نعم، من فضلك.

ـ سأضطر إلى البحث عنها، امنحيني عشر دقائق، وسأكون معك.

قلت:

ـ حسنًا.

شعرت بتحسن بالفعل. من المحتمل أن يكون هناك تفسير بسيط للأصوات، وكنا سنكتشفه.

ـ سأضع الغلاية على الموقد. أراك بعد عشر دقائق.

في النهاية، عاد قبل انقضاء عشر دقائق، ومعه مجموعة من المفاتيح الصدئة المتشابكة في يد، وصندوق معدات في اليد الأخرى، تطل من أعلاه زجاجة كبيرة من رذاذ زيت التشحيم. تبعه الكلبان وهما يلهثان بحماسة، ووجدت نفسي أبتسم وأنا أشاهدهما يتشممان أرجاء المطبخ بجد، ويأكلان كل فتات

الطعام التي أسقطها الأطفال. ثم ارتميا على فراشيهما في غرفة المرافق، كما لو أن الرحلة بأكملها أرهقتهما لأبعد حد.

كان البراد قد غلى للتو، وصببت كوبين، ومددت أحدهما إلى جاك. دفع المفاتيح في جيبه الخلفي، وتناوله وابتسم ابتسامة عريضة.

ـ هذا هو بالضبط ما كنت بحاجة إليه. هل تريدين الانتهاء من تناول الشاي بالأسفل هنا، أم هل نأخذه إلى الطابق العلوي؟

ـ حسنًا، في الواقع لا تزال بيترا نائمة، لذا قد تكون فكرة جيدة أن نبدأ سريعًا قبل أن تستيقظ.

قال:

ـ يناسبني ذلك. لقد ظللت جالسًا في السيارة طوال الصباح، وأُفضل شربه وأنا أتحرك.

حملنا كل شيء بعناية إلى الطابق العلوي، ونحن نمشي على أطراف أصابعنا عبر غرفة بيترا، مع أنها بدت مستغرقة في النوم عندما ألقيت نظرة بالداخل، ممددة مثل شخص سقط من ارتفاع عظيم على مرتبة لينة.

في غرفة نومي بالأعلى، كانت الستائر لا تزال مغلقة، والفراش غير مرتب، وملابسي التي بدلتها لا تزال مبعثرة على السجادة الناعمة التي بلون القمح. شعرت بوجنتيَّ تتضرجان بالحمرة، ووضعت كوبي والتقطت حمالة صدري وسروالي الداخلي من الليلة السابقة على عجل، بالإضافة إلى قميص، ودفعتها داخل سلة الغسيل في الحمام، قبل أن أفتح الستائر.

قلت:

ـ معذرة، أنا لست قذرة هكذا في العادة.

كان ذلك غير صحيح على الإطلاق. في شقتي في لندن، كانت معظم ملابسي الداخلية مكومة في زاوية الغرفة، ولا تُغسل إلا عند نفاد الملابس الداخلية النظيفة من درجي. لكنني كنت أحاول الحفاظ هنا على صورة النظام الدقيق. أخذت تلك الصورة تتدهور على ما يبدو.

مع ذلك، لم يبدُ على جاك الانزعاج، وشرع بالفعل يحاول فتح الباب في زاوية الغرفة.

ـ إنه هذا، أليس كذلك؟

ـ بلى، هذا صحيح.

ـ وقد جربتِ جميع مفاتيح الخزانات الأخرى؟

ـ أجل، كل التي تمكنتُ من العثور عليها.

ـ حسنًا، لنرَ ما إذا كان أي من هذه ملائمًا.

كانت الحلقة التي يمسك بها تحمل نحو عشرين أو ثلاثين مفتاحًا من مختلف الأحجام، بداية من مفتاح حديدي أسود ضخم، ظننت أنه لا بد أن يكون المفتاح الأصلي للبوابة، قبل تركيب القفل الكهربائي، حتى مفاتيح نحاسية صغيرة، بدت وكأنها قد تكون خاصة بالمكاتب أو الخزائن.

جرب جاك واحدًا متوسط الحجم، دخل في الثقب، لكنه اهتز على نحو متخلخل في الداخل، وبدا من الواضح أنه صغير جدًّا بالنسبة إلى القفل. ثم جرب واحدًا أكبر قليلًا، كان حجمه ملائمًا، إلا أنه لم يدُر بصورة كاملة.

رش علبة زيت التشحيم داخل القفل، وحاول ثانية، لكنه مع ذلك دار لربع المسافة فقط، ثم توقف.

ـ إممم... قد يكون عالقًا. لكن إذا كان هذا هو المفتاح الخاطئ، فلا أريد المجازفة باستخدام القوة وكسر طرفه داخل القفل. سأجرب بضعة مفاتيح أخرى.

راقبته بينما جرب أربعة أو خمسة مفاتيح أخرى من الحجم نفسه، لكنها كانت أسوأ، إما غير مناسبة على الإطلاق، وإما تعلق قبل أن يتمكن من إدارتها ربع دورة حتى. بدا أخيرًا أنه اتخذ قراره، وعاد إلى المفتاح الثاني الذي اختاره.

ـ هذا هو المفتاح الوحيد في المجموعة الذي توجد بحركته نسبة من المرونة على الإطلاق، لذا سأجربه مرة أخرى بقوة أكبر بعض الشيء.

وإذا انكسر، حسنًا، سنضطر إلى جلب صانع الأقفال فحسب. تمني لي التوفيق.

قلت:

ـ حظًّا سعيدًا.

وشرع يحرك المفتاح بالقوة.

وجدت نفسي أجفل على نحو استباقي، بينما كنت أراقبه وهو يضغط بلطف في البداية، ثم بقوة أكبر، وأخيرًا بقوة شديدة، لدرجة أنني رأيت عمود المفتاح وهو ينثني بعض الشيء، ورأسه المستدير عند قمته يلتوي ويلتوي...

صحتُ قائلة:

ـ توقف!

في اللحظة نفسها التي أصدر فيها جاك هتافًا يدل على الارتياح، وعلا صوت كشط وطقطقة مزعجة، وأتم المفتاح الدورة كاملة.

ـ لقد نجحت!

وقف وهو يمسح زيت التشحيم عن يديه، ثم استدار إليَّ بانحناءة مهذبة ساخرة.

ـ هل تودين الحصول على هذا الشرف، يا سيدتي؟

ـ كلا!

خرجت الكلمة قبل أن أتمكن من التفكير فيها بصورة أفضل، ثم اصطنعت الضحك.

ـ أعني... لا مانع لديَّ. الأمر متروك لك. لكنني أحذرك، سأصرخ إذا كانت هناك جرذان.

كانت هذه كذبة. أنا لا أخشى الجرذان. لا أخاف كثيرًا، في العادة. وشعرت أنني أسوأ نوع من الصور الأنثوية المبتذلة، وأنا أحتمي خلف رجل ضخم قوي. لكن جاك لم يرقد هناك ليلة تلو ليلة، وهو يستمع إلى ذلك الصرير البطيء المستتر صرير... صرير... فوق رأسه.

قال، وهو يغمز غمزة صغيرة للغاية:

ـ سأضحي من أجل الفريق، إذن.

ولوى المقبض، فانفتح الباب.

لا أدري ما الذي كنت أتوقعه. سلمًا يختفي وسط الظلام. ممرًّا معلقًا به شِباك العنكبوت. وجدت نفسي أحبس أنفاسي عندما انفتح الباب، وأنا أطل من فوق كتف جاك.

أيًّا كان ما توقعته، فلم يكن هو ما كان موجودًا هناك. كانت مجرد خزانة أخرى. متربة للغاية، وسيئة التشطيب حتى إنه كان بوسع المرء أن يرى الفجوات في اللوح الجصي، كما كانت أصغر وأقل عمقًا بكثير من تلك الأخرى التي كنت أعلق فيها ملابسي، لكن مع ذلك فقد كانت خزانة. كان هناك عمود فارغ، معلق بصورة مائلة بعض الشيء، على بعد ست بوصات تقريبًا من السقف، كما لو كان ينتظر الشماعات والملابس.

قال جاك:

ـ هاه.

ألقى المفاتيح على الفراش، وقد بدا عليه التفكير العميق.

ـ حسنًا، هذا غريب.

ـ غريب؟ أتعني لِمَ تُغلق خزانة يمكن استخدامها بشكل عادي تمامًا؟

ـ حسنًا، أظن ذلك، لكن ما قصدته بالفعل هو تيار الهواء.

رددت بغباء:

ـ تيار الهواء؟

وأومأ هو.

ـ انظري إلى الأرض.

نظرت إلى حيث أشار. كانت هناك خطوط عبر ألواح الأرضية، حيث دفع النسيم الغبار بوضوح من خلال الفجوات الضيقة، وعندما أمعنت النظر أكثر إلى اللوح الجصي الملطخ والمترب، تمكنت من رؤية الشيء ذاته. عندما وضعت

يدي على الفجوة، كان هناك نسيم بارد خافت، والرائحة الرطبة نفسها التي لاحظتها آتية عبر ثقب المفتاح الليلة الماضية عندما طالعت الظلام من خلاله.

ـ هل تعني...

ـ يوجد شيء هناك بالفعل. لكنَّ شخصًا ما غطاه بالألواح.

تجاوزني، وشرع يبحث في حقيبة معداته، وفجأة لم أعُد متأكدة على الإطلاق ما إذا كنت أرغب في فعل هذا.

ـ جاك، لا أظن... أعني، ساندرا قد...

ـ آه، إنها لن تمانع. سأغطيها بالألواح مرة أخرى بشكل أفضل، إذا وصل الأمر إلى هذا الحد، وسيكون لديها خزانة يمكن استخدامها، بدلًا من باب مغلق.

أخرج عتلة صغيرة. فتحتُ فمي لأقول شيئًا آخر، شيئًا يتعلق بكونها غرفة نومي، وعن الفوضى، وعن...

لكن فات الأوان. علا ضجيج طاحن، وانقلبت قطعة من اللوح الجصي إلى الأمام في الغرفة، وابتعد جاك عن طريقها بالكاد. رفعها متفاديًا بحرص المسامير الصدئة البارزة من الجوانب، وأسندها إلى جانب الخزانة. وسمعت صوته يتردد الآن.

ـ آه...

أطلق آهة طويلة راضية.

قلت بلهفة، وأنا أحاول النظر من ورائه:

ـ آه، ماذا؟

لكن جسده الضخم ملأ فتحة الباب، وكل ما استطعت رؤيته هو الظلام.

قال وهو يتراجع:

ـ انظري بنفسك. لقد كنت محقة.

وكانت هناك، تمامًا كما تخيلتها. درجات السلم الخشبية. شِباك العنكبوت المتدلية. السلم الذي يلتف إلى الأعلى في الظلام.

اكتشفت أن فمي كان جافًّا، وطقطق حلقي عندما ازدردت ريقي.

سألني جاك:

ـ هل لديك مصباح يدوي؟

وهززت رأسي، وأنا أشعر فجأة أنني غير قادرة على الحديث. هز كتفيه.

ـ ولا أنا. سنضطر إلى الاكتفاء بالهواتف. انتبهي إلى قدميك من تلك المسامير.

وتقدم إلى الأمام وسط السواد الحالك.

تجمدت تمامًا للحظة وأنا أشاهده يختفي أعلى السلم الضيق، وشعاع هاتفه بصيص رفيع وسط الظلمة، ووقع أقدامه يتردد... صرير... صرير...

كان الصوت قريبًا جدًّا من ضجيج الليلة الماضية، ومع ذلك كان فيه شيء مختلف أيضًا. كان... ملموسًا بصورة أكبر. أكثر واقعية، وسرعة، ومختلطًا مع صوت انسحاق اللوح الجصي.

سمعت من الأعلى:

ـ اللعنة!

وبعد ذلك:

ـ روان، اصعدي إلى هنا، عليك مشاهدة هذا.

كانت هناك غصة في حلقي، كما لو كنت على وشك البكاء، مع أنني كنت أعرف أنني لن أفعل. كان خوف محض استقر هناك، مما أسكتني وجعلني غير قادرة على سؤال جاك عما يوجد بالأعلى، وما الذي عثر عليه، وما الذي أرادني أن أراه بصورة عاجلة إلى هذا الحد.

بدلًا من ذلك، أضأت مصباح هاتفي بأصابع مرتجفة، وتبعته في الظلام.

وقف جاك في منتصف غرفة العلية، يحدق إلى محيطه فاغرًا فمه. كان قد أغلق هاتفه، وهناك ضوء قادم من مكان ما، ضوء رمادي ضعيف لم أتمكن من تحديد مصدره على الفور. لا بد أن هناك نافذة في مكان ما، لكن لم يكن هذا هو ما أنظر إليه. ما كنت أطالعه هي الجدران، والأثاث، والريش.

كان في كل مكان.

متناثرًا على الكرسي الهزاز المكسور في الزاوية، وفي سرير الأطفال المترب المغطى بشِباك العنكبوت، وفوق منزل الدمى المتهالك والسبورة المتربة، وفوق كومة الدمى الخزفية المحطمة المكدسة بجوار الجدار. ريش، ومزيد من الريش، ولم يكن زغبًا من وسادة ممزقة. كان هذا الريش سميكًا أسود اللون، ريش الطيران من غراب، أو غراب أسحم، على ما ظننت. كما كانت هناك رائحة الموت أيضًا.

لكن هذا لم يكن كل شيء. لم يكن حتى أسوأ ما في الأمر.

كان أغرب شيء هو الجدران، أو بالأحرى، ما كُتب عليها.

كانت هناك كلمات مُخربشة عليها جميعًا، بأحرف طفولية بألوان الشمع، بعضها صغير، والبعض الآخر كبير وكُتب على عجل. استغرق مني الأمر دقيقة أو دقيقتين حتى أتبينها، حيث كانت الأحرف مشوهة وهجاء الكلمات سيئ. لكن الكلمات التي كانت أمامي مباشرة، تلك التي تحدق إلى وجهي فوق المدفأة الصغيرة في منتصف الغرفة، كانت جلية:

نحن نكرهك

كانت العبارة نفسها تمامًا التي تهجتها مادي بأحرف المعكرونة. وأصابتني رؤيتها هنا، في غرفة مقفولة ومغلقة بالألواح، من غير الممكن أن تكون دخلتْها، بضربة في المعدة، وكأنني تلقيت لكمة. رفعتُ مصباح هاتفي إلى بعض العبارات الأخرى بنوع من الرهبة المشوبة بالشعور بالغثيان.

الأشباح لا تحبك.

إنهم يكرهونك.

نريدك أن ترحلي.

الأشباح غاضبون.

إنهم يكرهونك.

ارحلي.

إنهم غاضبون.

نحن نكرهك.

نحن نكرهك.

ارحلي.

نحن نكرهك.

مرارًا وتكرارًا، صغيرة وكبيرة، من أحرف صغيرة محفورة بكراهية مركزة في زاوية بجوار الباب، حتى الخربشات الضخمة المترامية فوق المدفأة، والتي رأيتها عندما دخلت في البداية.

نحن نكرهكِ. كانت الكلمات سيئة بما فيه الكفاية، وهي تنزلق وسط عصير برتقالي اللون عبر طبق. لكن هنا، وقد خربشتها يد مختل عبر كل شبر من الجبس، لم تكن أقل من كونها خبيثة. وسمعت في رأسي صوت مادي الصغير الباكي مرة أخرى، كأنها لهثت في أذني بالكلمات... لن يعجب ذلك الأشباح.

كان أقرب من أن يكون مصادفة. لكن في الوقت نفسه، كان ذلك مستحيلًا تمامًا. لم تكن هذه الغرفة مقفلة بالمفتاح فحسب، بل كانت مغلقة بالألواح، والمدخل الوحيد من خلال غرفة نومي. ومن دون شك، دخل

شخص ما بالأعلى هنا، ولم تكن مادي. لقد سمعت وقع تلك الأقدام التي تذرع بلا هوادة بعد لحظات فقط من التحديق إلى جسد مادي المستغرق في النوم.

لم تخط مادي تلك الكلمات. لكنها كررتها لي. مما يعني... هل كانت تكرر ما همس به أحدهم إليها...؟

ـ روان.

بدا الصوت قادمًا من مسافة كبيرة، ومن الصعب سماعه وسط الطنين الصاخب الصادر من داخل جمجمتي. من خلال ذلك الرنين، شعرت بيد على ذراعي.

ـ روان. روان، هل أنت بخير؟ تَبدين غريبة بعض الشيء.

تمكنت من الحديث، مع أن صوتي بدا غريبًا في أذني.

ـ أنا... أنا بخير... أنا على ما يرام. كل ما في الأمر... يا إلهي، من كتب ذلك؟

ـ أطفال يعبثون. ألا تظنين ذلك؟ حسنًا، ها هو تفسير الضوضاء.

دفع شيئًا ما في الزاوية بقدمه، ونظرت لأرى كومة من الريش والعظام المفتتة، لا يمسكها معًا سوى بعض الغبار.

ـ لا بد أن الوغد الصغير المسكين دخل من تلك النافذة، ولم يستطع الخروج، وخبط نفسه حتى مشارف الموت محاولًا الهرب.

أشار إلى الجدار المقابل، نحو نافذة بالغة الصغر، أكبر من ورقة بدرجة بسيطة. كانت رمادية من أثر التراب، ومفتوحة جزئيًا. ترك جاك ذراعي، وتقدم وأغلقها.

ـ أوه... أوه، يا إلهي.

وجدت أنني غير قادرة على التقاط أنفاسي. اشتد الطنين في أذني. هل كنت أعاني نوبة هلع من نوع ما؟ تلمست بحثًا عن شيء لأتمسك به، وسحقتْ أصابعي الحشرات الميتة، وأطلقتُ نشيجًا مختنقًا.

قال جاك بطريقة عملية، وقد بدا أنه اتخذ قراره:

ـ انظري، دعينا نخرج من هنا، ونحضر لك مشروبًا. سأعود بعد قليل، وأتخلص من الطائر.

أخذ يدي، وقادني بحزم نحو السلم. كان الشعور بيده الكبيرة الدافئة في يدي مُطَمئنًا بشكل لا يوصف، وللحظة تركت نفسي أنجذب نحو الباب والسلم، عائدة إلى المنزل الرئيسي. لكن بعد ذلك، تمرد شيء بداخلي. أيًّا ما كانت حقيقة غرفة العلية هذه، فلم يكن جاك هو فارسي المنقذ. ولم أكن طفلة مرعوبة بحاجة إلى الحماية من حقيقة ما يكمن خلف هذا الباب المغلق.

عندما استدار جاك جانبًا كي يمر بين كومة من الكراسي المتمايلة وصندوق دهان جاف، انتهزت الفرصة لأسحب يدي من يده.

شعر جزء مني أنني أتصرف بجحود. فقد كان يحاول أن يكون مُطَمئنًا فحسب، على الرغم من كل شيء. لكن الجزء الآخر مني كان يدرك أنني إذا وقعت في هذا الدور، فربما لن أهرب منه أبدًا، ولم أستطع السماح لجاك بأن يراني على هذا النحو، كامرأة هستيرية أخرى، مؤمنة بالخرافات، مصابة بفرط التنفس بسبب كومة من الريش، وبعض الخربشات الطفولية.

وهكذا بينما اختفى جاك أسفل السلم تجاه الطابق السفلي، أجبرت نفسي على أن أتوقف وأستدير، وألقيت نظرة أخيرة طويلة على تلك الغرفة المكسوة بالغبار، والممتلئة بالدمى والألعاب المحطمة، والأثاث المكسور، والحطام التالف لطفولة ضائعة.

أتى صوت جاك من أسفل الدرج، أجوف، ويتردد صداه أعلى الممر الضيق:

ـ روان؟ هل أنت قادمة؟

قلت:

ـ أجل!

كان صوتي أجش، وسعلت وأنا أشعر بصدري يضيق.

ـ أنا قادمة!

تحركت بسرعة كي أتبعه، وقد امتلأت فجأة بالفزع من إغلاق الباب، وأن أصير حبيسة هنا بالأعلى مع الغبار والدمى ورائحة الموت. لكن لا بد أن قدمي علقت بشيء ما، لأنني عندما وصلت إلى قمة الدرج، علت جلبة مفاجئة مندفعة، وتحركت كومة الدمى وانهارت على نفسها، وأطراف الدمى الخزفية تتصدع وهي تتخبط مع بعضها برنين مشؤوم، والغبار يتصاعد من الفساتين الرثة التي أكلتها العث.

قلت:

ـ اللعنة.

وراقبت برعب، بينما الانهيار الصغير ينحسر.

أخيرًا، ساد الهدوء، باستثناء رأس خزفي واحد مقطوع يتدحرج ببطء نحو منتصف الغرفة. كنت أدرك أن هذا هو اتجاه انحناء ألواح الأرضية المعوجة، لكن للحظة مجنونة توهمت أنه يلاحقني، وأنه سوف يتعقبني أسفل الدرج، وابتسامته الملائكية وعيناه الخاويتان تطاردني.

لكنه لم يكن أكثر من ذلك، مجرد وهم، وبعد بضع ثوانٍ وقف، وهو يهتز في مواجهة الباب.

كانت هناك عين مفقوءة، وكان هناك صدع عبر إحدى الوجنتين الورديتين، مما منح ابتسامته مظهرًا ساخرًا على نحو غريب.

سمعت في خاطري، كما لو أن شخصًا همس بها في أذني: نحن نكرهكِ.

وبعد ذلك سمعت صوت جاك مرة أخرى، يناديني من أسفل السلم، واستدرت وتبعته أسفل الدرجات الخشبية.

بدا الخروج إلى دفء وضوء باقي المنزل وكأنه عودة من عالم آخر، ربما بعد رحلة إلى «نارنيا» مظلمة وكابوسية بشكل خاص. وقف جاك جانبًا ليسمح لي بالخروج، ثم أقفل الباب خلفنا، وأغلقه بالمفتاح. صرخ

المفتاح احتجاجًا بينما هو يفعل ذلك، ثم استدرنا معًا، وتوجهنا إلى الطابق السفلي نحو المطبخ المشرق بجوه المريح المألوف.

وجدت يديَّ ترتجفان بينما كنت أحاول شطف فناجين الشاي، ووضع الغلاية على الموقد، وأخيرًا، بعد بضع دقائق قضاها وهو يراقبني، وقف جاك وتوجه نحوي.

ـ اجلسي، ودعيني أعد لك كوبًا من الشاي على سبيل التغيير. أم هل تفضلين شيئًا أقوى بعض الشيء؟ جرعة من الشراب، ربما؟

قلت وأنا مشدوهة بعض الشيء:

ـ أتقصد الويسكي؟

وابتسم ابتسامة عريضة، وأومأ برأسه.

أطلقت ضحكة مرتعشة.

ـ اللعنة، يا جاك. إنه بالكاد موعد الغداء.

ـ حسنًا، إذن. شاي فحسب. لكن اجلسي أنت هناك، بينما أتولى إعداده. دومًا ما تركضين مطارِدة أولئك الأطفال. فلتجلسي على سبيل التغيير.

لكنني هززت رأسي بعناد. لن أكون تلك المرأة. لن أكون واحدة من هؤلاء المربيات الأربع الأخريات...

ـ لا، سأعد أنا الشاي. لكن سيكون رائعًا إذا استطعت...

توقفت، محاولة التفكير في مهمة يمكنه فعله، لتخفيف رفضي لمساعدته.

ـ إذا استطعت العثور على بعض البسكويت.

تذكرت إعطاء مادي وإيلي البسكويت بالمربى بعد صدمة انطلاق مكبرات الصوت في منتصف الليل. سمعت صوتي يقول: «السكر مفيد لعلاج الصدمة»، كما لو كنت طفلة خائفة، يمكن تشجيعها حتى تستعيد البهجة من خلال مكافأة ممنوعة.

أردت أن أقول: «أنا لست هكذا في العادة»، وكان هذا صحيحًا. لم أكن مؤمنة بالخرافات، ولم أكن أتوتر بسهولة، ولم أكن من ذلك النوع من الأشخاص الذي يرى علامات ونُذرًا في كل زاوية، ويرسم علامة الصليب كلما لمح قطة سوداء في يوم الجمعة، الموافق للثالث عشر من الشهر. لم تكن هذه أنا.

لكن لثلاث ليالٍ الآن، لم أنم، أو أحصل على أقل قسط ممكن من النوم. وبصرف النظر عما حاولت أن أقوله لنفسي، فقد سمعت تلك الأصوات بالفعل، بدرجة مرتفعة وواضحة، ولم تكن لطائر، مهما ظن جاك. كان من الممكن أن يكون التخبط الطائش المذعور لطائر حبيس مخيفًا بما فيه الكفاية، لكنه لم يكن يشبه ذلك الصرير البطيء المنتظم الذي أبقاني مستيقظة، ليلة تلو ليلة. وإلى جانب هذا، كان ذلك الطائر ميتًا، منذ زمن طويل. من المستحيل أن يكون أحدث ضوضاء في الليلة الماضية، أو في أي ليلة منذ فترة طويلة. في الواقع، إذا حكمنا من خلال الرائحة وحالة التحلل، فمن المحتمل أنه كان موجودًا هناك منذ عدة أسابيع.

الرائحة...

لقد بقيتْ معي، عفنة وخانقة في أنفي. وبينما كنت أحمل الشاي إلى الأريكة، وجدت أنني لا يزال بوسعي شمها، مع أنني غسلت يدي. لقد تشبثتْ بملابسي، وشعري، وعندما نظرت إلى الأسفل، رأيت خطًّا طويلًا من اللون الرمادي على كُم سترتي.

كانت الشمس قد حُجبت، وعلى الرغم من التدفئة تحت الأرضية، لم تكن الغرفة دافئة على وجه الخصوص، لكنني خلعت السترة ووضعتها جانبًا. شعرت أنني أُفضل أن أتجمد عن أن أرتديها مرة أخرى.

ـ هاكِ.

جلس جاك إلى جواري، وجعل نوابض الأريكة تصدر صريرًا، وناولني

بسكويت شاي غنيًّا. غمسته تلقائيًّا في الشاي، ثم تناولت قضمة وارتجفت. لم أتمالك نفسي.

ـ هل تشعرين بالبرد؟

ـ إلى حد ما. ليس بالفعل. أعني، لديَّ سترة، كل ما في الأمر أنني لم... لم أستطع...

ازدردت ريقي، وبعد ذلك، شعرت بالحماقة، وأومأت إلى مسحة غبار العلية الذي لاحظته على الكُم.

ـ لا أستطيع إخراج رائحة ذلك المكان من رأسي. ظننت أنها ربما تكون عالقة في سترتي.

قال بهدوء:

ـ أتفهَّم ذلك.

وبعد ذلك، كما لو كان يقرأ أفكاري، خلع سترته المتسخة بشِباك العناكب، ووضعها جانبًا. كان يرتدي تحتها قميصًا فحسب، لكن على النقيض من البرد الذي أحسست به، كانت ذراعاه دافئتين. دافئتين للغاية، لدرجة أنني شعرت بحرارة بشرته بينما نحن جالسان، من دون أن نتلامس تمامًا، لكننا كنا قريبين بدرجة غير مريحة على الأريكة الصغيرة التي تتسع لشخصين.

قال:

ـ إنك مصابة باقشعرار الجلد في كل ذراعيك.

بعد ذلك، ببطء، وكأنما يمنحني الوقت للابتعاد، مد يده وفرك جلد أعلى ذراعي بلطف. ارتجفت مرة أخرى، لكن لم يكن البرد هو السبب. وللحظة طالت، انتابتني رغبة كادت تغمرني، بأن أغمض عيني وأميل إليه.

قلت:

ـ جاك.

في اللحظة نفسها التي تنحنح فيها، وطقطق جهاز مراقبة الأطفال الموضوع على الطاولة مُصدرًا صوت عويل.

بيترا.

ـ من الأفضل أن أذهب لإحضارها.

وقفتُ وأنا أضع الشاي على الطاولة، ثم ترنحت عندما طغت عليَّ نوبة مفاجئة من الدوار، من أثر الوقوف بسرعة كبيرة.

ـ مهلًا.

وقف جاك أيضًا، واضعًا يده على ذراعي ليثبتني.

ـ مهلًا، هل أنتِ بخير؟

ـ أنا بخير.

كان ذلك صحيحًا، حيث مرت لحظة الشعور بالدوار.

ـ إنه ليس شيئًا يُذكر. أعاني انخفاض ضغط الدم في بعض الأحيان. وأنا فقط... لم أنَم جيدًا الليلة الماضية.

أف. سبق وأن أخبرته بذلك بالفعل. سيظن أنني أنهار، مضيفًا فقدان الذاكرة إلى قائمة نقاط ضعفي. لقد كنت أفضل من هذا. وأقوى من هذا. يجب أن أكون كذلك.

كنت أرغب في سيجارة بشدة، لكن السيرة الذاتية التي سلمتها إلى ساندرا ذكرتْ أنني «غير مدخنة». ولم يكن بوسعي المجازفة بتحطيم هذه الفكرة تحديدًا. ربما أجد كل شيء قد انهار.

وجدت نفسي ألقي نظرة سريعة إلى الأعلى، نحو العين البيضاوية الشكل الكائنة في زاوية الغرفة، والتي تراقب باستمرار.

سألت:

ـ جاك، ماذا سنقول لساندرا؟

ثم طقطق جهاز مراقبة الأطفال مرة أخرى، وانبعثت منه صرخة أكثر تصميمًا هذه المرة، يمكنني سماعها من خلال مكبرات الصوت، وآتية عبر السلم أيضًا.

قلت:

- انتظر لحظة.

وهرعت بسرعة إلى السلم.

عدت إلى الطابق السفلي بعد عشر دقائق، ومعي بيترا التي غيرت حفاضتها حديثًا، وهي معتلة المزاج وترمش بعينيها، وتبدو مشعثة ومرتبكة كما كنت أشعر أنا. حدقتْ بغضب إلى جاك عندما عدتُ إلى المطبخ، ويداها الصغيرتان تقبضان على قميصي مثل حيوان صغير من الجرابيات. لكن عندما داعبها أسفل ذقنها، منحته ابتسامة صغيرة على مضض، وبعد ذلك ابتسامة حقيقية عندما رسم على وجهه تعبيرًا فكاهيًّا، حيث ضحكتْ ثم أبعدتْ وجهها للجانب الآخر بذلك الأسلوب المضحك الذي يتبعه الأطفال عندما يدركون أن هناك من يستميلهم ليُسري عنهم رغم أنفهم.

استسلمتْ للجلوس في مقعد مرتفع، مع بعض فصوص اليوسفي، ثم استدرتُ إلى جاك مرة أخرى.

- كنت أقول للتو، ساندرا وبيل. يجب أن نخبرهما بأمر غرفة العلية، أليس كذلك؟ أم هل تظن أنهما يعلمان؟

قال جاك بتفكر:

- لست متأكدًا.

فرك ذقنه، وأصابعه تكشط لحيته الخفيفة الكستنائية الداكنة.

- إنهما مثاليان نوعًا ما، وطريقة إغلاق تلك الخزانة بالألواح من الداخل لا تبدو وكأنها من عملهما. ولا أعتقد أنهما سيتركان كل ذلك الهراء بالأعلى.

قال بنبرة رسمية، وهو ينحني لها انحناءة ساخرة صغيرة:

- آسف، عذرًا على ألفاظي، يا بيترا. ما قصدت قوله هو كل تلك النفايات. لقد نظفا المنزل عندما انتقلا إليه، حسب ما فهمت. لم أبدأ العمل إلا بعد عامين من شرائهما له، لذا لم أرَ التجديدات، لكن بيل سيثرثر بلا توقف

إذا منحته ذريعة للتحدث عن العمل. لا أتخيل أنهما سيتجاهلان شيئًا كهذا. لا، حسب ما أظن، فهما لم يفتحا الخزانة قَطُّ، ولم يعرفا بوجود غرفة العلية. كان المفتاح جامدًا للغاية، ويمكن إيجاد العذر للمرء لو ظن أن لديه المفتاح الخاطئ. لم أفتح عنوة سوى لأنني وغد عنيد.

قلت ببطء:

ـ لكن... حديقة السموم. لقد تجاهلاها فحسب، أليس كذلك؟

نظر إليَّ بدهشة.

ـ حديقة السموم؟ كيف عرفتِ بشأنها؟

قلت باقتضاب:

ـ أدخلتني إليها الفتيات. لم أعرف ماهيتها حينئذ. لكن ما أقصده هو أنهما فعلا الشيء نفسه هناك، أليس كذلك؟ أغلقا الباب، ونسيا أمرها؟

قال جاك ببطء:

ـ حسنًا، أنا... حسنًا أظن أن ذلك مختلف بعض الشيء. لم يتدخلا قَطُّ تدخلًا مباشرًا في الأراضي المحيطة بالمنزل، كما فعلا في المنزل نفسه. لكن مع ذلك، لا يوجد شيء بالأعلى يمكنه أن يتسبب في الأذى لأي شخص.

ـ ماذا عن الكتابة؟

ـ أجل، هذا غريب بعض الشيء. أعترف بصحة ذلك.

تناول رشفة طويلة من الشاي، وقطب حاجبيه.

ـ بدا ذلك وكأنه من عمل طفل، ألا تظنين ذلك؟ لكن تبعًا لجين، فلم يكن هناك أطفال في المنزل لأكثر من أربعين عامًا، عندما انتقل إليه آل إلينكورت.

ـ بدا بالفعل وكأنه من عمل طفل.

عاد تفكيري إلى مادي، ثم إلسبيث، وبعد ذلك إلى وقع الخطوات الثقيلة الشبيهة بخطى رجل، التي سمعتها ليلة تلو ليلة. لم تكن تلك وقع خطى طفل.

أضفت قائلة ببطء:

ـ أو... شخص ما يتظاهر بأنه طفل.

وأومأ هو.

ـ قد يكونون مخربين، على ما أظن، يحاولون إخافة الناس. صحيح أن المنزل ظل خاليًا لفترة طويلة. لكن... كلا، هذا غير منطقي. من غير المحتمل أن يكون المخربون قد أغلقوها بالألواح بعد رحيلهم. لا بد أن يكون المُلاك السابقون هم من فعلوا ذلك.

ـ الدكتور جرانت...

توقفت، محاولة التفكير في كيفية صياغة السؤال الذي كان يحوم في ذهني منذ أن قرأت مقال الصحيفة.

ـ هل كنت... أعني، هل أنت...؟

قال جاك:

ـ أمتٌّ له بصلة قرابة؟

أطلق ضحكة، وهز رأسه.

ـ يا إلهي، كلا. هناك كثيرون ممن يحملون لقب جرانت هنا. أظن أننا كنا جميعًا جزءًا من العشيرة نفسها في الماضي، لكن لا توجد صلة بين عائلاتنا في الوقت الحاضر. لم يسبق حتى وأن سمعت عن الرجل، إلى أن بدأت العمل هنا. الوغد المسكين، قتل ابنته. أليس ذلك هو ما يقال؟

ـ لا أدري.

نظرت إلى بيترا، إلى منحنى جمجمتها اللينة الضعيفة تحت الشعر الشبيه بالزغب.

ـ لا أعرف ما حدث لها. لقد تناولت توتًا سامًّا، تبعًا للتحقيق.

ـ سمعت أنه أطعمها تجربة ما من اختباراته. هذا هو ما سيخبركِ به الناس في كارن بريدج إذا سألتِهم.

ـ يا إلهي.

هززت رأسي، مع أنني لم أكن متأكدة إذا كان ذلك بدافع من الإنكار أو الاشمئزاز. كان هناك شيء مزعج بدرجة لا توصف في سماع ذلك الاقتراح بصوت جاك المبتهج الواقعي، ولم أكن متأكدة مما أزعجني أكثر، فكرة أن الدكتور جرانت ربما يكون قتل طفلته وأفلت بالأمر، أو حقيقة أن الثرثرة المحلية قد حاكمته على ما يبدو وأدانته بوصفه قاتلًا، في غياب أي دليل ملموس.

مع ذلك، بدا من المستحيل أن يسمِّم أحد طفلته، ومن غير المحتمل أن يتناسب ذلك مع الوجه الشرس المحزون الذي شاهدته على الإنترنت. بدا وكأنه رجل دمره ألمه ويأسه. وفجأة، أحسست برغبة شرسة في الدفاع عنه.

ـ ذكر المقال الذي قرأته أن إلسبيث قطفت توت كرز الغار بطريق الخطأ، وهي تظن أنه توت البيلسان أو شيء من هذا القبيل، وصنعت منه الطاهية المربى من دون أن تدرك ماهيته. لا أستطيع رؤية كيف يمكن أن يكون ذلك أكثر من مجرد -حادث.

ـ حسنًا، سيحاول الناس هنا إقناعكِ بأنه كان...

توقف وهو ينظر إلى بيترا، وبدا أنه تراجع عما كان على وشك النطق به، مع أنها كانت أصغر من أن تفهم أيًا من ذلك. أدركتُ شعوره. كان هناك شيء كريه في مناقشة مثل هذه الأمور الفظيعة أمامها.

ـ حسنًا، لا عليكِ. إنها ليست حكاية لطيفة في كلتا الحالتين.

أفرغ فنجانه، ووضعه بعناية في غسالة الأطباق، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة ساخرة، مختلفة تمامًا عن دفء ابتسامته الصريحة الواسعة المعتادة.

ـ هناك سبب لكون المنزل ظل خاليًا لعِقد من الزمان قبل أن يشتريه بيل وساندرا. لا يوجد كثيرون من هذه الأرجاء ممن كانوا سيُقدِمون على العيش في منزل «ستروان»، حتى لو كان لديهم المال اللازم لتجديده.

«ستروان». جعلني الاسم الوارد في المقال أشعر ببعض الوخز، تذكيرًا

بأن أيًّا كان ما فعله بيل وساندرا لمحوه، فقد كان لهذا المنزل ماضٍ، وكان الناس في كارن بريدج يتذكرونه. لكن جاك كان يواصل الحديث، من دون انزعاج.

ـ ما الذي تريدينني أن أفعله حيال ذلك، إذن؟

سألت بدهشة:

ـ أنا؟ لماذا عليَّ أنا اتخاذ القرار؟

ـ حسنًا، إنها تؤدي إلى غرفة نومك أنت. أنا لست رجلًا يؤمن بالخرافات، لكنني عن نفسي لن أحب النوم بالقرب من كل ذلك.

ارتجفت، عاجزة عن تمالك نفسي.

ـ أجل، ولا أنا. إذن... ما خياراتي؟

ـ حسنًا، أظن أنني يمكنني إغلاقها بالألواح، ونترك الأمر لساندرا وبيل كي يتخذا القرار عند عودتهما. أو يمكنني محاولة... تنظيف غرفة العلية بعض الشيء.

ـ تنظيفها؟

قال:

ـ تغطية بعض تلك الكتابات بالدهان، لكن ذلك سوف يعني تركها مفتوحة. أعني، يمكنني إغلاق الباب بالمفتاح، لكن الأمر لن يستحق إغلاقها بالألواح الخشبية من الداخل مرة أخرى إذا كنا نخطط للدخول ثانية. لا أعرف شعوركِ حيال ذلك.

أومأت برأسي، وأنا أعض شفتي. في الحقيقة، لم أكن أريد النوم في الغرفة مرة أخرى، وفي الواقع لم أكن متأكدة ما إذا كان بوسعي ذلك. فكرة الاستلقاء على ذلك الفراش، والاستماع إلى صرير... صرير... الألواح مع وجود تلك الكتابة المختلة على بُعد بضع أقدام مني فحسب، وراء شيء لا تزيد قوته على باب خزانة مغلق... حسنًا، أثار ذلك خوفي. لكن فكرة إعادة إغلاق الغرفة بالألواح الخشبية لم تبدُ أفضل كثيرًا أيضًا.

قلت أخيرًا:

ـ أعتقد أنه يجب أن ندهنها، إذا وافقت ساندرا وبيل بالطبع. لا يمكننا... لا يمكننا أن نتركها فحسب. إنها فظيعة للغاية.

أومأ جاك. ثم أخرج مجموعة المفاتيح من جيبه الخلفي حيث وضعها، وبدأ يُخرج مفتاح غرفة العلية الطويل الأسود بعيدًا عن المجموعة.

سألت في اللحظة نفسها التي خرج فيها مُصدرًا تكة صغيرة:

ـ ماذا تفعل؟

مد يده به.

ـ خذيه.

ـ أنا؟ لكنني لا أريد...

ازدردت ريقي، محاولة عدم إظهار عمق الاشمئزاز الذي شعرت به.

ـ لا أرغب في الصعود إلى هناك.

ـ أعرف ذلك. لكن لو كنت مكانك، سأشعر براحة أكبر وأنا أعرف أن بحوزتي المفتاح في يدي.

ضغطت شفتيَّ معًا، ثم أخذت منه المفتاح. كان ثقيلًا وباردًا للغاية. لكن لدهشتي، كان محقًّا. كان هناك شيء ما... ليس الشعور بالقوة على وجه التحديد، لكن على الأقل الشعور الوهمي بالسيطرة، وأنا أمسك المفتاح بيدي. كان ذلك الباب مغلقًا. وكنت أنا فقط من تملك القدرة على فتحه.

دفعته داخل جيب سروالي الجينز. كنت أحاول التفكير فيما سأقوله، عندما أومأ جاك مرة أخرى، لكن هذه المرة نحو ساعته.

ـ هل تعلمين كم الساعة؟

نظرت إلى هاتفي.

ـ اللعنة.

لقد تأخرت على جلب الفتيات من المدرسة.

ـ من الأفضل أن أذهب، لكن... لكن أشكرك، يا جاك.

ـ على ماذا؟

بدا متفاجئًا حقًّا.

ـ على المفتاح؟

ـ ليس ذلك. فقط... لا أدري. لأنك أخذتني على محمل الجد. لأنك لم تجعلني أشعر بالحماقة لكوني خائفة.

لانت ملامحه.

ـ اسمعي. لقد أخافتني تلك الكتابة أنا أيضًا، وأنا أقيم على مبعدة عبر الفناء. لكن الأمر انتهى، اتفقنا؟ لا مزيد من الضوضاء الغامضة، ولا مزيد من الكتابة، ولا مزيد من التساؤل عما يقع خلف ذلك الباب. نحن نعرف الآن، وهو مخيف، ومحزن بعض الشيء، لكنه انتهى، اتفقنا؟

قلت:

ـ اتفقنا.

وأومأت. كان يجب أن أعرف أن ذلك أروع من أن يكون حقيقيًّا.

لقد شعرت بالخوف كثيرًا في السجن، يا سيد ريكسام. في الليلة الأولى، بينما كنت مستلقية هناك، أستمع إلى ضحكات النساء الأخريات وصيحاتهن وصرخاتهن، محاولة اعتياد إحساس الجدران الخرسانية الضيقة التي تحيط بي، وفي كثير وكثير من الليالي التالية لذلك. وبعد ذلك، عندما ضربتني إحدى الفتيات الأخريات في الكافتيريا، وتم نقلي إلى جناح آخر من أجل حمايتي، بينما كنت أرقد هناك وأنا أرتعد في زنزانة غريبة، وأتذكر الكراهية المرتسمة على وجهها، وطريقة انتظار الحراس للحظة طفيفة طالت جدًّا قبل تدخلهم، وأنا أعد الساعات تنازليًّا حتى اليوم التالي، عندما سأضطر إلى مواجهتهن جميعًا مرة أخرى. والليالي التي تأتي فيها الأحلام، وأرى وجهها ثانية، وأستيقظ ورائحة الدم النتنة في أنفي، وأنا أرتعد وأرتجف.

يا إلهي، لقد أحسست بالخوف.

لكنني لم أشعر بالخوف على الإطلاق كما شعرت به في تلك الليلة في منزل «هيذربراي».

راحت الفتيات في النوم مبكرًا، لحسن الحظ، واستغرق ثلاثتهن في النوم بحلول الساعة الثامنة والنصف.

وهكذا، في الساعة التاسعة إلا الربع، صعدت السلم متوجهة إلى غرفة النوم في الطابق العلوي، ولم يعُد بوسعي التفكير فيها بوصفها غرفة نومي أنا. وجدت أنني كنت أحبس أنفاسي عندما لمست مقبض الباب. لم أستطع منع نفسي من تخيل شيء مروع يطير خارجًا ويتربص بي، طائر يخدش

وجهي، أو ربما تكون الكتابة قد انتشرت مثل السرطان من خلف الباب المغلق، عبر جدران غرفة النوم. لكن عندما أجبرت نفسي أخيرًا على إدارة المقبض، وفتحت الباب بعنف جعله يصطدم بالجدار، لم يكن هناك شيء. كان باب الخزانة مغلقًا، وبدت الغرفة تمامًا كما كانت في تلك الليلة الأولى التي رأيتها فيها، باستثناء بضع بقع من الغبار خلفتها أقدامي أنا وجاك على السجادة ونحن في عجلة من أمرنا للخروج من غرفة العلية.

ومع ذلك، كنت أعرف أنه لا يمكنني النوم هنا على الإطلاق، لذا زحفت بيدي أسفل وسادتي، وقبضت على منامتي بسرعة، وكأنني أتوقع العثور على شيء كريه هناك في انتظاري. ارتديت منامتي في الحمام، وغسلت أسناني، ثم لففت لحافي وحملته إلى الطابق السفلي، إلى غرفة التلفزيون.

كنت أعلم أنني إذا استلقيت وانتظرت أن يأتيني النوم، فسوف أنتظر وقتًا طويلًا، ربما طوال الليل، بينما تزعجني صور غرفة العلية، والكلمات المكتوبة على الجدار تهمس بنفسها مرات ومرات في أذني. بدا الخيار الأفضل هو تخدير نفسي بالنسيان من خلال فيلم مألوف حتى أغرق في النوم. على الأقل إذا كانت لديَّ ضحكات مسجلة عالية ترن في أذني، فلن أجفل من كل لوح أرضي معوج، وكل زفير من الكلبين. لم أكن متأكدة مما إذا كان بوسعي أن أحتمل الاستلقاء هناك في صمت، في انتظار أن يبدأ الصرير من جديد.

بدا مستوى حدة المسلسل التلفزيوني «الأصدقاء» ملائمًا، وشغلته على شاشة التلفزيون العريضة الضخمة، وسحبت اللحاف إلى ذقني... ونمت.

عندما استيقظت، كان ذلك مع شعور بالارتباك التام. كان التلفزيون قد تحول إلى وضع الانتظار في أثناء الليل، وكان ضوء النهار يتدفق أسفل ستائر التعتيم في غرفة التلفزيون.

كان هناك حمل ثقيل وحار على ساقي... لا... حملان ثقيلان، وأحسست

بضيق ولهاث في صدري. سحبت نفسي إلى وضعية الجلوس، ودفعت شعري بعيدًا عن عيني، ونظرت إلى الأسفل، متوقعة أن أرى الكلبين، لكن لم يكن هناك سوى وحش واحد أسود كثيف الشعر ممددًا عند قدم الأريكة. كان الجسد الصغير الحار الآخر هو إيلي.

قلت بصوت أجش:

ـ إيلي؟

ثم تحسست داخل جيب روبي. كان جهاز استنشاقي هناك، كما هو الحال دائمًا، لكنه اصطدم بشيء غير مألوف عندما أخرجته، وباندفاع غريب تذكرت المفتاح، وجميع الأحداث المجنونة بالأمس. بعد ذلك، مسحت الجزء الخاص بالفم في جهاز الاستنشاق على روبي، ووضعته على شفتي، وأخذت نفَسًا طويلًا، مما أصدر صفيرًا. كان الارتياح فوريًّا، وأخذت نفَسًا أعمق، شاعرة بالارتخاء في صدري. ثم قلت مرة أخرى بصوت أعلى:

ـ إيلي، حبيبتي، ما الذي تفعلينه هنا؟

استيقظت وهي ترمش بعينيها، شاعرة بالارتباك، ثم أدركت أين كانت، ومنحتني ابتسامة.

ـ صباح الخير، يا روان.

ـ صباح الخير لك أيضًا، لكن ما الذي تفعلينه هنا بالطابق السفلي؟

ـ لم أستطع النوم. رأيت حلمًا مزعجًا.

ـ حسنًا، اتفقنا، لكن...

لكن ماذا؟ لم أكن متأكدة مما يجب أن أقوله. صدمني وجودها. كم من الوقت قضته وهي تتجول بمفردها في المنزل الليلة الماضية من دون أن أسمعها؟ من الواضح أنها تمكنت من النهوض من الفراش، وأتت إلى الطابق السفلي، ونامت بجواري من دون أن أسمع شيئًا.

مع ذلك، لم يبدُ أن هناك كثيرًا مما يمكنني قوله عند هذه النقطة، لذا فركت النوم من عيني فحسب، ثم سحبت ساقي من تحت الكلب، ووقفت.

عندما فعلت ذلك، سقط شيء ما من ثنايا اللحاف، واصطدم بالأرض بفرقعة خافتة شبيهة بصوت الخزف.

جعلني الصوت أجفل. هل قلبت كوب قهوة منسيًّا، أو شيئًا ما؟ تناولت الحليب الساخن الليلة الماضية، لكن كان بإمكاني أن أقسم أنني تركت الكوب بأمان على طاولة القهوة. في الواقع، نعم، كان الكوب لا يزال هناك قابعًا فوق قاعدة الأكواب. إذن ما الذي أصدر الضجيج؟

لم أرَه إلا عندما رفعت الستارة وطويت اللحاف. كان قد تدحرج إلى منتصف الطريق أسفل الأريكة، قبل أن يتوقف في مواجهتي، بحيث بدت عيناه الصغيرتان الشريرتان وابتسامته المشروخة وكأنها تسخر مني.

كان رأس الدمية من غرفة العلية.

كان الشعور الذي غمرني... كان كما لو أن أحدهم سكب دلوًا من الماء المثلج على رأسي وكتفي، طوفان غامر من الخوف الخالص الباعث على الشلل، خلفني غير قادرة على فعل شيء، سوى الوقوف هناك، وأنا أرتجف وألهث وأرتعد.

سمعت صوت إيلي الرفيع الصغير، كما لو كان من مسافة بعيدة، وهي تقول:

ـ روان، هل أنت بخير؟ هل أنت على ما يرام، يا روان؟ شكلك يبدو غريبًا.

تَطَلَب الأمر مني جهدًا كبيرًا لأسحب نفسي من حافة الذعر، وأدرك أنها كانت تحادثني، وأنني بحاجة إلى الرد.

ـ روان!

كان هناك أنين خائف في صوتها الآن، وجذبتْ قميص منامتي، وأصابعها الصغيرة باردة على جلد خصري.

ـ روان!

تمكنت من الرد:

ـ أنا... أنا بخير يا عزيزتي.

كان صوتي غريبًا وأجش في أذني، وأردت أن أتلمس طريقي إلى الأريكة كي أجلس، لكنني لم أستطع حمل نفسي على الاقتراب من ذلك... ذلك الشيء، بابتسامته الصغيرة الساخرة.

لكن كنت مضطرة إلى ذلك. لم يكن بوسعي تركه بالأسفل هناك، مثل قنبلة يدوية صغيرة قبيحة، تنتظر الانفجار.

كيف؟ كيف وصل إلى هناك؟ كان جاك قد أغلق الباب بالمفتاح. رأيته وهو يفعل ذلك. وقد سبقني نزولًا على الدرج. وكان المفتاح بحوزتي في جيبي. كنت أشعر به، دافئًا على فخذي، بفعل حرارة جسدي. هل قمتُ أنا... هل يمكن أن أكون...؟

لكن لا. كان ذلك منافيًا للعقل. مستحيلًا.

ومع ذلك، ها هو هناك.

بينما كنت واقفة هناك، أحاول تمالك نفسي، انحنت إيلي لترى ما الذي أحدق إليه، وأصدرت صرخة صغيرة:

ـ دمية!

جلستِ القرفصاء، ومؤخرتها بارزة في الهواء كطفلة صغيرة، حيث كانت لا تزال صغيرة بالفعل إلى حد ما، ومدت يدها. وسمعت زئيرًا في أذني، وصوتي يصرخ:

ـ إيلي، بحق السماء، لا تلمسيه!

وشعرت بنفسي أختطفها وأرفعها إلى الأعلى، تقريبًا قبل أن أدرك ما كنت سأفعله.

سادت لحظة طويلة من الصمت، وإيلي تتدلى مرتخية وثقيلة بين ذراعي، وأنفاسي لاهثة في أذني، ثم تيبس جسدها بالكامل، وأطلقتْ صرخة صدمة غاضبة، وشرعتْ في البكاء، بكل الشعور بخيبة الأمل والدهشة لطفل تم توبيخه على شيء لم يكن يدرك أنه خاطئ.

شرعتُ في الحديث:

ـ إيلي.

لكنها كانت تقاوم بين ذراعي، ووجهها أحمر، وقد تقلص بفعل الضيق والغضب.

ـ إيلي، انتظري، لم أقصد...

صرختْ:

ـ دعيني أذهب!

كان شعوري الغريزي هو أن أحكم ذراعي حولها، لكنها كانت تضرب مثل قطة، وتغرس أظافرها في ذراعي.

ـ إيلي... إيلي، اهدئي، إنك تؤذينني.

ـ لا يهمني ذلك! دعيني أذهب!

جثوتُ على نحو مؤلم، محاولة إبعاد وجهي عن يديها اللتين تضربان، وتركتها تنزلق إلى الأرض، حيث انهارت على السجادة وهي تنتحب.

ـ أنت شريرة! لقد صرخت!

ـ إيلي، لم أتعمد إخافتك، لكن تلك الدمية...

صرختْ:

ـ ابتعدي! أنا أكرهك!

ثم أسرعتْ واقفة على قدميها، وركضتْ من الغرفة، وتركتني أفرك الخدوش في ذراعي بأسف. سمعت وقع قدميها على السلم، ثم باب غرفتها وهو يُصفَق.

تنهدتُ، وتوجهت إلى المطبخ، ونقرت على الجهاز اللوحي. عندما نقرت على الكاميرا، رأيت إيلي نائمة ووجهها للأسفل في الفراش، وهي تبكي بوضوح، وكانت مادي تفرك عينيها بنعاس، شاعرة بالدهشة والحيرة لإيقاظها على هذا النحو.

اللعنة. لقد أتت إليَّ الليلة الماضية بحثًا عن الطمأنينة. وللحظة ظننت أننا نحقق تقدمًا. والآن ها قد أفسدت الأمر. مرة أخرى.

وكان كل ذلك بسبب رأس تلك الدمية الصغيرة الكريهة.

كان يجب أن أتخلص منه، لكن بطريقة ما، لم أستطع حمل نفسي على لمسه. وفي النهاية، ذهبت إلى غرفة المرافق، وجلبت كيس نفايات بلاستيكيًّا. لبسته على يدي بالمقلوب، كقفاز مرتجل، ثم جثوت ومددت يدي أسفل الأريكة.

وجدت أنني كنت أحبس أنفاسي على نحو سخيف، بينما مددت يدي إلى المكان المظلم المترب بعض الشيء، وأصابعي تتحسس بحثًا عن الرأس الصغير الصلب. لمست الشعر أولًا، بضع خصلات متناثرة فحسب، حيث كان الرأس الخزفي الصغير أصلع تقريبًا، واستخدمته لجذب الرأس نفسه على مسافة أقرب، ثم أغلقت يدي فوقه بحركة واحدة ثابتة وسريعة، مثل التقاط فأر نافق، أو حشرة ما تخشى أنها لا تزال باستطاعتها أن تلدغك، على الرغم من كونها نافقة.

كنت أقبض عليه بقوة، وكأن قوة قبضتي يمكن أن تمنعه من الانفجار، أو الهرب من بين براثني. لم يفعل أيًّا من ذلك. لكن بينما كنت أقف بحذر، شعرت بشيء يوخز إصبعي السبابة، شظية من الزجاج، حادة للغاية، لدرجة أنني شعرت بها بالكاد وهي تنغرس. اخترقتِ الكيس نفسه، وانغرستْ في إصبعي، وتسببتْ في إراقة الدماء التي أخذتْ تقطر الآن بإيقاع ثابت على الأرض الخشبية. أدركتُ أن الرأس لم يكن من الخزف، بل من الزجاج الملون.

جذبت الزجاج من إصبعي عند الحوض، ثم لففت يدي بقطعة من مناديل المطبخ، قبل أن ألف الرأس نفسه بمنشفة صحون، ثم كيس نفايات آخر. ربطت قمته، وحشرته عميقًا، في أعماق صندوق القمامة، وشعرت أنني أدفن جثة. كانت إصبعي تنبض عندما ضغطت عليها، مما جعلني أجفل.

ـ ما الذي حدث لإيلي؟

جعلني الصوت أثب، كما لو تم ضبطي وأنا أخفي الدليل على ذنب ما.

وعندما استدرت، رأيت مادي تقف في مدخل الباب. كان تعبيرها أقل عدوانية بعض الشيء من المعتاد، ومع كون شعرها مشعثًا، بدت كما كانت بالفعل، مجرد فتاة صغيرة ذات شعر مهوش من أثر النوم على نحو كوميدي، استيقظتْ في وقت مبكر للغاية.

قلت بأسى:

ـ أوه... هذا خطئي. أخشى أنني صرخت فيها. كانت على وشك أن تلمس بعض الزجاج المكسور، وأخفتها وأنا أحاول منعها. أظن أنها اعتقدتْ أنني غاضبة... لم أُردها أن تؤذي نفسها فحسب.

ـ قالت إنك عثرت على دمية، ولم تسمحي لها باللعب بها؟

ـ مجرد رأس.

لم أرغب في الخوض في الأسباب والعلل مع مادي.

ـ لكنه كان مصنوعًا من الزجاج، وحادًّا حيث انشرخ. لقد جرحت نفسي وأنا أتخلص منه.

مددت يدي كدليل، وأومأتْ هي بجدية، راضية على ما يبدو بتوضيحي غير المكتمل.

ـ حسنًا. هل يمكنني تناول كوكو بوبس على الإفطار؟

ـ ربما. لكن، مادي...

توقفتُ وأنا غير متأكدة تمامًا من كيفية صياغة ما أريد أن أسأله. شعرت أن تقاربنا بدا هشًّا للغاية، لدرجة أنني خشيت تعريضه للخطر، لكن الأسئلة التي تطن في رأسي، كانت أكثر من أن أتخلى عن الموضوع تمامًا.

ـ مادي، هل سبق لك أن... هل تعرفين من أين أتت الدمية؟

ـ ما الذي تعنينه؟

كان وجهها حائرًا وبريئًا.

ـ لدينا كثير من الدمى.

ـ أدري، لكن هذه دمية مميزة، قديمة الطراز.

لم أستطع حمل نفسي على إخراج الرأس الكابوسي المكسور من صندوق القمامة، لذا بدلًا من ذلك، أخرجت هاتفي وبحثت في صور «جوجل» عن «دمية فيكتورية»، ومررت للأسفل حتى عثرت على واحدة كانت نسخة أقل خبثًا بعض الشيء من الدمية التي من غرفة العلية. حدقتْ إليها مادي، عابسة.

- كانت هناك واحدة تشبهها على التلفزيون ذات مرة. كان برنامجًا عن بيع «الأنكيتات».

- «الأنكيتات»؟

رمشتُ بعيني.

- أجل، الأشياء القديمة التي تساوي كثيرًا من المال. أرادت سيدة بيع دمية قديمة مقابل المال، لكن الشخص المسؤول عن البرنامج أخبرها أنها ليست ذات قيمة.

- أوه... الأنتيكات. أعرف البرنامج الذي تقصدينه. لكن ألم يسبق وأن رأيتِ واحدة في الحقيقة؟

قالت مادي:

- لا أظن ذلك.

استدارت مبتعدة، وحاولتُ قراءة تعبيرها. هل كان سلوكها لا مبالٍ فيه بدرجة زائدة؟ ألن يسأل الطفل العادي أسئلة أكثر من هذا؟ لكنني نفضت صدمتي بعد ذلك. بدأ هذا التشكك في كل شيء يشارف حد جنون الارتياب. إن الأطفال يتصفون بالانغماس في الذات. كنت أعرف ذلك جيدًا بما فيه الكفاية من الحضانة. بل إنه يوجد حتى الكثير من البالغين ممن يتصفون باللامبالاة بدرجة كافية لكي لا يطرحوا الأسئلة حول شيء كهذا.

كنت أحاول استنباط طريقة لإعادة المحادثة إلى الكتابة على الحائط ومعكرونة الأحرف الخاصة بمادي، عندما غيرتِ الموضوع فجأة،

وأعادته إلى سؤالها الأصلي، بأحادية التفكير التي يتميز بها الأطفال الصغار.

ـ إذن، هل يمكنني تناول كوكو بوبس على الإفطار؟

ـ حسنًا...

عضضت شفتي. أخذ استهلاك الأطعمة «العرضية» في قائمة ساندرا يزيد أكثر فأكثر كل يوم. لكن من جهة أخرى، يجب ألا تحتفظ بها في المنزل، إذا لم تكن تريد أن يتناولها الأطفال، أليس كذلك؟

ـ نعم، أظن ذلك، لهذا اليوم فقط. لكن هذه هي المرة الأخيرة هذا الأسبوع، اتفقنا؟ سنعود لتناول «ويتابيكس» غدًا. اصعدي وارتدي زيك المدرسي، وسوف أعده ليكون جاهزًا عند نزولك. أوه، وهلا أخبرتِ إيلي أن هناك طبقًا من أجلها أيضًا، إذا كانت تريده؟

أومأتْ برأسها، وبينما اختفتْ في الطابق العلوي، مددتُ يدي إلى الغلاية.

كنت أطعم فم بيترا بعض العصيدة بالملعقة بيدي غير المصابة، عندما ظهر وجه صغير عند باب المطبخ، وبعد ذلك اختفى بالسرعة نفسها، تاركًا قطعة من الورق تندفع على الأرض.

ناديتُ:

ـ إيلي؟ لكن لم يكن هناك جواب، فقط وقع أقدام تبتعد. تنهدتُ، وتأكدت أن أحزمة بيترا مربوطة بإحكام، وذهبت لألتقط قطعة الورق.

لدهشتي، كانت رسالة مكتوبة، منسقة كرسالة بريد إلكتروني، مع عدم وجود عنوان للرسالة، وعدم وجود شيء في خانة المرسل إليه. تحت ترويسة «جيميل»، كان هناك نص من سطر واحد، من دون علامات ترقيم.

> عزيزه تيروان أنا آسفة جدا لأنني خدشتك وهربت منك وقلت إنني أكرهك أرجوك لا تغضبي ولا ترحلي مثل الأخريات أنا آسفة مع محبتي إيلي ملحوظة ارتديت ملابسي بنفسي

«عزيزه تيروان»؟ جعلتني الكلمتان أقطب جبيني، لكن لم تكن هناك صعوبة في فهم مغزى بقية الرسالة. فككتُ بيترا، ووضعتها في قفص اللعب في الزاوية، والتقطت الرسالة مرة أخرى.

ـ إيلي؟

صمت.

ـ إيلي، لقد تسلمت رسالتك، آنا آسفة حقًّا لأنني صرخت. هل يمكنني أن أقول لك إنني آسفة أنا الأخرى؟

ساد صمت طويل، ثم قال صوت صغير:

ـ أنا هنا.

شققت طريقي عبر غرفة التلفزيون، إلى غرفة المعيشة. لأول وهلة، بدت خالية. لكن بعد ذلك، لفتت انتباهي حركة، وسرتُ ببطء إلى الزاوية البعيدة من الغرفة، التي كانت مليئة بالظلال، حيث لم تكن شمس الصباح قد دارت هناك بعد. كانت محشورة بين نهاية الأريكة والجدار، وتكاد تكون غير مرئية، باستثناء شعرها الأشقر وأطراف حذائها الظاهرة.

ـ إيلي.

جلستُ القرفصاء، ممسكة بالرسالة.

ـ هل كتبت هذا؟

أومأت برأسها.

ـ إنه جيد حقًّا. كيف عرفت كل التهجئة؟ هل ساعدتك مادي؟

ـ كتبته بنفسي. فقط... ساعدتني جوزة البلوط.

ـ جوزة البلوط؟

شعرت بالحيرة، وأومأتْ برأسها.

ـ تضغطين على جوزة البلوط، وتخبرينها ما تودين كتابته، وتكتبه لك.

ـ أي جوزة بلوط؟

صرتُ أشعر بالتعجب الآن.

ـ هل يمكنكِ أن تريني؟

توردتْ إيلي بخجل وسرور لإظهار براعتها، وخرجتْ من الزاوية الصغيرة. كان هناك غبار على تنورتها المدرسية، وكانت ترتدي حذاءها مقلوبًا، لكنني تجاهلت ذلك، وتبعتها إلى المطبخ حيث التقطتِ الجهاز اللوحي، وفتحتْ تطبيق جيميل، وضغطتْ على رمز الميكروفون أعلى لوحة المفاتيح. اتضح الأمر. كان بالفعل يبدو مثل جوزة بلوط منمقة إلى حد ما، خاصة إذا لم تكن لديك فكرة عن شكل الميكروفون قديم الطراز.

تحدثتِ الآن في الجهاز اللوحي.

قالت ببطء، وهي تنطق الكلمات بوضوح بالقدر الذي يسمح به سقف حلقها الطفولي:

ـ عزيزتي روان، هذه رسالة لأقول إنني آسفة جدًّا. مع محبتي، إيلي.

عزيزه تيروان ـ انتشرتِ الكلمات على الشاشة، وكأنما بفعل السحر ـ هذه رسالة لأقول إنني آسفة جدة.

كانت هناك وقفة متناهية الصغر، وصحح التطبيق نفسه.... آسفة جدا! مع محبتي إيلي.

قالت بفخر:

ـ ثم تضغطين على النقاط هنا، فتطبعه على الطابعة في مكتب أبي.

ـ فهمتُ.

لم أكن متأكدة مما إذا كنت أرغب في الضحك أم البكاء. توصلت إلى حل وسط بأن جلست القرفصاء وعانقتها.

ـ حسنًا، أنت بارعة للغاية، وهي رسالة جميلة. وأنا أيضًا آسفة جدًّا. ما كان يجب أن أصرخ، وأعدك أنني لن أذهب لأي مكان.

تشبثتْ بي، وأنفاسها ثقيلة على رقبتي، وخدها الريان دافئ على خدي.

قلت بهدوء:

ـ إيلي.

ولم أكن متأكدة ما إذا كنت على وشك تدمير ثقتنا المتبادلة التي اكتُسبت بصعوبة، لكنني لم أستطع الامتناع عن السؤال:

ـ إيلي، هل يمكنني أن أسألك شيئًا؟

لم تقل شيئًا، لكنني شعرت بها تومئ، وذقنها الصغير المدبب ينغرس في الوتر الممتد من عظمة ترقوتي إلى كتفي.

ـ هل أنتِ... هل أنت من وضع رأس تلك الدمية في حجري؟

ـ كلا!

تراجعتْ وهي تنظر إليَّ، مستاءة بعض الشيء، لكن ليس بالقدر الذي كنت أخشاه. هزتْ رأسها بشدة، وشعرها يتطاير كالزغب. كانت عيناها متسعتين، وكان بوسعي أن أرى فيهما نوعًا من الرغبة اليائسة في أن أصدقها. لكن لماذا؟ لأنها كانت تقول الحقيقة؟ أم لأنها كانت تكذب؟

ـ هل أنت متأكدة؟ أعدك أنني لن أغضب. أنا فقط... كنت أتساءل كيف وصل هناك، هذا كل ما في الأمر.

قالت، وهي تضرب الأرض بقدمها:

ـ لم تكن أنا.

ـ حسنًا، حسنًا.

تراجعتُ بعض الشيء، غير راغبة في فقدان القبول الذي كسبته.

ـ أنا أصدقك.

ساد الصمت، ثم وضعتْ يدها في يدي.

ـ إذن...

كنت أخطو بحذر الآن، لكن الأمر كان أكثر أهمية من ألا أصمم بدرجة أشد بعض الشيء.

ـ هل... هل تعرفين من فعل؟

عند ذلك، نظرتْ بعيدًا، ولم تنظر في عيني مباشرة.

ـ إيلي؟

قالت:

ـ كانت فتاة صغيرة أخرى.

وبطريقة ما، كنت أعرف أن هذا هو كل ما سأحصل عليه منها.

ـ مادي، إيلي، هيا!

كنت أقف في الردهة، والمفاتيح في يدي، بينما نزلت مادي على السلم سريعًا، وهي ترتدي معطفها وحذاءها بالفعل.

ـ أوه، أحسنت يا عزيزتي. لقد ربطت حذاءك بنفسك!

تجاوزتني، متفادية ذراعي الممدودتين، لكن إيلي، التي خرجت من مرحاض الطابق السفلي، كانت أقل سرعة، وأمسكتُ بها ورفعتها وأنا أزمجر مثل الدب، وقبَّلتُ بطنها الصغير الناعم، ثم وضعتها على الأرض مرة أخرى وهي تصرخ وتضحك، وراقبتها وهي تندفع خارجة من الباب الأمامي وراء شقيقتها لتصعد إلى السيارة.

استدرت لآخذ حقائبهما المدرسية، وبينما أنا أفعل ذلك، كدت أصطدم بالسيدة ماكنزي، وهي تقف عاقدة ذراعيها في الممر المقنطر المؤدي إلى المطبخ.

ـ تبًّا!

انزلقت مني الكلمة من دون قصد، واحتقن وجهي وشعرت بالضيق من نفسي لأنني منحتها مزيدًا من الذخيرة لكراهيتها لي.

ـ أعني، يا إلهي، لم أسمعك وأنت تدخلين يا سيدة ماكنزي. معذرة، لقد فاجئتِني.

كان كل ما قالته هو:

ـ لقد جئت من الباب الخلفي. كان حذائي موحلًا.

لكن كان هناك شيء أرق من المعتاد في وجهها، بينما تتبعت عيناها الفتاتين إلى السيارة.

ـ أنتِ...

توقفتْ، ثم هزت رأسها.

ـ لا عليك.

قلت، وأنا أشعر بالضيق:

ـ لا، ماذا؟ هيا، إذا كان لديك شيء لتقوليه...

زمت شفتيها، وعقدتُ ذراعي، منتظرة. ثم ابتسمتْ على نحو غير متوقع، مما حوَّل وجهها المتجهم إلى حد ما، وجعلها تبدو أصغر سنًّا بسنوات عديدة.

ـ كنت سأقول فقط إنك تبلين بلاء حسنًا للغاية مع أولئك الفتيات. الآن، من الأفضل أن تتحركي، وإلا ستتأخرين.

في أثناء عودتي من مدرسة كارن بريدج الابتدائية، وبيترا مربوطة في مقعد السيارة خلفي، تشير من النافذة وتثرثر مع نفسها بمقاطع حديثها التي يتشكل نصفها من الكلام والنصف الآخر بلا معنى، وجدت نفسي أتذكر تلك الرحلة الأولى بالسيارة وأنا عائدة من المحطة مع جاك. غروب الشمس وقت المساء، وهي تُذهب التلال، وطنين «التيسلا» الهادئ بينما نحن نمر عبر الحقول المجزوزة بشدة، والمليئة بالأغنام وأبقار المرتفعات الاسكتلندية التي ترعى، وفوق الجسور الحجرية. كان الجو ذلك اليوم رماديًّا، ويتساقط رذاذ مطر خفيف، وشعرت بأن الطبيعة مختلفة تمامًا، موحشة وباردة، وغير صيفية على الإطلاق. حتى الأبقار في الحقول بدت مكتئبة، ورؤوسها منكسة، والمطر يقطر من أطراف قرونها.

عندما تأرجحت البوابة منفتحة إلى الداخل، وبدأنا نصعد الممر المنحني المؤدي إلى المنزل، انتابتني نوبة حادة من وهم سبق الرؤية، وعدت إلى

تلك الأمسية الأولى، والطريقة التي جلست بها بجوار جاك، وأنا قادرة على التنفس بالكاد بسبب الأمل والرغبة.

درنا حول المنحنى الأخير من الممر، وظهرت واجهة المنزل الرمادية الخفيضة. وتذكرت أيضًا اندفاع المشاعر التي أحسست بها عند رؤيته لأول مرة، ذهبيًّا ودافئًا، ومليئًا بالاحتمالات.

بدا مختلفًا تمامًا اليوم. ليس مليئًا باحتمالات حياة جديدة وفرص جديدة، بل رماديًّا وبغيضًا، مثل سجن فيكتوري. لكنني وحدي كنت أعرف أن هذه كذبة نوعًا ما أيضًا، وأن الواجهة الفيكتورية المطلة على الممر ما هي إلا نصف الحكاية فقط، وأنني إذا سرت إلى الخلف، فسأرى منزلًا قُطعت أوصاله، وأُعيد ترميمه بالزجاج والفولاذ.

أخيرًا، ارتفعت نظرتي إلى السقف، والقرميد الحجري مبلل وزلق بفعل المطر. لم تكن النافذة التي أغلقها جاك ظاهرة من هنا، حيث كانت تنفتح على المنحدر الداخلي للسقف، لكنني كنت أعرف أنها هناك، وجعلتني الفكرة أرتجف.

لم يكن هناك أثر لسيارة جين ماكنزي في الممر، لا بد أنها رحلت بالفعل لهذا اليوم، ولم يكن كل من جاك والكلبين ظاهرين في أي مكان. وبطريقة ما، مع كل ما حدث، لم أستطع حمل نفسي على دخول المنزل بمفردي. فكرت عندما أوقفت السيارة وفككت بيترا من مقعدها أن الأمر وصل إلى درجة أن حتى إبعاد الكلبين عن محاولة دس أنفيهما في تنورتي كان سيشكل إلهاء مُرحَّبًا به، عن الصمت اليقظ لذلك المنزل، بأعينه الزجاجية البيضاوية الشكل التي تراقبني من كل زاوية.

على الأقل بوسعي هنا في الخارج أن أفكر وأشعر وأتحدث من دون التزام الحرص في كل كلمة من كلامي، وكل تعبير من تعبيراتي، وكل حالة من حالاتي المزاجية.

يمكنني أن أكون على طبيعتي، من دون الخوف من ارتكاب هفوة.

قلت لبيترا:

ـ تعالَي.

كانت عربتها في مؤخرة السيارة، وفتحتها ودفعتها داخلها، وشبكت فوقها الغطاء الواقي من المطر.

ـ لنذهب للتمشية.

صاحت بيترا، وهي تدفع الغطاء البلاستيكي بيديها:

ـ أنا أمشي!

لكنني هززتُ رأسي.

ـ لا يا عزيزتي، الجو ممطر، وأنت لا ترتدين ملابسك الواقية من المطر. فلتبقي دافئة وجافة بالداخل.

قالت بيترا وهي تشير عبر الغطاء البلاستيكي:

ـ بكرة! أقفز بكرة موحلة!

استغرق مني الأمر دقيقة لأدرك ما كانت تقوله، لكن بعد ذلك تتبعتُ نظرتها إلى بركة المياه الضخمة التي تجمعتْ على الحصى في ساحة الإسطبل القديم، وفهمتُ.

البرك الموحلة. كانت تريد القفز في البرك الموحلة.

ـ أوه، أتقصدين مثل «الخنزيرة بيبا»؟

أومأتْ برأسها بشدة.

ـ أنت لا ترتدين حذاءك المطاطي، لكن انظري...

بدأت أسير بسرعة أكبر، ثم هرولتُ، وبعد ذلك، ركضتُ بالعربة عبر البركة، محدثة طرطشة هائلة، وشعرت برذاذ الماء يتناثر حولنا في كل مكان، ويقطر على معطفي ذي القلنسوة، وعلى غطاء العربة الواقي من المطر.

صرخت بيترا ضاحكة.

ـ ثانية! بكرة أكثر!

كانت هناك بركة أخرى أبعد، حول جانب المنزل، وتلطفت معها بأن

ركضت عبرها هي أيضًا، ثم أخرى على الطريق المرصوف بالحصى المؤدي إلى الشجيرات.

عندما وصلنا إلى حديقة المطبخ، كنت غارقة في الماء وأضحك، لكنني أيضًا بدأت أشعر بالبرد على نحو مثير للدهشة، وأخذ المنزل يبدو أكثر ترحيبًا بعض الشيء. قد يكون مليئًا بالكاميرات والتكنولوجيا المعطوبة، لكنه على الأقل كان دافئًا وجافًا، وفي الخارج هنا لم تبدُ مخاوفي من الليلة السابقة سخيفة فحسب، بل مثيرة للضحك أيضًا.

صاحت بيترا، وهي تتقافز أسفل أحزمتها:

ـ بكرة! بكرة أكثر!

لكنني هززت رأسي، ضاحكة أنا الأخرى.

ـ لا، هذا يكفي، يا حلوتي. أنا مبتلة! انظري!

درت لأقف أمامها، وأريها سروالي الجينز الغارق بالماء، فضحكتْ ثانية، وقد تغضن وجهها الصغير وتشوه من خلال البلاستيك المجعد.

ـ ووان مبتلة!

ووان. كانت هذه هي المرة الأولى التي حاولت فيها نطق اسمي، وشعرتُ بقلبي ينقبض بالحب، وبنوع من الحزن أيضًا، بسبب كل شيء لا أستطيع إخبارها به.

قلت:

ـ أجل!

كانت هناك غصة في حلقي، لكن ابتسامتي كانت حقيقية.

ـ أجل، روان مبتلة.

بينما كنت أدير العربة لأشرع في الصعود عائدة إلى المنزل، أدركتُ إلى أي مدى ابتعدنا، تقريبًا طول الطريق المؤدي إلى حديقة السموم. ألقيت نظرة سريعة على الحديقة من وراء كتفي، بينما بدأت أدفع العربة أعلى الممر الشديد الانحدار المرصوف بالطوب، ثم توقفت.

حيث تغير شيء ما منذ زيارتي الأخيرة.

كان هناك شيء مفقود.

استغرق مني الأمر دقيقة حتى أتمكن من تحديده، وبعد ذلك أدركت. اختفى الخيط الذي كان يربط البوابة.

قلت:

ـ ثانية واحدة، يا بيترا.

وتجاهلت احتجاجاتها مطالبة بالمزيد من «البكر»! أنزلت فرامل العربة، وعدت راكضة عبر الممر نحو البوابة الحديدية. البوابة التي تم تصوير الدكتور جرانت عندها، واقفًا بفخر أمام ملعب أبحاثه، منذ سنوات عديدة. البوابة التي ربطتها بإحكام، بعقدة أعلى من أن تطالها الأيدي الصغيرة.

اختفى خيط الطهي الأبيض السميك. لم يتم فكه فحسب، أو قصه وإلقاؤه جانبًا، بل اختفى تمامًا.

أفسد شخص ما احتياطاتي الدقيقة.

لكن من؟ ولماذا؟

أزعجتني الفكرة بينما سرت عائدة ببطء أعلى التل، حيث كانت بيترا لا تزال جالسة، تتزايد ضيقًا، واستمرتْ تزعجني وأنا أدفع العربة بمشقة أعلى التل، حيث كان المنزل ينتظر.

عندما وصلت إلى الباب الأمامي، كانت بيترا غاضبة وتبكي. نظرت إلى ساعتي، ورأيت أن موعد وجبتها الخفيفة قد مضى منذ زمن طويل، وفي الواقع اقترب موعد الغداء. كانت عجلات العربة مغطاة بالطين، لكن حيث إنني تركت مفتاح غرفة المرافق بالداخل، فلم يكن لديَّ خيار آخر سوى الباب الأمامي. لذا أخرجتها أخيرًا من العربة، وطويتها على نحو مربك بيد واحدة، وأنا أمسك بيترا على خصري باليد الأخرى، لأمنعها من الهرب بحثًا عن

مزيد من البرك، وتركت العربة على الشرفة. ثم ضغطت بإبهامي على اللوح الأبيض المتوهج، ووقفت للخلف بينما انفتح الباب بصمت.

صدمتني على الفور رائحة لحم الخنزير المقدد المحمر.

ـ مرحبًا؟

وضعت بيترا بحذر على درجة السلم السفلية، وأغلقت الباب، وخلعت حذائي الموحل.

ـ مرحبًا؟ من هناك؟

ـ أوه، إنها أنت.

كان صوت ريانون. وعندما حملت بيترا، وبدأت أشق طريقي إلى المطبخ، خرجتْ هي من مدخل الباب ممسكة في إحدى يديها بشطيرة تقطر من لحم الخنزير المقدد. بدا مظهرها فظيعًا، شاحبة كما لو كانت مريضة، مع ظلال داكنة أسفل عينيها، وكأنها نالت قسطًا من النوم أقل مني حتى.

قلت من دون داعٍ:

ـ أوه، لقد عدت.

أدارتْ عينيها في محجريهما، وتجاوزتني متبخترة إلى السلم، وبينما هي تفعل ذلك، تناولتْ قضمة كبيرة.

ناديتُ خلفها، بعد أن سقطتْ بقعة من الصلصة البنية، واصطدمتْ بالأرض المبلطة بصوت مرتفع:

ـ مهلًا! مهلًا، خذي طبقًا. ألا يمكنك ذلك؟

لكنها كانت قد ذهبت بالفعل، صاعدة السلم إلى غرفتها.

لكن في أثناء مرورها، شممت رائحة شيء آخر، خافتة وقد غطتها رائحة لحم الخنزير المقدد، لكنها غريبة للغاية وفي غير محلها، ومع ذلك مألوفة جدًّا، لدرجة أنها جعلتني أتوقف فجأة.

كانت رائحة حلوة وفاسدة بعض الشيء، أعادتني بحدة إلى سنوات مراهقتي، مع أن الأمر استغرق مني دقيقة لأتمكن من تحديدها. مع ذلك،

عندما اتضح التداعي أخيرًا، كنت واثقة. كانت رائحة الكرز الناضجة للخمر الرخيص، وهي تتسرب من بشرة شخص ما في صباح اليوم التالي للشراب.

اللعنة.

اللعنة.

أراد جزء مني أن يغمغم أن ذلك ليس من شأني، أنني كنت مربية، تم تعييني لخبرتي مع الأطفال الأصغر سنًّا، وأنه لم تكن لديَّ أي خبرة مع المراهقين، وليست لديَّ أي فكرة عما سوف تعتبره ساندرا وبيل مناسبًا. هل صار الذين يبلغون الرابعة عشرة من العمر يتناولون الشراب الآن؟ هل كان ذلك يُعتبر مسموحًا به؟

لكن الجزء الآخر مني كان يعلم أنني في مقام الوالدين هنا. سواء إذا كانت ساندرا ستشعر بالقلق أم لا، فقد رأيت أنا ما يكفي لإثارة قلقي. وكانت هناك كثير من علامات الإنذار بخصوص سلوك ريانون. لكن السؤال هو، ما الذي يجب أن أفعله حيال ذلك؟ ما الذي يمكنني أن أفعله حيال ذلك؟

أزعجتني الأسئلة بينما كنت أصنع شطيرة لي ولبيترا، ثم وضعتها في الفراش لتنام القيلولة. يمكنني أن أذهب لسؤال ريانون، لكنني كنت واثقة من أنها سوف تمتلك عذرًا جاهزًا، على افتراض أنها تنازلت وقبلت الحديث معي.

ثم تذكرت. كاس. إن لم يكن شيئًا آخر، فسيكون بوسعها أن تشرح لي التسلسل الدقيق لأحداث الليلة، وربما تعطيني فكرة عما إذا كنت أضفي على هذا قدرًا من الأهمية أكبر مما يجب. مجموعة من الفتيات في الرابعة عشرة من العمر في حفل عيد ميلاد... لم يكن من المستحيل أن تكون كاس قد زودتهن بنفسها ببعض المشروبات التي تحوي نسبة ضئيلة من الكحول، وتناولت ريانون أكثر من حصتها منها.

كان رد كاس على رسالتي النصية لا يزال في قائمة رسائلي، ومررت إلى الأسفل حتى عثرت عليه، واسترجعت الرقم. ثم انتظرت بينما يرن.

ـ نعم؟

كان الصوت خشنًا، واسكتلنديًّا، وذكوريًّا للغاية.

رمشت بعيني، ونظرت إلى الهاتف لأتحقق من أنني اتصلت بالرقم الصحيح، ثم أعدته إلى أذني.

قلت بحذر:

ـ مرحبًا؟ من هذا؟

قال الصوت:

ـ أنا كريج.

لم يبدُ وكأنه طفل، كان لا بد أن يكون صوتًا لشخص في العشرين على الأقل، وربما أكبر. وبالقطع لم يبدُ وكأنه صوت والدة أي شخص، ولا حتى والد أي شخص.

ـ النقطة الأكثر أهمية هي، من أنت بحق الجحيم؟

كنت مصدومة بدرجة منعتني من الجواب. للحظة، جلست هناك فحسب وفمي مفتوح، محاولة التفكير فيما أقوله.

قال كريج بانفعال:

ـ ألو؟ ألو؟

وبعد ذلك بصوت منخفض:

ـ العاهرات الحمقاوات، بأرقامهن اللعينة الخاطئة.

ثم أُغلق الخط.

أغلقت فمي، وسرت ببطء إلى المطبخ، وأنا ما زلت أحاول معرفة ما حدث للتو.

من الواضح أنه بصرف النظر عمن يكون صاحب هذا الرقم، فلم يكن والدة إليس. مما يعني... حسنًا، قد يعني أن ريانون كتبته بشكل خاطئ،

إلا أنني أرسلت رسالة نصية لهذا الرقم، وتلقيت تأكيدًا، يُفترض أنه من كاس.

مما يعني أن ريانون كانت تكذب عليَّ.

مما يعني أيضًا أنها على الأرجح لم تخرج مع إليس على الإطلاق. بدلًا من ذلك، كانت في الأغلب مع كريج.

اللعنة.

كان الجهاز اللوحي ملقى على منضدة العمل في منتصف المطبخ، والتقطته وحاولت كتابة رسالة بريد إلكتروني لساندرا وبيل.

كانت المشكلة هي أنني لم أعرف ما أبدأ به. كان هناك الكثير جدًّا لأقوله. هل يجب أن أبدأ بريانون؟ أم سلوك مادي؟ أم هل يجب أن أبدأ بمخاوفي بشأن غرفة العلية؟ الضوضاء، والطريقة التي اقتحمناها بها، أنا وجاك، والكتابة المجنونة؟

أردت إخبارهما بكل شيء، بدءًا من رائحة الموت العفنة التي ما زالت عالقة في أنفي، ومرورًا بشظايا رأس الدمية المكسور في صندوق القمامة آخر الممر، ووصولًا إلى صورة مادي المرسومة على عجل، والشبيهة بزنزانة السجن، ثم حديثي مع كريج.

أردت أن أكتب: هناك شيء خاطئ. لا، امحِ ذلك، كل شيء خاطئ. لكن... كيف يمكنني إخبارهما عن ريانون ومادي، من دون أن أبدو وكأنني أنتقد أسلوبهما في التربية؟ كيف يمكنني أن أقول ما رأيته وسمعته في هذا المنزل، من دون أن يتم الاستهانة بي باعتباري مجرد مربية أخرى مؤمنة بالخرافات؟ كيف يمكنني أن أتوقع إقناع شخص لم يرَ حتى ما بداخل تلك الغرفة المخيفة المجنونة؟

عنوان الرسالة أولًا، إذن. بدا أي شيء استطعتُ التفكير فيه إما غير ملائم بدرجة ميؤوس منها، وإما دراميًّا بصورة مثيرة للسخرية. وفي النهاية، استقررت على:

حسنًا، حسنًا، هذا هادئ وواقعي. كان ذلك جيدًا. والآن، نص الرسالة. كتبت:

عزيزاي ساندرا وبيل،

ثم رجعت إلى الخلف في جلستي، وقضمت الحافة البالية للضمادة المحيطة بإصبعي، محاولة التفكير فيما سأكتبه بعد ذلك.

قبل كل شيء، يجب أن أخبركما أن ريانون عادت هذا الصباح سالمة وآمنة، لكن لديَّ بعض المخاوف بشأن روايتها عن زيارتها لمنزل إليس.

حسنًا، كان ذلك جيدًا. كان واضحًا وواقعيًّا، ولا يوجه اتهامات. لكن بعد ذلك، كيف أنتقل من هذا إلى...

العاهرات الحمقاوات، بأرقامهن اللعينة الخاطئة.

ناهيك عن الانتقال من ذلك إلى:

نحن نكرهكِ

إنهم غاضبون

ارحلي

نحن نكرهكِ

والأهم من ذلك كله، كيف أشرح أنني لن ـ لا ـ أستطيع أن أنام في تلك الغرفة مرة أخرى، وأن أستمع إلى وقع تلك الخطوات التي تذرع بالأعلى، وأستنشق الهواء نفسه مع ذلك الريش المغبر المتعفن.

في النهاية، جلست هناك فحسب، أحدق إلى الشاشة، وأتذكر الصرير البطيء على الألواح فوقي، ولم أدرك أن الوقت حان لجلب مادي وإيلي من المدرسة، إلا عندما سمعت بكاء بيترا النزق عبر جهاز الاتصال الداخلي، ونظرت إلى الساعة.

نقرت على شاشة المراسلة لريانون:

ذهبت لإحضار الفتيات. نحتاج إلى الحديث عندما أعود.

وبعد ذلك، تركت رسالة البريد الإلكتروني غير المرسلة على الجهاز اللوحي، وهرعت إلى الطابق العلوي لأبدل ملابس بيترا وأضعها في السيارة.

لم أفكر في البريد الإلكتروني مرة أخرى، حتى الساعة التاسعة مساء تقريبًا. كانت فترة الظهيرة جيدة. شعرت كل من مادي وإيلي بالسرور لرؤية ريانون، وكانت هي لطيفة معهما على نحو مؤثر، أبعد ما تكون عن الدور الذي لعبته معي لطالبة المدرسة الخاصة المصقولة المزعجة التي تشعر بالاستحقاق. كانت تعاني آثار الشراب بوضوح، لكنها لعبتْ معهما بدمى باربي لساعتين في غرفة اللعب، وتناولتْ بعض البيتزا، ثم اختفتْ في الطابق العلوي، بينما كافحت أنا مع أمور الحمام والنوم، ثم وضعت الفتيات في أَسرتهن مع قبلة، وأطفأت الأنوار.

عندما نزلت إلى الطابق السفلي، كنت أستعد للمناقشة الموعودة، محاولة أن أتخيل ما كانت ستفعله روان، المربية المثالية. حازمة، لكن واضحة. لا تبدئي بالعقوبات والاتهامات، اجعليها تتحدث.

لكن ريانون كانت تنتظر في المطبخ، تنقر بأظافرها على المنضدة، وتفاجأتُ مما كانت ترتديه. مكياجًا كاملًا، وحذاء بكعب عالٍ، وتنورة قصيرة، وقميصًا يكشف عن بطنها، أظهر سرة مثقوبة.

أوه، تبًّا.

شرعت أقول:

ـ إممم...

لكن ريانون سبقتني:

ـ سأخرج.

للحظة، لم تكن لديَّ أي فكرة عما سأقوله. ثم تمالكت نفسي.

ـ لا أظن ذلك.

ـ حسنًا، أنا أظن ذلك.

ابتسمتُ. كان بوسعي الابتسام. أخذ الظلام يحل. كانت مفاتيح «التيسلا» بحوزتي في جيبي، وأقرب محطة على مبعدة عشرة أميال.

سألتُ:

ـ هل تخططين للسير بذلك الكعب العالي؟

لكن ريانون بادلتني الابتسام.

ـ كلا، لديَّ شخص قادم ليقلني بالسيارة.

يا للعنة المزدوجة!

ـ حسنًا، انظري يا ريانون، هذا مضحك للغاية، لكن ألا تعلمين أنه من المستحيل على الإطلاق أن أسمح لك أن تفعلي ذلك؟ سأضطر إلى الاتصال بوالديك. يجب أن أخبرهما...

أوه، تبًّا لهذا، اللعنة على الاتهامات. كان عليَّ أن أقول شيئًا لأجعلها تدرك أن أمرها قد انفضح.

ـ يجب أن أخبرهما أنك عدت إلى المنزل ورائحة الكحول تفوح منك.

توقعتُ أن يكون للكلمات وقع اللكمة في المعدة، لكنها بالكاد أظهرتْ رد فعل.

كل ما قالته هو:

ـ لا أظن أن عليك فعل ذلك.

لكنني كنت قد التقطت هاتفي بالفعل.

لم أتفقده منذ ما قبل العشاء، ولدهشتي، كانت أيقونة البريد الإلكتروني تومض. كانت رسالة من ساندرا.

ضغطتُ عليها، في حال كان هناك شيء يجب أن أعرفه قبل أن أحادثها، ثم رمشتُ في حيرة عندما ظهر عنوان الرسالة.

رد: مستجدات من «هيذربراي»

ماذا؟ هل أرسلت رسالة البريد الإلكتروني من دون قصد؟ لقد سجلت

الدخول إلى حساب جيميل الخاص بي على جهاز الأطفال اللوحي، الذي كانوا يستخدمونه للألعاب، وراودني شعور فظيع بأنني نسيتُ تسجيل الخروج. هل يمكن أن تكون بيترا أو إحدى الفتاتين قد ضغطتْ على الإرسال بطريق الخطأ؟

شعرت بالهلع، وفتحت رد ساندرا، وأنا أتوقع شيئًا ما من قبيل: «؟؟ ما الذي يحدث؟»، لكنه كان مختلفًا تمامًا.

> شكرًا على التحديث، يا روان. يبدو جيدًا. سعيدة أن ريانون قضت وقتًا ممتعًا مع إليس. سيتوجه بيل إلى دبي الليلة، وأنا في مأدبة عشاء لأحد العملاء، لكن أرسلي إليَّ رسالة نصية إذا كان هناك أي شيء عاجل، وسوف أحاول الحديث مع الفتيات غدًا عبر تطبيق «فيس تايم». قبلاتي.

لم يكن لذلك أي معنى. على الأقل، لم يكن له معنى حتى مررت للأسفل بعض الشيء، وطالعت رسالة البريد الإلكتروني التي من المفترض أنني أرسلتها، في الساعة ٢,٤٨ مساء، بعد عشرين دقيقة كاملة من رحيلي لأجلب مادي وإيلي.

> عزيزاي بيل وساندرا،
>
> مجرد مستجدات من المنزل. كل شيء على ما يرام. عادت ريانون سالمة وآمنة من منزل إليس، ويبدو أنها قضت وقتًا طيبًا.
>
> لقد قضينا وقتًا لطيفًا للغاية ما بعد الظهيرة، وهي مفخرة لكليكما.
>
> ترسل كل من مادي وإيلي حبهما.
>
> روان

ساد الصمت التام، ثم التفتُّ إلى ريانون.

ـ أيتها اللعينة الصغيرة.

قالت، وهي تمد أحرف الكلمات:

ـ يا لك من فاتنة. هل تلك هي نوعية اللغة التي كانوا يتوقعونها في «ليتل نيبرز»؟

ـ «ليتل»... ماذا؟

كيف عرفتْ أين كنت أعمل؟ لكنني تمالكت نفسي بعد ذلك، رافضة الخروج عن الموضوع.

ـ انظري، لا تحاولي تغيير الموضوع. هذا غير مقبول على الإطلاق، وحماقة أيضًا. بادئ ذي بدء، أنا أعرف بشأن كريج.

عند ذلك، ترددتْ نظرة صدمة على وجه ريانون. تمالكتْ نفسها سريعًا، وعاد تعبيرها على الفور تقريبًا إلى اللامبالاة الضجرة. مع ذلك، كنت قد لمحتها، ولم أتمكن من منع ابتسامة الانتصار من الارتسام على وجهي.

ـ أوه، نعم، ألم يخبرك بذلك؟ لقد اتصلتُ بكاس. من البديهي أن أول شيء سأفعله هو أن أتصل بوالدتك وأوضح أنكِ أرسلت رسالة البريد الإلكتروني تلك. والشيء الثاني الذي سوف أفعله هو إخبارها عن هذا الشخص المدعو كريج، وأشرح أنك تنتوين الخروج مع هذا الرجل الذي لم ألتقِه من قبل، مرتدية قميصًا يصل بالكاد إلى سرتك، وأرى ما لديها لتقوله بشأن هذا الموضوع.

لا أعرف ما الذي كنت أتوقعه، ربما توقعت استعراضًا للغضب، أو حتى أن تشرع ريانون في البكاء، والتوسل لأن أسامحها.

لكن رد فعلها لم يكن أيًا من هذين الأمرين. بدلًا من ذلك، ابتسمتْ بلطف نوعًا ما، على نحو مُقلق تمامًا، وقالت:

ـ أوه، لا أظن أنك سوف تفعلين ذلك.

ـ أعطيني سببًا واحدًا وجيهًا لمَ لا!

قالت:

ـ سأفعل ما هو أفضل من ذلك. سأعطيك اثنين. رايتشيل. جيرهارد.

أوه، اللعنة.

كان الصمت في المطبخ مطلقًا.

للحظة، ظننتُ أن ساقيَّ ستتهاويان، وتحسست طريقي إلى أحد المقاعد، وارتميت عليه، شاعرة بأنفاسي محتبسة في حلقي.

كنتُ محاصرة. أدركت ذلك الآن. لكنني لم أكن أعرف تمامًا إلى أي مدى سيضيق بي الحصار.

لأن هذه هي النقطة التي صار فيها الوضع سيئًا جدًّا جدًّا بالنسبة إليَّ، أليس كذلك يا سيد ريكسام؟

هذه هي النقطة التي تحوَّلتْ فيها قضية الشرطة ضدي من كوني الشخص الخطأ في المكان الخطأ، إلى كوني شخصًا لديه دافع.

لأنها كانت محقة. لا يمكنني الاتصال بساندرا وبيل.

لم يكن بوسعي فعل ذلك، لأن ريانون كانت تعرف الحقيقة.

لن يكون الأمر مفاجأة بالنسبة إليكَ، يا سيد ريكسام، لن يكون كذلك لو كنت قد قرأت مقالات الصحف.

لأنك كنت ستعرف من البداية أن المربية التي تم القبض عليها في قضية إلينكورت لم تكن روان كين، بل رايتشيل جيرهارد.

لكن بالنسبة إلى الشرطة، كان الأمر بمثابة قنبلة. لكن لا، ليست قنبلة، بل أشبه بواحدة من تلك البنياتا التي تنفجر، وتغرقك بالهدايا.

لأنني ناولتهم قضيتهم على طبق من فضة.

بعد ذلك، ركزوا بشدة بالغة على كيف تمكنت من القيام بالأمر، كما لو كنت مجرمة من نوع ما ذات عقل مدبر، خططت لكل هذا بتفصيل شامل. لكن ما لم يتمكنوا من فهمه على ما يبدو، هو كيف كان الأمر سهلًا على نحو مغرٍ ومثير للضحك. لم يكن هناك أي تزوير، ولا سرقة هوية معقدة، أو أوراق مصطنعة. ظلوا يسألون: «كيف حصلتِ على أوراق الهوية المزورة، يا رايتشيل؟»، لكن الحقيقة هي أنه لم تكن هناك أي أوراق مزورة. كل ما فعلته هو أنني أخذت أوراق صديقتي روان الخاصة بعملها مربية من غرفة نومها في شقتنا المشتركة، وأريتها لساندرا. صحيفة الحالة الجنائية، التسجيل في مكتب المعايير في التعليم وخدمات الأطفال ومهاراتهم، وشهادة إسعافات أولية، وسيرة ذاتية، ولم يكن أي منها يحتوي على أي صور. لم تكن لديَّ حاجة على الإطلاق لتزوير أي شيء، ولم تكن هناك أي وسيلة لتعرف ساندرا من

خلالها أن المرأة التي تقف أمامها ليست هي الشخص المذكور على الشهادات التي كانت تحملها.

حاولت أن أقول لنفسي إنه لم يكن خداعًا بدرجة كبيرة. ففي النهاية، كانت لديَّ تلك المؤهلات بالفعل، أو معظمها على أي حال. كانت لديَّ صحيفة حالة جنائية، وشهادة إسعافات أولية. وعملت في غرفة الرضع في «ليتل نيبرز» مثل روان، وإن لم يكن مدة طويلة كما عملتْ هي، ولم أعمل مشرفة. كما عملت مربية في السابق، لكن ليس بالقدر نفسه، ولم أكن واثقة من أن مراجعي الوظيفية كانت ستتدفق بالقدر نفسه من المديح. لكن الأساسيات كانت كلها موجودة. كان الاسم مجرد... مسألة شكلية. حتى إنني كنت أمتلك رخصة قيادة نظيفة، تمامًا كما أخبرت ساندرا. كانت المشكلة الوحيدة هي أنني لن أتمكن من أن أريها إياها، بسبب الصورة. لكن كل ما أخبرتها به ـ كل مؤهل ادعيتُ امتلاكه ـ كان كله صحيحًا.

كل شيء باستثناء اسمي.

بالطبع اكتنف الحظ الأمر أيضًا. كان من حسن الحظ أن ساندرا وافقتْ على طلبي، ولم تتصل بـ«ليتل نيبرز» للحصول على توصية. لو فعلتْ ذلك، لكانوا أخبروها أن روان كين رحلتْ منذ شهرين. ومن حسن الحظ أنها لم تضغط عليَّ قَطُّ بشأن رخصة القيادة.

كما كان من حسن الحظ أيضًا أنها كانت تستخدم خدمة كشوف الرواتب عن بُعد، لذا لم أضطر قَطُّ إلى تقديم جواز سفر روان شخصيًّا، وكان بوسعي ببساطة إرسال الصورة الضوئية التي تركتْها على جهاز الكمبيوتر الخاص بها، إلى جانب فواتيرنا المشتركة.

لكن أكبر نسبة من حسن الحظ هي أن البنوك، بشكل لا يُصدَّق إلى حد ما، لم يبدُ أنها تهتم باسم الشخص المذكور على حوالات شركة نظام المقاصة المصرفية الإلكترونية، ما دام رقم الحساب ورمز الفرز متطابقين. كان ذلك شيئًا لم أتوقعه قَطُّ. كنت أظل مستيقظة، أتساءل عن كيفية حل ذلك

الجزء. أدعي أن حسابي باسم مختلف؟ أطلب النقد، أو شيكات مكتوبة باسم «ر. جيرهارد»، وأعقد أصابعي متمنية ألا تسأل ساندرا عن السبب؟ كدت أضحك عندما اكتشفت أن أيًّا من ذلك لا يهم، وأنك إذا دفعت عن طريق التحويل، فيمكنك وضع اسم البطة دونالد في خانة المدفوع لأمره، وسوف تتم الموافقة عليه. بدا ذلك إهمالًا بدرجة لا تُصدَّق.

لكن الحقيقة هي أنني في البداية لم أنظر حتى إلى ما هو أبعد من تلك المرحلة الأولى. كل ما ركزت عليه هو الحصول على تلك المقابلة، والوقوف في منزل «هيذربراي»، والنظر في عين ساندرا وبيل. كان ذلك هو كل ما أردته. كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعلني أجيب عن الإعلان. مع ذلك، بطريقة ما، ظلت الفرص تُقدم نفسها كهدايا مغرية مغلفة على طبق من فضة، تتوسل إليَّ أن ألتقطها وأجعلها ملكًا لي.

ما كان يجب أن أفعل ذلك، أعرف ذلك الآن، يا سيد ريكسام. لكن ألا يمكنك أن ترى... ألا يمكنك أن ترى كيف كان الأمر؟

بينما كنت واقفة في المطبخ وريانون تضحك في وجهي، شعرت بموجة عارمة من الفزع تغمرني، يليها إحساس غريب بشيء آخر، يكاد يكون شعورًا بالراحة، كما لو كنت أعرف أن هذه اللحظة آتية، وشعرت بالارتياح لأنها انقضت وانتهيت منها.

للحظة، فكرت في الخداع، وأن أسألها عما تعنيه، والتظاهر بأنني لم يحدث وأن سمعت قَطُّ باسم رايتشيل جيرهارد. لكن فقط للحظة. إذا كانت قد قطعتْ شوطًا كافيًا لاكتشاف اسمي الحقيقي، فلن تنجح محاولة تشتيتها من خلال الإنكار الغاضب.

بدلًا من ذلك، سألتُ:

ـ كيف اكتشفت الأمر؟

ـ لأنني، على عكس والديَّ العزيزين، أهتم بالبحث بعض الشيء عندما تظهر فتاة جديدة فجأة. ستندهشين مما يمكنك اكتشافه عبر الإنترنت.

إنهم يدرسون ذلك في المدارس الآن، كما تعلمين، أعني التحكم في بصمتك الرقمية. أظن أنهم لم يفعلوا ذلك في أيامك أنت؟

كان التهكم ملموسًا، لكنني لم أكلف نفسي عناء الرد. لم يكَد ذلك يبدو مهمًّا. ما كان مهمًّا هو إلى أي مدى بحثتْ، ولماذا، وما الذي اكتشفتْه بالضبط.

قالت ريانون:

ـ لم يستغرق مني الأمر وقتًا طويلًا لتعقب روان كين. إنها مملة جدًّا، أليس كذلك؟ لا توجد الكثير من الذخيرة.

الذخيرة. إذن هذا هو ما يدور حوله الموضوع. كانت ريانون تبحث على الإنترنت عن أي طيش بسيط يمكنها استغلاله للسيطرة. لكنها عثرت على شيء أكبر بكثير جدًّا.

قالت، بينما ابتسامة صغيرة ترتسم على زاوية فمها:

ـ لم أستطع فهم الأمر. كان كل شيء مطابقًا، الاسم، وتاريخ الميلاد، وفترة العمل في تلك الحضانة مع ذلك الاسم الغبي مفرط الرقة.

قالت بسخرية:

ـ «ليتل نيبرز». أف. لكن فجأة، ظهرتْ كل هذه الصور من تايلاند وفيتنام. وعندما رأيتك في الممر، بدأت أظن أنني أخطأت، وأنني ربما أكون بالفعل قد عثرت على الشخص الخاطئ. استغرق مني الأمر بضع ساعات لتعقب شخصيتك الحقيقية. لا بد أنني أفقد مهارتي. من سوء حظك أنها لا تبقي قائمة أصدقائها خاصة. أو أنك لم تكلفي نفسك عناء حذف ملفك الشخصي على فيسبوك.

اللعنة. كان الأمر بهذه البساطة، إذن. بسهولة التمرير للأسفل عبر قائمة أصدقاء روان، واختيار الوجه الذي نشرتُه طواعية ليراه العالم بأسره. كيف استطعتُ أن أكون بمثل هذا الغباء؟ لكن صدقًا، لم يخطر ببالي قَطُّ أن هناك أي شخص سيقوم بتوصيل النقاط ببعضها بجد هكذا. ولم أكن أخطط

للخداع، هذا هو الأمر. هذا ما حاولت شرحه للشرطة. لو كنت أقوم بالفعل بالإعداد لحياة ثانية احتيالية، ألم أكن سأهتم بإخفاء آثاري؟

لأن هذا لم يكن احتيالًا، ليس حقًّا. ليس بالطريقة التي قصدتها الشرطة. كان... لقد كان مجرد حادث، في الواقع. ما يعادل استعارة سيارة صديقك خلال غيابه. لم أنتوِ قَطُّ أن يحدث كل هذا.

كانت المشكلة في الشيء الذي لم أستطع إخبار الشرطة به، وهو سبب مجيئي إلى «هيذربراي» تحت اسم مستعار. ظلوا يسألونني، ويبحثون ويتقصون، وظللتُ أتخبط، وأحاول التوصل إلى أسباب. أشياء من قبيل أن مراجع روان الوظيفية كانت أفضل من مراجعي (مما كان صحيحًا)، ولديها خبرة أكبر مني (صحيح مرة أخرى). أظن أنهم اعتقدوا في البداية أنه لا بد أن يكون لديَّ سر مهني عميق ومظلم من نوع ما، مثل وثيقة تسجيل منتهية، أو إدانة بالاعتداء الجنسي، أو شيء ما. وبالطبع لم يكن أي من ذلك صحيحًا، وعلى الرغم من الجهد الذي بذلوه محاولين العثور على شيء، فلم يكن هناك ما يشوب أوراقي الخاصة.

بدا الأمر سيئًا جدًّا جدًّا بالنسبة إليَّ، كنت أدرك ذلك، حتى ساعتها. لكنني ظللت أقول لنفسي، إذا لم تكن ريانون قد تمكنت من اكتشاف سبب مجيئي إلى هنا، فربما لن تتمكن الشرطة أيضًا.

لكن هذه كانت حماقة بالطبع. إنها الشرطة. مهمتها هي البحث.

استغرق الأمر منهم بعض الوقت. أيامًا، وربما حتى أسابيع، لا أستطيع أن أتذكر تمامًا. يأخذ الاستجواب في الامتزاج بعضه ببعض بعد فترة، وتتداخل الأيام مع بعضها، بينما هم يبحثون ويتقصون ويحضون ويحققون. لكن في النهاية، دخلوا الغرفة ممسكين بقطعة من الورق وهم مبتسمون مثل قطط تشيشاير، بينما يحاولون في الوقت نفسه أن يبدوا جادين ومحترفين بطريقة ما.

وعرفت. عرفت أنهم عرفوا.

وأدركت أنني أُغرقت.

لكن ذلك كان لاحقًا. وأنا أستبق الأحداث.

يجب أن أحكي الجزء الآخر. أصعب جزء. الجزء الذي لا أستطيع تصديقه تمامًا، حتى الآن.

والجزء الذي لا يمكنني توضيحه بالكامل، حتى لنفسي.

يجب أن أخبرك عن تلك الليلة.



بعد أن خرجت ريانون، وقفتُ للحظة طويلة في الردهة، أراقب أضواء الشاحنة وهي تختفي أسفل الممر، وأحاول اكتشاف ما عليَّ أن أفعله. هل يجب عليَّ الاتصال بساندرا؟ وما الذي أقوله؟ أعترف؟ أنكر بوقاحة؟

نظرت إلى ساعتي. كانت قد تجاوزت التاسعة والنصف للتو. طفا سطر من بريد ساندرا الإلكتروني في رأسي: سوف يتوجه بيل إلى دبي الليلة، وأنا في مأدبة عشاء لأحد العملاء، لكن أرسلي إليَّ رسالة نصية إذا كان هناك أي شيء عاجل.

لم يكن من الممكن أن أفاجئها بكل هذا في منتصف مأدبة عشاء أحد العملاء، ناهيك عن إرساله في رسالة نصية.

أوه، مرحبًا يا ساندرا، أتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام. لمعلوماتك، لقد خرجت ريانون مع رجل غريب، وقد تقدمتُ لهذه الوظيفة تحت اسم مستعار. لنتحدث قريبًا!

كانت الفكرة ستصير مضحكة، لو لم يكن الوضع برمته بهذه الخطورة. اللعنة. هل يمكنني إرسال رسالة بريد إلكتروني إليها لأشرح الموقف كما يجب؟ ربما. مع أنني لو كنت سأفعل ذلك، فكان يجب عليَّ فعله في وقت سابق، قبل أن ترسل ريانون تلك المستجدات الزائفة. سيكون من الأصعب عليَّ الآن توضيح موقفي.

لكن عندما سحبت الجهاز اللوحي نحوي، أدركت أنني لا يمكنني حقًّا إرسال رسالة بريد إلكتروني. كانت تلك طريقة الجبناء للهرب. أنا مدينة

لها باتصال، لأوضح موقفي، إن لم يكن وجهًا لوجه، فعلى الأقل بصورة شخصية. لكن ما الذي يمكنني قوله، بحق الجحيم؟

تبًّا.

كانت زجاجة النبيذ هناك على طاولة المطبخ، تمثل دعوة، وسكبت كأسًا، محاولة تهدئة أعصابي، ثم أخرى، هذه المرة مع نظرة سريعة إلى الكاميرا القابعة في الزاوية. لكنني لم أعُد أكترث. كان الطين على وشك أن يزيد بلة، وسرعان ما ستصير أي تسجيلات مصورة التقطتها لي ساندرا وبيل هي أقل ما يشغل بالي.

لقد كان تخريبًا ذاتيًا متعمدًا، كنت أعرف ذلك حقًّا، في أعماق قلبي، عندما ملأت الكأس للمرة الثالثة. عندما لم يتبقَّ سوى كأس واحدة في الزجاجة، أدركت الحقيقة. لقد أصبحت ثملة بدرجة أكبر من أن أستطيع الاتصال بساندرا الآن. ثملة بدرجة أكبر من أن أستطيع فعل شيء معقول على الإطلاق، باستثناء الخلود إلى الفراش.

في الطابق العلوي، وقفتُ لمدة طويلة ويدي على المقبض المستدير لباب غرفة نومي، أستجمع الشجاعة للدخول. لكنني لم أستطع فعل ذلك. كان هناك شق مظلم أسفل الباب، وتراءت لي صورة مفاجئة ومقلقة لشيء بغيض ومظلم ينزلق من تحته، ويتبعني أسفل السلم، ويطوقني وسط ظلامه...

بدلًا من ذلك، وجدتني أترك يدي تسقط، ثم أتراجع، كما لو أن هذا الشيء المظلم قد يلحق بي بالفعل إن أدرت له ظهري. بعد ذلك، عند قمة الدرج، استدرت بعزم، وكدت أركض عائدة إلى الطابق السفلي، إلى دفء المطبخ، شاعرة بالخجل من نفسي، ومن جبني، ومن كل شيء.

كان المطبخ دافئًا ومشرقًا، لكن عندما أغلقت عيني، كان لا يزال بمقدوري شم رائحة الأنفاس الباردة لهواء غرفة العلية وهي تتدفق أسفل باب غرفة نومي. وبينما كنت أقف مترددة، أتساءل ما إذا كان عليَّ إعداد

فراش على الأريكة، أم محاولة البقاء مستيقظة حتى عودة ريانون، شعرت بخفقان إصبعي حيث قطعتها على رأس تلك الدمية المكسور الحقير. كنت قد وضعت فوقها ضمادة، لكنني شعرت بالجلد تحتها متضخمًا ومتورمًا، وكأنه بدأ يتلوث.

سرت إلى الحوض وخلعت الضمادة، ثم جفلت منتفضة، حيث كان هناك ارتطام عند الباب الخلفي.

ناديت، محاولة منع صوتي من الارتجاف:

ـ مـ... من هناك؟

ـ إنه أنا، جاك.

أتى الصوت من الخارج، مكتومًا من أثر الريح.

ـ معي الكلبان.

ـ ادخل، أنا فقط...

انفتح الباب، ودخلت نفحة من الهواء البارد، وسمعتُ وقع خطواته في غرفة المرافق، وصوت ارتطام حذائه عندما خلعه وتركه يسقط على السجادة، ونباح الكلبين وهما يتقافزان حوله، وهو يحاول إسكاتهما. أخيرًا، استقرا في سلتيهما، ودخل إلى المطبخ.

ـ عادة لا آخذهما للتمشية في وقت متأخر لهذه الدرجة، لكنني انشغلت. أنا مندهش لأنك ما زلت مستيقظة. هل كان يومًا جيدًا؟

قلت:

ـ ليس حقًّا.

كنت أشعر بالدوار، وأدركت مرة أخرى كم كنت ثملة. هل سيلحظ جاك؟

ـ لا؟

رفع جاك أحد حاجبيه.

ـ ماذا حدث؟

ـ دخلتُ في...

يا إلهي، من أين أبدأ.

ـ دخلتُ في صدام بعض الشيء مع ريانون.

ـ أي نوع من الصدام؟

ـ لقد عادت و...

توقفت، غير واثقة من كيفية صياغة الأمر. بدا من الخطأ تمامًا وضع الصورة كاملة أمام جاك، قبل أن أعترف لساندرا. وكنت واثقة للغاية أنني سأخالف جميع أنواع القواعد المتعلقة بالسِّرية، إذا ناقشت مشكلات ريانون مع شخص غير والديها. لكن من ناحية أخرى، شعرت أنني قد أُصاب بالجنون إذا لم أُسِر ولو بجزء من هذا لشخص بالغ آخر. وربما كانت هناك سوابق هنا، حيث بات من الواضح أكثر فأكثر أنه لم يتم تضمين كل شيء في ذلك الملف الأحمر. قلت أخيرًا:

ـ لقد تجادلنا. وهددت أنا بالاتصال بساندرا، وقامت هي... قامت فقط... لكنني لم أتمكن من إنهاء الحديث.

ـ ماذا حدث؟

سحب جاك كرسيًّا، وتهاويت فيه، وشعرت باليأس يغمرني مرة أخرى.

ـ لقد رحلتْ. خرجتْ بمفردها، مع صديق فظيع غير مناسب. أمرتُها ألا تفعل، لكنها ذهبتْ على أي حال، ولا أدري ماذا أفعل، وماذا أقول لساندرا.

ـ انظري، لا تقلقي بشأن ريانون. إنها فتاة صغيرة حذرة، ومستقلة تمامًا. وأشك بشدة أنها ستتعرض لأي أذى، مع أن ساندرا وبيل قد يرفضان الأمر.

ـ لكن ماذا لو تعرضتْ لشيء بالفعل؟ ماذا لو حدث لها شيء ما، بينما أنا في موضع المسؤولية؟

ـ أنت مربية، ولست سجانة. ما الذي كان من المفترض أن تفعليه، تربطينها بسلسلة إلى فراشها؟

قلت أخيرًا:
ـ أنت على حق. أعلم أنك على حق، كل ما في الأمر هو أنه... أوه، يا إلهي.
انطلقت مني الكلمات من تلقاء نفسها.
ـ أنا مرهقة للغاية، يا جاك. لا أستطيع التفكير، ولا يعينني على الأمر كون يدي تؤلمني بشدة كلما لمست أي شيء.
ـ ماذا حدث ليدك؟
نظرتُ إليها، وأنا أمسك بها في حجري، وأشعر بها تخفق بالتزامن مع نبضي.
ـ لقد جرحتها.
لم أرغب في الخوض في الطرق والأسباب الآن، لكن التفكير في ذلك الوجه الصغير الشرير المبتسم جعلني أرتعد لاإراديًّا.
عبس جاك.
ـ هل يمكنني إلقاء نظرة؟
لم أقل شيئًا، بل أومأت فحسب، ومددت يدي، وتناولها هو برفق شديد، وأمالها نحو الضوء. ضغط بخفة بالغة على الجلد المنتفخ على جانبَي الجرح، ولوى قسمات وجهه.
ـ لا يبدو في حالة جيدة للغاية، لو لم يكن لديك مانع من قولي هذا. هل وضعت عليه أي شيء عندما جرحتِه؟
ـ مجرد ضمادة.
ـ لم أقصد ذلك. كنت أعني مطهرًا. أي شيء من هذا القبيل؟
ـ هل تظن أنه بحاجة إلى ذلك بالفعل؟
أومأ برأسه.
ـ إنه عميق، ولا يعجبني انتفاخه على هذا النحو. يبدو وكأنه بدأ يتلوث. دعيني أذهب لأرى ما الذي تحتفظ به ساندرا هنا.

وقف ودفع كرسيه إلى الخلف، مُصدرًا صريرًا، وسار إلى غرفة المرافق، حيث كانت هناك خزانة أدوية صغيرة على الجدار. كنت قد وجدت الضمادات هناك في وقت سابق، ولم ألحظ أي شيء مثل المطهر أو الكحول الجراحي، بل مجرد خليط من الضمادات اللاصقة المرسوم عليها صور «الخنزيرة بيبا»، وزجاجات من الباراسيتامول السائل للأطفال.

قال جاك وهو يعود إلى المطبخ:

ـ لا يوجد شيء. أو على الأقل لا شيء سوى ست نكهات مختلفة من الباراسيتامول. تعالَي إلى منزلي، لديَّ حقيبة إسعافات أولية ملائمة في الشقة.

ـ أنا... لا أستطيع.

استقمت في جلستي وسحبت يدي، وثنيت إصبعي المصابة في راحة يدي، وشعرت بها تنبض بالألم.

ـ لا يمكنني ترك الأطفال.

قال جاك بصبر:

ـ لن تتركي أحدًا. ستكونين عبر الفناء فحسب، ويمكنك أخذ جهاز مراقبة الأطفال. تجلس ساندرا وبيل في الحديقة طوال الوقت في أثناء الصيف. لا يختلف الأمر عن ذلك. إذا سمعت أي صوت خافت، يمكنك العودة إلى هنا قبل أن يستيقظوا حتى.

قلت ببطء:

ـ حسنًا...

ترددت الأفكار في خاطري، وقد لانت حوافها وتشوشت بفعل كمٍّ النبيذ الذي تناولته في وقت سابق. يمكنني أن أطلب منه جلب مواد الإسعافات الأولية هنا، أليس كذلك؟ لكن كان هناك جزء صغير مني ـ حسنًا، لا، بل جزء كبير مني ـ كان هذا الجزء يشعر بالفضول. كنت أرغب في الذهاب مع جاك. أردت أن أرى داخل شقته.

ولكي أكون صادقة تمامًا، يا سيد ريكسام، كنت أرغب في الخروج من هذا المنزل.

إذا كنت تظنين حقًّا أن هناك تهديدًا ما، فكيف يمكنك ترك الأطفال للتعامل معه؟كانت ضابطة الشرطة هي من سألتني ذلك، وهي قادرة بالكاد على إخفاء اشمئزازها بينما هي تطرح السؤال.

وحاولت أن أشرح الأمر. حاولت إخبارها كيف أن الأطفال لم يروا شيئًا، ولم يسمعوا شيئًا. كيف أن كل ذرة صغيرة من الشر بدت موجهة إليَّ أنا وحدي. أنا التي سمعت وقع الخطوات. أنا التي قرأت تلك الرسائل. أنا التي ظللت مستيقظة، ليلة تلو ليلة، بسبب الضوضاء وجرس الباب والبرد.

لم يرَ أو يسمع أي من الآخرين، حتى جاك، ما رأيته وسمعته أنا.

لو كان هناك شيء ما في ذلك المنزل ـ وحتى الآن، لم أكن أصدق تمامًا أنه من الممكن وجود شيء ما، رغم كل ما حدث ـ لو كان هناك شيء ما، فقد كان يريد أن ينال مني. أنا والمربيات الأربع الأخريات اللاتي حزمن أمتعتهن ورحلن على عجل.

وكنت أريد خمس دقائق فقط بعيدًا عن تأثيره. خمس دقائق فحسب، وجهاز مراقبة الأطفال في جيبي، والجهاز اللوحي بكاميرات مراقبته تحت ذراعي. هل كان ذلك أكثر من أن أطلبه؟

لم يبدُ الاقتناع على ضابطة الشرطة. وقفتْ فحسب، تهز رأسها بعدم تصديق، وشفتها ملوية بازدراء حيال العاهرة الغبية، الأنانية، المهملة التي تجلس قبالتها.

لكن هل تصدق أنت ذلك، يا سيد ريكسام؟ هل تفهم كم كان الأمر صعبًا، وأنا حبيسة هناك، ليلة بعد ليلة، مع وقع الخطى التي تذرع جيئة وذهابًا فحسب؟ هل تفهم لمَ بدت تلك الأمتار القليلة فقط عبر الفناء وكأنها لا شيء على الإطلاق، وكل شيء؟

لا أدري. لست متأكدة مما إذا كنت قد تمكنتُ من إقناعك، وتوضيح كيف كان الأمر، وما كان عليه بالفعل.

كل ما يمكنني أن أقوله لك هو أنني التقطت جهاز مراقبة الأطفال والجهاز اللوحي، وتبعت جاك وهو يعبر المطبخ، ويفتح لي الباب الخلفي، ويغلقه خلفنا. شعرت بدفء بشرته، وهو يقودني عبر الفناء المظلم غير المستوي المرصوف بالحصى، إلى الدرج المؤدي إلى شقته. وصعدت السلم خلفه، وراقبت تقلص عضلاته وحركتها تحت قميصه وهو يصعد الدرج.

عند القمة، أخرج مفتاحًا من جيبه، وأداره في القفل، ثم تراجع ليسمح لي بالمرور إلى الداخل.

في الداخل، توقعت أن يبحث جاك عن لوحة، أو أن يخرج هاتفه، لكن بدلًا من ذلك، مد يده ونقر شيئًا ما، وعندما أُضيئت الأنوار، رأيت مفتاح إضاءة عاديًّا تمامًا مصنوعًا من البلاستيك الأبيض. كان الشعور بالارتياح غير معقول وعظيمًا للغاية، لدرجة أنني كدت أضحك.

ـ أليست لديك لوحة تحكم؟

ـ كلا، حمدًا للرب! صُمم المكان كسكن للموظفين، ولا جدوى من إهدار التكنولوجيا على أمثالنا.

ـ أظن ذلك.

أضاء نورًا آخر، ورأيت غرفة جلوس صغيرة مشرقة، مجهزة بأساسيات جيدة، وأريكة قطنية باهتة. كانت بقايا نار الحطب تحترق في موقد صغير في الزاوية، وتمكنت من رؤية مطبخ صغير في الركن البعيد. كان وراءه باب آخر، افترضت أنه لغرفة نومه، لكن لم يبدُ من الكياسة السؤال عن الأمر.

قال، مشيرًا إلى الأريكة:

ـ حسنًا، اجلسي هنا، وسأعود ومعي ضمادة مناسبة لذلك الجرح.

أومأت برأسي، ممتنة للشعور بأنني أتلقى الرعاية، لكن في المقام الأول كنت أشعر بالرضا للجلوس هناك فحسب، والشعور بدفء النار على وجهي، ووسائد «إيكيا» المبهجة الرخيصة الباعثة على الاطمئنان خلف ظهري، بينما كان جاك يفتش في خزائن المطبخ ورائي. كانت الأريكة شبيهة تمامًا

بتلك التي كانت لديَّ أنا وروان في شقتنا في لندن. كان اسمها «إكتورب»، أو شيئًا من هذا القبيل. كانت ملك والدة روان، قبل أن تمنحنا إياها. أتت بضمان عشر سنوات، ولها غطاء قطني قابل للغسيل، كان لونه أحمر فيما سبق في حالة جاك، لكنه بهت ليصير ورديًّا داكنًا مبقعًا بعض الشيء من أثر الشمس والغسيل المتكرر.

كان الجلوس عليها كالعودة إلى المنزل.

بعد انفصام الشخصية المترف في «هيذربراي»، كان هناك شيء ما بخصوص هذا المكان، ليس مريحًا فحسب، بل محببًا أيضًا. كان مبنيًّا بصلابة، وكله جزء واحد، من دون تغيير مفاجئ مربك من البذخ الفيكتوري إلى التكنولوجيا المستقبلية الأنيقة. كان كل شيء بسيطًا على نحو يبعث على الاطمئنان، من بقع الكوب على طاولة القهوة، إلى مجموعة الصور المستندة إلى رف المدفأة، لأصدقاء وأولادهم، أو ربما أبناء وبنات الإخوة والأخوات. ظهر طفل صغير أكثر من مرة، ومن الواضح من التشابه العائلي أنه كان أحد الأقارب.

شعرت بعيني وهي تغمض، وقد أدركني أثر الحرمان من النوم لليلتين... ثم سمعت سعالًا، وكان جاك يقف أمامي وفي يده ضمادة ومطهر من نوع ما، وفي الأخرى كأسان.

سألني:

ـ هل تريدين شرابًا؟

ونظرت إليه بحيرة.

ـ شرابًا؟ لا، شكرًا، أنا بخير.

ـ هل أنت واثقة؟ ربما تحتاجين إلى شيء ما ليخفف الألم عندما أضع هذا. سوف يلسع. وأظن أن هناك قطعة صغيرة من الزجاج أو شيئًا ما لا يزال بالداخل.

هززتُ رأسي، لكنه كان محقًّا. لقد لسع بشدة بالفعل، في البداية عندما مسحه بالمطهر، ثم مرة أخرى عندما دفع ملقطًا بعمق داخل الجرح، وشعرت بالاحتكاك البشع للمعدن على الزجاج، ولسعة شظية منسية وهي تنزلق لمسافة أعمق داخل إصبعي.

ـ اللعنة!

انطلق مني الأنين من دون أن أقصد التعبير عنه بصوت مرتفع، لكن جاك كان يبتسم، وهو يمسك بشيء ملطخ بالدم عند طرف ملقطه.

ـ ها قد أخرجته. لقد أبليتِ بلاء حسنًا. لا بد أن ذلك آلمك بشدة.

كانت يدي ترتجف، بينما جلس هو إلى جواري.

ـ هل تعلمين، لقد تحملتِ لفترة أطول من الأخريات.

ـ ماذا تقصد؟

ـ آخر زوج من المربيات. في الواقع، أنا لا أقول الحقيقة، حيث صمدتْ كاتيا لثلاثة أسابيع، على ما أظن. لكن منذ رحيل هولي، فقد أتين ورحلن مثل الفراشات.

ـ من كانت هولي؟

ـ كانت هي الأولى، التي بقيت أطول فترة. تولت رعاية مادي وإيلي عندما كانتا صغيرتين، وبقيتْ لثلاث سنوات تقريبًا، إلى أن...

توقف، وبدا أنه يفكر بشكل أفضل فيما كان على وشك أن يقوله.

ـ حسنًا، دعكِ من ذلك. والثانية، لورين، مكثتْ ثمانية أشهر تقريبًا. لكن التي تلتها لم تستمر أسبوعًا. وتلك التي قبل كاتيا، كان اسمها ماجا، رحلت في الليلة الأولى.

ـ في الليلة الأولى. ماذا حدث؟

ـ استدعتْ سيارة أجرة، وغادرتْ في منتصف الليل. حتى إنها تركت نصف أشيائها أيضًا، واضطرت ساندرا إلى إرسالها إليها.

ـ لا أعني ذلك. أعني، ما الذي حدث ليجعلها ترحل؟
ـ أوه، حسنًا... لا أعرف ذلك حقًا. لطالما ظننتُ...
تضرج وجهه، وتلطختْ مؤخرة عنقه باللون الأحمر، وهو ينظر إلى كأسه الفارغة.
حثثته قائلة:
ـ استمِر.
وهز رأسه كما لو كان غاضبًا من نفسه.
ـ اللعنة. لقد قلتُ إنني لن أفعل هذا.
ـ تفعل ماذا؟
ـ أنا لا أتحدث بالسوء عن أرباب عملي يا روان، لقد أخبرتك بذلك في اليوم الأول.
هزني الاسم وجعلني أشعر بالذنب، وذكَّرني بكل ما كنت أخفيه عنه، لكنني نحيت الفكرة جانبًا، وتركيزي منصب على ما كان سيقوله، بدرجة تمنعني من القلق بشأن أسراري الخاصة. شعرت فجأة بالرغبة في معرفة ما دفعهن للرحيل، أولئك الفتيات الأخريات، أسلافي. ما الذي دفعهن إلى الهرب؟
قلت:
ـ اسمع، يا جاك.
ترددتُ، ثم وضعتُ يدي على ذراعه.
ـ إنها ليست خيانة. أنا أيضًا موظفة لديهما، هل تذكر؟ نحن زميلان. أنت لا تثرثر مع شخص غريب. من المسموح لك الحديث عن أمور العمل مع الزملاء. هذا هو ما يساعدك على الحفاظ على عقلك.
ـ نعم؟
رفع نظره عن كأس الويسكي التي كان يتأملها، ومنحني ابتسامة صغيرة ساخرة، ومريرة إلى حد ما.
ـ هل هذا صحيح؟ حسنًا... لقد أفشيت نصف الموضوع بالفعل، لذا

فربما من الأفضل أن أخبرك بكل شيء. قد يكون من حقك أن تعرفي على أي حال. لطالما ظننت أن ما أخافهن...

أخذ نفَسًا، وكأنما يعد نفسه لفعل شيء بغيض.

ـ ظننتُ أنه قد يكون... بيل.

ـ بيل؟

لم يكن ذلك هو الجواب الذي كنت أتوقعه.

ـ بأي... بأي طريقة؟

لكن الكلمات لم تكَد تخرج من فمي، حتى عرفت. تذكرت سلوكه في ليلتي الأولى: الفخذان المتباعدتان، والإلحاح في تقديم النبيذ، وركبته وهي تندس، غير مرغوب فيها، بين ركبتي...

قلت:

ـ اللعنة. لا، لا حاجة بك لأن تقول شيئًا. يمكنني أن أتخيل.

قال جاك على مضض:

ـ ماجا... كانت صغيرة في السن نوعًا ما، وجميلة للغاية. وخطر ببالي أنه ربما يكون... حسنًا... تحرش بها، ولم تدرِ هي ما عليها أن تفعله. لقد تساءلتُ من قبل، حيث كانت لدى بيل كدمة حول عينه ذات مرة، عندما كانت لورين هنا. وفكرت أنها ربما تكون قد... أنت تعلمين...

ـ وجهتْ إليه لكمة؟

ـ أجل. وإذا كانت قد فعلتْ، فلا بد أنه كان يستحق ذلك، وإلا كانت ستُطرد من عملها، أتعرفين؟

ـ أظن. يا إلهي. لمَ لم تخبرني؟

ـ من الصعب بعض الشيء أن أقول: «أوه، أجل، بالمناسبة، رب عملي منحرف جنسيًّا إلى حد ما»، أتعلمين؟ من الصعب طرح الموضوع في أول يوم.

ـ يمكنني رؤية ذلك. تبًّا.

شعرت بوجنتيَّ تتضرجان حمرة مثل جاك، مع أنه في حالتي، كان الجزء الأكبر من السبب عائدًا إلى النبيذ.

ـ رباه. أف. أوه، يا للقرف.

كان الشعور بالخيانة غير متناسب، كنت أدرك ذلك. لم يكن الأمر وكأنني كنت لا أعرف. ففي النهاية، كان قد حاول ذلك معي. لكن بطريقة ما، فكرة أنه كان يتعدى بشكل ممنهج على مقدمات الرعاية لبناته، المرة تلو الأخرى، غير مبالٍ بحقيقة أنه كان يساعد على إبعادهن... شعرت فجأة برغبة عارمة في الاغتسال، وفرك كل آثاره عن بشرتي، مع أنني لم أرَه منذ أيام، وعندما رأيته، لم يلمسني إلا بالكاد.

تسلل صوت إيلي إلى رأسي، بطبقته العالية الرفيعة: أُفضل الأمر عندما يرحل. فهو يجبرهن على فعل أشياء لا يُرِدن فعلها.

هل كان من المحتمل أنها كانت تتحدث عن والدها، وهو يتحرش بالشابات والفتيات اللاتي اختارتهن زوجته لرعاية أطفاله؟

ـ يا إلهي.

وضعت وجهي بين كفيَّ.

ـ إنه لعين تمامًا.

ـ اسمعي...

بدا صوت جاك منزعجًا.

ـ ربما أكون مخطئًا. ليس لديَّ أي دليل على هذا، إنه فقط...

قلت بأسى:

ـ أنت لست بحاجة إلى دليل. لقد حاول ذلك معي في الليلة الأولى.

ـ ماذا؟

ـ أجل. ليس شيئًا...

ازدردت ريقي، وأنا أصر على أسناني.

ـ ليس شيئًا يمكنني من قطع شوط كبير في محكمة العمل. كلها ملاحظات

غامضة، والوقوف في طريقي «من دون قصد». لكنني أعرف عندما أتعرض للتحرش.

ـ يا إلهي، رباه، روان. أنا... أنا آسف جدًّا... أنا فقط...

ـ هذا ليس خطأك، لا تعتذر.

ـ اللعنة، كان يجب أن أقول شيئًا! لا عجب أنك كنت في غاية التوتر، وتسمعين رجالًا يتسللون في...

قلت بقوة:

ـ لا، ليس لهذا علاقة بالأمر. جاك، أنا امرأة ناضجة، وقد تعرضت للتحرش من قبل، وهو ليس شيئًا لا يمكنني التعامل معه. موضوع غرفة العلية ليس له صلة على الإطلاق. هذا... هذا شيء آخر.

ـ هذا مقزز للغاية، هذا هو الأمر.

كانت وجنتاه متضرجتين، ووقف كما لو كان عاجزًا عن احتواء غضبه وهو جالس في سكون. سار نحو النافذة، ثم عاد وقبضتاه مضمومتان.

ـ أريد أن...

قلت في الحال:

ـ جاك، دعك من هذا.

وقفت أنا الأخرى، ووضعت يدي على ذراعه، وجذبتُه ليواجهني. وبعد ذلك... يا إلهي، لا أعرف حتى كيف حدث ذلك.

لا أملك الكلمات للتعبير عن الأمر، من دون كتابته وكأنه رواية رخيصة. ذوبان بعضنا بين ذراعَي بعض. الشفاه وهي تلتقي كاصطدام الموج. كل تلك العبارات المبتذلة الغبية.

إلا أنه لم يكن هناك أي ذوبان. ولا نعومة. كان الأمر قاسيًا وسريعًا وملحًّا، ومؤلمًا بعض الشيء في حدته. كنت أقبِّل وأتلقى القُبَل، وبعد ذلك أخذتُ أعض، وبشرتي بين أسنانه أيضًا، ثم تخللت أصابعي شعره، وكانت يداه تتحسس أزراري، ثم صار الجلد ملامسًا للجلد، والشفاه مقابل الشفاه...

لا يمكنني أن أكتب لك هذا. لا يمكنني كتابته، لكنني لا أستطيع أن أتوقف عن تذكره. لا أعرف كيف أتوقف.

بعد ذلك، رقدنا متعانقين أمام نار الحطب، وجلودنا ملساء بفعل العرق واللزوجة، وخلد هو إلى النوم، ورأسه على صدري، يرتفع وينخفض برفق مع كل نفَس أخذته. راقبته فحسب لفترة، كيف أن بشرته تحولت إلى الشحوب كبياض الحليب أسفل وركيه، والنمش المتناثر على قصبة أنفه، وامتداد رموشه الداكنة على وجنتيه، ويده الملتفة حول كتفي. ثم رفعت نظري، نحو رف المدفأة الذي يعلونا، حيث كان جهاز مراقبة الأطفال يقبع في صمت.

لم يكن بوسعي العودة. ومع ذلك، كان يجب عليَّ أن أفعل.

في النهاية، عندما شعرت أنني بدأت أخلد إلى النوم أنا الأخرى، أدركت أنه يجب عليَّ النهوض، أو المخاطرة بالاستلقاء هنا طوال الليل، والاستيقاظ صباحًا لأجد الفتيات يعددن إفطارهن، بينما أعود أنا في مسيرة خزي باردة إلى المنزل الرئيسي في ضوء الفجر.

وكانت هناك ريانون أيضًا. لم أكن أستطيع المجازفة بعثورها عليَّ هنا، عند عودتها من المكان الذي هي فيه، أيًا كان. كان لديَّ الكثير لأوضحه لساندرا بالفعل، من دون إضافة النزهات الليلية إلى جدول الأعمال.

لأنه كان يجب عليَّ الاعتراف لها. كان هذا هو الاحتمال الوحيد، أدركت ذلك بينما كنت مستلقية بين ذراعَي جاك... ربما حتى كنت أعرف ذلك من قبل. كان يجب عليَّ الاعتراف بكل شيء، والمخاطرة بخسارة الوظيفة. إذا طردتني... حسنًا، لن أستطيع أن ألومها. وعلى الرغم من كل شيء، على الرغم من الورطة المالية التي سأجد نفسي فيها، من دون وظيفة، ولا مال، ولا مراجع وظيفية، على الرغم من كل ذلك، سأضطر إلى تحمل الأمر ببساطة، لأنني أستحق ذلك.

لكن إذا وضحتُ الأمر، وإذا شرحت حقًّا لماذا أقدمتُ على فعل ما فعلته، إذن ربما... ربما فقط...

كدت أنتهي من ارتداء سروالي الجينز، عندما سمعت الصوت. لم يكن قادمًا عبر جهاز مراقبة الأطفال، لكنه أتى من مكان ما خارج المنزل. كان صوتًا ما بين التصدع والارتطام، كما لو أن فرعًا قد سقط من شجرة. توقفت وأنا أحبس أنفاسي، وأصخت السمع، لكن لم تكن هناك أي أصوات أخرى، ولا عويل حاد من جهاز مراقبة الأطفال ليدل على أن الصوت، أيًّا ما كان، قد أيقظ بيترا.

مع ذلك، أخرجت هاتفي وتفقدت التطبيق. كانت أيقونة الكاميرا التي تحمل علامة «غرفة بيترا»، تُظهرها وهي مستلقية على ظهرها بحرية كعادتها. بدت الصورة منقطة وغير واضحة في الوهج الناعم للمصباح الليلي، لكن هيئتها كانت واضحة. بينما كنت أشاهد، تنهدتْ ووضعتْ إبهامها في فمها.

لم تُظهر الكاميرا في غرفة الفتاتين أي شيء على الإطلاق. كنت قد نسيت إشعال مصباحهما الليلي عندما وضعتهما في الفراش، وكانت دقة الصورة أضعف من أن تُظهر أي شيء سوى السواد المحبب، يتخلله بقع رمادية عارضة بسبب التشوش. لكن إذا كانتا قد استيقظتا، لكانتا أشعلتا المصباح المجاور للفراش، لذا كان غياب الصورة بمثابة أخبار طيبة.

هززت رأسي، وأغلقت زر سروالي الجينز، وجذبتُ قميصي فوق رأسي، ثم انحنيتُ وقبَّلت جاك برفق شديد على وجنته. لم يقل شيئًا، بل انقلب فحسب، وغمغم بشيء غير واضح، ربما كان: «تصبحين على خير، يا لين».

للحظة، سكن قلبي، لكن بعد ذلك تمالكت نفسي. من الممكن أن يكون أي شيء. تصبحين على خير، يا عزيزتي. تصبحين على خير، إذن. وحتى لو كان «تصبحين على خير، يا لين»، أو «ليز»، أو أي اسم

آخر، فماذا في ذلك؟ كان لديَّ ماضٍ. ربما كان لدى جاك أيضًا. والرب وحده يعلم، أنه كانت لديَّ من الأسرار الخاصة ما هو أكثر من أن أكشف أسرار شخص آخر لأدينه.

كان يجب عليَّ أن أرحل فحسب.

كان يجب أن أحمل جهاز مراقبة الأطفال، وأسير إلى الباب، وأخرج.

لكن قبل أن أعود إلى المنزل، لم أستطع مقاومة نظرة واحدة أخيرة إلى جاك، وهو راقد هناك، وبشرته ذهبية في ضوء النار، وعيناه مغمضتان، وشفتاه مفترقتان بطريقة جعلتني أرغب في تقبيله مرة أخيرة.

وعندما نظرت إلى الوراء، رأيت شيئًا آخر.

كانت زهرة أرجوانية، ملقاة على الطاولة. للحظة، لم أتمكن من معرفة لمَ بدت مألوفة، ولا لمَ تعلقت بها نظرتي. وبعد ذلك أدركت، كانت نوع الزهرة نفسه التي وجدتها ذلك النهار السابق في المطبخ، ووضعتها في كوب القهوة لإنعاشها. هل ترك جاك الزهرة على أرض المطبخ؟ لكن لا، لقد كان بعيدًا تلك الليلة، يقضي بعض المهام من أجل بيل... أليس كذلك؟ أم هل كانت تلك ليلة مختلفة؟ تسببتْ قلة النوم في جعل الأيام ضبابية، يتداخل بعضها مع بعض، وأصبح من الصعب تذكُّر أي من فترات الظلام الطويلة الكابوسية الممتدة ينتمي إلى أي صباح.

بينما كنت واقفة هناك، عابسة ومحاولة أن أتذكر، لاحظت شيئًا آخر. شيئًا عاديًّا بدرجة أكبر حتى، لكنه كان شيئًا جعلني أتوقف فجأة، ومعدتي تنقبض بفعل القلق. كانت لفة صغيرة من الخيط. غير مؤذية تمامًا، فلمَ أزعجتني إلى هذا الحد إذن؟

سرت عائدة عبر الغرفة، والتقطتها.

كانت شلة من الخيط الأبيض الخاص بالطهي، ملفوفة مرتين وثلاثًا، ومربوطة بعقدة سهلة الفك، بدت مألوفة فجأة على نحو فظيع. وقد قُطعت بشكل نظيف، قُطعت إلى نصفين بسكين حاد للغاية، أو ربما بمقص التقليم ذاته الذي أخذته من حديقة السموم.

أيًّا ما كان الأمر، لم يعُد يهم الآن في الواقع.

ما كان مهمًّا هو أنها كانت لفة الخيط التي لففتُها حول بوابة حديقة السموم، على ارتفاع أبعد من أن تطاله أيدي الصغار، الخيط الذي وضعتُه هناك للحفاظ على سلامة الفتيات. لكن ما الذي كان يفعله في مطبخ جاك؟ ولمَ كان مُلقى إلى جوار تلك الزهرة ذات المظهر البريء؟

عندما أخرجت هاتفي وفتحت جوجل، كان هناك شعور مرضي بالاختلاج في صدري، كما لو كنت أعرف بالفعل ما سأعثر عليه. كتبت في شريط البحث: «زهرة أرجوانية سامة»، ثم نقرت على صور جوجل، وكانت هناك، في الصورة الثانية، بهيئتها المتهدلة الغريبة، ولونها الأرجواني الزاهي الذي لا لبس فيه على الإطلاق. قرأتُ، والشعور المرضي يتزايد داخلي مع كل سطر:

> البيش (قلنسوة الراهب). واحدة من أشد الزهور المحلية في المملكة المتحدة سُمِّية. الأكيونتين مادة شديدة السُّمية للقلب والأعصاب. وأي جزء من النبات، بما في ذلك السيقان والأوراق والبتلات أو الجذور، يمكن أن يكون مميتًا. تنتج معظم الوفيات عن تناول البيش، لكن يُنصح البستانيون بتوخي الحذر الفائق في التعامل مع قلامات النبات، فحتى ملامسة الجلد يمكن أن تسبب أعراضًا.

كانت هناك تحتها قائمة بالوفيات وجرائم القتل المرتبطة بالنبات.

أغلقت الهاتف، واستدرت كي أنظر إلى جاك، عاجزة عن تصديق الأمر. هل كان هو حقًّا، طوال الوقت؟

كان هو في الحديقة المغلقة، يقلم النباتات السامة، ويُبقي ذلك المكان البشع على قيد الحياة.

هو من أبطل إجراءات السلامة التي وضعتها في محاولة لحماية الأطفال.

هو من اختار بعناية أكثر زهرة سامة تَمكن من العثور عليها، وتركها مُلقاة في منتصف أرضية المطبخ. كل ما فعلته هو أنني أمسكت بها، لكن كان من الممكن أن يعثر عليها الأطفال بكل سهولة، أو حتى أحد الكلبين.

وقد ضاجعته للتو.

لكن لماذا؟ لمَ يُقدِم على فعل ذلك؟ وعما كان مسؤولًا أيضًا؟

هل كان هو من اخترق النظام ليدفعنا جميعًا من أَسِرتنا في منتصف الليل بموسيقى تصم الآذان، وصرخات مرعبة؟

هل كان هو من يدق جرس الباب، ويوقظني من النوم، ويبقيني مستيقظة بذلك الصرير المرعب لوقع الخطوات الخفية؟

والأسوأ من ذلك كله، هل كان هو من كتب تلك الأشياء الفظيعة في غرفة العلية المغلقة، ثم أقفلها خلفه بالألواح، فقط «ليعيد اكتشافها» عندما يصبح الوقت مناسبًا؟

وجدت أن أنفاسي أخذت تتسارع وتضيق، ويديَّ ترتجفان وأنا أعيد الهاتف إلى جيبي، وفجأة صار عليَّ أن أخرج وأبتعد عنه بأي ثمن.

لم أهتم الآن بالتزام الهدوء، وفتحت باب الشقة وخرجت إلى الليل، وصفَقت الباب خلفي. كان المطر قد بدأ في الهطول مرة أخرى، وركضت وشعرت بالمطر على وجنتي، والضيق في حلقي، والغشاوة في عيني.

كان باب غرفة المرافق لا يزال مفتوحًا، ودخلت، متكئة على الباب، واستخدمت قميصي لمسح عيني، محاولة أن أتمالك نفسي.

اللعنة. اللعنة. ما بالي أنا والرجال الذين في حياتي؟ لمَ كانوا جميعًا ملاعين على هذا النحو؟

بينما كنت واقفة هناك، محاولة تهدئة أنفاسي اللاهثة، تذكرت الصوت الخافت الذي سمعته من قبل عندما كنت أرتدي ملابسي. كان المنزل كما تركته تمامًا، من دون أثر لحذاء ريانون ذي الكعب المرتفع ملقى في الردهة،

أو حقيبتها مهجورة على الدرجة السفلية من السلم. لكنني لم أكن أتوقع ذلك حقًّا. كنت سأسمع سيارة تتوقف. ربما كان أحد الكلبين.

مسحت عيني مرة أخرى، ونزعت حذائي، وسرت ببطء إلى المطبخ، شاعرة بالدفء الخافت للتدفئة أسفل الأرضية، التي تتسرب عبر الخرسانة. كان هيرو وكلود مستلقيين بنعاس في سلتيهما، يشخران بهدوء. رفعا نظريهما إلى الأعلى عندما دخلت، ثم استلقيا برأسيهما مرة أخرى في تعب، بينما جلست إلى طاولة الإفطار، ووضعت رأسي بين يديَّ، وحاولت أن أقرر ما أفعله.

لم أستطع الذهاب إلى الفراش. بصرف النظر عما قاله جاك، كانت ريانون لا تزال متغيبة، ولم يكن بوسعي أن أنسى تلك الحقيقة ببساطة. ما كان يجب أن أفعله ـ بل ما كنت بحاجة إلى أن أفعله، في الواقع ـ هو أن أكتب لساندرا رسالة بريد إلكتروني. رسالة ملائمة، تشرح كل ما حدث.

لكن كان هناك شيء آخر عليَّ فعله أولًا.

فكلما فكرت أكثر في الأمر، لم يبدُ سلوك جاك منطقيًّا. لم تكن حديقة السموم فحسب، بل كل شيء. كيفية وجوده دومًا في الجوار عندما تسوء الأمور. وحقيقة أنه يبدو أن بحوزته مفاتيح لكل غرفة في المنزل، وإمكانية للوصول إلى أجزاء من نظام إدارة المنزل يجب ألا تكون لديه. كيف عرف طريقة تجاوز التطبيق في تلك الليلة، عندما خرجت الموسيقى صارخة من مكبرات الصوت؟ وكيف تصادف ببساطة وأن صار بحوزته مفتاح لباب غرفة العلية المغلق؟

ومهما قال، فقد كان في النهاية من آل جرانت. ماذا لو كانت هناك صلة ما فاتتني؟ هل يمكن أن يكون أحد أقارب الدكتور كينويك جرانت المفقودين منذ فترة طويلة، عاد ليطرد آل إلينكورت من منزل أجداده؟

لكن كلا، كان في ذلك التساؤل الأخير مبالغة زائدة على الحد. لم تكن هذه مسرحية ما من القرن التاسع عشر عن انتقام الفلاحين. ما الذي سيكسبه

جاك من طرد آل إلينكورت من منزلهم؟ لا شيء. كل ما سيناله هو زوجان إنجليزيان آخران في مكانهم. وإلى جانب ذلك، لم يبدُ أن آل إلينكورت هم المستهدفون. بل كنت أنا.

لأن الحقيقة هي أن أربع مربيات ـ خمس إذا حسبت هولي ـ قد تركن آل إلينكورت. لا، لم يَتركنَهم، بل تعرضن للطرد بصورة ممنهجة، واحدة تلو الأخرى. وربما كنت سأصدق أن يدَي بيل الشاردتين مسؤولتان عن الأمر، لولا تجاربي الشخصية في منزل «هيذربراي». شخص ما في هذا المنزل، شخص ما أو شيء ما، كان يدفع المربيات بعيدًا، في حملة اضطهاد متعمدة ومستمرة.

لكنني فقط لم أكن أعرف من.

في مكان ما خلف عيني، بدأ ألم نابض خافت، مرددًا صدى الألم في يدي، وكان الدوار من أثر النبيذ الذي شربته في وقت سابق قد بدأ يتحول بالفعل إلى بدايات خُمار فظيع. لكن لم يكن بوسعي الاستسلام لذلك الآن. ببطء، انزلقت مترنحة من على كرسي طاولة الإفطار، وسرت إلى الحوض، ورششت وجهي بالمياه محاولة أن أفيق، وأصفي ذهني لما كنت على وشك فعله.

لكن بينما كنت أقف والماء يقطر من شعري المفكوك، ويداي مستندتان إلى جانبَي الحوض، رأيت شيئًا. شيئًا لم يكن موجودًا هناك عندما غادرت، كنت متأكدة من ذلك، أو على الأقل متأكدة بقدر استطاعتي، حيث لم يعُد شيء يبدو مؤكدًا الآن.

على يمين الحوض كانت زجاجة نبيذي شبه الفارغة. إلا أنها صارت فارغة تمامًا الآن. كان يجب أن يتبقى فيها مقدار كأس، لكنها أصبحت خالية كلية. وفي الأخدود المحيط بوحدة التخلص من النفايات، كانت هناك ثمرة توت واحدة مهروسة.

ربما كانت بقايا ثمرة توت أزرق أو توت العليق، مهروسة بحيث

لم يعُد من الممكن التعرف عليها، لكن بطريقة ما، كنت أعرف أنها ليست كذلك.

كان قلبي يدق بشدة، بينما مددت يدي ببطء شديد داخل وحدة التخلص من النفايات.

مددت يدي في أعمق أعماق الفوهة المعدنية، حتى لامستْ أصابعي شيئًا في القاع. شيئًا لينًا وصلبًا على التوالي، غاصتْ فيه أصابعي وأنا أغترف تلك الكتلة.

كانت هريسة من التوت. الطقسوس، والبهشية، وكرز الغار.

وعلى الرغم من المياه التي أفرغتها في البالوعة، فقد كان بوسعي أن أشم بوضوح تام رواسب النبيذ التي لا تزال عالقة بها.

لم يكن ذلك منطقيًّا. لم يكن هناك معنى لأي من هذا. لم يكن ذلك التوت في النبيذ عندما رحلت، كيف يمكن له أن يكون؟ لقد فتحت الزجاجة بنفسي.

مما يعني أن شخصًا ما وضعها هناك عندما لم أكن منتبهة. شخصًا ما كان في هذا المطبخ الليلة، بعد أن أوى الأطفال إلى الفراش.

لكن بعد ذلك... لكن بعد ذلك تخلص شخص آخر منها.

كان الأمر وكأن هناك قوتين في المنزل، واحدة تقاتل لإبعادي، والأخرى لحمايتي. لكن من... من كان يفعل هذا؟

لم أكن أعرف. لكن لو كانت هناك إجابات، فقد كنت أعرف أين يجب عليَّ أن أبحث.

كان صدري ضيقًا بينما فردت قامتي، وبحثت في جيب سروالي الجينز عن جهاز الاستنشاق الخاص بي، وأخذت نفَسًا. إلا أن الضيق لم يرتخِ، ووجدت أنفاسي سريعة وضحلة بينما شققت طريقي نحو السلم، وشرعت أصعد في الظلام.

عندما اقتربت أكثر فأكثر من الطابق العلوي، لم يسعني إلا أن أتذكر المرة

الأخيرة التي وقفت فيها هناك، ويدي على المقبض المستدير، عاجزة ببساطة عن الذهاب أبعد من ذلك، وغير قادرة على مواجهة الظلام الساهر القابع خلف ذلك الباب، أيًا كان.

مع ذلك، بدأتُ أشك الآن أن أيًا ما كان الذي يسكن «هيذربراي» كان بشريًا للغاية. وكنت عازمة على أن أدير المقبض هذه المرة، وأفتح الباب، وأجد دليلًا على ذلك. دليلًا يمكنني أن أريه لساندرا عندما أخبرها عن أحداث الليلة.

لكن عندما وصلت إلى الطابق العلوي، وجدت أنني لست بحاجة إلى أن أفتحه على الإطلاق. حيث كان بابي... باب غرفتي، مفتوحًا. وكنت قد تركته مغلقًا.

كانت لديَّ ذكرى واضحة، واضحة للغاية، عن وقوفي أمامه، والنظر إلى الشق الكائن أسفله، وأنا غير قادرة تمامًا على إدارة المقبض.

وكان مفتوحًا الآن.

كان الجو باردًا للغاية مرة أخرى، أكثر برودة حتى مما كان عليه عندما استيقظت تلك المرة خلال الليل وأنا أرتجف، لأجد منظم الحرارة مضبوطًا على درجة منخفضة، وجهاز التكييف يعمل بأقصى طاقته. لكنني شعرت هذه المرة أنه كان أكثر من مجرد برودة الغرفة، بل كان نسيمًا فعليًا.

شعرت للحظة أن كل جزء من تلك العزيمة الثابتة يذوي كالبلاستيك في اللهب، ويختفي في أعماقي، ويذوب ويلتوي حتى يصبح لبًا أسود صلبًا.

من أين كان يأتي النسيم؟ هل كان باب غرفة العلية؟ إذا كان مفتوحًا مرة أخرى ـ على الرغم من القفل والمفتاح في جيبي، وعلى الرغم من كون جاك نائمًا في شقته عبر الفناء ـ فسأصرخ على ما أظن.

بعد ذلك تمالكت نفسي.

كان هذا جنونيًا. لم يكن هناك وجود للأشباح. ولا وجود للمنازل

المسكونة بالأشباح. لم يكن هناك شيء في غرفة العلية تلك سوى الغبار، وآثار الأطفال المصابين بالملل الذين توفوا منذ خمسين عامًا.

ولجتُ الغرفة، وضغطت الزر على اللوحة.

لم يحدث شيء. جربت مربعًا مختلفًا، كنت متأكدة من أنه أضاء المصابيح الليلة الماضية. مع ذلك، لم يحدث شيء على الرغم من أن مروحة غير مرئية بدأتْ في الطنين. وقفتُ في الظلام للحظة طالت، محاولة التفكير فيما أفعله. كان بوسعي أن أشم الهواء البارد المترب المندفع عبر ثقب مفتاح باب غرفة العلية، وكان بإمكاني سماع شيء أيضًا، ليس الصرير السابق، بل أزيزًا ميكانيكيًّا خافتًا أصابني بالحيرة.

بعد ذلك، من العدم، غمرتني موجة مفاجئة من الغضب.

أيًّا ما كان، مهما كان الموجود هناك بالأعلى، فلن أسمح لنفسي بالشعور بالخوف على هذا النحو. كان هناك شخص ما، أو شيء ما، يحاول إبعادي عن «هيذربراي»، ولن أستسلم له.

لا أعرف ما إذا كانت بقايا النبيذ في عروقي هي التي منحتني الشجاعة، أم معرفتي أنني عندما أتصل بساندرا في اليوم التالي، فإنني في الغالب سأعود إلى منزلي على أي حال، لكنني أخرجت هاتفي من جيبي، وأشعلت المصباح، وخطوت عبر غرفة النوم إلى باب غرفة العلية.

بينما أفعل ذلك، علا صوت الأزيز مرة أخرى. كان آتيًا من فوق رأسي. كان الصوت مألوفًا، لكنني لم أستطع تحديد السبب. بدا وكأنه دبور غاضب بشدة، لكن كان هناك شيء ما... شيء آلي بخصوصه، خاصية لم تجعلني أظن أنه كائن حي.

تحسست داخل جيب سروالي الجينز بحثًا عن المفتاح، الذي كان لا يزال موجودًا هناك منذ الأمس، صلبًا وثابتًا على ساقي، وأخرجته.

بنعومة وهدوء شديد، أدخلت المفتاح في باب الخزانة، وأدرته. كان متيبسًا، لكن ليس بالقدر نفسه مثل المرة السابقة. أتى زيت التشحيم مفعوله،

ومع أنني شعرت بمقاومة إلا أنه دار بهدوء، من دون صرير المعدن على المعدن الذي أصدره عندما فتح جاك القفل عنوة.

ثم وضعت يدي على الباب، وفتحته.

كانت الرائحة تمامًا كما تذكرتها من المرة السابقة، رطبة وعفنة، رائحة الموت والهجران.

لكن كان هناك شيء ما بالأعلى بالفعل، كان بوسعي رؤية ذلك الآن، شيء يلقي وهجًا أبيض خافتًا أضاء شِباك العنكبوت التي نسجتها العناكب عبر درجات سلم العلية. مع ذلك، لم يصعد أحد إلى هنا منذ أتيت أنا وجاك، بدا ذلك واضحًا. لم يكن المفتاح الموجود في جيبي فحسب هو ما أخبرني بذلك، بل شِباك العنكبوت السميكة غير الممزقة التي نُسجت ثانية بجد منذ مررت آخر مرة. لم يكن من الممكن أن يمر شخص من هنا من دون أن يمزقها. بطبيعة الحال، اضطررت إلى التحرك بحذر، وأن أمسح بيدي أمام وجهي لمحاولة إبقاء الخيوط العالقة بعيدًا عن عيني وفمي.

ماذا كان ذلك الضوء؟ القمر وهو يلتمع عبر تلك النافذة الصغيرة؟ ربما، إلا أنه كان مغطى بالقاذورات بشدة، لدرجة أنني كنت سأُفاجأ.

عند قمة الدرج، أخذت نفَسًا صامتًا، وأنا أهيئ نفسي، وبعد ذلك ولجت غرفة العلية.

رأيت شيئين على الفور.

الأول هو أن غرفة العلية كانت تمامًا كما رأيتها آخر مرة عندما ألقيت نظرة أخيرة على المكان قبل أن أتبع جاك أسفل السلم في اليوم السابق. الشيء الوحيد الذي كان مفقودًا هو رأس الدمية الذي تدحرج من الكومة ليستقر في منتصف الغرفة. لم يكن ذلك موجودًا.

والثاني هو أن القمر كان يلتمع بالفعل داخل غرفة العلية، مشرقًا على نحو مثير للدهشة، حيث كانت النافذة ـ النافذة التي أغلقها جاك ـ مفتوحة

مرة أخرى. من الواضح أنه لم يغلقها كما يجب، وانفتحت بفعل الريح خلال الليل. خطوت بغضب عبر الألواح التي تصدر صريرًا، وصفقتها بقوة أكثر مما فعل هو، وتحسست في الظلام بحثًا عن مزلاج. أخيرًا، وجدت واحدًا، لسانًا طويلًا محفورًا به ثقوب. كان مغطى بطبقة سميكة من شِباك العنكبوت، واضطررت إلى أن أزيحها جانبًا بيدي، وشعرت بانسحاق الفرائس النافقة منذ زمن طويل في الشباك بينما أنا أهزهزه لأعيده إلى مكانه ثانية، لضمان عدم وجود طريقة يمكن من خلالها أن تنفتح النافذة من تلقاء نفسها مرة أخرى.

أخيرًا صارت مُحكمة، وعدت إلى الغرفة وأنا أمسح يدي. خَفت الضوء على الفور عندما أغلقت النافذة، وقد حجب الزجاج المغطى بالعفن كل شيء فيما عدا خيط رفيع. لكن عندما استدرت إلى السلم مرة أخرى، والشعاع الرفيع الصادر عن مصباحي ينير مسارًا ضيقًا عبر ألواح الأرضية، لاحظت شيئًا آخر. كان هناك ضوء آخر. واحد أضعف وأكثر زرقة هذه المرة، وكان آتيًا من زاوية في غرفة العلية مقابلة للنافذة. زاوية تحجبها الظلال تمامًا. زاوية لم يكن من المفترض أن يوجد فيها أي ضوء.

كان قلبي يخفق بشدة وأنا أعبر الأرض. هل كانت فتحة لإحدى الغرف في الطابق السفلي؟ شيئًا آخر؟ أيًا كان مصدر الضوء، فقد كان مختبئًا خلف صندوق. سحبته جانبًا بخشونة، ولم أعُد أحاول الالتزام بالهدوء، حيث لم أعُد أكترث بمن يعثر عليَّ هنا بالأعلى. كان لديَّ دافع واحد فقط، وهو معرفة ما يحدث بالفعل.

جعلني ما رأيته أتراجع في دهشة، وأجثو على ركبتي في التراب لألقي نظرة من كثب أكثر.

كانت هناك كومة صغيرة من المتعلقات، مختفية خلف الصندوق القديم. كتاب. بعض أغلفة ألواح الشوكولاتة. سوار. قلادة. حفنة من الأغصان والتوت، ذابلة، أجل، لكن ليست جافة بأي حال من الأحوال.

وهاتف جوال.

كان الضوء الصادر من الهاتف هو ما رأيته عبر غرفة العلية، وعندما التقطته، أصدر أزيزًا مرة أخرى، وأدركت أن هذا هو مصدر الصوت الغريب الذي سمعته سابقًا. بدا من الواضح أنه أجرى تحديثًا، وكان عالقًا في دائرة مفرغة وهو يحاول إعادة تشغيل نفسه، ويفشل، ويعيد التشغيل ويصدر أزيزًا في كل مرة.

كان نموذجًا قديمًا، شبيهًا بواحد كنت أمتلكه بنفسي منذ بضع سنوات. وجربت حيلة كانت تنجح في بعض الأحيان عندما ينخفض شحن بطارية هاتفي، وهي الضغط على زر رفع الصوت وزر الطاقة في الوقت نفسه لفترة طويلة. علق للحظة والشاشة تدور، ثم تحول إلى اللون الأسود، وضغطت على إعادة التشغيل.

لكن بينما كنت أنتظره حتى يعيد التحميل، لفت انتباهي شيء ما. بريق فضي، قادم من كومة النفايات الصغيرة التي دفعتها جانبًا لألتقط الهاتف.

وكانت هناك، ملقاة ببراءة عبر ألواح الأرضية وسط بقية كومة المخلفات المثيرة للشفقة تلك، وضوء مصباح هاتفي يلتمع على أحد منحنياتها.

قلادتي.

كان قلبي ينبض سريعًا في حلقي عندما التقطتها، غير قادرة على تصديق ذلك. قلادتي. قلادتي أنا. ما الذي كانت تفعله هنا، وسط الظلام؟

لا أعرف كم من الوقت جلست في المطبخ، وأصابعي ملتفة حول كوب من الشاي، تاركة الحلقات الرفيعة لسلسلة قلادتي تنساب من بين أصابعي، بينما أحاول فهم الأمر برمته.

كنت قد جلبت الهاتف أيضًا إلى الطابق السفلي، لكن من دون رمز التعريف الشخصي، لم أتمكن من فتحه لأرى من صاحبه. كل ما استطعت معرفته هو أنه قديم، وأنه بدا متصلًا بشبكة الإنترنت اللاسلكي، لكن لم يبدُ أن بداخله بطاقة شبكة الهاتف.

مع ذلك، لم يكن الهاتف هو ما يزعجني. كان ذلك غريبًا، نعم، لكن كان هناك شيء شخصي في العثور على قلادتي مخبأة هناك، وسط الظلام والريش المتعفن. كان يجب أن أكون منشغلة بالتفكير في ريانون، والقلق بشأن مكان وجودها، والشجار الذي لا بد أن نخوضه عندما تدخل من الباب. كان يجب أن أفكر في ساندرا، وأستعرض خياراتي، وأحاول التفكير فيما سأقوله، وكيف أخبرها بالحقيقة.

كنت أفكر في كلا الأمرين. لكن حلقات قلادتي كانت تلتف أعلى وأسفل وحول تلك الأفكار، بينما كنت أحاول اكتشاف التسلسل الزمني والتوقيتات، ومعرفة كيف يمكن أن تكون قلادتي قد اختفت داخل غرفة مغلقة، وراء باب يرقد مفتاحه الوحيد في جيبي، في نهاية ممر تسده مائة شبكة عنكبوت غير ممزقة. هل كانت بالأعلى هناك من قبل، عندما اقتحمت أنا وجاك المكان أول مرة؟ لكن ذلك لم يفسر شيئًا. كانت تلك الخزانة

مغلقة بالألواح طوال شهور وسنوات. آثار الغبار، وشِباك العناكب الكثيفة المتدلية، دلت على أنه لم يدخل أحد عبر الدرج لفترة طويلة للغاية. وكانت النافذة تتسع بالكاد بما يكفي كي أتمكن من إخراج رأسي وكتفي، وكانت تطل على ألواح شديدة الانحدار.

بعد أن عثرت على القلادة، مسحت كل شبر من الغرفة بحثًا عن أبواب مسحورة أو فتحات لغرفة العلية أو أبواب خفية، لكن لم يكن هناك شيء. كانت ألواح الأرض التي تعود إلى العصر الفيكتوري ممتدة من جانب للآخر في خط متصل، ولم تكن الجدران تؤدي إلى شيء سوى بلاط السقف. وقد حركت كل قطعة من الأثاث، ونظرتُ إلى كل شبر من السقف من الأسفل. بصرف النظر عن أي شيء آخر كنت غير واثقة منه، لكنني كنت متأكدة تمامًا من عدم وجود طريقة للدخول أو الخروج باستثناء الدرج الصاعد من غرفتي.

كان القمر لا يزال مرتفعًا في السماء، لكن الساعة فوق الموقد تجاوزت الثالثة ثم الرابعة صباحًا، عندما سمعت أخيرًا إطارات على الحصى في الممر، وضحكات هامسة على الشرفة في الخارج، وصوت الباب الأمامي ينفتح تلقائيًّا عندما فعَّل شخص ما قفل لوحة الإبهام. أُغلق الباب خلسة، بينما كانت الشاحنة تبتعد، وسمعت وقع خطوات حذرة، ثم تعثر.

تقلصت معدتي، لكنني أجبرت نفسي على التزام الهدوء.

ـ مرحبًا، يا ريانون.

حافظت على ثبات صوتي، وسمعتُ وقع الخطى يتجمد على بلاط الردهة، ثم صيحة اشمئزاز عندما أدركتْ ريانون أنها قد تم ضبطها.

ـ اللعنة.

سارت مترنحة إلى المطبخ. سال مكياجها إلى منتصف وجهها، وكانت جواربها ممزقة، وفاحت منها رائحة قوية من مزيج ما من الكحوليات الحلوة. فكرتُ أن هناك ويسكي اسكتلنديًّا، وروم مُنكَّهًا، إلى جانب شيء آخر، مشروب طاقة ربما؟

قلت:

- أنت ثملة.

وأطلقتْ هي ضحكة كريهة.

- القِدر يعاير إبريق الشاي بسواده. بوسعي رؤية زجاجات النبيذ في سلة إعادة التدوير من مكاني هنا.

هززتُ كتفي.

- هذه نقطة عادلة، لكنك تعرفين أنني لا أستطيع أن أدعك تفلتين بهذا، يا ريانون. يجب أن أخبر والديك. لا يمكنك الخروج هكذا ببساطة. أنت في الرابعة عشرة. ماذا لو حدث شيء، ولم أكن أعرف مكانك، أو مع من تكونين؟

قالت وهي تستند إلى منضدة العمل في منتصف المطبخ، وتسحب علبة البسكويت تجاهها:

- حسنًا، فلتفعلي ذلك، يا رايتشيل. وأتمنى لك التوفيق مع تداعيات الأمر.

قلت:

- لا يهم ذلك.

عندما انتقتْ قطعة من البسكويت ودفعتِ العلبة بعيدًا، تناولتُ قطعة من البسكويت أنا الأخرى، وغمستها بهدوء في الشاي خاصتي، على الرغم من أن يدي كانت ترتعش بعض الشيء وراء محاولتي اليقظة للسيطرة.

- لقد حسمت رأيي. سأخبر والدتك. وإذا فقدت وظيفتي، فليكن.

شخرتْ بسخرية.

- إذا فقدتِ وظيفتك؟ إذا؟ أنت واهمة. أنت هنا تحت اسم مستعار، وربما بمؤهلات زائفة على حد علمي. ستكونين محظوظة إذا لم تتم مقاضاتك في نهاية الأمر.

قلت:

ـ ربما. لكنني سأتحمل هذه المخاطرة. والآن، اصعدي إلى الطابق العلوي، وامسحي تلك الأشياء من على وجهك.

قالت من خلال فم مُلئ بالبسكويت:

ـ تبًّا لك.

وصاحَب كلماتها انفجار من فتات البسكويت التي تناثرت على وجهي، مما جعلني أتراجع، وأرمش وأنا أمسح الفتات من عيني.

ـ أيتها السافلة الصغيرة!

أخذتْ أعصابي، التي تمالكتها بحرص شديد، تتلف فجأة بدرجة سريعة.

ـ ما خطبك؟

ـ ما خطبي أنا؟

ـ أجل، أنت. بل جميعكن في الواقع. لمَ تكرهنَني إلى هذا الحد؟ ما الذي فعلته لأي منكن؟ هل تردن حقًّا أن تُتركن هنا بمفردكن؟ لأن هذا هو ما سوف يحدث إذا واصلتِ التصرف مع الموظفين كسافلة لعينة.

قالت بغضب:

ـ ما الذي تعرفينه أنت عن الأمر، بحق الجحيم؟

وفجأة، صارت غاضبة مثلي، وهي تدفع كرسيها المعدني إلى الخلف، حتى انقلب وسقط برنين مدوٍّ على الأرض الخرسانية.

ـ بالنسبة إليَّ، يمكنك أن تذهبي إلى الجحيم. نحن لا نريدك، ولا نحتاج إليك.

كان هناك رد لاذع على طرف لساني، لكن بطريقة ما، بينما كانت تقف هناك وأنوار المطبخ تجعل شعرها الأشقر المشعث المتشابك يتوهج مثل النار، ووجهها ملتوٍ في تكشيرة من الغضب والألم، بدت شبيهة للغاية بمادي، وشبيهة للغاية بي أنا، لدرجة أن قلبي توقف عن الخفقان للحظة.

تذكرت نفسي، في سن الخامسة عشرة، وأنا عائدة بعد الموعد المحدد لي، واقفة في المطبخ ويدي على خصري، وأصرخ في والدتي:

ـ لا يهمني لو كنت قد شعرت بالقلق! لم أطلب منكِ قَطُّ أن تبقَي مستيقظة. لست بحاجة إلى رعايتك!

كانت تلك كذبة بالطبع. كذبة تامة.

لأن كل شيء فعلتُه، وكل اختبار اجتزته بتفوق، وكل موعد محدد للعودة خالفته، وكل مرة رتبت فيها غرفتي، وكل مرة لم أفعل ذلك، كان كل ذلك يهدف إلى شيء واحد. أن أجعل والدتي تلحظني. أن أجعلها تهتم.

طوال أربعة عشر عامًا، حاولت جاهدة للغاية أن أكون الابنة المثالية، لكن ذلك لم يكن كافيًا قَطُّ. مهما كان خطي منظمًا، ومهما كانت درجاتي مرتفعة في اختبار الإملاء، أو مهما كانت جودة مشروعي الفني، لم يكن ذلك كافيًا قَطُّ. كان يمكنني قضاء فترة ما بعد الظهيرة كاملة في تلوين صورة من أجلها، وكانت تلحظ المكان الوحيد الذي سعلت فيه واهتز قلمي عبر الخط.

كان بإمكاني قضاء يوم السبت في ترتيب غرفتي بشكل مثالي، وكانت تتذمر أنني تركت حذائي في الرواق.

كان أي ما أفعله خطأ. زاد معدل نموي بسرعة بالغة، وكانت ملابسي باهظة الثمن، وكان أصدقائي مزعجين بدرجة زائدة. كنت ممتلئة جدًّا، أو على العكس من ذلك، كنت أتناول القليل من الطعام. كان شعري فوضويًّا جدًّا، كثيفًا للغاية، ومن الصعب ترويضه في تلك الجدائل الأنيقة وتسريحة ذيل الحصان التي كانت تفضلها.

وهكذا عندما تجاوزت الخط من الطفولة إلى المراهقة، بدأت أفعل العكس. كنت قد حاولت أن أكون مثالية، والآن حاولت أن أكون غير كاملة. سهرت بالخارج. تناولت الشراب. تركت درجاتي تتدهور. انتقلت من الامتثال التام إلى التحدي المستمر.

لم يشكل ذلك أي فارق. مهما فعلت، فلم أكن الابنة التي كان ينبغي أن أكونها. كل ما كنت أفعله الآن هو تأكيد تلك الحقيقة لكلتينا.

لقد دمرتُ حياتها. كانت تلك دومًا هي الرسالة غير المنطوقة، الشيء العالق بيننا، الذي جعلني أتشبث بها بشدة أكبر، بينما هي تبتعد. وأخيرًا، لم يعُد بوسعي التعامل مع رؤية تلك الحقيقة المرتسمة على وجهها.

غادرت المنزل في سن الثامنة عشرة، ولا شيء بحوزتي سوى حفنة من الدرجات المدرسية المتوسطة وعرض بالعمل مربيةً للأطفال في كلابهام. كنت كبيرة بما يكفي في ذلك الوقت لئلا يكون لي موعد محدد للعودة إلى المنزل، أو لئلا يوجد شخص ما جالس في انتظاري بعد فوات موعد نومه، وعينه ممتلئة باللوم عند عودتي.

لكنني كنت أبعد ما يكون عن عدم الاحتياج إلى شخص يقوم على رعايتي.

ربما كانت ريانون كذلك أيضًا.

ـ ريانون.

تقدمت إلى الأمام، محاولة إبعاد الشفقة عن صوتي.

ـ ريانون، أنا أعلم أنه منذ كانت هولي...

هدرتْ قائلة:

ـ إياكِ أن تجرؤي على النطق باسمها.

تراجعتْ خطوة إلى الخلف، وتعثرتْ في كعبها العالي، وفجأة، بدت كما كانت بالفعل، مجرد فتاة صغيرة تتمايل في ملابس أكبر من سنها، لدرجة أنها بالكاد تعلمت كيف ترتديها. بدت شفتاها ملتويتين بطريقة كان يمكن أن تكون بفعل الغضب، لكنني كنت أشك أنها تعني أنها تحاول ألا تبكي.

ـ إياك أن تجرؤي على الحديث عن ساحرة الجحيم الداعرة تلك هنا.

ـ من، هولي؟

انتابتني الدهشة. كان هناك شيء هنا، شيء مختلف عن العداء العام الكاره للعالم أجمع الذي شعرت به ينبع من ريانون حتى الآن. كان هذا موجهًا وضاريًا وشخصيًّا، وارتجف به صوت ريانون.

سألتُ:

ـ ما... ما الذي حدث؟ هل هذا بسبب أنها هجرتكن؟

ـ هجرتنا؟

أطلقتْ ريانون ضحكة ساخرة صاخبة.

ـ اللعنة كلا. إنها لم تهجرنا.

ـ ماذا إذن؟

ـ ماذا إذن؟

قلدتني، ساخرة بقسوة من لكنتي التي تنتمي إلى جنوب لندن، وطمستْ نطقها الحاد للحروف الساكنة، وابتلعتِ الحرف الأخير وهي تتشدق بالأحرف المتحركة مطيلة إياها.

ـ لقد سرقت والدي اللعين، إذا كان لا بد أن تعرفي.

ـ ماذا؟

ـ أجل، والدي العزيز الحبيب. ضاجعته طوال عامين تقريبًا، وكانت مادي وإيلي كالخاتم في إصبعها، تتستران عليهما، وتكذبان على والدتي. وهل تعرفين ماذا كان أسوأ جزء في الأمر؟ لم أكن أدرك حتى ما يدور، إلى أن أتت صديقتي لقضاء ليلة معي، وأشارتْ إلى الأمر. لم أصدقها في البداية، لذا أعددتُ لهما فخًا حتى أكتشف الحقيقة. ليست لدى والدي كاميرات في غرفة مكتبه، هل لاحظتِ ذلك من قبل؟

أطلقتْ ضحكة مريرة متقطعة.

ـ هذا مضحك. بوسعه التجسس على بقيتنا، لكن خصوصيته هو مقدسة. أحضرتُ جهاز مراقبة الأطفال الخاص ببيترا، ووصلتُه تحت مكتبه، وسمعتهما، سمعته يقول لهولي إنه يحبها، وإنه سيترك والدتي، وإن

عليها التحلي بالصبر فحسب، وإنهما سيكونان معًا في لندن، تمامًا كما وعد.

أوه، اللعنة. أردتُ أن أحيطها بذراعي، وأن أحتضنها، وأن أقول لها إن كل شيء على ما يرام، وإن ذلك لم يكن ذنبها، لكنني لم أستطع التحرك.

ـ وسمعتها هي أيضًا، وهي تتوسل، وتتملق، وتخبره أنها لا تطيق الانتظار، وأنها تريد أن يكونا معًا ـ لقد سمعتُ ذلك، كل الأشياء التي كانت ترغب أن تفعلها به ـ لقد كان...

توقفتْ، وقد اختنقتْ من الاشمئزاز للحظة، ثم بدتْ وكأنها تمالكتْ نفسها، وعقدتْ ذراعيها، وقد جمد وجهها في قناع من الحزن يفوق سنها.

ـ لذا لفقتُ تهمة للعاهرة.

ـ ماذا...

لكنني لم أتمكن من إكمال العبارة. استطعتُ بالكاد حتى النطق بالكلمة.

ابتسمتْ ريانون، لكن قسماتها كانت ملتوية، كما لو كانت تحاول كبح الدموع.

ـ أتيتُ بها أمام الكاميرات، واستفززتها حتى ضربتني.

يا إلهي. إذن هذا هو المصدر الذي تعلمت منه مادي الأمر.

ـ ثم أمرتها بالرحيل، وإلا سأضع اللقطات على يوتيوب، وأضمن أنها لن تعمل في هذا البلد مرة أخرى أبدًا، ومنذ ذلك الحين...

توقفتْ وهي تزدرد ريقها، ثم حاولتْ مرة ثانية.

ـ ومنذ ذلك الحين...

لكنها لم تتمكن من إنهاء العبارة. لم تكن بحاجة إلى ذلك. كنت أعرف الحقيقة، وما كانت تحاول قوله.

ـ ريانون...

خطوتُ نحوها، ويدي ممدودة كما لو كنتُ أحاول ترويض وتهدئة حيوان بري، وكان صوتي يرتجف الآن.

ـ ريانون، أقسم لكِ، مستحيل أن أمارس الجنس مع والدك ولو بعد ألف... لا، بل مليون عام.
ـ لا يمكنك أن تقطعي وعدًا بذلك.
كان وجهها منتفخًا، وكانت الدموع تنهمر على خديها الآن.
ـ هذا ما يظنَّه جميعًا، عندما يأتين هنا. لكنه يستمر، ويستمر، ويستمر، ولا يمكنهن تحمل خسارة وظيفتهن، كما أنه يمتلك المال، ويمكنه حتى أن يكون فاتنًا بعض الشيء عندما يريد ذلك، أتعرفين؟
ـ لا.
كنت أهز رأسي.
ـ لا، لا، لا. ريانون، اسمعي، أنا... لا يمكنني التوضيح، لكنني فقط... لا. مستحيل. مستحيل نهائيًّا أن أفعل ذلك على الإطلاق.
قالت:
ـ لا أصدقك.
خرجت الكلمات كالبكاء.
ـ لقد فعل ذلك من قبل، أتعلمين؟ قبل هولي. وقد رحل بالفعل في تلك المرة. كانت لديه أسرة أخرى. طفل آخر، رضيع. لقد سمعتُ و... والدتي تـ... تتحدث ذات يوم. وقد تـ... تركها. هذه هي طبيعته، ولو لم أكن قد منعته، لكان فـ... فقط...
لكنها لم تتمكن من إنهاء الحديث. ذاب صوتها وتحول إلى نشيج. شعرتُ بنوع فظيع من الإدراك يغمرني، ووضعت يدي على ذراعيها، محاولة تهدئتنا معًا والربط بين كلتينا، ومحاولة إيصال كل ما لا أستطيع الإفصاح عنه من خلال اليقين في صوتي.
ـ ريانون، اسمعي، يمكنني أن أعدك بهذا، هذا مؤكد تمامًا. أقسم بـ... بقبري، إنني لن أضاجع والدك أبدًا، أبدًا.
لأنه...

كانت الكلمات على طرف لساني.

لن أضاجع والدك أبدًا، أبدًا، لأنه...

أتمنى لو كنت قد أنهيت الجملة، يا سيد ريكسام. أتمنى لو قلتها فحسب، وأخبرتها، وأوضحت. لكنني كنت لا أزال متمسكة بفكرة شرح سبب خداعي لساندرا في اليوم التالي، ولم يكن بوسعي إخبار ريانون بالحقيقة قبل أن أعترف لوالدتها. كان عليَّ الاعتراف بأنني لست روان، وكانت شفقة ساندرا وتفهُّمها لسبب مجيئي إلى منزلها تحت اسم مستعار هي فرصتي الوحيدة للخروج من الموقف من دون التعرض إلى الطرد من وظيفتي على أقل تقدير، أو التعرض للمقاضاة بنسبة كبيرة.

لكنك لست بحاجة إلى أن أكمل الجملة، أليس كذلك، يا سيد ريكسام؟ أنت تعرف السبب. على الأقل، أتوقع أنك تعرف، لو كنت قد قرأت الصحف، لأن الشرطة تعرف. لأنهم اكتشفوا الأمر. لأنهم استنتجوا الحقيقة، كما تفعل أنت الآن، على الأرجح.

أنت تعرف أن السبب الذي يمنعني من مضاجعة بيل إلينكورت أبدًا هو أنه كان والدي أنا أيضًا.

لقد أخبرتك، يا سيد ريكسام، أليس كذلك؟ إنني لم أكن حتى أبحث عن وظيفة، عندما عثرت على الإعلان. في الواقع، كنت أفعل شيئًا مختلفًا تمامًا، شيئًا فعلته كثيرًا من قبل.

كنت أبحث عن اسم والدي في جوجل.

لطالما عرفتُ من يكون، ولفترة من الوقت، كنتُ أعرف حتى أين يكون، في منزل فاخر شبه منفصل في كراوتش إند، له بوابات كهربائية تنزلق آليًّا عبر الممر، وسيارة «بي إم دابليو» لامعة في الفناء الأمامي. ذهبتُ إلى هناك ذات مرة، في منتصف سنوات مراهقتي، تحت ستار رحلة تسوق متخيلة إلى شارع أوكسفورد برفقة صديقة. أذكر الطعم الذي استشعرته في فمي، والطريقة التي ارتعشتْ بها يدي عندما أظهرتُ لسائق الحافلة تذكرة رحلتي، وكل خطوة من الطريق من كراوتش إند برودواي.

وقفت خارج تلك البوابة لفترة طويلة، ينهشني مزيج غريب من الخوف والغضب، وأنا أكثر وجلًا من أن أدق الجرس، وأواجه الرجل الذي لم ألتقِه من قبل على الإطلاق، الرجل الذي هجر والدتي عندما كانت حبلى في شهرها التاسع.

أرسل الشيكات لفترة من الوقت، لكنه لم يكن مسجلًا في شهادة ميلادي، وأظن أن كبرياء والدتي كان أكبر من أن تلاحقه وتجبره على الدفع.

بدلًا من ذلك، جمعتْ شتات نفسها وحصلتْ على وظيفة في شركة

تأمين، والتقَت الرجل الذي تزوجتْه في النهاية. الرجل ـ كانت الرسالة واضحة للغاية ـ الذي كان يجب أن تكون برفقته منذ البداية.

وهكذا عندما كنت في السادسة من العمر، انتقلنا إلى منزله الصغير الشبيه بالصندوق. كان منزلهما. هي وهو. لم يكن منزلي قَطُّ. ليس منذ اليوم الذي انتقلت فيه إلى الغرفة الصغيرة أعلى الدرج، وقيل لي بحدة ألا أخدش إزار حائط الردهة بحقيبتي. وليس حتى اليوم الذي حزمت فيه حقيبة مختلفة أكبر حجمًا، ورحلت بعدها باثني عشر عامًا طويلة.

كان منزلهما، لكنني أنا... كنت أنا موجودة على الدوام لأفسد عليهما الأمر. هذا التذكار الحي الدائم الذي يتنفس، بماضي والدتي. بالرجل الذي هجرها. وفي كل يوم، كان عليها أن تطالعني وأنا أحدق إليها بعينيه هو فوق حبوب الإفطار. عندما كانت تمشط شعري الكثيف الخشن في شكل ذيل حصان، كانت تمشط شعره هو، وليس شعرها هي الناعم المتطاير.

كان هذا هو كل ما لديَّ منه. هذا، والقلادة التي أرسلها إليَّ في عيد ميلادي الأول، وهي الاتصال الأخير الذي كان لي معه. قلادة تحمل أول حرف من اسمي، «ر» نسبة إلى رايتشيل.

أطلقتْ والدتي عليها الحلي الرخيصة الرديئة، لكن ذلك لم يمنعني من ارتدائها طوال الساعات التي سُمح لي فيها بذلك. في عطلات نهاية الأسبوع، وكل يوم في الإجازات، وبعد ذلك عندما بدأت العمل مربيةً للأطفال، كنت أخفيها أسفل قمصاني والمآزر البلاستيكية، بحيث ظلت هناك على الدوام، والمعدن المتآكل دافئ بين ثديَيَّ.

كنت أعمل مربية في هاي جيت، عندما اتصلتْ بي وأخبرتني. كانت هي وزوجها سيبيعان المنزل، ويتقاعدان في إسبانيا. هكذا ببساطة. لم يكن الأمر أن لديَّ أي عاطفة خاصة حيال ذلك المنزل، حيث لم أكن سعيدة قَطُّ هناك.

إلا أنه كان... حسنًا، إن لم يكن منزلي، على أي حال، فهو المكان الوحيد الذي يمكن أن أطلق عليه بيتي.

قالت وصوتها مرتفع ودفاعي إلى حد ما، وكأنها تعرف ما تفعله:

ـ بالطبع نرحب بقدومك للزيارة.

وأظن أن ذلك، أكثر من أي شيء آخر، هو ما جعلني أفقد أعصابي تمامًا. «نرحب بقدومك للزيارة». كان ذلك من نوع الحديث الذي تقوله لأحد الأقارب البعيدين، أو لصديق لا تحبه على وجه الخصوص، آملًا ألا يقبل عرضك.

قلت لها أن تذهب إلى الجحيم. لستُ فخورًا بذلك. أخبرتها أنني أكرهها، وأنني خضعتُ للعلاج النفسي لأربع سنوات كي أحاول التعامل مع نشأتي، وأنني لا أريد أن أتواصل معها مرة أخرى أبدًا.

لم يكن ذلك صحيحًا. بالطبع لم يكن صحيحًا. حتى الآن، حتى هنا في «تشارنورث»، كانت هي أول شخص وضعته على قائمة مكالمات السجن الخاصة بي. لكنها لم تتصل قَطُّ.

عدتُ إلى كراوتش إند بعد يومين من إعلانها ذاك.

كنت في الثانية والعشرين من العمر. ولم أكن غاضبة هذه المرة. كنت فقط... كنت حزينة بدرجة رهيبة للغاية. فقد فقدت الأم الوحيدة التي عرفتها على الإطلاق، وكانت حاجتي لتعويض فقدها بشيء ما، مهما كان سيئًا وغير ملائم، تستنزفني.

ـ مرحبًا، يا بيل.

كنت قد تدربت على الكلمات في غرفة نومي في الليلة السابقة، وأنا واقفة أمام المرآة. كان وجهي نظيفًا من المكياج، مما جعلني أبدو أصغر سنًّا، وأكثر ضعفًا حتى، مع أن تلك لم تكن نيتي، ووجدت أن صوتي كان مرتفعًا بشكل غير طبيعي، كما لو كنت أرغب في مناشدة شفقته. لم أعرف نوع الابنة التي سيريدها، لكنني كنت على استعداد للمحاولة لأن أصير ذلك الشخص.

ـ مرحبًا، يا بيل. أنت لا تعرفني، لكن أنا رايتشيل. أنا ابنة كاثرين.

كان قلبي يدق بقوة في صدري عندما سرت إلى البوابة ودققت الجرس، منتظرة أن تنزلق البوابة إلى الوراء، أو ربما أن تأتي طقطقة أصوات عبر جهاز الاتصال الداخلي. لكن لم يحدث شيء.

حاولتُ مرة أخرى، وضغطت على الجرس بقوة لمدة أطول. وفي النهاية، انفتح الباب الأمامي، وأتت عبر الممر المغطى بالحصى امرأة ضئيلة ترتدي ملابس عمل وتحمل منفضة غبار.

ـ مرحبًا؟

كانت في الأربعينيات أو الخمسينيات من العمر، وكانت هناك لكنة قوية في صوتها، ظننت أنها بولندية، أو ربما روسية. من أوروبا الشرقية.

ـ هل أستطيع مساعدتك؟

ـ أوه، مرحبًا.

تسارع معدل نبضي، حتى ظننت أنني قد أفقد الوعي من شدة التوتر.

ـ مرحبًا. أنا أبحث عن السيد...

ازدردت ريقي.

ـ السيد إلينكورت. بيل إلينكورت. هل هو موجود؟

ـ إنه ليس هنا.

ـ أوه، حسنًا، هل سيعود لاحقًا؟

ـ لقد رحل. توجد أسرة جديدة هنا الآن.

ـ مـ... ماذا تقصدين؟

ـ لقد انتقل هو وزوجته إلى سكن جديد العام الماضي. بلد مختلف. اسكتلندا. توجد أسرة جديدة هنا الآن. السيد والسيدة كارترايت.

أوه، اللعنة.

كان الأمر بمثابة لكمة في المعدة.

سألتُ بصوت متردد:

ـ هل... هل لديك عنوان؟
هزت رأسها. كانت هناك شفقة في عينيها.
ـ آسفة، ليس لديَّ. أنا أنظف فقط.
ـ لقد...
ازدردتُ ريقي بشدة.
ـ لقد ذكرت زوجة. السيدة إلينكورت. هل يمكنني أن أسأل... ما اسمها؟
لا أدري لمَ بدا ذلك مهمًّا بالنسبة إليَّ فجأة. كنت أعرف فقط أنني فقدت أثره، وبدت أي معلومات صغيرة أفضل من لا شيء. نظرت إليَّ عاملة النظافة بحزن. من كانت تظن أنني أكون؟ صديقة منبوذة؟ موظفة سابقة؟ أو ربما خمنت الحقيقة.
قالت أخيرًا، بهدوء شديد:
ـ تُدعى ساندرا. يجب أن أذهب الآن.
واستدارت، وشقت طريقها عائدة إلى المنزل.
استدرت أنا أيضًا، وبدأت المسيرة الطويلة للعودة إلى هاي جيت، مدخرة أجر الحافلة. كان هناك ثقب في حذائي، وعندما شرعت في صعود التل، بدأ الجو يمطر، وأدركت أنني فقدت فرصتي.

لم أحاول البحث بعدها بجد مرة أخرى لبضع سنوات. وبعد ذلك، في أحد الأيام، عندما كنت أكتب بإهمال في جوجل اسم بيل إلينكورت، ظهر هناك. الإعلان. مع منزل في اسكتلندا. وزوجة تُدعى ساندرا.
وأسرة.
وفجأة، لم يسعني ألا أفعل ذلك.
كان الأمر كما لو أن الكون أعد لي هذا الأمر، ليمنحني فرصة.
لم أكن أريده أن يلعب دور والدي، ليس الآن، وليس بعد كل هذه السنوات. أردت فقط أن... حسنًا، أن أرى فحسب، على ما أظن. لكن من

الواضح أنني لم أكن أستطيع السفر إلى اسكتلندا تحت اسمي، من دون أن أخبره بمن أكون، وأخلق عبئًا ثقيلًا من التوقعات والرفض المحتمل. حتى بعد مرور ما يقرب من ثلاثين عامًا، كان من غير المرجح أن يكون بيل قد نسي اسم ابنته البكر، وكان جيرهارد لقبًا غير اعتيادي بما يكفي لأن يجعله يعيد التفكير، ويدرك أنه لقب والدة ابنته.

لكنني لم أكن بحاجة إلى الذهاب تحت اسمي. في الواقع، كان لديَّ اسم أفضل، وهوية أفضل، جاهزة وفي انتظاري. هوية من شأنها أن تجعلني أعبر من الباب الأمامي، من دون أي قيود، وحينها يمكنني أن أفعل ما أشاء، أيًّا كان. وهكذا التقطتُ الأوراق التي تركتها روان ملقاة في غرفة نومها بشكل مغرٍ للغاية، تلك الأوراق التي كادت تضيع هدرًا تقريبًا. الأوراق التي كانت مقاربة بشدة كبيرة لأوراقي الخاصة، لدرجة أنه لم يبدُ في الحقيقة وكأنه خداع على الإطلاق.

وتقدمت للوظيفة.

لم أكن أتوقع الحصول على الوظيفة. لم أكن حتى أرغب فيها. أردت فقط مقابلة الرجل الذي تخلى عني منذ كل تلك السنوات السابقة. لكن عندما رأيت «هيذربراي»، عرفت يا سيد ريكسام. عرفت أن زيارة واحدة لن تكون كافية أبدًا بالنسبة إليَّ. أردت أن أكون جزءًا من كل هذا، وأن أنام في نعومة تلك الأَسِرة المصنوعة من الريش، وأن أغوص في الأرائك المخملية، وأن أستمتع تحت الدش الشبيه بزخات المطر، وأن أكون جزءًا من هذه العائلة، باختصار.

وأردتُ أن ألتقي بيل، بشدة بالغة للغاية.

وعندما لم يظهر في المقابلة، رأيت طريقة واحدة فقط لتحقيق ذلك.

كان يجب أن أحصل على الوظيفة.

لكن عندما فعلت... وعندما قابلت بيل في تلك الليلة الأولى، وأدركت أي نوع من الرجال يكون، يا إلهي، إنه بمثابة مجاز لهذا الأمر برمته،

يا سيد ريكسام. كل شيء متصل. جمال ورفاهية المنزل، والسم المتسرب أسفل واجهة التكنولوجيا الفائقة. الخشب الفيكتوري الصلب لباب خزانة، بغطاء مفتاحه النحاسي المصقول، ورائحة الموت الباردة العفنة التي تنفث من ثقب المفتاح.

كان هناك شيء مَرَضي في ذلك المنزل، يا سيد ريكسام. ولا أدري ما إذا كان بيل مريضًا عندما ذهب إلى هناك، وجلب مرضه معه، أو إذا كان قد أصيب بالعدوى من المنزل، وصار الرجل الذي التقيته في تلك الليلة، الرجل المفترس المتحرش.

كل ما أعرفه هو أن الاثنين يسيران جنبًا إلى جنب، وأنه إذا خدشت جدران منزل «هيذربراي»، وحززت بأظافرك ورق حائط الطاووس المطبوع يدويًّا، أو قلعت البلاط الجرانيتي المصقول، فسوف يتسرب ذلك الظلام نفسه، الظلام الكامن على مقربة شديدة أسفل جلد بيل إلينكورت.

- لا تبحثي عنه.

كانت هذه واحدة من الأشياء القليلة التي قالتها لي والدتي عنه، قبل أن تغلق الموضوع تمامًا.

- لا تبحثي عنه، يا رايتشيل. لن يأتي من وراء ذلك أي شيء جيد.

كانت محقة. رباه، كم كانت محقة! وكم أتمنى لو كنت قد استمعت إليها!

قلت أخيرًا:

ـ هيا، لنأوي إلى الفراش، يا ريانون. أنت مرهقة، وأنا مرهقة، ولقد تناولنا كثيرًا من الشراب... سنتحدث عن كل هذا في الصباح.

سوف أتصل بساندرا وأشرح لها، بطريقة ما. لم أستطع التفكير في الكلمات تمامًا، ورأسي يؤلمني ببدايات صداع الخمر، والإرهاق يخمش مؤخرة عيني، لكن الكلمات ستأتي. سيتعين عليها ذلك. لم يكن بوسعي الاستمرار على هذا النحو، وأنا أتعرض للابتزاز من ريانون.

للحظة، بينما كنت أصعد الدرج وريانون أمامي، تراءت لي صورة ذهنية سخيفة لساندرا وهي ترحب بي بذراعين مفتوحتين، وتقول لي إنني أكملت أسرتهم، وتخبرني... لكن كلا. كان ذلك مثيرًا للسخرية، وكنت أدرك ذلك. حتى أكثر النساء كرمًا ستستغرق وقتًا حتى تتكيف مع ظهور ابنة الزوج المفقودة منذ زمن طويل، ومع اكتشاف الأمر بهذه الطريقة، تحت هذه الظروف... لم تكن لديَّ أي أوهام حول الكيفية التي ستنتهي بها المحادثة على الأرجح. بصعوبة، في أفضل الأحوال.

حسنًا، أنا التي وضعت نفسي في هذا الموقف، وسأضطر إلى تحمل تبعاته. من شبه المؤكد أنني سأتعرض للطرد من وظيفتي، لم أستطع حقًّا رؤية أي طريقة للتغلب على ذلك. لكنني كنت واثقة إلى حد كبير أن بيل لن يرغب في مقاضاة ابنته التي انقطعتْ صلته بها، والتي دفع لوالدتها بنسات زهيدة فحسب لنفقتها قبل أن يختفي تمامًا. لن يبدو الأمر جيدًا

لـ«إلينكورت وإلينكورت». كلا، سيتم كنسه تحت البساط، وسأكون حرة لمواصلة حياتي. بمفردي.

وبعيدًا عن «هيذربراي».

لم أكن قد فكرت حقًّا في غرفتي، وفي المكان الذي سأنام فيه، حتى وصلنا إلى الطابق الثاني، وأدارت ريانون مقبض باب غرفة نومها المغطى بالكتابة، وألقت حذاءها بالداخل بلامبالاة تامة.

قالت:

ـ ليلة سعيدة.

وكأن شيئًا لم يحدث، وكأن أحداث الليلة كانت مجرد خلاف عائلي آخر.

قلت:

ـ ليلة سعيدة.

وأخذتُ نفَسًا عميقًا، وفتحتُ باب غرفة النوم. كان الهاتف الغريب صلبًا في جيبي، وكانت قلادتي ـ القلادة التي خشيت أن بيل إلينكورت قد يتعرف عليها ـ دافئة حول رقبتي.

في الداخل، كان باب غرفة العلية مغلقًا ومقفلًا بالمفتاح، كما تركته. كنت على وشك أن ألتقط أغراضي الليلية، وآخذها إلى الأريكة في الطابق السفلي، كي أحاول النوم لبضع ساعات قبل الفجر، عندما هبت ريح مفاجئة، مما جعل الأشجار في الخارج تئن. تطايرت الستائر بعنف فجأة في النسيم، وامتلأت الغرفة بالرائحة المنعشة لليل الاسكتلندي المعبق بالصنوبر.

كانت الغرفة لا تزال باردة على نحو مؤلم، تمامًا كما كانت في وقت سابق من تلك الليلة، وأدركتُ فجأة. لم يأتِ البرد قَطُّ من غرفة العلية، لا بد أن النافذة كانت مفتوحة طوال الوقت. إلا أن جل اهتمامي كان منصبًّا

من قبل على معرفة حقيقة ما يكمن خلف الباب المغلق، حتى إنني لم ألقِ ولو نظرة تجاه الستائر.

على الأقل اتضح أمر البرد، إذن. لا شيء خارق للطبيعة، بل مجرد هواء الليل البارد.

لكن المشكلة كانت أنني لم أفتح تلك النافذة. لم ألمسها حتى منذ أن أغلقتها بعنف قبل بضع ليالٍ مضت. وفجأة الآن، أخذتْ معدتي تنقبض مرة تلو الأخرى، بطريقة جعلتني أشعر بالغثيان بدرجة شديدة.

استدرت، وركضت من الغرفة ونزلت الدرج، متجاهلة ريانون وهي تقول بنعاس، بينما صفقتُ الباب خلفي:

ـ ماذا هناك، بحق الجحيم؟

في الطابق الأول، وبينما قلبي يدق بشدة في صدري، فتحت باب غرفة نوم بيترا، وأصدر الخشب وشيشًا على السجادة السميكة، وانتظرتُ حتى تتكيف عيناي مع الضوء الخافت.

كانت هناك، نائمة تمامًا، وذراعاها وساقاها مرتمية، وشعرتُ بمعدل نبضي يهدأ، بدرجة بسيطة فحسب. لكن كان عليَّ أن أتفقد الأُخريين، قبل أن أتمكن من الاسترخاء.

إلى نهاية الرواق إذن، عند الباب الذي يحمل لافتة:

الأميرة إيلي، والملكة مادي

كان مغلقًا، وأدرت المقبض بهدوء شديد، ودفعته برفق. كان الظلام دامسًا بالداخل، من دون المصباح الليلي، وستائر التعتيم تمنع حتى ضوء القمر، ولعنت نفسي لأنني نسيت إشعاله. لكن عندما ألفت عيني الظلام، صار بوسعي سماع شخير خافت، وشعرت بأنفاسي تأتي بسهولة أكبر. حمدًا للرب. حمدًا للرب، كانتا بخير.

مشيت على أطراف أصابعي عبر السجادة السميكة، وتحسست الجدار

بحثًا عن سلك المصباح الليلي، وتتبعته إلى المفتاح الكهربائي، ثم أشعلته. كانتا هناك، إيلي مشدودة على شكل كرة صغيرة، وكأنها تحاول الاختباء من شيء ما، بينما تحركتْ مادي أسفل اللحاف حتى لم يعُد بوسعي رؤية شيء سوى هيئتها تحت الأغطية.

هدأ ذعري بينما استدرت عائدة إلى الباب، وأنا أضحك على نفسي بسبب جنون الارتياب الذي أصابني.

بعد ذلك... توقفتُ.

كان الأمر سخيفًا، كنتُ أعرف ذلك، لكن كان عليَّ أن أتحقق فحسب، كان يجب أن أرى...

عبرتُ السجادة على أطراف أصابعي، وسحبت الغطاء إلى الوراء. لأجد... وسادة، مدفوعة على شكل منحنٍ، كطفل نائم.

أخذت دقات قلبي تتسارع على نحو مَرَضي.

كان أول ما فعلته هو أنني تفقدت أسفل الفراش. وبعد ذلك، كل الخزانات في الغرفة.

ـ مادي.

همستُ بأعلى صوت جرؤت عليه، وأنا غير راغبة في إيقاظ إيلي، لكنني سمعت الإلحاح المذعور في صوتي.

ـ مادي؟

لم يكن هناك صوت إجابة، ولا حتى ضحكة مكتومة. فقط لا شيء. لا شيء.

ركضت خارجة من الغرفة.

ـ مادي؟

ناديت بصوت أعلى هذه المرة. هززت مقبض باب الحمام، لكنه كان مفتوحًا، وعندما انفتح الباب، رأيت خواءه، وضوء القمر يتدفق عبر البلاط العاري.

ـ مادي؟

لا شيء في غرفة ساندرا وبيل أيضًا، سوى نعومة الفراش الأملس، والسجادة المضاءة بنور القمر، والأعمدة البيضاء للستائر المفتوحة التي تقف كالحارس على جانبَي النوافذ الطويلة. فتحت الخزانات، لكن الإضاءة الخافتة للأنوار الأوتوماتيكية لم تُظهر شيئًا سوى صفوف أنيقة من البدلات، ورفوف من الأحذية ذات الكعب العالي.

ـ ماذا هناك؟

أتى صوت ريانون الناعس من الطابق العلوي.

ـ ماذا يحدث، بحق الجحيم؟

ـ إنها مادي.

ناديتُ، محاولة إبعاد الذعر عن صوتي.

ـ إنها ليست في الفراش. هل يمكنك البحث في الطابق العلوي؟ مادي!

أخذتْ بيترا تفيق الآن، وقد أيقظتها نداءاتي الصاخبة على نحو متزايد، وسمعتُ تذمرها النزق، استعدادًا لعويل كامل، لكنني لم أتوقف حتى أطمئنها. كان يجب أن أعثر على مادي. هل نزلتْ إلى الطابق السفلي لتبحث عني عندما كنتُ برفقة جاك؟

جعلتني الفكرة أترنح على نحو مزعج، تلتها أخرى أكثر إزعاجًا.

هل... يا إلهي. هل يمكن أن تكون قد تبعتني؟ كنت قد تركت الباب الخلفي غير مغلق بالمفتاح. هل يمكن أن تكون قد ذهبتْ للبحث عني في الأراضي المحيطة بالمنزل؟

تسابقت في ذهني رؤى مروعة. البركة. المجرى المائي. حتى الطريق.

تجاهلتُ بيترا، وركضت هابطة الدرج، ودفعت قدميَّ في أول زوج من الأحذية الواقية من المطر التي وجدتها عند الباب الخلفي، وركضت خارجة في ضوء القمر.

كانت الساحة المفروشة بالحصى خالية.

ـ مادي!

ناديتُ بأعلى صوت، وقد غمرني اليأس الآن، وسمعت صدى صوتي يرتد من جدران الإسطبل الحجرية، عائدًا إلى المنزل.

ـ مااااادي، أين أنت؟

لم يكن هناك جواب، وراودتني فكرة مفاجئة، أكثر فظاعة حتى، وأسوأ من الأرض مقطوعة الأشجار، ذات البركة الموحلة على نحو غادر.

حديقة السموم.

حديقة السموم التي تركها جاك جرانت مفتوحة وغير مؤمَّنة.

لقد سبق وأن قُتلت بالفعل فتاة صغيرة.

يا إلهي، تضرعت بالدعاء بينما شرعت أركض إلى مؤخرة المنزل، نحو الطريق نزولًا عبر الشجيرات، وقدماي تنزلقان في الحذاء الواقي من المطر الذي كان أكبر من مقاسي. أرجوكَ، لا تدعها تسلب حياة فتاة أخرى.

لكن عندما كنت أدور حول زاوية المنزل، عثرت عليها.

كانت مستلقية وقد تكومتْ ووجهها للأسفل، تحت نافذة غرفة نومي، ممددة عبر الحصى في ملابس نومها، وقد أغرقت الدماء القطن الأبيض تمامًا. دماء كثيرة للغاية، لدرجة أنني لم أكن لأتخيل قَطُّ أن جسدها الضئيل يمكنه أن يستوعبها كلها.

سالتْ عبر الحصى مثل دبس السكر، سميكة ولزجة، وجعلتْ ركبتي زلقة عندما جثوتُ فيها، والتصقتْ بأصابعي وأنا أحملها، وأحتضنها، وأشعر بهشاشة عظامها الصغيرة كالطيور، وأتوسل إليها، أترجاها أن تكون بخير.

لكن ذلك كان مستحيلًا بالطبع.

لن تكون بخير أبدًا مرة أخرى. لن يكون أي شيء بخير.

كانت ميتة تمامًا.

الساعات القليلة التالية هي التي جعلتني الشرطة أسترجعها مرارًا وتكرارًا، كأظافر تحك الجرح مرة تلو الأخرى، جاعلة إياه ينزف من جديد في كل مرة. ومع ذلك، حتى بعد كل أسئلتهم، فإن الذكريات لا تأتي إلا في لقطات خاطفة، مثل ليلة تضيئها ومضات من البرق، والظلام يسود فيما بينها.

أذكر صراخي، وأنا أحمل جسد مادي لما شعرت أنه وقت طويل للغاية، حتى أتى جاك أولًا، ثم ريانون، وهي تحمل بيترا الباكية بين ذراعيها، وكادت تُسقطها عندما رأت هول ما حدث.

أذكر عويلها، ذلك الصوت المريع، عندما رأتْ جسد شقيقتها. لا أظن أنني سوف أنسى ذلك أبدًا.

أذكر جاك وهو يصحب ريانون إلى الداخل، وبعد ذلك يحاول سحبي بعيدًا، قائلًا:

- لقد ماتت. لقد ماتت، لا يمكننا تحريك الجثة، يا روان. علينا أن نتركها للشرطة.

ولم أستطع أن أتركها، لم أتمكن إلا من البكاء والنحيب.

أذكر وميض أنوار الشرطة الزرقاء عند البوابة، ووجه ريانون، شاحب ومذهول وهي تحاول الاستيعاب. وأذكر جلوسي هناك، غارقة بالدماء على الأريكة المخملية، وهم يسألونني، ماذا حدث، ماذا حدث، ماذا حدث.

وما زلت لا أعرف.

ما زلت لا أعرف، يا سيد ريكسام، وهذه هي الحقيقة.

أعرف ما تظنه الشرطة، من الأسئلة التي سألوها، والسيناريوهات التي طرحوها عليَّ.

يظنون أن مادي صعدتْ إلى غرفتي لتجدني غائبة، وأنها رأت شيئًا ما يدينني هناك، ربما ذهبتْ إلى النافذة، وشاهدتني أتسلل عائدة من شقة جاك. أو ربما يظنون أنها عثرتْ على شيء ما في متعلقاتي، شيء له علاقة باسمي الحقيقي، وهويتي الحقيقية.

لا أدري. فقد كان لديَّ الكثير جدًّا لأخفيه، على أي حال.

ويظنون أنني عدتُ لأجدها هناك، وأدركتُ ما رأته، وأنني فتحتُ تلك النافذة و...

لا أستطيع قول هذا. من الصعب حتى كتابته. لكن لا بد لي من ذلك.

يظنون أنني ألقيتُ بها خارجًا. يظنون أنني وقفتُ هناك، والستائر تتطاير، وراقبتها تنزف حتى الموت على الحصى، ثم عدتُ إلى الطابق السفلي لأتناول الشاي وأنتظر بهدوء عودة ريانون إلى المنزل.

يظنون أنني تركت النافذة مفتوحة عن عمد، في محاولة لجعل الأمر يبدو وكأنها قد سقطت. لكنهم متأكدون من أنها لم تفعل. لست واثقة لماذا. أظن أنه شيء ما متعلق بموضع سقوطها، بعيدًا جدًّا عن المبنى، بحيث لا يمكن أن يكون انزلاقًا، مع قوس لا يمكن أن يكون ناتجًا سوى من دَفعة أو قفزة.

هل كانت مادي ستقفز؟ هذا سؤال طرحته على نفسي ألف، وربما مليون، مرة.

والحقيقة هي أنني ببساطة لا أعرف.

قد لا نعرف أبدًا. لأن المفارقة، يا سيد ريكسام، هي أنه في منزل ممتلئ بعشرات الكاميرات، فلا يُظهر أي منها ما حدث لمادي في تلك الليلة.

لا تُظهر الكاميرا في غرفتها شيئًا سوى الظلام. فهي موجهة بعيدًا عن الباب، نحو فراشَي الفتاتين، لذا لا يوجد حتى خيال في مدخل الباب لإظهار الوقت الذي خرجت فيه مادي.

وأما بالنسبة إلى غرفتي... يا إلهي... بالنسبة إلى غرفتي، فهذه طوبة في صرح الأدلة الذي بنته الشرطة ضدي.

ظلوا يسألونني مرارًا وتكرارًا:

ـ لمَ غطيتِ الكاميرا الأمنية في غرفتكِ، لو لم يكن لديكِ ما تخفينه؟

وحاولتُ أن أخبرهم، أن أشرح طبيعة الحال عندما تكونين امرأة شابة، وحدكِ في منزل غريب، مع غرباء يراقبونك. حاولت أن أخبرهم كيف أنني لم تكن لديَّ مشكلة مع الكاميرا في المطبخ، وغرفة التلفزيون، وغرفة المعيشة، والأروقة، وحتى مع الكاميرات في غرف الفتيات. لكنني كنت بحاجة إلى مكان ما، مكان واحد فحسب، حيث يمكنني أن أكون على طبيعتي، غير مراقَبة وغير مرصودة. حيث يمكنني ألا أكون روان، بل رايتشيل، لبضع ساعات فقط.

سألتُ المحقق صراحة:

ـ هل تريد أنت كاميرا في غرفة نومك؟

إلا أنه هز كتفيه فحسب، وكأنه يقول: «لستُ أنا من يخضع للمحاكمة، يا عزيزتي».

لكن الحقيقة هي أنني غطيت تلك الكاميرا. ولو لم أفعل، لربما عرفنا ما حدث لمادي.

لأنني لم أقتلها، يا سيد ريكسام. أعلم أنني قلت ذلك بالفعل. لقد أخبرتك في أول خطاب أرسلته إليك. أنا لم أقتلها، وعليك أن تصدقني، لأن هذه هي الحقيقة. لكنني لا أعرف، وأنا أكتب هذه الكلمات في زنزانتي الضيقة، والمطر الاسكتلندي يتساقط على النافذة بالخارج... هل أقنعتك؟ لكَم أتمنى لو أستطيع إقناعك بالمجيء إلى هنا. لقد وضعتك على قائمة

زُوَّاري. بوسعك حتى أن تأتي غدًا. ويمكنني أن أنظر في عينيك وأقول لك، أنا لم أقتلها.

لكنني لم أقنع الشرطة بذلك. ولم أقنع السيد جيتس أيضًا.

في النهاية، لست متأكدة حتى إنني أقنع نفسي.

لأنني لو لم أكن قد تركتها تلك الليلة، لو لم أقضِ تلك الساعات مع جاك في شقته، بين ذراعيه، لما حدث شيء من هذا.

لم أقتلها، لكن دمها يلطخ يدي. شقيقتي الصغرى.

سألتني الشرطة مرارًا وتكرارًا: «لو لم تقتليها، فمن فعل؟ ساعدينا، يا رايتشيل. أخبرينا بما تظنين أنه حدث».

ولم يكن بوسعي سوى هز رأسي. لأن الحقيقة، يا سيد ريكسام، هي أنني لا أعرف. لقد بنيتُ ألف نظرية، كل منها أشد جموحًا من الأخرى. مادي تقفز مثل الطائر في الليل، ريانون تعود مبكرًا من سهرتها بطريقة ما، جين ماكنزي تختبئ في غرفة العلية، وجاك يتسلل من ورائي بينما كنت أنتظر ريانون في الطابق السفلي.

لأنه تبين أن جاك لديه أسرار هو الآخر، هل كنت تعرف ذلك؟ ليس شيئًا كبيرًا أو ميلودراميًّا كما كنت أتخيل، فلم يكن يمت بِصلة قرابة إلى الدكتور كينويك جرانت، أو على الأقل لو كان كذلك، فلا هو ولا الشرطة تمكنوا من تتبع الصلة. وعندما أخبرت الشرطة عن لفة الخيط في مطبخه، وعن زهرة البيش، كان لديه هو، على العكس مني، تفسير سريع ومعقول. لأن جاك، على ما يبدو، تعرف على الزهرة الأرجوانية، القابعة في كوب القهوة على طاولة المطبخ، أو ظن أنه فعل. لذا أخذها معه ليقارنها بالنباتات في حديقة السموم. عندما اكتشف صحة ما اشتبه فيه، وأن الزهرة في المطبخ لم تكن سامة فحسب، بل كانت مميتة، تخلص من حاجز الخيط المؤقت الذي صنعته، واستبدله بقفل وسلسلة.

لا، كان سر جاك العميق المظلم اعتياديًّا أكثر من ذلك بكثير. وبدلًا من

تبرئتي، فقد ساعد على تراكم الأدلة ضدي فحسب، وزاد من ثقل الأسباب التي ربما تكون قد جعلتني أرغب في التستر على علاقتي معه.

كان جاك متزوجًا.

عندما أدركوا أنني لم أكن أعرف، استمتعتِ الشرطة كثيرًا بالتأكيد على تلك الحقيقة، وتذكيري بها في كل فرصة ممكنة، كما لو كانوا يرغبون في رؤيتي وأنا أجفل من الألم مجددًا في كل مرة. لكن الحقيقة هي أنني كنت أبعد ما يكون عن الاكتراث بالأمر. ماذا يهم، إذا كان لدى جاك بالفعل زوجة وطفل يبلغ من العمر عامين في إدنبرة؟ لم يكن قد وعدني بشيء. وفي مواجهة موت مادي، لم يبدُ أي شيء من ذلك مهمًّا.

لكنني سأكون كاذبة، مع ذلك، إذا قلت إنه في الأيام والأسابيع والشهور منذ وجودي هنا، لم أفكر فيه وأتساءل عن السبب. لماذا لم يخبرني عنها؟ وعن ابنه الصغير؟ لماذا كانا يعيشان منفصلين؟ هل كان السبب ماديًّا؟ هل كان يرسل إليهما المال؟ لو كان آل إلينكورت يدفعان له نصف المبلغ الذي عرضاه عليَّ، فقد كان من الممكن بدرجة كبيرة تصديق أنه تولى الوظيفة لأسباب مادية.

لكن ربما لا. ربما كانا منفصلين، ومتباعدين. ربما تكون قد طردته، وكان عرض الوظيفة هذا، المصحوب بشقة، هو الطريقة المثالية للمضي قُدمًا.

لا أعرف، لأن الفرصة لم تسنح لي قَطُّ كي أسأله. لم أرَه مرة ثانية على الإطلاق، بعد أن تم اصطحابي إلى قسم الشرطة للاستجواب، ثم قرأوا عليَّ حقوقي، وبعد ذلك بقيتُ في الحبس. لم يرسل رسائل قَطُّ. لم يتصل هاتفيًّا قَطُّ. لم يزرني قَطُّ.

كانت المرة الأخيرة التي رأيته فيها هي وأنا أتعثر داخلة إلى مؤخرة سيارة الشرطة، وأنا لا أزال مغطاة بدماء مادي، شاعرة بيديه تقبض على يدي بقوة وثبات.

ـ سيكون كل شيء على ما يرام، يا روان.

كان ذلك آخر ما قاله لي، وآخر كلمات سمعتها عندما أُغلق خلفي باب السيارة، ودار المحرك.

كانت كذبة. كذبة من البداية حتى النهاية. لم أكن روان. ولن يكون أي شيء على ما يرام مرة أخرى أبدًا.

لكن الشيء الذي أظل أعود إليه، هو ما قالته لي مادي في تلك المرة الأولى التي قابلتها فيها، وذراعاها ملتفتان حولي بشدة، ووجهها مدفون في قميصي.

قالت:

ـ لا تأتي هنا. إنه ليس آمنًا.

وبعد ذلك، تلك الكلمات الأخيرة، التي بكت بها عند الفراق، ثم أنكرتْها لاحقًا. كلمات ما زلتُ متأكدة أنني سمعتُها، بعد شهور.

لن يعجب ذلك الأشباح.

أنا لا أؤمن بالأشباح، يا سيد ريكسام. لم يسبق لي ذلك قَطُّ. أنا لست شخصًا يؤمن بالخرافات.

لكن لم يكن ما سمعته يذرع غرفة العلية فوقي ليلة تلو أخرى خرافة. لم تكن الخرافات هي التي أيقظتني في منتصف الليل وأنا أرتجف، وأنفاسي غيوم بيضاء في ضوء القمر، وغرفتي باردة كالثلاجة. كان رأس الدمية تلك، وهو يتدحرج عبر السجادة الفارسية، حقيقيًا يا سيد ريكسام. حقيقيًا مثلك ومثلي. حقيقيًا مثل الكتابة على الجدران في غرفة العلية، وحقيقيًا مثل كتابتي لك الآن.

لأنني أعرف، أعرف أن هذا هو حقًا الوقت الذي حسمت فيه مصيري مع الشرطة. لم يكن الأمر مجرد الاسم المستعار، والوثائق المسروقة. لم تكن مجرد حقيقة أنني ابنة بيل المنفصلة عنه، العائدة لتنتزع انتقام مخبول من نوع ما من أسرته الجديدة. لم يكن أيًا من ذلك.

كان ما أخبرتهم به في تلك الليلة الأولى الفظيعة، وأنا جالسة هناك

بملابسي الملطخة بالدماء، أرتجف من الصدمة والحزن والرعب. لأنني في تلك الليلة الأولى، انهرتُ وأخبرتهم بكل ما حدث. من وقع الخطوات في منتصف الليل، إلى الشعور بالشر العميق المتسرب عندما فتحت باب غرفة العلية، وولجت إلى الداخل.

كان ذلك، أكثر من أي شيء آخر بعده، هو اللحظة التي دار فيها المفتاح في القفل.

كانت تلك هي اللحظة التي عرفوا فيها.

سنح لي كثير من الوقت للتفكير هنا، يا سيد ريكسام. كثير من الوقت للتفكير والتأمل، واستنتاج الأمور، منذ أن بدأت كتابة هذه الرسالة لك. لقد أخبرتُ الشرطة بالحقيقة، وكانت الحقيقة هي ما دمرني. أعرف ما رأوه: امرأة مجنونة، لديها حكاية ممتلئة بالثغرات، أكثر من لافتة مثقوبة بالرصاص. رأوا امرأة لديها دافع. امرأة بعيدة جدًّا عن أسرتها، لدرجة أنها أتت إلى منزلهم تحت ذرائع كاذبة، لتنفذ انتقامًا رهيبًا مختلًّا من نوع ما.

أعرف ما أظن أنه حدث. سنحت لي فترة طويلة لأجمع القطع المتفرقة معًا: النافذة المفتوحة، ووقع الخطى في غرفة العلية، والأب الذي أحب ابنته كثيرًا، إلى درجة أن الأمر قتلها، والأب الذي هجر أطفاله، المرة تلو الأخرى.

والأهم من ذلك كله، قطعتان لم أجمعهما على الإطلاق حتى النهاية: الهاتف، ووجه مادي الصغير الشاحب المتوسل في ذلك اليوم الأول، عندما كنت أقود سيارتي بعيدًا، وعبارتها الهامسة المعذبة، لن يعجب ذلك الأشباح. كان هذان الأمران هما ما حسما موقفي عند الشرطة. بصماتي على الهاتف، وحكايتي عما قالته لي مادي، وتداعي التأثيرات التي بدأتها كلماتها.

لكن في نهاية المطاف، لا يهم ما أظنه، أو ما نظرياتي. ما يهم هو ما تظنه هيئة المحلفين. اسمع، يا سيد ريكسام، لا أحتاج منك إلى أن تصدق كل ما أخبرتك به. وأعرف أن تقديم حتى نصف ما قلته هنا سيعرضك للطرد

من المحكمة مصحوبًا بالضحكات، والمجازفة بتنفير هيئة المحلفين إلى الأبد. ليس هذا هو السبب الذي دفعني لإخبارك بكل هذا.

لكنني حاولت تقديم جزء فقط من الحكاية من قبل، وهذا هو ما تسبب في حبسي هنا.

أنا مؤمنة أن الحقيقة هي ما سوف تنقذني، يا سيد ريكسام. والحقيقة هي أنني لم أقتل، لا أستطيع قتل شقيقتي.

لقد اخترتك أنت، يا سيد ريكسام، لأنني عندما سألت النساء الأخريات هنا عمن يجب أن أحصل عليه ليمثلني، ظهر اسمك أكثر من أي محامٍ آخر. يبدو أنك تتمتع بسمعة طيبة في تخليص حتى أولئك الذين لا أمل لديهم في الخلاص.

وأنا أعرف أن هذا هو حالي، يا سيد ريكسام. لم يعُد لديَّ أي أمل بعد الآن.

هناك طفلة ماتت، والشرطة، والرأي العام، والصحافة، كلهم يريدون أن يدفع شخص ما الثمن. ويجب أن أكون أنا هذا الشخص.

لكنني لم أقتل تلك الفتاة الصغيرة، يا سيد ريكسام. لم أقتل مادي.

لقد أحببتها. ولا أريد أن أتعفن في السجن من أجل شيء لم أقترفه.

أرجوك، أرجوك صدقني.

المخلصة،

رايتشيل جيرهارد



٨ يوليو، ٢٠١٩

ريتشارد ماك آدامز

آشداون لخدمات البناء، بريد داخلي

ريتش، هذا أمر غريب بعض الشيء. عثر أحد الرجال الذين يعملون على إعادة تطوير «تشارنورث» على هذه الكومة من الأوراق القديمة، عندما كان يهدم جدارًا. يبدو أن إحدى السجينات أخفتها. لم يعرف ما يفعله بها، لذا قدمها إليَّ، وقلت إنني سوف أبحث في الأمر. ألقيتُ نظرة سريعة فحسب على بضع أوراق من أعلى الكومة، لكن يبدو أنها مجموعة من الرسائل من إحدى النزيلات إلى محاميها قبل المحاكمة. لا أعرف لمَ لم يتم إرسالها قَطُّ. تصفحها الرجل الذي عثر عليها، ويقول إنها كانت قضية ذائعة الصيت. إنه من السكان المحليين هنا، وقد تذكر عناوين الصحف.

على أي حال، فقد استشعر الحرج من إلقائها في القمامة، في حال كانت دليلًا، أو لها حصانة قانونية أو شيء من هذا القبيل، وانتهى به الأمر وهو يخالف القانون بتدميرها. لأكون صادقًا، لا أتخيل أن الأمر يهم الآن. لكنني قلتُ كي يهدأ باله، إنني سأتأكد من أنها تم التعامل معها بشكل صحيح. هل

هناكَ أي شخص في الإدارة يمكنكَ أن تستوضح منه الأمر؟ أم هل تظن أن عليَّ تجاهلها فحسب، والتخلص منها؟ لا أريد أن أعلق في كمٍّ كبير من المعاملات الورقية.

الجزء العلوي هو رسائلها إلى المحامي، لكنها أخفت أيضًا بعض الرسائل المكتوبة إليها في المكان نفسه. يبدو أنها مجرد أمور عائلية، لكنني سأضعها في الرزمة هي الأخرى، من باب الاحتياط.

على أي حال، سأكون ممتنًّا للغاية إذا استطعتُ ترك القرار لكَ بشأن ما يتعين فعله، إذا كان هناك أي شيء.

تحياتي،

فيل

١ نوفمبر، ٢٠١٧

عزيزتي رايتشيل،

حسنًا. إنه شعور غريب جدًّا أن أخاطبكِ بهذا الاسم، لكن ها نحن ذا.

يجب أن أبدأ بالقول كم أنا آسفة لما حدث. أتخيل أن هذا ليس ما توقعتِ مني قوله، لكنني كذلك بالفعل، ولا أخجل من قول ذلك.

ما يجب أن تفهميه هو أنني رعيتُ أولئك الأطفال لقرابة خمس سنوات الآن، وقد شاهدتُ عددًا من المربيات اللاتي يأتين ويرحلن أكثر من عدد ما تناولته من وجبات العشاء الساخنة. أنا من اضطررتُ إلى الجلوس والمراقبة بينما تلك العاهرة هولي تقيم علاقة مع السيد إلينكورت على مرأى من الجميع سوى زوجته، وكنتُ أنا من أصلح كل شيء عندما رحلتْ، وتركَتِ الفتيات في حالة انهيار. ومنذ ذلك الحين، اضطررتُ إلى أن أجلس وأراقب بينما تأتي وترحل مربية تلو الأخرى، وتكسر قلوب أولئك الأطفال المساكين أكثر قليلًا في كل مرة.

وفي كل مرة كانت تحضر إحداهن، وكانت شابة صغيرة جميلة أخرى،

شعرتُ بالأمر وكأنه يد باردة تعتصر قلبي، وكنت أستلقي مستيقظة ليلاً وأنا أتساءل، هل يجب أن أخبر السيدة إلينكورت أي نوع من الرجال كان زوجها، وأي نوع من النساء كانت هولي تلك، ولمَ رحلت حقًّا؟ وفي كل مرة كنت أجدني غير قادرة على فعل ذلك، وكنتُ أبتلع غضبي، وأقول لنفسي إن الأمر سوف يكون مختلفًا المرة المقبلة.

لذلك أعترف، عندما قابلتِك، واكتشفتُ أن السيدة إلينكورت وظفت فتاة شابة جميلة أخرى، غاص قلبي. لأنني كنتُ أعرف ما الذي سيفعله، وبصرف النظر عن أي نوع من الفتيات كنتِ، سواء كنتِ واحدة تسعى للاستفادة القصوى من الفرص المتاحة لكِ، مثل هولي، أو واحدة تنكمش خوفًا منه، كنت أعلم أنه في كلتا الحالتين، سيكون أولئك الأطفال المساكين هم من يعانون عندما ترحلين فجأة من دون إنذار، وربما تصطحبينه معكِ هذه المرة. وجعلني ذلك غاضبة للغاية. أجل، لقد فعل. لا أخجل من قول ذلك. لكنني أشعر بالخجل من طريقة معاملتي لك. لم يكن من الواجب عليَّ أن أصب غضبي عليك على هذا النحو. وأشعر بالأسف من قلبي، عندما أستعيد بعض الأشياء التي قلتها لك. لأنه بصرف النظر عما تقوله الشرطة، فأنا أعلم أنك ستخوضين الجحيم، قبل أن تَقدمي على إيذاء واحدة من هؤلاء الفتيات الصغيرات. وقد قلتُ هذا للضابط الذي استجوبني، وأردتكِ أن تعرفي ذلك. قلت: «أنا لا أحب تلك الفتاة، ولم أخفِ الأمر، لكنها لم تكن لتؤذي الصغيرة مادي، وأنتَ تلاحق الشخص الخاطئ، أيها الشاب».

لذا، على أي حال، هذا هو السبب جزئيًّا في قيامي بالكتابة لكِ. كي أقول لكِ ذلك، وأزيحه عن صدري.

لكن السبب الآخر هو أن إيلي كتبتْ لكِ رسالة. وضعتْها في ظرف وأغلقتْه،

قبل أن تعطيني إياها، وجعلتني أقطع وعداً بألا أقرأها، وقلتُ إنني لن أفعل. لقد أوفيتُ بذلك الوعد، لأنني أؤمن أنه يجب على المرء الوفاء بوعوده، حتى للأطفال. لكن عليَّ أن أطلب منكِ، إذا كان هناك أي شيء في تلك الرسالة تظنين أنني يجب أن أعرفه، أو أي شيء تظنين أن والدتها يجب أن تعرفه، فيجب أن تخبرينا.

لا جدوى من إرسال الخطابات إلى المنزل، لأنه مغلق، والرب يعلم أن السيدة إلينكورت لديها ما يكفيها لتقلق بشأنه، السيدة المسكينة. لقد تركتْ زوجها، هل أخبرتكِ الشرطة بذلك؟ أخذتِ الأطفال، وعادت إلى أسرتها في الجنوب. وقد انتقل السيد إلينكورت بعيداً هو الآخر. هناك دعوى من نوع ما مرفوعة ضده، متعلقة بإحدى المتدربات في شركته، أو هذا ما يقال في القرية. وتقول الشائعات إنه سيتعين بيع المنزل، لدفع تكلفة المصاريف القانونية.

لكنني سأضع عنواني في نهاية هذه الرسالة، وأطلب منكِ إذا كانت لديكِ أي مخاوف، أن تراسليني هناك، وسأفعل كل ما يلزم فعله. لديَّ إيمان أنكِ ستفعلين ذلك، لأنني مقتنعة أنكِ أحببتِ هؤلاء الأطفال، كما أحببتهم أنا وما زلتُ أحبهم. لا أصدق أنك ستدعين إيلي تتعرض لأي أذى، أليس كذلك؟ لقد صليتُ للرب، وحاولتُ الاستماع إلى جوابه، وأنا أثق بكِ في هذا الأمر، يا رايتشيل. أدعو ألا تخذليني.

المخلصة لكِ،

جين ماكنزي

١٥ أهاي ستريت،

كارن بريدج.

إلى:

من:

الموضوع:

عزيزه تيروان إلا أنهم قالوا إن اسمك رايتشيل هل هذا صحيح
آفتقدك كثيرا وأنا آسفة جدة جدا لما حدث خاصة لأنه خطئي
بالكامل لكن لا يمكنني إخبار أي شخص خاصة أمي وأبي لأنهما
سيغضبان بشدة وبعد ذلك سيرحل أبي كما حاول من قبل كما
قالت مادي دوما إنه سيفعل
لقد كنت أنا يا روان أنا دفعت مادي لأنها كانت ستجعلك ترحلين
مثل الأخريات لقد جعلت كل الأخريات يرحلن عن طريق القيام
بالحيل من خلال هاتف أمي القديم كانت تأخذ متعلقاتهن وكانت
تدخل من نافذة غرفة العلية أعلى السطح من غرفتك كانت العلية
هي مخبأها السري حيث تذهب دوما لكنها قالت إنني أصغر
من أن أستطيع التسلق للأعلى وجعلت تطبيق هابي يوقظهن ليلا
وأخذت فيديو من يوتيوب وشغلته عبر مكبرات الصوت من خلال
هابي لتجعل الأمر يبدو وكأن هناك أشخاصا يتجولون في غرفة
العلية لكن لم يكن هناك أحد كان مجرد الفيديو وأخذت رأس
الدمية من غرفة العلية وجعلتني أضع رأس الدنيا على حجرك وأنا
آسفة جدا لأنني قلت إن هذا غير صحيح وكنت أنا من فعل ذلك

لقد استيقظت ولم تكوني موجودة وكانت مادي ستسممك بالتوت
لكنني ركضت خلفها وسكبت النبيذ في الحوض وبعد ذلك غضبت
مادي جدة وقالت إنها ستتسلق إلى نافذة غرفة العلية مرة
أخرى وتورطك في مشكلة مع أمي عن طريق إطلاق جميع أجهزة
الإنذار لأنك رحلت وركضت خلفها وطلبت ألا تفعل ذلك وقالت
لا سوف أفعل ذلك وإلا ستأخذ أبي وقلت لا لا تفعلي روان لطيفة
ولا أريدها أن ترحل ولن تفعل ذلك وقالت مادهي سأقوم بذلك
ولا يمكنك أنت من عيني وتسلقت ودفعتها لم أقصد حدوس ذلك
وأنا آسفة جدا

أرجوك أرجوك آرجوك لا تخبري الشرطة يا روان لا أريد الذهاب
إلى السجن وأنا آسفة للغاية لكن ليس من العدل بالنسبة إليك
أن يتم توبيخك على شيء فعلته أنا لذا يمكنك أن تقولي فقط إنه
لم تكن أنت وإنك تعرفين من قام بذلك لكن لا يمكنك الإفصاح
عمن يكون لأنه سر لكنها لم تكن أنت

سنرحل غدا إلى منزل جديد لا يمكن لأبي أن يأتي الآن لكن أتمنى
أن تتمكني أنت من ذلك أحبك أرجوك عودي قريبا مع محبتي إيلي
الانكورت السن خمس سنوات وداعا



شكر

شكرًا جزيلًا للفريق الدؤوب من المحررين، ومسؤولي الدعاية، والمسوقين، والمصممين، ومندوبي المبيعات، والمسؤولين عن الحقوق، ومحرري الإنتاج، وكل من يعمل خلف الكواليس. إن السبب وراء كون الكتاب الذي تحملونه بين أيديكم جميلًا ومقروءًا وموجودًا من الأساس يرجع إلى جهودهم إلى حد كبير.

إلى أليسون، وليز، وجايد، وسارة، وجين، وبريتا، ونور، وميجان، وبيثا، وكاثرين، ونيتا، وكيفين، وريتشارد، وفاي، ورايتشيل، وصوفي، وماكنزي، وكريستيان، وكلوي، وأنابيل، وآبي، وميكايلا، وتوم، وسارة، ومونيك، وجين، وجينيفر، وتشيلسي، وكاثي، وكارولين، والجميع في «سايمون وشوستر»، و«بينجوين راندوم هاوس»، خالص شكري.

شكرًا أيضًا لماسون، وسوزي، وستيفاني، لكونهم أفضل القراء.

إلى إيف ولودو، النينجا الحماة، شكرًا لدعمكما الدائم لي.

إلى أصدقائي الرائعين من الكُتَّاب ـ عبر الإنترنت وخارجه ـ أشكركم لأنكم ساعدتموني في الحفاظ على عقلي وعلى حس الدعابة.

وبالطبع، إلى عائلتي، شكرًا لوجودكم، ولأنكم لم تجعلوني أعيش في منزل ذكي.

المؤلفة

روث وير من الكُتاب العالميين الأكثر مبيعًا. تتصدر رواياتها التي تتسم بالإثارة قوائم الكتب الأكثر مبيعًا حول العالم، بما في ذلك قوائم «الصنداي تايمز» و«النيويورك تايمز»، ونُشرت كتبها بأكثر من أربعين لغة.

نشأت في ساسكس، على ساحل إنجلترا الجنوبي. بعد تخرجها في جامعة مانشستر، انتقلت إلى باريس، ثم لندن. عملت نادلة، وبائعة كتب، ومُدرسة للُّغة الإنجليزية كلغة أجنبية، ومستشارة إعلامية، قبل أن تتفرغ للكتابة. تعيش روث وير الآن مع أسرتها في ساسكس.

يطلقون عليها في الصحافة لقب «أجاثا كريستي جيلنا».

المترجمة

إيناس التركي مترجمة مصرية، من مواليد القاهرة ١٩٧٣. تخرجت في قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب، جامعة عين شمس.

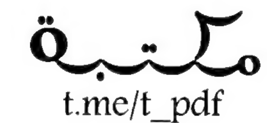
من ترجماتها: رواية «مون تايجر» للبريطانية بينيلوبي لايفلي، ورواية «الحارس الأخير للقاهرة القديمة» للأمريكي مايكل ديفيد لوكاس، ورواية «الشرطي الثالث» للأيرلندي فلان أوبراين.

ترجمات الكرمة

١. صونيتشكا – لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.
٢. سالباتييرًا – بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.
٣. أصوات المساء – نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤. النورس جوناثان ليفنجستون – ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٥. جاتسبي العظيم – ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.
٦. الاعتداء – هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٧. صباح ومساء – يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٨. الإوزَّة البريَّة – أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٩. عشيق الليدي تشاترلي – د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.
١٠. الوعد – فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
١١. طيف ألكسندر ولف – جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.
١٢. رسائل إلى شاعر شاب – راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
١٣. قلب الظلمات – جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.

١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.
١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.
١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دوهاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.
١٨. الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.
١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.
٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٢١. مليون نافذة - جيرالد مُرْنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٢٢. البحيرة السوداء - هيلا هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٢٣. حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان - سيليسْت إنْج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٢٥. مذكرات شرلوك هولمز - آرثر كونان دويل. ترجمها عن الإنجليزية: أمين سلامة.
٢٦. كتاب المقبرة - نيل جايمان. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٢٧. نحن نعرف ما سيأتي - كريستا فولف. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
٢٨. ظلام مرئي: مذكرات الجنون - وليام ستايرون. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.

٢٩. المنزل الريفي (هواردز إند) - إ. م. فورستر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
٣٠. اعتراف - ليف تولستوي. ترجمها عن الروسية: الأرشمندريت أنطونيوس بشير.
٣١. جسور مقاطعة ماديسون - روبرت جيمس والر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٣٢. الحرب والتربنتين - ستيفان هيرتمانس. ترجمتها عن الهولندية الفلامندية: أمينة عابد.
٣٣. سولاريس - ستانيسواف لَم. ترجمها عن البولندية: هاتف جنابي.
٣٤. الاعتذار - إيف إنسلر. ترجمته عن الإنجليزية: سها السباعي.
٣٥. شخص نعرفه - شاري لابينا. ترجمتها عن الإنجليزية: منى عبد الغني.
٣٦. خلف هذه الأبواب - روث وير. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٣٧. احتضان - كلير كيجن. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.
٣٨. اترك العالم خلفك - رمان عَلم. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.



«روث وير هي ملكة التشويق»

- «كيركوس رفيوز»

كانت تبحث عن شيء آخر تمامًا، عندما عثرت على الإعلان مصادفةً، لكنها بدت فرصة لا يمكن أن تفوتها: وظيفة مربّية مقيمة، براتب مغر إلى حدٍّ مذهل. وعند وصولها انبهرت بالمنزل الفاخر والعريق والمجهَّز بوسائل الراحة الحديثة كافة، ووقعت في غرام المرتفعات الاسكتلندية الفاتنة، وأحبت هذه الأسرة المثالية.

ما لم تتخيله هو أنها تلج داخل كابوس، سينتهي بطفلة مقتولة، وبها في زنزانة منتظرةً محاكمة بتهمة القتل.

تدرك أنها ارتكبت أخطاء، لكنها مُصرَّة على أنها ليست مذنبة. على الأقل، ليست مذنبة بارتكاب جريمة القتل. ما يعني أن هناك شخصًا آخر مذنبًا.

«خلف هذه الأبواب» رواية تحبس الأنفاس، ومليئة بالتوتر، بقلم «أجاثا كريستي جيلنا»، وترجمتها إيناس التركي إلى العربية بأمانة وسلاسة مبهرتين.

««خلف هذه الأبواب» رواية تشويق وإثارة مخيفة، مبنية ببراعة. زُرعت الأدلة خلال الرواية مثل النباتات السامة التي لا تتعرف عليها إلا بعد فوات الأوان بوقت طويل. لا تثق بأحد في هذه الرواية، باستثناء روث وير. لقد أتت بحكاية أسرة تمامًا، مرة أخرى»

- جين كيسي، مؤلفة «الحرق»



